تزكية وتوصية

لفضيلة الشيخ / عبد الله بن عبد الرحمن البَّسام

عضو هيئة كبار العلماء بالمملكة العربية السعودية

ورئيس محمكة التمييز بمكة المكرمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله ـ ﷺ ـ

أما بعد:

فبخصوص هذه الكُتب والرسائل من تأليف فضيلة الشيخ / سيد سعيد عبدالغني؛ فهي مفيدة، نافعة، ومقيدة على طريقة السلف الصالح ـ رحمهم الله ـ في منهجها .

ولذا فإننا ننصح باقتنائها وقراءتها، كما نُرَغِّب أصحاب الإحسان بشراء كمية منها لتوزيعها على طلاب العلم ، فهذا من الدعوة إلى الله.

والله الموفِّق،،

عبد الله بن عبد الرحمن البَّسام

عضو مجلس كبار العلماء

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله.

أما بعد فنظرت هذه الكتب والرسائل من

تأليف فضيلة الشيخ سعيد عبد الغني.

فهي مفيدة نافعة ومفيدة وعلى طريقة السلف الصالح

منهجاً ولذا فإننا ننصح باقتنائها وقراءتها

كما نرغب أصحاب الإحسان بشراء كمية منها

لتوزيعها على طلاب العلم وهذا من الدعوة إلى الله

والله المرشد.

عبد الله بن عبد الرحمن الجبرين

عضو مجلس كبار العلماء

مُقَدِّمَةٌ

فضيلة الشيخ الدكتور / سعيد بن مسفر القحطاني

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، وبعد فإن أصل الأصول ، وأوجب الواجبات، هو معرفة الله تعالى والإيمان به سبحانه، وهذه المعرفة لا تتم إلاَّ بمعرفة أسمائه وصفاته والإقرار بها. والتي بيَّنها الله عزَّ وجلَّ في كتابه الكريم وبيَّنها رسوله ﷺ في سُنته.

والحديث عن الأسماء والصفات يتَّسم دائمًا بالحساسية والخطورة ، خصوصًا إذا لم يوفَّق المتحدِّث عنها إلى منهج أهل السُّنة والجماعة والذين سلكوا في هذه القضية وفي جميع المسائل الاعتقادية مسلك الحق حين اعتمدوا في استدلالاتهم على جميع القضايا على صريح الكتاب الكريم وصحيح السُّنة المطهَّرة .

فصانهم الله وحفظهم من الزيغ والضلال الذي وقع فيه أهل الأهواء والعقائد المنحرفة من الأشاعرة ، والمعتزلة ، والفلاسفة، والذين خاضوا في علم الكلام حتى ضلُّوا وأضلُّوا ووصل بعضهم في النهاية إلى إدراك ما هم عليه من الضلال فأعلنوها صريحة كما قال الفخر الرازي : ((لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأَيْتُها تشفي عليلا، ولا تروي غليلا، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن، اقرأ في الإثبات : ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ وقوله تعالى : ﴿ إليه يصعد الكلم الطيب ﴾ واقرأ في النفي ﴿ ليس كمثله شيء ﴾ وقوله تعالى ﴿ ولا يحيطون به علما ﴾ ومن جرَّب مثل تجربيتي عرف مثل معرفتي))[1] .

---

(١) فتاوى ابن بن تيمية (٥ / ١١) .

وكما وصف أحدهم حالته وحالة أمثاله من المتكلمين في قوله :

لعمري لقد طفت المعاهد كلها وسيَّرت طرفي بين تلك المعالم
فلم أر إلاَّ واضعـا كف حائـر على ذقـن أو قارعـا سن نـادم

وكما أقرُّوا على أنفسهم بما وصلوا إليه فقال أحدهم :

نهايــة إقــدام العقــول عقــال وأكثر سعي العالمين ضــلال
وأرواحنا في وحشة في جسومنــا وحاصل دنيانا أذى ووبـــال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا سوى أن جمعنا فيه قيل وقال

ومن هنا يتقرَّر وباعتراف رؤساء القوم أن منهج السلف أعلم وأعدل وأسلم، لأنهم خير القرون وأفضل الأُمَّة، وهذا ما قرَّره شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه‌الله حيث يقول : « إن خير قرون هذه الأمة في الأعمال والأقوال والاعتقاد وغيرها من كل فضيلة من علم وإيمان وعقل ودين وبيان وعبادة وأنهم أولى بالبيان كل مشكل هذالا يدفعه إلامكابر »[١] .

وممَّن وفَّقه الله إلى سلك طريق السلف وانتهاج منهجهم فضيلة الشيخ / سيد سعيد السيد عبد الغني .

ومن مؤلفاته القيِّمة سلسلته المباركة بعنوان (التعبُّد لله بأسمائه وصفاته) فبيَّن كيفية التعبُّد لله تعالى بأسمائه وصفاته تعبداً عملياً، كما بيَّن أيضًا أثر هذا التعبُّد في حياة المسلم وعلاقته مع ربه ومع كل مَنْ حوله .

---

(١) فتاوى ابن تيمية (٤ / ١٥٧) .

وحثَّ في هذه السلسلة على وجوب التمسُّك بالأُسس التي أعتمد عليها السلف في الأسماء والصفات وهي:

١ - الإيمان بجميع الأسماء والصفات التي وردت بها نصوص القرآن والسُّنَّة الصحيحة .

٢ - تنزيه الله سبحانه وتعالى عمَّا لا يليق بكماله وجلاله سبحانه، وتنزيهه عن أن يشبه شيء من صفاته صفات المخلوق .

٣ - قطع النظر عن إدراك الكيفية التي اتَّصف الله بها بتلك الصفات لأن الصفة فرع عن الذات وما دام أن ذات البارئ سبحانه لا يمكن تكييفها فكذلك صفاته - عزَّ وجلَّ - .

وإني لأرجو الله أن يجزيه على جهده المبارك خير الجزاء ، وأن ينفع بهذه السلسلة طلبة العلم وطالبي الحق إنه سميع مجيب وصلى الله على نبينا محمد وصحبه وسلم .

كتبه /

د / سعيد مسفر القحطاني

دكتوراة في العقيدة

من جامعة أم القرى



إخلاص العبودية للعزيز الحكيم



المقدمة

وتحتوي على ثلاثة أشياء

١ ـ أهمية التعبُّد لله تعالى بأسمائه وصفاته

٢ ـ سبب اختيار الموضوع

٣ ـ خطة البحث



مُقَدِّمَة

إن الحمد لله ، نحمده ، ونستعينه ، ونستغفره ، ونستهديه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، إنه من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد ألا إله إلاَّ الله وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، يحيي ويميت ، وهو على كل شيء قدير ، له الأسماء الحسنى والصفات العليا ، ليس كمثله شيء ، ولا يُشْرِك في ملكه ولا في حكمه أحداً ، وهو صاحب العزة الكاملة المطلقة ، وصاحب الحكمة التامة البالغة ، وهو (العزيز الحكيم) .

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله - ﷺ - بلَّغ الرسالة ، وأدَّى الأمانة ، ونصح الأمة ، وكشف الله به الغمة ، ومحا به الظلمة ، وتركنا عن المحجة البيضاء ، ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلاَّ هالك ، وهو خير من تعبَّد لله تعالى بأسمائه الحسنى ، وصفاته العليا ، فجزاه الله عنا خير الجزاء ، خير ما جزى به نبياً عن قومه ، ورسولاً عن أمته .

أما بعد:

فهذه مقدمة لكتابي (إخلاص العبودية للعزيز الحكيم) ضمن سلسلة التعبُّد لله - تعالى - بأسمائه الحسنى ، وصفاته العليا ، وأُشير فيها - بمشيئة الله تعالى - إلى ثلاثة أمور :

أولاً : (أهمية التعبُّد لله - تعالى - بأسمائه وصفاته) :

إن من أعظم ما يهتم به العبد المسلم في تعبُّده لله - تعالى - ما يخصُّ توحيده، وما يتعلَّق بعقيدته ، ومن أهم ما يتعلَّق بعقيدة المسلم أن يتعرَّف على

إلاهه وخالقه بأسمائه وصفاته ، وذلك من أجل أن يتعرَّف على مدى عظمة وجلالة هذا المعبود ، ومن ثمَّ يعبده حق عبادته ، كما أمر ـ جلَّ في علاه ـ ، وكما أرشد سيد الأنام محمد بن عبد الله ـ ﷺ ـ فيجب على العبد المسلم التعرُّف على خالقه ومولاه حق التعرُّف ، والوقوف على أسمائه الحسنى ، وصفاته العليا ، لكي يتسنَّى له التعبُّد بهذه الأسماء الحسنى ، وتلك الصفات العليا .

ـ فإن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ يحب أن يُعْبد بأسمائه وصفاته ، وأن يتعبَّده عباده بهذه الأسماء الحسنى وما تحمله من صفات عليا ، وما تتضمنه من معانٍ حميدة وما تقتضيه من عبادات .

قال تعالى : ﴿ **ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون** ﴾[١] .

قال الإمام القرطبي ـ رحمه الله ـ :

((قوله تعالى : ﴿ **فادعوه بها** ﴾ أي اطلبوا منه بأسمائه ، فَيُطْلب بكل اسم ما يليق به ، تقول : يا رحيم ارحمني ، يا حكيم احكم لي ، يا رازق ارزقني ، يا هادي اهدني يا فتَّاح افتح لي ، يا رب تُبْ عليَّ ، هكذا .

فإذا دعوت باسم عام قلت يا مالك ارحمني يا عزيز احكم لي ، يا لطيف ارزقنا . وإن دعوت بالأعمِّ الأعظم فقلت يا الله ، فهو متضمن لكل اسم .

قال ابن العربي ـ رحمه الله ـ : وهكذا رتِّبْ دعاءك تكن من المخلصين))[٢] .

---

(١) الأعراف (١٨٠) .

(٢) تفسير القرطبي لسورة الأعراف آية (١٨٠) المجلد الرابع (ج ٧ / ٢٠٧ : ٢٠٨) .

وقال العلامة ابن القيم موضحاً كيفية التعبد :

والأسماء الحسنى والصفات العلا مقتضية لأثارها من العبودية والأمر اقتضاءها لأثارها من الخلق والتكوين (فلكل صفة عبودية خاصة) هي من واجباتها ومقتضياتها ، أعني من موجبات العلم بها والتحقق بمعرفتها ، وهذا مطرد في جميع أنواع العبودية التي على القلب والجوارح .

فعلْمُ العبد بتفرُّد الرب تعالى (بالضر ، والنفع ، والعطاء ، والخلق ، والرزق ، والإحياء ، والإماتة) يُثْمر له عبودية التوكل باطنا ، ولوازم التوكل وثمراته ظاهرا.

وعلمه بـ[سمعه ، وبصره ، وعلمه ، وأنه لا يخفي عليه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض ، وأنه يعلم السر وأخفى ، ويعلم خائنة الأعين وما تُخْفى الصدور] ، فيثمر له حفظ لسانه ، وجوارحه ، وخطرات قلبه عن كل مالا يُرْضي الله ، وأن يجعل تعلُّق هذه الأعضاء بما يحبه الله ويرضاه ، فيُثْمر له ذلك الحياء باطنا ، ويُثْمر له الحياء اجتناب المحرمات والقبائح .

ومعرفته [بغناه، وجوده، وكرمه، وبرِّه، وإحسانه، ورحمته] توجب له سعة الرجاء، وتثمر له ذلك من أنواع العبودية الظاهرة والباطنة بحسب معرفته وعلمه .

وكذلك معرفته [بجلال الله ، وعظمته، وعزه]، تُثْمر له الخضوع ، والإستكانة ، والمحبة ، وتثمر له ذلك الأحوال الباطنة أنواعاً من العبودية الظاهرة هي موجباتها .

وكذلك علمه [بكماله وجماله ، وصفاته العُلى] يوجب له محبة خاصة بمنزلة أنواع العبودية ، فرجعت العبودية كلها إلى مقتضى الأسماء والصفات وارتبطت بها ارتباط الخلق بها »[1] .

---

(١) (مفتاح دار السعادة) للعلامة ابن القيم (٢ / ٤٤٢ : ٤٤٣) .

ولـمّـا كان علم الأسـماء والصـفات أسـمى وأشرف العلوم، ويتـعلّق بأعظم ذات، وهي الذات الإلهـية المقدّسـة ، فإن الاشـتغال بـهذا العلم والتـعرّف على الله تعـالى بأسمـائه الحسنى وصـفاته العليـا من أعظم أنواع الاشـتغال ، وأكـمل أنواع العبودية لله تعالى ، وأظهر وأرقى مراتب الحب لهذا الإله العظيم المتسمّى بالأسماء الحسنى ، والمتّصف بكل صفات الكمـال والعظمة والإجلال ، فياله من شرف أن يشتغل العبد بمعرفة ربه وإلهه ، ويُعرّف الناس بربهم وخالقهم .

قال العلامة بن القيم ـ رحمه الله ـ :

فـشـتان بين من يـتلقّى أحوالـه وارداته عن الأسمـاء والصـفـات ، وبين من يتلقـاها عن الأوضـاع الإصطلاحـية والرسـوم ، أو عن مـجـرد ذوقه ووجـده ، إذا استحسن شيئاً قال : هذا هو الحق .

فالسّير إلى الله من طريق الأسماء والصـفات شأنه عجب ، وفتـحه عجب ، وصاحبه قد سيقت له السعـادة وهو مستلقٍ على فراشه غير تعبٍ ولا مكدودٍ ، ولا مُضَتَّت عن وطنه ولا مُشَرَّد عن سكنه .. »[1] .

ويجب على المسلم الذي يؤمن بأسـماء الله الحسنى وصفـاته العليا أن يكون على منهـج النبي ـ ﷺ ـ وصحـبه الكرام في كـيفيـة الإيمان بهذه الأسـماء وبتلك الصفات فلا يحيد قيد أُنْمله عن منهج أهل السنة والجـماعـة ، ـ ولا أقل من ذلك ـ فهم ـ بـفضل الله ومِنّتـه ـ الفرقة الـناجية ، وهم الـطائفة المنصـورة ، فهم أصـحاب العقيدة الوسطـية بين طرفين نقيضين ضالين ، فهم يُثْبيتون لله تعالى ما أثبـته لنفسه

---

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين ص (٣٩٢) .

وما أثبته له رسوله ـ ﷺ ـ بدون تمثيل ولا تعطيل ولا تأويل ولا تحريف . فلقد أثبتوا الصفات ولم يُشبِّهوا الله بمخلوقاته ، ونفوا التشبيه ولم يُعطِّلوا الله من صفاته ـ جلَّ في علاه ـ فَسَلِمُوا بفضل الله من التشبيه والتعطيل ، وأثبتـو لله تعالى ما أثبته لنفسه وما أثبته له رسوله ـ ﷺ ـ على مراد الله .

ثانياً : أسباب اختيار الموضوع :

إن التعبُّد لله ـ تعالى ـ بأسمائه الحسنى ، وصفاته العليا ، من أجلِّ ما يتقرَّب به العبد إلى إلاهه وخالقه ومولاه ، ومن أسمائه الحسنى [العزيز الحكيم] ، ومن صفاته الحميدة [العزة والحكمة] ، وإن المتأمل في كتاب الله تعالى ، وفي سنة رسوله ـ ﷺ ـ يجد عبادات كثيرة لله تعالى مرتبطة بهذين الاسمين الحسنيين، وهاتين الصفتين الحميدتين ، ومن هذه العبادات التي يلحظها العبد المتعبِّد لربه وخالقه ومولاه صاحب العزة الكاملة المطلقة ، وصاحب الحكمة التامة البالغة ، ما يلي :

١ ـ إفراد العزيز الحكيم بالعبودية .

٢ ـ تحكيم العزيز الحكيم والتحاكم إليه .

٣ ـ الحذر من بطش وانتقام العزيز الحكيم .

٤ ـ إدراك حكمة وقدرة العزيز الحكيم في الخلق والبعث .

٥ ـ طلب الهداية والرحمة والمغفرة من العزيز الحكيم .

وكان اختيار هذه العبادات من بين أنواع العبادات الكثيرة التي يحفل بها كتاب الله تعالى ، وسنة نبيه ـ ﷺ ـ وذلك لشدة حاجة المسلم لهذه العبادات

خاصة في هذا العصر - القرن الخامس عشر الهجري - الذي يتعرَّض فيه المسلم للحرب الشعواء من أعداء الدين الذين يشكِّكون المسلم في ثوابت دينه ، ويحاولون ذبذبت الإيمان في قلبه ،وفصله عن دينه ، وإضلاله ، وإغراقه في حبائلهم الشيطانية، حتى يُخْرِجُوه من دينه وهو يَحْسب أنه يحسن صنعاً ، وذلك تحت أسماء ومسمَّيات متنوعة وبرَّاقة .

فمِنْ هنا جاءت أهمية هذه الموضوعات ، وقيمة هذه العبادات لكي يحافظ المسلم على عقيدته، ويتمسك بثوابت دينه، وينجو من شباك وحبائل كل مُغْرض ، ويُخْلص دينه وعبادته ، لله تعالى - جلَّ في علاه - من إفراده وحده بالعبودية ، وتحكيمه في كل شؤون حياته والتحاكم إليه وإلى رسوله - ﷺ - عند الخصومات والتنازعات ، مع مراقبته - جلَّ في علاه - والخوف منه ، والحذر من بطشه وانتقامه، فتكون العبادة صحيحة وخالصة من الشرك والرياء ، مع إدراك العبد الحكمة من خلق الله له في هذه الحياة ، وهي عبادته سبحانه وتعالى وحده لا شريك له، والعمل لما بعد الموت من البعث والحساب والثواب والعقاب ، لكي يفوز برضا الله تعالى وجنات عرضها كعرض السماوات والأرض ، ويدفعه ذلك كله إلى التوبة ، وطلب الهداية من العزيز الحكيم ، والطمع في رحمة ومغفرة صاحب العزة والحكمة الذي يملك بعزته ووفق حكمته التوبة والرحمة والمغفرة ، فيسعد العبد بتلك العبادة ، ويكون هذا التعبُّد سبباً في سعادته في الدنيا ، وفوزه بالجنة ورضا ربه ومولاه في الآخرة فنعم أجر العاملين ، ومن هنا أخي المسلم الكريم كان سبب اختيار الموضوع وأهميته .

ثالثاً: « خطة البحث » :

يتكون البحث من [مقدمة - تمهيد - خمسة فصول - خاتمة - فهرس]

[أولاً] المقدمة : وتحتوي على :

١ - أهمية التعبُّد لله تعالى - بأسمائه وصفاته - .

٢ - سبب اختيار الموضوع .

٣ - خطة البحث .

[ثانياً] : التمهيد : ويحتوي على :

١ - تعريف اسمي العزيز الحكيم لغة وشرعاً .

٢ - أدلة ثبوت اسمي [العزيز الحكيم] وصفتي [العزة والحكمة] من القرآن والسُّنَّة .

٣ - عقيدة أهل السنة والجماعة في الأسماء والصفات ، وأقوال أئمة السلف - رحمهم الله - .

[ثالثاً] : الفصل الأول : [إفراد العزيز الحكيم بالعبودية] .

المبحث الأول : تنزيه العزيز الحكيم عن الشريك والمِثْل والشَّبه .

المطلب الأول : (تنزيه العزيز الحكيم عن الشريك)

المطلب الثاني : (تنزيه العزيز الحكيم عن المِثْل والشَّبه)

المبحث الثاني : تعبيد العباد للعزيز الحكيم .

المطلب الأول : (نبي الله موسى - ﷺ - يُعَبِّد العباد للعزيز الحكيم)

المطلب الثاني : (نبي الله عيسى - ﷺ - يدعو لعبادة العزيز الحكيم)

المطلب الثاني : (الملائكة يتعبَّدون للعزيز الحكيم بطلب المغفرة للمؤمنين)

المطلب الثالث : (اقتران المغفرة بصفة العزة في القرآن الكريم)

[ثامناً] : (الخاتمة) وتحتوي على :

١ ـ أهم ما توصلت إليه من خلال البحث .

٢ ـ توصياتي من خلال البحث .

[تاسعاً] الفهارس .

هذا ما جرى به القلم ـ بمشيئة الله ـ فإن أصبت فيه فبفضل الله وتوفيقه ، وإن أخطأت فمن نفسي والشيطان ، سائلا المول عزَّ وجلَّ أن يتقبَّل عملي هذا وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم ، وأن يحفظه من الشرك والرياء ، سائله سبحانه وتعالى بأسمائه الحسني وصفاته العليا أن يجعله لي ستراً من النار ، وأن يجعله في ميزان حسناتي يوم ألقاه ، وأن ينفع به إخواني المسلمين ، وأخواتي المسلمات ، في طريق التعبُّد لله تعالى بأسمائه الحسنى ، وصفاته العليا ، وأن يتجاوز عن الخطأ والزَّلل ، والنقص والتقصير ، هو ولي ذلك والقادر عليه .

هذا ، وصلِّ اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعه إلى يوم الدين وسلِّم تسليماً كثيراً .

وكتبه / أبو عبدالرحمن سيد سعيد السيد عبد الغني

من بلد الله الحرام / مكة المكرمة

في ٩ / ٥/ ١٤٢٣هـ



أولاً : تعريف اسمي [العزيز الحكيم] لغة وشرعاً

ثانياً : أدلة ثبوت اسمي [العزيز الحكيم] وصفتي [العزة والحكمة] من القرآن والسُّنَّة

ثالثاً : عقيدة أهل السنة والجماعة في الأسماء والصفات، وأقوال أئمة السلف ـ رحمهم الله ـ

أولاً : معنى العزيز الحكيم لغة وشرعاً

أولاً : [العزيز]

١ - المعنى اللغوي[١] :

العزيز : من صفات الله عزَّ وجلَّ وأسمائه الحسنى .

قال الزَّجَّاج : هو الممتنع فلا يغلبه شئ .

وقال غيره : هو القويُّ الغالب كلَّ شئ .

وقيل : هو الذي ليس كمثله شئ.

ومن أسمائه عزَّ وجلَّ المُعزُّ وهو الذي يهب العِزَّ لمن يشاء من عباده والعزُّ : خلاف الذُّل .

والعزُّ في الأصل : القوة والشدة والغلبة .

والعزُّ والعزَّةُ : الرفعة والإمتناع ، والعـزَّةُ لله وفي التنزيل : ﴿ وَلِلَّهِ الْعِـزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾[٢] أي له العزة والغلبة سبحانه .

وفي التنزيل العزيز : ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً ﴾[٣] أي من كان يريد بعبادته غير الله فإنما له العزة في الدنيا ، ولله العزة جميعاً أي يجمعها في الدنيا والآخرة بأن ينْصُرَ في الدنيا ويُغَلِّبُ .

---

(١) انظر لسان العرب لابن منظور مادة : عزز (٥/٢٩٢٥ : ٢٩٢٨) .

(٢) المنافقون آية (٨) .

(٣) فاطر آية (١٠) .

وعزَّ يعزُّ : عِزّاً وعِزَّةً وعَزَازَةً ، ورجلٌ عزيزٌ من قومٍ أعِزَّةٍ وأعزَّاء وعِزاز .

قال الشاعر :

بيض الوجوه كريمةٌ أحسابُهُم   في كلِّ نائبة عزازُ الأنفِ

ورجلٌ عزيزٌ : منيع لا يُغلَبُ ولا يُقْهرَ .

والعزّةُ : الشدة والقوة

ويقال : عَزَّ يعَزُّ بالفتح ، إذا اشتد .

وعَـزَزْتُ القُـومَ أعْـزَزْتُهُم وعَـزَّزتُهم : قَـوَّيْتـهم وشَـدَّدْتُهُم وفي التنزيل ﴿ فعَزَّزْنَا بثالث ﴾(١) أي قوَّينا وشدَّدنا .

٢ ـ المعنى الشرعي :

[العزيز] :

قال الإمام الطبري ـ رحمه الله ـ :

« العزيز» « لا يقهره شئ ، ولا يغلبه غالب ، بل يَقْهُر كلَّ شي ويغلبه ، ولأنه خلقه »(٢) .

وقال الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله ـ :

« العزيز » « أي هو ذو العزة التي لا ترام »(٣) .

---

(١) يس آية (١٤) .

(٢) تفسير الطبري لسورة الأنفال آية (١٠) (٤ /١٥) .

(٣) تفسيرابن كثير لسورة آل عمران آية (١٢٦) (١/٣٨٠) .

وقال أيضاً ـ رحمه الله ـ :

« العزيز » « أي منيع الجناب »[١]

وقال أيضاً ـ رحمه الله ـ :

« « **العزيز** » أي الذي قد خضع له كل شئ »[٢] .

وقال الإمام أبو سليمان الخطابي ـ رحمه الله ـ :

« **العزيز** : هو المنيع الذي لا يُغْلب » .

والعزُّ : قد يكون بمعنى (الغلبة) ، يقال منه : عزَّ يعُز بضم العين من يعز .

وقد يكون بمعنى (الشدة والقوة) ، ويقال منه : عزَّ يعَز بفتح العين .

وقد يكون بمعنى (نفاسة القدر) ، ويقال منه عزَّ الشئ يعِز بكسر العين .

فيتناول معنى العزيز على هذا أنه لا يعادله شئ : وأنه لا مثل له ، والله أعلم »[٣] .

وقال الإمام البيهقي ـ رحمه الله ـ :

« **قلت** : العزَّة إن كانت بمعنى (الشدة) ، وهي القوة فمعناها يرجع إلى صفة القدرة .

وكذلك إن كانت بمعنى (الغلبة) ، فمعناها يعود إلى القدرة .

---

(١) تفسير ابن كثير لسورة الحشر آية (١) (٣١٩/٤) .

(٢) تفسير ابن كثير لسورة الحديد آية (١) (٤ / ٢٩٢) .

(٣) (الأسماء والصفات) للإمام اليهقي(٢ / ٣٩٥) .

وإن كانت بمعنى (نفاسة القدر) فإنها ترجع إلى استحقاق الذات تلك العزة »[١].

وقال الإمام ابن بطال ـ رحمه الله ـ :

« العزيز » يتضمَّن العزة ، والعزة يحتمل أن تكون صفة ذات بمعنى القدرة والعظمة .

وأن تكون صفة فعل بمعنى القهر لمخلوقاته، والغلبة بهم ، ولذلك صحت إضافة اسمه إليها »[٢] .

وبوَّب الإمام البخاري ـ رحمه الله ـ : باباً في كتاب التوحيد ـ في صحيحه ـ وسمَّاه : [باب ـ قول الله تعالى ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ـ سُبْحَانَ رَبِك رَبّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ـ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ ﴾ .

قال الحافظ ابن حجر ـ رحمه الله ـ :

« والذي يظهر أن مراد البخاري بالترجمة إثبات العزة لله رداً على من قال إنه العزيز بلا عزة، كما قالوا: العليم بلا علم ثم ذكر في الباب خمسة أحاديث »[٣].

---

(١) (الأسماء والصفات) للإمام البيهقي (١ / ٢٢٢) .

(٢) (فتح الباري شرح صحيح البخاري) للحافظ ابن حجر العسقلاني (١٣ / ٣٨١) .

(٣) (فتح الباري شرح صحيح البخاري) للحافظ ابن حجر العسقلاني (٣ / ٣٨٢) .

ثانياً : [الحكيم] :

١ ـ المعنى اللغوي :[1]

الحَكَمُ : الله سبحانه وتعالى أحكم الحاكمين ، وهو الحكيم له الحكم ، سبحانه وتعالى .

قال الليث : الحكم لله .

قال الأزهري : من صفات الله الحَكَمُ والحكيم ، ومعاني هذه الأسماء متقاربة ، والله أعلم بما أراد بها ، وعلينا الإيمان بأنها من أسمائه .

قال ابن الأثير : في أسماء الله تعالى الحَكَم والحَكيمُ وهما بمعنى الحاكم ، وهو القاضي ،فهو فَعيلٌ بمعنى فاَعِلٍ ، أو هو الذي يُحْكِمُ الأشياء ويُتْقنها فهو فَعِيلٌ بمعنى مُفْعِلٍ.

وقيل : الحكيم ذو الحكمة، والحكمة عبارة عن معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم ويقال لمن يحسن دقائق الصناعات ويُتْقنها : حكيم .

الحكيم : يجوز أن يكون بمعنى الحاكم مثل قدير بمعنى قادر ، وعليم بمعنى عالم .

قال الجوهري : الحُكْمُ : الحكمة من العالم ، الحكيم العالم وصاحب الحكمة . وقال النَّمِرُ بن تولب :

---

(١) انظر لسان العرب مادة حَكَمَ (٢ / ٩٥١ : ٩٥٤) .

وأَبْغِضْ بَغيضَك بُغْضاً رُوَيْدًا إذا أَنْتَ حَاوِلْتَ أنْ تَحْكُما

والحُكْمُ : العلم والفقه والقضاء بالعدل ، وهو مصدر حَكَمَ يَحْكُمُ .

قال النابغة :

واحْكَمْ كَحُكْم فَتَاة الحَيِّ إِذَا نَظَرتْ إلى حَمامٍ سِراعٍ واردِ الثَّمَدِ

والحْاكِمُ : مُنَفِّذُ الحُكمْ ، والجمع حُكَّام ، وهو الحَكَمُ

وحَكَّموُهُ بينهم : أمروه أن يحكم .

ويقال : حَكَّمنا فلاناً فيما بيننا أي أجزْنا حُكْمَهُ بيننا

حكَّمَهُ في الأمر فاحْتَكَمَ : جازَ فيه حُكْمُهُ

وحاكمنا فلاناً إلى الله : أي دعوناه إلى حكم الله

قال الأزهري : وَحكَمَ الرجل يَحْكُمُ حُكْماً : إذا بَلَغ النهاية في معناه مدحاً لازماً .

٢ ـ المعنى الشرعي :

[الحكيم] :

قال الإمام الطبري ـ رحمه الله ـ :

« دخل » : « حكيم في تدبيره ونَصْرِه مَنْ نَصَرَ ، وخذلانه مَنْ خذل مِنْ خَلْقِه ، لا يدخل تدبيره وهنٌ ولا خلل » [(١)] .

---

(١) تفسير الطبري لسورة الأنفال آية (١٠) (٤ / ١٥) .

وقال الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله ـ :

« الحكيم » : « أي ذو الحكمة في قدره والأحكام »[١] .

وقال أيضاً ـ رحمه الله ـ :

« الحكيم » : « الحكيم في قدره وشرعه »[٢] .

وقال أيضاً ـ رحمه الله ـ :

« الحكيم » : « الحكيم في خلقه وأمره وشرعه »[٣]

وقال الإمام الحليمي ـ رحمه الله ـ :

« الحكيم » : « الذي لا يقول ولا يفعل إلا الصواب ، وإنما ينبغي أن يوصف بذلك لأن أفعاله سديدة ، كما لا يظهر الفعل على وجه الاختيار المتقن السديد إلاَّ من حكيم ، كما لا يظهر الفعل على وجه الاختيار إلا من حي عالم قادر »[٤] .

وقال أبو سليمان الخطابي ـ رحمه الله ـ :

« الحكيم » : « هو المُحْكم لخلق الأشياء ، صُرِفَ عن مفعل إلى فعيل ، ومعنى الإحكام لخلق الأشياء إنما ينصرف إلى إتقان التدبير فيها ، وحسن التقدير لها »[٥] .

---

(١) تفسير ابن كثير لسورة آل عمران آية (١٢٦) (١ / ٣٨٠) .

(٢) تفسير ابن كثير لسورة الحشر آية (١) (٤ /٣١٩) .

(٣) تفسير ابن كثير لسورة الحديد آية (١) (٤ / ٢٩٢) .

(٤) (الأسماء والصفات) للإمام البيهقي(٢ / ٤١٣) .

(٥) (الأسماء والصفات) للإمام البيهقي (١ / ٥٣) .

ثانياً : أدلة ثبوت اسمي (العزيز الحكيم) وصفتي (العزة والحكمة) من القرآن الكريم والسُّنَّة المطهرة :

أولاً : الأدلة من القرآن الكريم :

إن أدلة ثبوت اسمي (العزيز الحكيم) وصفتي (العزة والحكمة) لله تعالى من القرآن الكريم كثيرة جداً نذكر منها ما يأتي :

قال تعالى : ﴿ وَمَا النَّصْرُ إِلا مِنْ عِنْدِ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾[1] .

قال تعالى : ﴿ وَمَا النَّصْرُ إِلا مِنْ عِنْدِ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[2]

قال تعالى : ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾[3]

قال تعالى : ﴿ فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[4]

قال تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللهُ لأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[5]

قال تعالى : ﴿ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[6]

---

(١) آل عمران (١٢٦) .
(٢) الأنفال (١٠) .
(٣) البقرة (١٢٩) .
(٤) البقرة (٢٠٩) .
(٥) البقرة (٢٢٠) .
(٦) البقرة (٢٢٨) .

قال تعالى : ﴿ ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْياً وَاعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[١]

قال تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لا إِلَهُ إلا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾[٢]

قال تعالى : ﴿ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إلا اللهُ وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾[٣]

قال تعالى : ﴿ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللهُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[٤]

ثانياً : الأدلة من السُّنَّة المطهرة :

والأدلة أيضاً من السنة المطهرة على ثبوت اسم (العزيز) ، وصفة (العزة) لله تعالى كثيرة جداً ونذكر منها على سبيل المثال ما يأتي :

عن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يقول : « **اللهم لك أسلمت ، وبك آمنت ، وعليك توكلت ، وإليك أنبت ، وبك خاصمت ، اللهم إني أعوذ بعزتك ، لا إله إلاَّ أنت أن تضلني ، أنت الحي الذي لا يموت ، والجن والإنس يموتون** »[٥] .

وعن مصعب ابن سعد عن أبيه قال : جاء أعرابي إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال علِّمني كلاماً أقوله : قال : « **قل لا إله إلاَّ الله وحده لا شريك له ، والله أكبر كبيراً**

---

(١) البقرة (٢٦٠) .
(٢) آل عمران (٦) .
(٣) آل عمران (٦٢) .
(٤) التوبة (٧١) .
(٥) رواه البخاري كتاب (التوحيد) باب (قول الله تعالى : ﴿ وهو العزيز الحكيم ...﴾. ورواه مسلم كتاب (الذكر والدعاء) باب(التعوذ من شر ما عمل، ومن شر ما لم يعمل). واللفظ لمسلم .

والحمد لله كثيراً سبحان الله رب العالمين ، لا حول ولا قوة إلاَّ بالله العزيز الحكيم » .

قال : فهؤلاء لربي . فما لي ؟

قال : « قل اللهم اغفر لي وارحمني واهدني وارزقني »[١] .

وعند الإمام البخاري ـ رحمه الله ـ : « في حديث الشفاعة الطويل الذي يرويه الصحابي الجليل أنس بن مالك ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ وفيه « ... ثم أعود الرابعة فأحمده بتلك ، ثم أخرُّ له ساجداً، فيقال: يا محمد ارفع رأسك ، وقُلْ يُسْمع، وسَلْ تُعْطَ ، واشفع تُشفَّع ، فأقول : يا رب ائذن لي فيمن قال : لا إله إلاَّ الله ، فيقول : وعزَّتي وجلالي وكبريائي وعظمتي لأخرجن منها من قال : لا إله إلا الله »[٢] .

وفي رواية الإمام مسلم ـ رحمه الله ـ : « ... فأقول : يا رب ائذن لي فيمن قال : لا إله إلا الله قال : ليس ذاك لك ـ أو قال ليس ذاك إليك ـ ولكن وعزَّتي وكبريائي وعظمتي وجِبْريائي لأخرجن من قال : لا إله إلا الله »[٣] .

ــ وعن أبي هريرة ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ : « يبقى رجل بين الجنة والنار، وهو آخر أهل النار دخولاً الجنة فيقول : رب اصرف وجهي عن النار ، لا وعزتك لا أسألك غيرها»[٤].

ـ وعن أنس ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ عن النبي ﷺ : « لا يزال يُلْقى فيها ـ أي النار ـ وتقول هل من مزيد ؟ حتى يضع فيها ربُّ العالمين قدَمَهُ فينْزوي بعضها إلى بعض ثم

---

(١) رواه مسلم وانفر د به كتاب (الذكر والدعاء) باب (فضل التهليل والتسبيح والدعاء) .

(٢) رواه البخاري كتاب (التوحيد) باب (كلام الرب عز وجل يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم) .

(٣) رواه مسلم كتاب (الايمان) باب (حديث الشفاعة) .

(٤) رواه البخاري كتاب (التوحيد) باب (قول الله تعالى : ﴿ وهو العزيز الحكيم ... ﴾ .

تقول: قَدْ قَدْ ، بعزتك وكرمك ، ولا تزال الجنة تفضلُ حتى ينشئ الله لها خلقاً فيسكنهم فضل الجنة »[١] .

(وفي هذا الحديث دليل على اثبات صفة القدم لله رب العالمين على ما يليق بالله وعظمته ،وهذا مذهب أهل السنة والجماعة) .

وقال الحافظ ابن حجر ـ رحمه الله ـ :

« والمراد منه أن النبي ﷺ قال عن جهنم أنها تحلف بعزة الله وأقرَّها على ذلك، فيحصل المراد سواء كانت هي الناطقة حقيقة أم الناطق غيرها كالموكلين بها»[٢].

وعن عثمان بن أبي العاص ـ رضي الله عنه ـ أنه أتى رسول الله ـ ﷺ ـ قال عثمان : وبي وجع قد كاد يهلكني ـ قال : فقال لي النبي ـ ﷺ ـ « **امسحه بيمنيك سبع مرات وقل ؛ أعوذ بعزة الله وقدرته من شرِّ ما أجد** » .

قال: ففعلت ذلك فأذهب الله ما كان بي، فلم أزل آمر به أهلي وغيرهم»[٣].

وفي رواية ابن ماجه ـ رضي الله عنه ـ « **اجعل يدك اليمنى عليه ثم قل : بسم الله أعوذ بعزَّة الله وقدرته من شرِّ ما أجد ، سبع مرات ، ففعلت ذلك فشفاني الله ـ عز وجل** »[٤].

---

(١) رواه البخاري كتاب (التوحيد) باب (قول الله تعالى : ﴿ وهو العزيز الحكيم .... ﴾ .
(٢) (فتح الباري شرح صحيح البخاري) للحافظ ابن حجر العسقلاني (١٣ / ٣٨٢) .
(٣) رواه أبو داود كتاب (الطب) باب (كيف الرقى) .
(٤) رواه ابن ماجه كتاب (الطب) باب (ما عَوَّذ به النبي ﷺ وما عُوِّذ به) .

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال : « ثلاثة لا تردُّ دعوتهم ، الإمام العادل ، والصائم حين يُفْطر ، ودعوة المظلوم تُحْمل على الغمام ، ويفتح لها أبواب السماء ، ويقول الرب عزَّ وجلَّ : وعزَّتي لأنصرنَّ ولو بعد حين »[١] .

ثالثا : (عقيدة أهل السنة والجماعة في الإيمان بالأسماء والصفات ، وأقوال أئمة السلف ـ رحمهم الله ـ)

إن عقيدة أهل السنة والجماعة في أسماء الله تعالى وصفاته ـ هي عقيدة السلف الصالح ـ رحمهم الله ـ فهي العقيدة الحقة في هذا الباب الذي تخبَّط فيه الكثير والكثير ، وزلَّت فيه الأقدام وزاغت فيه الأهواء ، وتعصبت فيه الأقوام ، وأفرط فيه البعض ، وفرَّط فيه البعض الآخر .

إن عقيدة أهل السنة والجماعة وسلفنا الصالح في هذه الأسماء والصفات التي تتعلق بذات الله تعالى هي[٢] :

١ ـ الإيمان بهذه الأسماء والصفات التي وردت في كتاب ربنا وفي سنة نبينا الصحيحة ـ ﷺ ـ ، وذلك لورود النصوص الصريحة بذلك ، فلا يسع أحد ردَّها أو عدم الإيمان بها .

---

(١) رواه الترمذي كتاب (صفة الجنة) باب (ما جاء في صفة الجنة ونعيمها .

(٢) انظر : كتاب (العقيدة الصافية للفرقة الناجية) سيد سعيد عبد الغني [٣٢٩ : ٣٣٧] ففيه كلام مفيد في هذا الباب .

٢ ـ وكذلك الإيمان بهذه الأسماء والصفات على مُراد الله تعالى وعلى مراد رسوله ـ ﷺ ـ إيماناً لا يتسرَّب إليه الشك ، ولا يخالطه دخن .

٣ ـ الإيمان بهذه الأسماء والصفات على حقيقتها بدون تعرض لها بالتأويل وبدون تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل .

٤ ـ الإيمان بهذه الأسماء والصفات مع الاعتقاد الجازم أن الله مغاير لخلقه في أسمائه وصفاته ، وأنه متفرِّد بالأسماء الحسنى والصفات العليا ، وأنه سبحانه في عليائه لا يشبه خلقه ، وليس كمثله شئ .

قال تعالى : ﴿ ليس كمثله شئ وَهُوَ السميع البصير ﴾[1] .

[من أقوال أئمة السلف ـ رحمهم الله ـ في الإيمان بالأسماء والصفات]

قال الإمام أحمد بن حنبل ـ رحمه الله ـ:

« لا يوصف الله إلاَّ بماوصف به نفسه ، أو وصفه به رسوله ﷺ لا يتجاوز القرآن والحديث »[2] .

ـ وقال أيضًا ـ رحمه الله ـ :

« قال : في قول النبي ﷺ : (**إن الله ينزل إلى سماء الدنيا**)[3] .

---

(١) الشورى : ١١ .

(٢) مجموعة فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية [٥ / ٢٦] .

(٣) جزء من حديث صحيح . رواه البخاري كتاب (التهجد) باب (الدعاء والصلاة في آخر الليل، وفي كتاب (الدعوات) باب [الدعاء نصف الليل] .
ـ رواه مسلم كتاب (المسافرين) باب (صلاة الليل مثنى مثنى) .
ـ ورواه أحمد حديث رقم (٧٥٠٠ ، ٧٥٨٢ ، ٧٧٧٩) وصححه الشيخ شاكر .
ـ ورواه أبو داود كتاب (الصلاة) باب (أي الليل أفضل) .

ما أشبه هذه الأحاديث : « نؤمن بها ، ونُصدِّق بها ، لا كيف ، ولا معنى ، ولا نردُّ شيئاً منها ، ونعلم أن ما جاء به الرسول ﷺ حق ، ولا نردُّ على رسول الله ﷺ ، ولانصف الله بأكثر مما وصف به نفسه ،بلا حد ولا غاية قال تعالى : ﴿ ليس كمثله شئ وهو السميع البصير ﴾[1] .

ونقول كما قال ، ونصفه بما وصف به نفسه ، ولا نتعدّى ذلك ، ولا يبلغه وصف الواصفين »[2] .

وعلّق على كلام الإمام أحمد ـ فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين ـ رحمه الله ـ قائلا :

« وقوله : (ولا معنى) أي : لا نثبت لها معنى يخالف ظاهرها كما فعله أهل التأويل، وليس مراده نفي المعنى الصحيح الموافق لظاهرها الذي فسرّها به السلف ، فإن هذا ثابت ، ويدل علي هذا قوله : « ولا نردُّ شيئاً منها ، ونصفه بما وصف به نفسه » ،فإن نفيه لردِّ شيء منها ، ونفيه لعلم كيفيتها ، دليل على إثبات المعنى المراد بها »[3] .

قال الإمام ابن عبد البر ـ رحمهالله ـ :

« أهل السُّنة مجمعون على الإقرار بالصفات الواردة كلها في القرآن والسُّنَّة والإيمان بها وحملها على الحقيقة لا على المجاز ، إلاَّ أنهم لا يُكيِّفُون شيئاً من ذلك، ولا يحدُّون فيه صفة محصورة.

---

(١) الشورى : ١١ .

(٢) [لمعة الاعتقاد] لابن قدامة المقدسي مع شرحها للشيخ محمد بن عثيمين ص (٣١:٣٢] .

(٣) [لمعة الاعتقاد] لابن قدامة المقدسي مع شرحها للشيخ محمد بن عثيمين ص [٣٢ : ٣٣] .

أما أهل البدع الجهمية والمعتزلة كلها والخوارج فكلهم ينكرونها ، ولا يحملون شيئاً منها على الحقيقة ، ويزعمون أن من أقرّ بها مشبِّه ، وهم عند من أقرَّ بها نافون للمعبود ، والحق فيما قاله القائلون : بما نطق به كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وهم أئمة الجماعة - رحمهم الله - »[1] .

وقال القاضي أبو يعلى - رحمه الله - في كتاب « إبطال التأويل » :

« لا يجوز ردّ هذه الأخبار ، ولا التشاغل بتأويلها ، والواجب حملها على ظاهرها ، وأنها صفات الله لا تشبه صفات سائر الموصوفين بها من الخلق ، ولا يعتقد التشبيه فيها ، لكن ما رُوي عن الإمام أحمد وسائر الأئمة - رحمهم الله - إلى أن قال : ويدل على إبطال التأويل : أن الصحابة ومن بعدهم من التابعين حملوها على ظاهرها ، ولم يتعرّضوا لتأويلها ولا صرفوها عن ظاهرها ، فلو كان التأويل سائغاً لكانوا أسبق إليه ، لما فيه من إزالة التشبيه ورفع الشبهة »[2] .

- وقال الإمام محمد بن إدريس الشافعي - رحمه الله - :

« آمنت بالله ، وبما جاء عن الله ، على مُراد الله ، وآمنت برسول الله ﷺ وبما جاء عن رسول الله ﷺ على مُراد رسول الله ﷺ »[3] .

- وقال الإمام ابن قدامة المقدسي - رحمه الله - :

---

(١) مجموعة الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية [٥/٨٧] . وانظر كتاب (التمهيد) لابن عبد البر (١٤٥/٧) .

(٢) انظر : مجموعة الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية [٥/٨٩:٩٠] .

(٣) [لمعة الاعتقاد] لابن قدامة المقدسي مع شرحها لابن عثيمين ص(٣٤) .

(وعلى هذا درج السلف وأئمة الخلف - رضي‌الله عنهم - ، كلهم متفقون على الإقرار ، والإمرار والإثبات لما ورد من الصفات في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ من غير تعرُّض لتأويله)[١].

- ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - :

(ثم القول الشامل في جميع هذا الباب : أن يوصف الله بما وصف به نفسه، أو وصفه به - رسوله ﷺ وبماوصفه به السابقون الأولون ، لا يتجاوز القرآن والحديث) .

ومذهب السلف - رحمهم الله - : أنهم يصفون الله بما وصف به نفسه ، وبماوصفه به رسوله ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل ،ومن غيرتكييف ولا تمثيل ، ونعلم أن ما وُصِفَ الله به من ذلك فهو حق ليس فيه لغز ولا أحاجي ، بل معناه يعرف من حيث يعرف مقصود المتكلم بكلامه ، لا سيما إذا كان المتكلم أعلم الخلق بما يقول ، وأفصح الخلق في بيان العلم ، وأفصح الخلق في البيان والتعريف والدلالة والإرشاد .

وهو سبحانه مع ذلك ليس كمثله شيء لا في نفسه المقدَّسة المذكورة بأسمائه وصفاته ، ولا في أفعاله ، فكما نتيقن أن الله سبحانه له ذات حقيقية ، وله أفعال حقيقية ، فكذلك له صفات حقيقية .

هو ليس كمثله شيء لا في ذاته، ولا في صفاته ، ولا في أفعاله ، وكل ما أوجب نقصاً أو حدوثاً فإن الله منزَّه عنه حقيقة فإنه سبحانه مستحق للكمال الذي لا غاية فوقه)[٢] .

---

(١) [لمعة الاعتقاد] لابن قدامة المقدسي مع شرحها لابن عثيمين ص (٣٥) .

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية : [٥ / ٢٦] .

قال الإمام الآجري ـ رحمه الله ـ :

وقال الشيخ أبو بكر محمد بن الحسن الآجري في كتابه الشريعة : (اعلموا وفقنا الله وإياكم للرشاد من القول والعمل : أن أهل الحق يصفون الله عزّ وجلّ بماوصف به نفسه عزّ وجلّ ، وبما وصفه به رسول الله ﷺ وبما وصفه به الصحابة رضي الله عنهم ، وهذا مذهب العلماء ممن اتبع ولم يبتدع ، ولا يقال فيه كيف ؟ بل التسليم ، والإيمان)(١).

ـ وقال الشيخ إسماعيل الصابوني ـ رحمه الله ـ :

(إن أصحاب الحديث المتمسكين بالكتاب والسُّنة يعرفون ربهم تبارك وتعالى بصفاته التي نطق بها كتابه وتنزيله ، وشهد له بها رسوله على ما وردت به الأخبار الصحاح ، ونقله العدول الثقات ولا يعتقدون تشبيهاً لصفاته بصفات خلقه ، ولا يُكيِّفونها تكيف المشبه ، ولا يحرفون الكلم عن مواضعه تحريف المعتزلة والجهمية وقد أعاذ الله أهل السنة من التحريف والتكييف ، ومَنَّ عليهم بالتفهيم والتعريف حتى سلكوا سبيل التوحيد والتنـزيه ، وتركوا العقول بالتعطيل والتشبيه ، واكتفوا بنفي النقائص)(٢) .

وقال الإمام ابن خزيمة ـ رحمه الله ـ :

(سئل الإمام ابن خزيمة عن الكلام في الأسماء والصفات فقال : « ولم يكن أئمة المسلمين وأرباب المذاهب أئمة الدين ، مثل مالك وسفيان والأوزاعي

---

(١) كتاب الشريعة للآجري ص (٢٧٧) .

(٢) نقلاً عن كتاب (المنطق) لابن تيمية ص (٤) .

والشافعي وأحمد وإسحاق ويحيى بن يحيى وابن المبارك وأبي حنيفة ، ومحمد بن الحسن ، وأبي يوسف يتكلمون في ذلك ، وينهون أصحابهم عن الخوض فيه ، ويدلُّونهم على الكتاب والسنة)[١] .

ونقل الإمام اللالكائي عن الإمام أحمد بن حنبل ـ رحمه الله ـ :

(أن أحمد بن حنبل سمع شخصاً يروي حديث النزول ويقول ينزل بغير حركة ولا انتقال ، ولا تغير حال ، فأنكر أحمد ذلك وقال : « قلْ كما قال رسول الله ﷺ فهو كان أغير على ربه منك »)[٢] .

وقال الخطيب البغدادي ـ رحمه الله ـ :

« أما الكلام في الصفات فإن ما روى منها من السنن والصحاح مذهب السلف إثباتها ، وإجراؤها على ظواهرها ونفي الكيفية والتشبيه عنها، وقد نفاها قوم فأبطلوا ما أثبته الله ، وحققها قوم من المثبتين فخرجوا في ذلك إلى ضرب من التشبيه والتكييف والقصد إنما هو سلوك الطريقة المتوسطة بين الأمرين ، ودين الله تعالى بين الغالي فيه والمقصِّر عنه)[٣] .

وقال الإمام إسماعيل الأصفهاني ـ رحمه الله ـ :

(جاءت الأخبار عن النبي ﷺ متواترة في صفات الله تعالى موافقة لكتاب الله تعالى، ونقلها السلف على سبيل الإثبات والمعرفة والإيمان به والتسليم ، وترك

---

(١) (أقاويل الثقات في تأويل الأسماء والصفات) للكرمي ص (٦٢) .
(٢) كتاب (السنة) للالكائي [٣ / ٤٥٢] .
(٣) سير أعلام النبلاء للإمام الذهبي [١٨ / ٢٨٣ - ٢٨٤] .

التمثيل والتكييف وأنه عزَّ وجلَّ أزلي بصفاته وأسمائه التي وصف بها نفسه، أو وصفه الرسول ﷺ بها ، فمن جحد صفة من صفاته بعد الثبوت كان بذلك جاحداً ، ومن زعم أنها محدثة لم تكن ثم كانت دخل في حكم التشبيه في الصفات التي هي محدثة في المخلوق زائلة بفنائه غير باقية ، وذلك أن الله تعالى امتدح نفسه بصفاته ، ودعا عباده إلى مدحه بذلك وصدَّق به المصطفى ﷺ ، وبيَّن مراد الله فيما أظهر لعباده من ذكر نفسه وأسمائه وصفاته وكان ذلك مفهوماً عند العرب غير محتاج إلى تأويله)[1] .

وقال العلامة ابن رجب الحنبلي - رحمه الله - :

(والصواب ما عليه السلف الصالح من أمر آيات الصفات وأحاديثها ، وكما جاءت من غير تفسير لها ولا تكييف ، ولا تمثيل ولا يصح من أحد منهم خلاف ذلك البته ، خصوصاً الإمام أحمد، ولاخوض في معانيها ، ولا ضرب مثل الأمثال لها ، وإن كان بعض من كان قريباً من زمن الإمام أحمد فيهم من فعل شيئاً من ذلك فلا يُقتدى بهم في ذلك ، إنما الاقتداء بأئمة الإسلام كابن مبارك ، ومالك ، والثوري والأوزاعي والشافعي وأحمد وأبي عبيد ونحوهم)[2] .

قال الشيخ عبد الباقي الحنبلي في الصفات :

(يحرم تأويل ما يتعلَّق به تعالى وتفسيره كآية الاستواء ، وحديث النزول وغير ذلك من آيات الصفات ، إلا بصادر عن النبي ﷺ ، أو بعض الصحابة ،

---

(١) كتاب (الحجة في بيان المحجة) للإمام أبي القاسم إسماعيل بن الفضل الأصبهاني [١/ ١٦٩].

(٢) (فضل علم السلف على الخلف) لابن رجب بتصرف ص (٤٥ - ٤٦) .

وهذا مذهب السلف قاطبة فلا نقول في التنزيه كقولة المعطِّلة بل نثبت ولا نحرِّف، ونصف ولا نكيِّف والكلام في الصفات فرع عن الكلام في الذات فمذهبنا حق بين باطلين ، وهدى بين ضلالتين ، وهو إثبات الأسماء والصفات مع نفي التشبيه والأدوات)[١].

وقال الشيخ حافظ أحمد الحكمي - رحمه الله - :

(وإثبات صفاته العُلى التي وصف بها نفسه ووصفه بها نبيه ﷺ من صفات الكمال ونعوت الجلال ، من صفات الذات وصفات الأفعال ، مما تضمنته أسماؤه بلا اشتقاق كالعلم والقدرة والسمع والبصر والحكم والرحمة والعزة والعلو وغيرها، ومما أخبر به عن نفسه وأخبر بها عنه رسوله ﷺ ولم يشتق منه اسماً كحبه للمؤمنين والمتقين والمحسنين ، ورضائه عن عباده المؤمنين ورضاه لهم الإسلام ديناً، وكراهته انبعاث المنافقين، وسخطه على الكافرين ، وغضبه عليهم ، وإثبات وجهه ذي الجلال والإكرام ، ويديه المبسوطتين بالإنفاق وغير ذلك ، مما هو ثابت بالكتاب والسنة والفطرة السليمة)[٢] .

وقال الشيخ حافظ الحكمي أبياتاً جميلة :

وكل ماله من الصفات أثبتها في محكم الآيات

---

(١) كتاب (العين والأثر في عقائد أهل الأثر) للشيخ عبد الباقي الحنبلي ص (٣٥ - ٣٦) .

(٢) كتاب (معارج القبول بشرح سلم الوصول) للشيخ أحمد الحكمي (١ / ١٢٩) .

أوصحّ فيما قاله الرسول　　فحقه التسليم والقبول[1]

وقال أيضاً رحمه الله ـ :

نَمُرُّها صريحة كما أتت　　مع اعتقادنا لما له اقتضت

من غير تحريف ولا تعطيل　　وغير تكييف ولا تمثيل

بل قول أئمة الهدى　　طوبى لمن بهديهم قد اهتدى[2]

وقال الشيخ السعدي ـ رحمه الله ـ :

(اعتقاد انفراد الرب جلَّ جلاله بالكمال المطلق من جميع الوجوه بنعوت العظمة والجلال والجمال التي لا يشاركه فيها مشارك وذلك بإثبات ما أثبته الله لنفسه ، أو أثبته له رسوله ﷺ من جميع الأسماء والصفات ، ومعانيها وأحكامها الواردة في الكتاب والسنة على الوجه اللائق بعظمته وجلاله ، من غير نفي لشيء منها ولا تعطيل ولا تحريف ولا تمثيل، ونفي ما نفاه عن نفسه أونفاه عنه رسوله ﷺ من النقائص والعيوب وعن كل ما ينافي كماله)[3] .

[حكم من جحد شيئاً من الأسماء والصفات]

لقد سمَّى الله تعالى ذاته بأسماء حسنى، ووصف نفسه بصفات عليا ، فله الأسماء الحسنى والصفات العُلى جلَّ في عليائه ، وأوجب علينا الإيمان بهذه

---

(١) كتاب (معارج القبول بشرح سلم الوصول) لشيخ أحمد الحكمي (١ / ٣٤٦) .

(٢) كتاب (معارج القبول بشرح سلم الوصول) للشيخ أحمد الحكمي (١ / ٣٥٦) .

(٣) كتاب (القول السديد) ص (١٥) .

الأسماء والصفات، كما أخبر بها عن نفسه ، وكما بلَّغ عنه رسوله الكريم ﷺ، على ما يليق بجلال الله تعالى وعظيم سلطانه .

ولا يجوز التجرؤ على الله تعالى بجحود شيء من أسمائه أو صفاته ، فأي تجرؤ هذا على الذات الإلهية ، وأي تعدٍ هذا على الخصائص الربانية ، إنه تجاوز للحد الذي قد يُخْرِج صاحبه من الملَّة ويوقعه في دائرة الكفر ، وهاوية الضلال .

- **ولا يخلوا هذا الجحود من نوعين :**

[**إنكار تكذيب**] وهذا كفر محض لا شك فيه ولا جدال .

[**إنكار تأويل**] وهذا فيه تفصيل . فإن كان له مُسوِّغ في اللغة العربية ، يُعْتمد عليه ، فلا يُخْرِج صاحبه من الإسلام ، وإن وقع في هاوية البدع والضلال . وإن لم يكن لهذا التأويل مسوِّغ كان حكمه كحكم جحود التكذيب ، كفر يخرج صاحبه ومُعْتقدِه من الملَّة .

- **قال فضيلة الشيخ محمد بن عثيمين - رحمه الله - :**

الجَحْدُ : الإنكار ، والإنكار نوعان :

الأول :

إنكار تكذيب : وهذا كفر بلا شك ، فلو أن أحداً أنكر إسماً من أسماء الله أو صفة من صفاته الثابتة في الكتاب والسُّنَّة ، مثل أن يقول : ليس لله يد ، أو أنَّ الله لم يستو على عرشه ، أو ليس له عين ، فهو كافر بإجماع المسلمين ، لأن تكذيب خبر الله ورسوله ﷺ كفر مخرج عن الملَّة بالإجماع .

الثاني :

إنكار تأويل : وهو أن لاينكرها ولكن يتأولها إلى معنى يخالف ظاهرها ، وهذا نوعان :

النوع الأول :

أن يكون للتأويل مُسوِّغ في اللغة العربية ، فهذا لا يوجب الكفر .

ومثال ذلك : « إذا قال قائل في قوله تعالى : ﴿ **بل يداه مبسوطتان** ﴾[١] . أن المراد باليد النعمة أو القوة، فلا يكفر لأن اليد في اللغة تطلق بمعنى القوة والنعمة، قال الشاعر :

وكم لظلام الليل عنْدك من يد ... تُحدِّث أن المانوية تكْذِبُ

فقوله « من يد » أي من نعمة، لأن المانوية يقولون: إن الظلمة لاتخلق الخير ، وإنما تخلق الشر » .

النوع الثاني :

ألا يكون له مسوِّغ في اللغة العربية ، فهذا حكمه الكفر ، لأنه إذا لم يكن له مسوغ صار في الحقيقة تكذيباً ، مثل أن يقول : المراد بقوله تعالى : ﴿ **تجري بأعيننا** ﴾[٢] تجري بأراضينا ، فهذاكافر لأنه نفاها نفياً مطلقاً ، فهو مكذب ، ولو قال في قوله تعالى : ﴿ **بل يداه مبسوطتان** ﴾[٣] .

---

(١) المائدة : ٦٤ .

(٢) القمر : ١٤ .

(٣) المائدة : ٦٤ .

المراد بيده : السموات والأرض ، فهو كافر أيضاً لأنه لا مسوغ له في اللغة العربية ، ولا هو يقتضي الحقيقة الشرعية ، فهو مُنْكرٌ ومكذِّب »[١] .

ولقد جحدت قريش اسم (الرحمن) فوصفهم الله تعالى بالكفر ، رغم أنهم يقرُّون بوجود الله تعالى ولا يجحدونه ، ولكنهم جحدوا هذا الاسم - ضمن كفرياتهم وشركياتهم - قال تعالى : ﴿ **وهم يكفرون بالرحمن** ﴾[٢].

وفي حديث سهل بن عمرو : « لما أراد النبي ﷺ أن يكتب الصلح في غزوة الحُديبية قال للكاتب : (**اكتب بسم الله الرحمن الرحيم**) .

قال سهل : أما الرحمن فوالله ما أدري ماهي ولكن أكتب باسمك اللهم»[٣].

فليحذر كل جاحد أو متأول لاسم من أسماء الله تعالى ، أو لصفة من صفاته جلَّ في عليائه ، فإن بطش الله شديد ، وعذابه أليم ، والله عزَّ وجلَّ يغار ، ولا يغفر أن يُشْرك به أو يُكْفر به ، فليحرص الجميع على التوحيد وسلامة المعتقد ، فوالله إنه مفرق الطريق بين الجنة والنار والعياذ بالله .

---

(١) انظر كتاب (القول المفيد على كتاب التوحيد) شرح فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين (٢ / ١٨٣ : ١٨٤) بتصرف بسيط .

(٢) الرعد : ٣٠ .

(٣) رواه البخاري كتاب (الشروط) باب (الشروط في الاجتهاد) .

أسماء الله تعالى ليست محصورة بعدد

إن أسماء الله تعالى توقيفية ، ومعنى توقيفية أنها موقوف علمها على الله تعالى ، وعلى رسوله الله ، فلا مجال للإجتهاد فيها ولا مكان للرأي في تحديدها ، فالله عز وجلَّ سمَّى نفسه بماشاء ، وسمَّاه رسوله ﷺ بما أوحى إليه ربه ، وبما أذن له به من الأسماء الحسنى .

قال أبو الحسن القابس ـ رحمه الله ـ :

أسماء الله تعالى وصفاته لا تُعْلم إلاَّ بالتوقيف من الكتاب أو السنة أو الإجماع ، ولا يدخل فيها القياس ، ولم يقع في الكتاب ذكر عدد معين[1] ».

وهذه الأسماء الحسنى ليست محصورة بعدد معين ، فإن أسماء الله تعالى لا يحصيها ولا يعلم عددها إلاَّ هو جلَّ في علاه ، وتقدَّست أسماؤه ، وعَظُمَ سلطانه، ولا إله غيره ، ولا يُعْبد إلاَّ إياه .

وأما ما جاء في الحديث الصحيح بذكر عدد معين فإنه ليس على سبيل الحصر ، ففي الحديث الشريف ، عن أبي هريرة ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ أن رسول الله ﷺ قال : **(إن لله تسعة وتسعين اسماً ـ مائة إلاَّ واحدة ـ من أحصاها دخل الجنة)**[2] .

---

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري كتاب (الدعوات) باب (لله مائة اسم غير واحد) [٣٢٠/١١] .

(٢) رواه البخاري كتاب (التوحيد) باب (إن لله مئة اسم إلا واحدة) .
ورواه مسلم كتاب (الذكر والدعاء) باب (في أسماء الله تعالى) .

وفي رواية أخرى عن أبي هريرة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قال : (لله تسعة وتسعين اسماً - مائة إلا واحدة - لا يحفظها أحدٌ إلاَّ دخل الجنة ، وهو وتر يحب الوتر)[1] .

فلا يفهم من هذا الحديث أن أسماء الله تعالى محصورة في هذا العدد (تسعة وتسعين) ، فإن أسماء الله تعالى أكثر من ذلك بكثير ، فلا يحصى أسماء الله تعالى إلا هو سبحانه في عليائه ، فإن معنى الحديث غيرما يتوهمه البعض في هذا الباب وقد نبَّه العلماء - رحمهم الله - على ذلك قديماً وحديثاً - :

- قال الحافظ ابن حجر العسقلاني - رحمه الله - :

ونقل النووي - رحمه الله - اتفاق العلماء عليه فقال : ليس في الحديث حصر أسماء الله تعالى ، وليس معناه أنه ليس له اسم غير هذه التسعة والتسعين ، وإنما مقصود الحديث أن هذه الأسماء مَنْ أحصاها دخل الجنة ، فالمراد الإخبار عن دخول الجنة بإحصائها لا الإخبار بحصر الأسماء .

ويؤيده قوله ﷺ في حديث ابن مسعود الذي أخرجه أحمد وصححه ابن حبان « **أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك** ، أو **أنزلته في كتابك** ، أو **علمته أحداً من خلقك** ، أو **استأثرت به في علم الغيب عندك**[2] »[3] .

---

(١) رواه البخاري كتاب (الدعوات) باب (لله مائة اسم غير واحدة) .

(٢) حديث صحيح ، رواه أحمد (٥ / ٢٦٦) ح (٣٧١٢)، وابن حبان برقم (٩٦٨) من طريق أبي سلمة الجهني، والحاكم (١ / ٥٠٩ ، ٥١٠) ، والحديث صحَّح إسناده الشيخ شاكر في تخريجه للمسند .

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري، كتاب (الدعوات) باب (لله مائة اسم إلا واحدة) (٢٢٣/١١) .

قال الإمام الخطابي ـ رحمه الله ـ :

(في هذا الحديث إثبات هذه الأسماء المخصصة بهذا العدد، وليس فيه منع ما عداهامن الزيادة ، وإنما التخصيص لكونها أكثر الأسماء وأبينها معاني ، وخبر المبتدأ في الحديث هو قوله « أحصاها » لا قوله « لله » . وهو كقولك لزيد ألف درهم أعدَّها للصدقة ، أو لعمر مائة ثوب من زاره ألبسه إياها)[١] .

ومقصود المثالين عند الإمام الخطابي ـ رحمه الله ـ أنه ليس معنى أن زيداً لـمَّا أعدَّ ألف درهم للصدقة ليس معنى ذلك أنه لا يملك غيرها .

وكذلك ليس معنى أن عمراً أعدَّ المائة ثوب لمن زاره ، ليس معنى ذلك أنه لا يملك غيرها .

وهكذا ليس معنى أن لله تسعة وستعين اسماً من أحصاها دخل الجنة ، ليس معنى ذلك أنه ليس له أسماء غيرها .

قال القاضي أبي بكر بن الطيب ـ رحمه الله ـ :

« ليس في الحديث دليل على أنه ليس لله من الأسماء إلاَّ هذه العدّة ، وإنما معنى الحديث أن من أحصاها دخل الجنة ، ويدل على عدم الحصر أن أكثرها (يعني أكثر أسماء الله المذكورة في الكتاب والسنّة) صفات ، وصفات الله لا تتناها»[٢] .

---

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري، كتاب (الدعوات) باب (لله مائة اسم إلا واحدة) (١١/٢٢٣ : ٢٢٤) .

(٢) فتح الباري شرح صحيح ، كتاب (الدعوات) باب (لله مائة اسم إلا واحدة) (١ / ٢٢٤) .

قال الشيخ محمد بن صالح العثيمين ـ رحمه الله ـ :

(وأما قوله ﷺ : « **إن لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة** » فليس معناه أنه ليس له إلاَّ هذه الأسماء ، لكن معناه أن من أحصى من أسمائه هذه التسعة والتسعين فإنه يدخل الجنة ، فقوله : «من أحصاها» تكميل للجملة الأولى ، وليس استئنافية منفصلة ، ونظير هذا قول القائل : عندي مئة فرس أعددتها للجهاد في سبيل الله ، فليس معناه أنه ليس عنده إلاَّ هذه المئة ، بل معناه أن هذه المئة معدَّة لهذا الشيء)[1] .

المقصود بالإحصاء لأسماء الله تعالى :

ليس المقصود بإحصاء أسماء الله تعالى مجرد العلم والحفظ لهذه الأسماء ، ولا كتابتها ، والاحتفاظ بها ، بل إن الأمر أعظم وأشمل من ذلك ، فيتسع الأمر إلى أن يشمل ثلاثة أمور :

يقول فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين ـ رحمه الله ـ :

« معنى إحصاء هذه التسعة والتسعين الذي يترتب عليه دخول الجنة ليس معنى ذلك أن تكتب في رقاع ثم تكرر حتى تحفظ ، ولكن معنى ذلك :

أولاً : الإحاطة بها لفظاً .

ثانياً : فهمها معناً

ثالثاً : التعبُّد لله بمقتضاها ، ولذلك وجهان :

---

(١) (القول المفيد على كتاب التوحيد) لفضيلة الشيخ محمد صالح العثيمين (٢ / ١٨٦) .

الوجه الأول :

أن تدعو الله بها ، لقوله تعالى : ﴿ **ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها** ﴾[(١)] .

أن تجعلها وسيلة إلى مطلوبك ، فتختار الاسم المناسب لمطلوبك ، فعند سؤال المغفرة تقول : يا غفور ، وليس من المناسب أن تقول : يا شديد العقاب اغفر لي بل هذا يشبه الاستهزاء ، بل تقول أجرني من عقابك .

الوجه الثاني :

أن تتعرض في عبادتك لما تقتضيه هذه الأسماء ، فمقتضى الرحيم الرحمة ، فاعمل العمل الصالح الذي يكون جالباً لرحمة الله ، ومقتضى الغفور المغفرة ، إذاً فافعل ما يكون سبباً في مغفرة ذنوبك ، هذا هو معنى إحصائها فإذا كان كذلك فهو جدير لأن يكون ثمناً لدخول الجنة ، وهذا الثمن ليس على وجه المقابلة ، ولكن على وجه السبب ،لأن الأعمال الصالحة سبب للدخول وليست بدلاً ، ولهذا ثبت في الحديث الصحيح ، عن النبي ﷺ قوله (**لن يُدْخل الجنة أحداً عملُهُ قالوا ولا أنت يا رسول الله ؟! قال : ولا أنا إلاَّ أن يتغمَّدني الله منه برحمة ، واعلموا أن أحبَّ العمل إلى الله أدومه وإن قلّ**)[(٢)] .

فلا تغتر يا أخي بعملك ، ولا تعجب فتقول : أنا عملت كذا وكذا وسوف أدخل الجنة[(٣)] .

---

(١) الأعراف : ١٨٠ .

(٢) رواه البخاري كتاب (الرقاق) باب (القصد والمداومة على العمل) .
ورواه مسلم كتاب (المنافقين) باب (لن يدخل أحد الجنة بعمله) ، واللفظ لمسلم .

(٣) (القول المفيد علي كتاب التوحيد) لفضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين) ٢/٢٥٨:٢٥٩) .

أسماء الله مترادفة متباينة :

أسماء الله تعالى كلها حسنى سواء ما سمَّى بها نفسه ، أو سمَّاه بها رسوله ﷺ وذلك على ما يليق بعظمة الله تعالى ، وجلاله ، وعظيم سلطانه ، وهذه الأسماء هل هي مترادفة ؟ أم هي متباينة ؟ وللإجابة على هذه الأسئلة ينبغي لنا أن نعلم المقصود بالترادف ، والمقصود بالتباين .

فالترادف : هو ما اختلف لفظه واتفق معناه .

والتباين : هو ما اختلف لفظه ومعناه .

وعلى هذا الضوء نستطيع أن نقول أن أسماء الله تعالى من ناحية (الترادف) فهي مترادفة باعتبار دلالاتها على ذات واحدة ، وعلى مسمى واحد ، فإن اسم السميع يدل على ذات الله تعالى ، وكذلك اسم البصير فإنه يدل علي ذات الله العليا ، وكذلك الحكيم ، والعزيز ، والرحيم ، وكل أسماء الله تعالى فإنها تدل على ذات الله جلَّ في علاه ، فهي مترادفة باعتبار أنها تدل على مسمى واحد .

وأما من ناحية (التباين) فإن أسماء الله عزَّ وجلَّ متباينة باعتبار معانيها التي تدل عليها ، فإنَّ كل اسم من هذه الأسماء يدل على معنى خاص به يختلف عن أي اسم آخر ، ولذلك فلقد تعددت صفات الله تعالى بما تضمنته هذه الأسماء من معاني مختلفة .

فإن اسم (الرحيم) يدل على معنى الرحمة ، ويدل على صفة الرحمة لله تعالى ، واسم (السميع) يدل على معنى السمع ، وصفة السمع ، وهذا المعنى وتلك الصفة تختلف وتتباين عن صفة ومعنى الرحمة ، وإن كان الجميع يدل على ذات واحدة ، ويقصد به مسمًّى واحد .

ولكن قد يدل الاسم على أكثر من معنى ولكن من طريق دلالة اللزوم ، وما يتضمنه هذا الاسم من بعض المعاني التي يدل عليها هذا الاسم دلالة تفهم وتستنبط من هذا الاسم بدلالة اللزوم .

فمثلاً : اسم (الخلاَّق) فهو يدل على معنى (الخَلْق) ويدل على صفة الخَلْق ولكن إذا تأملنا فإن هذا الاسم يدل أيضاً من باب دلالة اللزوم على معنى (العلم) وصفة (العلم) . إذ كيف بمن يملك الخلق ويقدر عليه أن يكون على غير عِلْم ، فإن من لزوم الخلق العلم ، فلا يصح الخلق عن جهل .

وكذلك من لزوم (الخَلْق) ومن لزوم اسم الخلاَّق أن يكون ذلك الخَلْق عن قدرة ، فإن (الخلاَّق) لا بد له من [علم وقدرة] . قال تعالى : ﴿ وهو الخلاق العليم ﴾[1] .

وعليه:

فإن الاسم من أسماء الله تعالى يدل على الذات الإلهية وعلى المعنى الذي تضمنه هذا الاسم (أي الصفة المتَضَمَّنَة في هذا الاسم) . وعليه فإنه يجب علينا الإيمان بهذا الاسم على أنه اسماً من أسماء الله تعالى ، ونؤمن أيضاً بما تضمنَّه من الصفة التي تستفاد منه . وأيضاً يجب علينا الإيمان بما تدل عليه هذه الصفة من الأثر والحُكْم إيماناً جازماً ، لايتسرَّب إليه الشك ولا التعطيل ولا التحريف ، ولا التأويل ، ولا التكييف ولا التمثيل .

فإذا آمنا بأن من أسماء الله تعالى (السميع) فيجب أن نؤمن بأن من صفات الله عزَّ وجلَّ (السمع) ، وعليه أيضاً يجب الإيمان والاعتقاد الجازم بأن الله عزَّ

---

(١) يس : ٨١ .

وجلَّ (يسمع) سمعاً حقيقياً منزَّهاً عن التشبيه والتمثيل ، والتعطيل والتحريف والتأويل ، سمعاً يليق بجلاله وعظيم سلطانه . قال تعالى: ﴿ **قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما** ﴾[١] .

وقال تعالى لموسى وهارون عليهما السلام : ﴿ **قال لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى** ﴾[٢]،[٣] .

أسماء الله تعالى أعلام وأوصاف :

إنَّ أسماء الله تعالى كلها حسنى، سمَّى بها الله نفسه ، وسمَّاه بها رسوله ﷺ ، ووجب علينا الإيمان بها ، واعتقاد أنها ليست كأسمائنا ، ولا تشبه أسماءنا إلا من ناحية اللفظ ، وتختلف عن أسمائنا من ناحية الكمال ، فإن لله عزَّ وجلَّ الأسماء الحسنى البالغة في الحسن والكمال والعظمة .

وأسماء الله عزَّ وجلَّ أعلام وأوصاف ، ليست أعلاماً محصنة تدل على الذات فقط ، بل هي أعلام تدل على الذات ، وأوصاف تدل على ما يتضمنه هذا الاسم من أوصاف . ومثال ذلك : اسم (الرحيم) فإنه اسم يدل على ذات الله جلَّ في علاه ، وكذلك يدل هذا الاسم على صفة لله عزَّ وجلَّ لازمة له وهي (الرحمة) فدل ذلك الاسم على (الذات والصفة) .

---

(١) المجادلة : ١ .

(٢) طه : ٤٦ .

(٣) انظر : كتاب (القول المفيد على كتاب التوحيد) للشيخ محمد بن صالح العثميين (٢/١٨٥) .

وذلك بخلاف ما ذهب إليه أهل الباطل من المعطِّلين الذين زعموا أن أسماء الله تعالى مجردة من المعاني ، وقالوا أنها لا تدل إلاَّ على الذات فقط ولا معنى لها، فادعوا كذباً وزوراً وافتراءاً على الله أن الله [سميع بلا سمع ، وبصير بلا بصر ، وعزيز بلا عزة، وعليم بلا علم] ، وعلَّلوا ذلك بأن ثبوت الصفات يستلزم تعدد الذات !!!

وهذا كلام باطل مردود عليهم ، ولا تقوم به حجة ، وليس لهم عليه برهان فالكتاب والسنة والعقل شهود على بطلان ذلك ، فكم من آية كريمة يصف فيها الله - عزَّ وجلَّ - نفسه بصفات عديدة مع أنَّ ذاته واحدة ، وهو الواحد الأحد ، قال تعالى : ﴿ **إن بطش ربك لشديد إنه هو يبدئ ويعيد وهو الغفور الودود ذو العرش المجيد فعال لما يريد** ﴾[1] .

وعلى ذلك فأسماء الله تدل علي معاني وأوصاف فالسميع تدل على السمع، والبصير تدل على البصر ، والعليم تدل على العلم ، والعزيز تدل على العزة[2] .

---

(١) البروج : (١٢ : ١٦) .

(٢) انظر : كتاب (القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى) لفضيلة الشيخ محمد صالح العثيمين ص (١٢ : ١٣) ، وكتاب (القول المفيد شرح كتاب التوحيد) لفضيلة الشيخ محمد صالح العثيمين (٢ / ١٨٤) .

أنـواع الصفـات

إن لله تعالى الصفات العليا والصفات المُثْلى ، ذات الكمال المطلق ، فلا تدانيها أي صفات ، فهو سبحانه وتعالى المتفرد بصفات الكمال جلَّ في علاه .

وهذه الصفات تنقسم إلى ثلاثة أقسام(١) .

الأول : [**صفات ذاتية**] ويقال معنوية ، وهي الصفات الملازمة لذات الله تعالى لا تنفك عنه أبداً ، والتي لم يزل سبحانه وتعالى ولا يزال متصفاً بها ، وهي ملازمة لذاته جلَّ في علاه ، مثل [السمع ، البصر ، العلم ، القدرة ، ..] وهي معنوية ، لأن هذه الصفات معاني . قال تعالى : ﴿ **إن الله سميع بصير** ﴾(٢) . وقال تعالى : ﴿ **إن الله كان بكل شيء عليماً** ﴾(٣) .

فيجب الإيمان بهذه الصفات وعدم جحودها ، وعدم تأويلها ، بل الإيمان بها على مراد الله تعالى ، وعلى منهج رسول الله ﷺ ، ووفق فهم السلف الصالح ـ رضي الله عنهم ـ من أهل السنة والجماعة . والحذر من الوقوع في هوة الضلالة والبدع .

الثاني : [**صفات فعلية**] وهذه الصفات هي التي يفعلها الله عزَّ وجلَّ ، وهي تتعلَّق بمشيئة الله تعالى ، إن شاء فعلها ، وإن لم يشأ لم يفعلها ، فهي متعلقة بمشيئة

---

(١) انظر : كتاب (القول المفيد على كتاب التوحيد) للشيخ محمد بن صالح العثيمين (٢ /١٨٧: ١٨٨) وذلك بتصرف وانظر كتاب (القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى) للشيخ نفسه ص (٥) .

(٢) المجادلة : ١ .

(٣) النساء : ٣٢ .

الله تعالى ، ولكنَّ الله عزَّ وجلَّ يتَّصف بها دائماً ، ومثال ذلك : [الكلام] فإن الله عزَّ وجلَّ يتَّصف بالكلام ، ولكنه سبحانه يتكلم وقتما شاء ، ومع من شاء من خلقه . فصفة الكلام إذا صفة فعليع يفعلها الله تعالى إذا شاء وبكيفية تليق بجلاله (ومن الصفات الفعلية أيضا : [النزول إلى السماء الدنيا ، والاستواء على العرش ، الخلق، ...]).

مع ملاحظة : أن الصفة قد تكون صفة ذاتية وفعلية باعتبارين ، فتكون ذاتية من حيث الأصل ، وفعلية من حيث آحاد الحدوث ، فمثلاً الكلام والخلق من صفات الله الذاتية من حيث الأصل، فهما، ملازمان لذاته، فسبحانه وتعالى ما يزال، ولا يزال متكلماً خالقاً ، فهما من صفات الكمال ، وهو سبحانه وتعالى متصف بكل صفات الكمال .

وأما من ناحية اعتبار آحاد الكلام وآحاد الخلق ، فهما من الصفات الفعلية التي يفعلها الله سبحانه وتعالى ، وقتما شاء ، وكيفما أراد ، لأن الكلام والخلق يتعلقان بمشيئته ـ جلَّ في علاه ـ فمتى شاء أن يتكلم تكلَّم ، وتَكلَّم بما شاء ومع من شاء من خلقه . ومتى شاء أن يخلق خلق ما شاء من مخلوقاته .

قال تعالى : ﴿ **ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه** ﴾[1]

وقال تعالى : ﴿ **قال كذلك الله يخلق ما يشاء** ﴾[2] .

وقال تعالى : ﴿ **والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق مالا تعلمون** ﴾[3].

---

(١) الأعراف : ١٤٣ .

(٢) آل عمران : ٤٧ .

(٣) النحل : ٨ .

ثالثاً : [**صفات خبرية**] وهذه الصفات هي عبارة عن أجزاء وأبعاض بالنسبة لنا كمخلوقين ، أمَّا في حق الخالق فلا يقال ذلك في حق الله تعالى تقدَّست أسماؤه وعَظُمَت صفاته ، قال تعالى : ﴿ **ليس كمثله شيء وهو السميع البصير** ﴾[1] . لكن يقال في حق الله تعالى أنها صفات خبرية ، وذلك لأن الله تعالى أخبر بها عن نفسه في كتابه العزيز ، وأخبر بها عنه رسوله ﷺ في سنته المطهرة ، وهذه الصفات الخبرية يجب الإيمان بها وإثباتها لله - عزَّ وجلَّ - على ما يليق بجلاله، وعظيم سلطانه، ومن ذلك [الوجه، العين ، الساق، اليد، القدم ، ....] .

قال تعالى : ﴿ **كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام** ﴾[2].

وقال تعالى : ﴿ **يوم يكشف عن ساق** ﴾[3] .

وقال تعالى : ﴿ **يد الله فوق أيديهم** ﴾[4] .

تقسيم نصوص الصفات وطريقة الناس فيها :

تنقسم نصوص الكتاب والسنة الواردة في الصفات إلى قسمين : (واضح جَليّ ، ومُشْكل خفي) ، (فالواضح) مااتضح لفظه ومعناه ، فيجب الإيمان به لفظاً وإثبات معناه حقيقة بلا ردٍّ ولا تأويل ، ولا تشبيه ولا تمثيل ، لأن الشرع وَرَدَ به ، فوجب الإيمان به وتلقيه بالقبول والتسليم .

---

(١) الشورى : ١١ .
(٢) الرحمن : ٢٦ - ٢٧ .
(٣) القلم : ٤٢ .
(٤) الفتح : ١٠ .

وأما (المُشْكل) وهو مالم يتضح معناه لإجمال في دلالاته أو قصر في فهم قارئه ، فيجب إثبات لفظه لورود الشرع به ، والتوقف في معناه وترك التعرض له لأنه مُشْكل لا يمكن الحكم عليه ، فنرُدُّ علمه إلى الله ورسوله ﷺ وقد انقسمت طرق الناس في هذا المشكل إلى طريقتين :

الطريقة الأولى : طريقة الراسخين في العلم الذين آمنوا بالمحكم والمتشابه وقالوا : ﴿ **كل من عند ربنا** ﴾[1]، وتركوا التَّعرُّض لما لا يمكنهم الوصول إلى معرفته والإحاطة به ، تعظيماً لله عزَّ وجلَّ ، وتأدباً مع النصوص الشرعية ، وهم الذين أثنى الله عليهم بقوله : ﴿ **والراسخون في العلم يقولون أمنا به كل من عند ربنا** ﴾[2] .

الطريقة الثانية : طريقة الزائغين الذين اتبعوا المتشابه ، طلباً للفتنة وصدًا للناس عن دينهم ، وعن طريقة السلف الصالح ، فحاولوا تأويل هذا المتشابه إلى ما يريدون لا إلى ما يريده الله ورسوله ﷺ ، وضربوا نصوص الكتاب والسنة بعضها ببعض ، ويعمونهم عن هدايتها ، هؤلاء هم الذين ذمَّهم الله بقوله : ﴿ **فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله** ﴾[3]، [4] .

---

(١) آل عمران :٧ .

(٢) آل عمران : ٧ .

(٣) آل عمران : ٧ .

(٤) شرح لمعة الاعتقاد الهادي إلى سبيل الرشاد لابن عثيمين (٣٢ ـ ٣٣) . وانظر : كتاب (العقيدة الصافية للفرقة الناجية) سيد سعيد عبد الغني ص (٣٣٠ : ٣٣١) .

ـ تقسيم توحيد الأسماء والصفات إلى قسمين[١] :

وينقسم التوحيد القولي (الأسماء والصفات) إلى قسمين ، كل منهما وردت به آيات الكتاب العزيز :

القسم الأول : « سلْب » أي نفي للنقائص والعيوب عن الله تعالى .

القسم الثاني : « إثبات » وهو إثبات صفات الكمال لله تعالى . (وسوف يأتي الكلام عليه في الكلام على صفات الله تعالى وإثباتها له).

أما القسم الأول : وهو (السلب) فهو وسيلة ومقصود لغيره ، فإن السلب لا يُراد لذاته ، وإنما يقصد لما يتضمنه من إثبات الكمال ، فكل ما نفاه الله عن نفسه أو نفاه عنه رسوله ﷺ من صفات النقص ، فإنه متضمن للمدح والثناء على الله بضد ذلك النقص من الأوصاف الحميدة والأفعال الرشيدة ، وهذا السلب على قسمين:

ـ قال العلاَّمة ابن القيم ـ رحمه الله ـ في نونيته :

توحيدُهم نوعان قولي[٢] وقعـ ـــلي[٣] كلا نوعَيْه ذو برهان

فالأول القولي ذو نوعين أيـ ـضًا في كتاب الله موجودان

---

(١) أصل هذا التقسيم مأخوذ عن الدكتور / محمد خليل هراس ، ضمن شرحه لنونية ابن القيم ، فليُراجع للاستفادة . انظر كتاب (العقيد الصافية للفرقة الناجية) سيد سعيد عبد الغني (٣٣١: ٣٣٤) .

(٢) قولي : وهو توحيد الأسماء والصفات .

(٣) فعلي : وهو توحيد الألوهية .

إحداهما سلب وذا نوعان أيـــ ـــضًا فيه حقًا فيه مذكـوران

سلب النقائص والعيوب جميعها عنـــه هما نوعان معقـولان

سلب لمتصل ومنفصل همـــا نوعـان معروفان أما الثانـي

القسم الأول : سلب متصل :

وضابطه : نفي كل ما يناقض صفة من الكمال التي وصف الله بها نفسه أو وصفه بها رسله ﷺ ، كنفي الموت المنافي للحياة ، قال تعالى : ﴿ **وتوكل على الحي الذي لا يموت** ﴾[1] .

ونفي العجز المنافي للقدرة ، قال تعالى : ﴿ **ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب** ﴾[2] .

وكذلك نفي وسلب السِّنة والنوم المنافي لكمال القيومية ، قال تعالى : ﴿ **الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولانوم** ﴾[3] .

وكذلك نفي وسلب الجهل والنسيان عن الله تعالى ، المنافي لعلمه الكامل المحيط بكل ما في السماوات والأرض قال تعالى : ﴿ **إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء** ﴾[4].

وكذلك نفي وسلب الإرادة المنافي للاختيار ، والذُّل المنافي للعزة ، والسَّفه المنافي للحكمة .

---

(١) الفرقان : ٥٨ .
(٢) ق : ٣٨ .
(٣) البقرة : ٢٥٥ .
(٤) آل عمران : ٥ .

القسم الثاني : سلب منفصل :

وضابطه تنزيه الله سبحانه وتعالى عن أن يشاركه أحد من الخلق في شيء من خصائصه التي لا تنبغي إلاَّ له ، وذلك كنفي الشريك له في ربوبيته ، فإنه متفرِّد بتمام الملك والقوة والتدبير ، وفي إلهيته فهو وحده الذي يجب أن يألهه الخلق، ويفردوه بكل أنواع العبادة والتعظيم ، في أسمائه الحسنى وصفاته العليا ، فليس لغيره من المخلوقين شركة معه سبحانه وتعالى ، قال تعالى : ﴿ **قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض وما لهم فيهما من شرك وماله منهم من ظهير ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له** ﴾[1] .

ففي هاتين الآيتين نزَّه الله ـ سبحانه وتعالى ـ نفسه عن ثلاثة أشياء :

١ ـ عن الشرك معه في الملك .

٢ ـ عن المعاونة من خلقه له .

٣ ـ عن الشفاعة بغير إذنه .

وقال تعالى ـ نافياً عن نفسه اتخاذ الصاحبة (الزوجة) ، ومنزِّهاً نفسه عن الولد والنِّد والشريك : ﴿ **قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد** ﴾[2] . [3] .

---

(١) سبأ : ٢٢ ـ ٢٣ .

(٢) الإخلاص : ١ ـ ٤ .

(٣) انظر (شرح النونية) للدكتور محمد خليل هراس (٥٤ ـ ٥٩) .

الصحابة رضوان الله عليهم ـ لم يتنازعوا في باب الأسماء والصفات

إن باب الأسماء والصفات من أهم أبواب العقيدة الإسلامية ، فهو يتعلق بذات الله تعالى ، وصفاته العليا ، فهو أشرف الأبواب لتعلقه بأشرف ذات ، ولذلك لقد أوضحه الله عزَّ وجلَّ في كتابه العزيز أكمل توضيح ، وأحسن بيان ، فهو القائل جلَّ في عليائه : ﴿ **ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها** ﴾(١) . والقائل سبحانه وتعالى : ﴿ **فلا تضربوا لله الأمثال إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون** ﴾(٢) . والقائل جلَّ شأنه وعظمت صفاته : ﴿ **ليس كمثله شيء وهو السميع البصير** ﴾(٣) .

وقال سبحانه واصفاً نفسه بنفسه قائلا جل ذكْره : ﴿ **قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد** ﴾(٤) .

وأثبت لنفسه سبحانه وتعالى ـ كل صفات الكمال حيث قال تعالى في محكم التنزيل : ﴿ **للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء ولله المثل الأعلى وهو العزيز الحكيم** ﴾(٥).

قال الشخ السعدي ـ رحمه الله ـ :

﴿ **للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء** ﴾ أي المثل الناقص والعيب التام .

---

(١) الأعراف : ١٨٠ .
(٢) النحل : ٧٤ .
(٣) الشورى : ١١ .
(٤) الإخلاص : ١ ـ ٤ .
(٥) النحل : (٦٠) .

« ولله المثل الأعلى » وهو كل صفة كمال ، وكل كمال في الوجود فالله أحق به من غير أن يستلزم ذلك نقصاً بوجه من الوجوه ، وله المثل الأعلى في قلوب أوليائه ، وهو التعظيم ، والإجلال ، والمحبة ، والإنابة ، والمعرفة »[١] .

- وأيضاً لقد لقَّن الرسول ﷺ أصحابه الكرام - رضي الله عنهم - العقيدة الصحيحة والصافية ، وخاصة ما يتعلَّق بذات الله المقدَّسة وصفاته العليا ، وها هي أحاديثه الشريفة خير برهان على ذلك مما يضيق المقام بذكرها وحصرها . حتى تركهم على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلاَّ هالك . فجزاه الله عنهم وعنا وعن الإسلام والمسلمين خير الجزاء ، خير ما جزى به نبياً عن قومه ، ورسولاً عن أمته ﷺ .

- وها هم الصحابة الكرام خير الناس وخير القرون بشهادة الرسول ﷺ القائل: [**خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، ثم يجيء قوم تسبق شهادة أحدهم يمنه ،ويمينه شهادته**][٢] ، وفي رواية أخرى قال ﷺ : [**خير أمتي قرني**........][٣] لقد تربّى هؤلاء الصحابة - رضي الله عنهم - على العقيدة الصحيحة الصافية، فلقد أخذوها من المنبع الصافي ، من كتاب الله تعالى ، ومن الرسول ﷺ وخاصة ما يتعلق بالذات العليا ، ، فكانت المسألة عندهم واضحة وضوح الشمس لا غبار عليها ، ولذلك لم يستشكل عليهم شيء في هذا الباب ، باب الأسماء والصفات ، فلم يُنْقل لنا عن أحدهم أي خلاف أو تنازع في هذا

---

(١) تفسير السعدي لسورة النحل آية (٦٠) ص (٣٩٥) .
(٢) ، (٣) رواهما البخاري في كتاب (فضائل الصحابة) باب (فضل أصحاب النبي ﷺ) .

الباب ، وذلك من شدة وضوح هذه المسألة ، وأنهم قد تلقَّوها بالقبول والاعتقاد الجازم الذي لا يتسرَّب له أي شك أو تردُّد ، فكان مصدرهم الكتاب والسنة ، ولذلك كانت النجاة نصيبهم ، والاجتماع حليفهم ، والاختلاف أبعد ما يكون عنهم .

وهذا الاجتماع من الصحابة الكرام - رضي الله عنهم - في باب الأسماء والصفات لأكبر دليل على عظم هذا الباب لأنه يتعلَّق بذات الإله المقدَّسة ، وصفاته العليا ، وذلك بخلاف غيرها من المسائل التي ورد لنا تنازع الصحابة فيها من مسائل الأحكام وغيرها .

وهنا كلام قيم لابن القيم الجوزية - رحمه الله تعالى :

- قال ابن القيم - رحمه الله - :

« وقد تنازع الصحابة - رضي الله عنهم - في كثير من مسائل الأحكام ، وهم سادات المؤمنين ، وأكمل الأمة إيمانا، ولكن بحمد الله لم يتنازعوا في مسألة واحدة من مسائل الأسماء والصفات والأفعال ، بل كلهم على إثبات ما نطق به الكتاب والسنَّة ، كلمة واحدة من أولهم إلى آخرهم ، ولم يحرِّفوها عن مواضعها، ولا ضربوا لها أمثالاً ، ولم يقل أحدهم يجب صرفها عن حقائقها وحمله على مجازها، بل تلقوها بالقبول والتسليم وقابلوها بالإيمان والتعظيم ، وجعلوا الأمر فيها كلها أمراً واحداً ، وأجْروها على سنن واحدة »[1] .

---

(١) كتاب (أعلام الموقعين عن رب العالمين) لابن القيم (١ / ٤٩) .

- وقال رحمه الله في نونيته المشهورة :

العلم قـــال الله قـــال رسولـــه ... قال الصحابة هم أولوا العرفان

ما العلم نصبك للخلاف سفاهة ... بين الرسول وبين رأي فـــلان

كلا ولا جحد الصفات لربنـــا ... في قالب التنزيه والسبحـــان

كلا ولا نفي العلو لفاطر الأكوان ... فوق جميع ذي الأكـــوان

كلا ولا عزل النصوص وإنهـــا ... ليست تفيد حقائق الإيمـــان

إذ لا تفيدكـــم يقينـــاً لا ولا ... علماً فقد عزلت عن الإيقـــان

والعلم عندكم يـنال بغيرهـــا ... بزبالة الأفكـار والأذهـــان[1]

وأوضح العلامة ابن القيم - رحمه الله - قائلاً :

« انقضى عصر الصحابة والتابعين من السلف والأئمة على التسليم المطلق خاصة بما جاء في الكتاب والسنّة عن الذات الإلهية وصفاتها ، ولم يتنازعوا في مسألة واحدة من مسائل الأسماء والصفات والأفعال بل كلهم على إثبات ما نطق به الكتاب والسنة النبوية كلمتهم واحدة من أولهم إلى آخراهم لم يسعوها تأويلاً ولم يحرفوها عن مواضعها تبديلاً[2] » .

---

(١) نونية ابن القيم (مع شرحها للشيخ خليل هراس (٢ / ١٥٢) .

(٢) كتاب (أعلام الموقعين عن رب العالمين) لابن القيم (١/ ٤٩) .

الفصل الأول

إفراد العزيز الحكيم بالعبودية

المبحث الأول : تنزيه العزيز الحكيم عن الشريك والمِثْل والشَّبه

المطلب الأول : تنزيه العزيز الحكيم عن الشريك

المطلب الثاني : تنزيه العزيز الحكيم عن المِثْل والشَّبه

المبحث الثاني : تعبيد العباد للعزيز الحكيم

المطلب الأول : موسى ـ عليه السلام ـ يُعبِّد العباد للعزيز الحكيم

المطلب الثاني : عيسى ـ عليه السلام ـ يدعو لعبادة العزيز الحكيم



[المبحث الأول]

[تنزيه العزيز الحكيم عن الشريك ، والمِثْل والشَّبَه]

المطلب الأول : تنزيه العزيز الحكيم عن الشريك

المطلب الثاني : تنزيه العزيز الحكيم عن المِثْل والشَّبَه



[المطلب الأول]

(تنزيه العزيز الحكيم عن الشريك)

قال تعالى : ﴿ شهد الله أنه لا إله إلاَّ هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط لا إله إلاَّ هو العزيز الحكيم ﴾(١) .

﴿ وما من إله إلاَّ الله وإن الله لهو العزيز الحكيم ﴾(٢)

﴿ يا موسى إنه أنا الله العزيز الحكيم ﴾(٣)

﴿ إن الله يعلم ما يدعون من دونه من شيء وهو العزيز الحكيم ﴾(٤)

﴿ قل أروني الذين ألحقتم به شركاء كلا بل هو الله العزيز الحكيم ﴾(٥)

إن التعبُّد لله تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العليا من صميم التوحيد ، وأعلى مقامات العبودية لله تعالى ، ففيه يتحقق صفاء العقيدة ، وكمال التوحيد ، ونهاية الذُّل والافتقار لصاحب العزَّة والحكمة ، الكبير المتعال .

وإن من التعبُّد لله تعالى باسميه الحسنيين (العزيز الحكيم) وبصفتيه الحميدتين (العزَّة والحكمة) أن يُخْلص العبد لله تعالى توحيده ، وينقِّيه من

---

(١) آل عمران (١٨) .
(٢) آل عمران (٦٢) .
(٣) النمل (٩) .
(٤) العنكبوت (٤٢) .
(٥) سبأ (٢٧) .

شوائب الشرك ، وأدران الجاهلية ، ومن كل ما يُكدِّر صفوه ونقائه ، فينزِّه العزيز الحكيم عن الشريك والنِّد والكفو .

فإن العزيز صاحب العزَّة والقوة والمَنَعَة المطلقة التي لا يشاركه فيهم أحدٌ ، وصاحب الحكمة والحكم والإحكام الذي لا يشاركه ولا ينازعه فيهم أحد ، يأبى أن يكون معه شريك في ملكه ، وفي حكمه ، وفي سلطانه ، وبين خلقه ، فيغار على توحيده ، ويغضب على مَنْ أشرك معه غيره ، أو زعم أن له نداً أو شريكاً أو كفواً . فهو الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، الذي لم يلد ، ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد .

وإن العزيز الذي خلق الخلق وأوجده بقوته ، وخلق السموات والأرض بعزَّته، ورزق الخلق ، وأطعمهم وسقاهم ، وأحياهم ويميتهم ، ويبعثهم ، ويُثيبُهم ويعاقبهم، ويُنَعِّم مُوَحِّدُهم ، ويُعذِّب مشركهم ، بقدرته على الخلق وعزته التي غلبت وقهرت كل شيء ، ليغار على توحيده ، وينتقم ممن يشرك به ، ولا يبالي بأي نوع من أنواع العذاب يُعذِّبه .

وإن الحكيم الذي أوجد كل شيء بحكمته ، ولحكمة يعلمها ، وبإحكام يليق بجلاله وعظيم سلطانه ، والذي خلق الخلق وأمرهم بتوحيده ، ونهاهم عن الشرك ، والذي يسَّر لهم السبيلين ، وأعطاهم القدرة على طاعته وعصيانه وفق إرادة ومشيئة وحسب حكمة يعلمها ـ جلَّ في عليائه ـ ، فيهدي من يشاء إلى توحيده وطاعته بحكمته ورحمته وكرمه ، ويُضِلُّ من يشاء بعدله وحكمته وحكمه ، ويُنَعِّم مَنْ يشاء بحكمة سبقت في علمه ، ويعذِّب من يشاء وِفْق حكمة لا يعلمها إلا هو ، وكل ذلك في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى .

فالخلق خلقه ، والأمر أمره ، والكل عبيده ، والسماوات والأرض مطويات بيمينه ، وهو صاحب العزَّة والحكمة ، وله المثل الأعلى ، والأسماء الحسنى ، والصفات العليا ، يستحق التوحيد والعبادة ، والخضوع له والإنابة ، والذُّل والافتقار بين يديه ، فإن عذَّب فبعدل وعزة وقوة ، وإن نَعَّم فبحكمة وإكرام ، فلا تُصْرف العبادة إلاَّ له ولا يُعْبد سواه، ولا يُشْرَك به شيء، فكما أن له العزَّة المطلقة ، والحكمة البالغة ، فله التوحيد الخالص ، والخضوع التام ، سبحانه وتعالى العزيز الحكيم .

[أجلُّ الشهادات على توحيد العزيز الحكيم]

قال تعالى : ﴿ **شهد الله أنه لا إله إلاَّ هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط لا إله إلاَّ هو العزيز الحكيم** ﴾[1] .

إن الغاية من خلق الإنس والجن عبادة الله تعالي وتوحيده ، ونبذ الشرك وأهله وألاَّ يُعبد في ملك الله غيره جلَّ في علاه ، ولا ينازعه في ملكه وسلطانه وحكمه أي مخلوق من مخلوقاته ، فيتحقق التوحيد ويعزُّ أهله ، ويدحض الشرك ويُذَلُّ أهله ، فلا يُعبد إلاَّ العزيز صاحب العزة المطلقة ، ولا يألَّه إلاَّ الحكيم صاحب الحكمة والحكم والإحكام .

ومن أجل عِظَم هذا التوحيد ، قُبْح الشرك ، شهد الله جلَّ في علاه على وحدانيته ، وتفرده بالألوهية والوحدانية ، وشهد لذلك أيضا أشرف وأزكى خلقه وهم الملائكة وأولوا العلم على هذا التوحيد ، وتلك الألوهية ، ونبذ الشرك وأهله ، إجلالا لهذا الإله ، وتعظيماً له ، واعترافاً بحقه على خلقه .

---

(١) آل عمران (١٨) .

سبب نزول الآية الكريمة :

قال الإمام القرطبي - رحمه الله - :

((قال سعيد بن جبير - رضي الله عنه - : كان حول الكعبة ثلاثمائة وستون صنماً ، فلمَّا نزلت هذه الآية خَرَرْن سُجْداً وقال الكلبي: لما ظهر رسول الله - ﷺ - بالمدينة قَدِمَ عليه حِبْران من أحبار أهل الشام ، فلمَّا أبصرا المدينة قال أحدهما لصاحبه : ما أشبه هذه المدينة بصفة مدينة النبي الذي يخرج في آخر الزمان ! فلمَّا دخلا على النبي - ﷺ - عرفاه بالصفة والنعت، فقالا له : أنت محمد؟ قال (نعم). قالا وأنت أحمد ؟ قال : (نعم) قالا نسألك عن شهادة فإن أنت أخبرتنا بها آمنا بك وصدَّقناك . فقال لهما رسول الله - ﷺ - (سلاني) . فقالا : أخبرنا عن أعظم شهادة في كتاب الله . فأنزل الله تعالي على نبيه - ﷺ - « **شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط** »[1] فأسلم الرجلان وصدَّقا برسول الله - ﷺ - »[2] .

[تفسير الآية الكريمة] :

قال الحافظ ابن كثير - رحمه الله - :

((شهد تعالى وكفى به شهيداً وهو أصدق الشاهدين القائل :

﴿ **أنه لا إله إلاَّ هو** ﴾ أي المنفرد بالإلهية لجميع الخلائق ، وأنَّ الجميع عبيده وخلقه فقراء إليه وهو الغني عما سواه كما قال تعالى : ﴿ **لكن الله يشهد بما أنزل**

---

(١) آل عمران (١٨) .

(٢) تفسير القرطبي لسورة آل عمران آية (١٨) ، المجلد الثاني [جـ ٤ / ٢٧] .

إليك ... ﴾[1] ثم قرن شهادة ملائكته وأولي العلم بشهادته فقال : ﴿ **شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم** ﴾ وهذه خصوصية عظيمة للعلماء في هذا المقام .

﴿ **قائماً بالقسط** ﴾ منصوب على الحال وهو في جميع الأحوال كذلك .

﴿ **لا إله إلاَّ هو** ﴾ تأكيد لما سبق .

﴿ **العزيز الحكيم** ﴾ العزيز الذي لا يرام جنابه عظمة وكبرياء ، الحكيم في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره))[2] .

ويزد الأمر وضوحا الشيخ السعدي ـ رحمه الله ـ قائلاً :

((هذه أجلُّ الشهادات الصادرة عن الملك العظيم ، ومن الملائكة ، وأهل العلم ، على أجلِّ شهود عليه ، وهو توحيد الله ، وقيامه بالقسط ، وذلك يتضمن الشهادة على جميع الشرع ، وجميع أحكام الجزاء .

فإن الشرع والدين أصله وقاعدته توحيد الله وإفراده بالعبودية ، والاعتراف بانفراده بصفات العظمة والكبرياء ، والمجد ، والعزَّة ، والقُدْرة ، والجلال ، ونعوت الجود ، والبرِّ والرحمة ، والإحسان ، والجمال ، وبكماله المطلق الذي لا يُحْصِي أحد من الخلق أن يحيطوا بشيء منه ، أو يبلغوه ، أو يصلوا إلى الثناء عليه .

والعبادات الشرعية ، والمعاملات وتوابعها ، والأمر والنهي ، كله عدل وقسط ، لا ظلم فيه ولا جور ، بوجه من الوجوه ، بل هو في غاية الحكمة ، والإحكام والجزاء على الأعمال الصالحة والسيئة ، كله قسط وعدل .

---

(١) النساء (١٦٦) .

(٢) تفسير ابن كثير لسورة آل عمران آية (١٨) [١ / ٣٣٤] .

ـ قال تعالى : ﴿ قل أي شيء أكبر شهادة قل الله ﴾[١] .

فتوحيد الله ، ودينه ، وجزاؤه ، قد ثبت ثبوتاً لا ريب فيه ، وهو أعظم الحقائق وأوضحها ، وقد أقام الله علي ذلك من البراهين والأدلة ما لا يمكن إحصاؤه وعدُّه))[٢]

[غَيْرة العزيز الحكيم على توحيده] :

إن هذه الآية الكريمة التي بين أيدينا : ﴿ **شهد الله أنه لا إله إلاَّ هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط لا إله إلاَّ هو العزيز الحكيم** ﴾[٣] .

من أوضح الآيات على غَيْرة العزيز الحكيم على توحيده ، فلقد شهد صاحب العزَّة والحكمة بنفسه لنفسه وبذاته لذاته بالوحدانية ، وأنه الإله الأوحد، فلا إله غيره ، ولا معبود سواه ، فكما أن له العزة المطلقة ، والحكمة البالغة ، فله التوحيد الخالص ، فلا يُعْبد في ملكه إلاَّ هو ، ولا يأمر في سلطانه أحد غيره ، ولا يُذَلُّ إلاَّ لعزَّته ، ولا يُذْعن إلاَّ لحكمته ، فهو الإله الأحد ، الفرد الصمد ، العزيز الحكيم .

فمن كانت له العزَّة والحكمة ، ويفعل ما شاء بعزَّته وقوته ، ووفق حكمته وحكمه وإحكامه ، فهو أحق بالعبادة والتوحيد ، ولذلك ختم الله سبحانه وتعالى هذه الشهادة العظيمة منه على وحدانيته ، وكذلك تأكيده لهذه الوحدانية مرة

---

(١) الأنعام (١٩) .

(٢) تفسير السعدي لسورة آل عمران آية (١٨) ص (١٠٣) .

(٣) آل عمران (١٨) .

أخرى في آخـر الآية الكريمة ، بالعزيز الحكيم ، وختـمه لهذه الشهـادة وهذا الإقرار والتأكيد باسمين عظيمين وهما [العزيز الحكيم] ، وبصفتين حميدتين وهما [العزَّة والحكمة] لأكبر دلالة على العلاقة الوثيقة بين توحيد الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، وبين التعبُّد لله تعالى بهـذين الاسمين وبهاتين الصفـتين ، وأن من لم يتعبَّـد للعزيز الحكيم حق التعبُّد فلن يصل إلى كمال توحيد هذا الإله الواحد الأحد .

فعلى كل من أراد تحـقيق التوحـيد لله رب العـالمين ويصل إلى أعلى وأكـمل درجات هذا التوحيد ، فعليه أن يتفكَّر ويتمعَّن في هذين الاسمين وتلك الصفتين ، ويتعبَّد لله تعالى بمدلولهـما ، ويتذلَّل له بما يسـتوجبان ، حـتى يحقق التوحـيد الحق الذي ارتضاه وفرضه الله على خلقه ، فهو سبحـانه يغار على توحيده ، ويبغض من أشرك به ويعذبه في نيرانه ولا يبالي .

قال الإمام الطبري ـ رحمه الله ـ :

((وأما تأويل قوله : ﴿ **لا إله إلاَّ هـو العـزيز الحكـيم** ﴾ فـإنه نفى أن يكون شيء يستحق العبودة غير الواحد الذي لا شريك له في ملكه .

ويعنى بـ « العـزيز » ـ الذي لا يمتنع عـليه شيء أراده ، ولا يـنتصـر منه أحـد عاقبه أو انتقم منه .

و ((الحكيم)) في تدبيره ، فلا يدخله خلل .

ـ وإنما عنى جل ثناؤه بـهذه الآية نَـفْيَ ما أضـافت النصـارى الذين حـاجـوا رسول الله ـ ﷺ ـ في عيسى من البُنوَّة ، وما نَسـبَ إليه سائر أهل الشرك من أن له شريكاً ، واتخاذهم دونه أرباباً .

فأخبرهم الله عن نفسه أنه الخالق كل ما سواه ، وأنه ربٌّ كلٍّ ما اتخذه كلُّ كافر وكلُّ مشرك رباً دونه ، وأن ذلك مما يشهد به هو وملائكته وأهل العلم به من خلقه ، فبدأ جلَّ ثناؤه بنفسه ، تعظيماً لنفسه ، وتنزيهاً لها عمَّا نَسَبَ الذين ذكرنا أمرهم من أهل الشرك به ـ ما نسبوا إليها ـ كما سَنَّ لعباده أن يبدأوا في أمورهم بذكره قبل ذكر غيره ، مؤدِّباً خلقه بذلك))[1] .

كيفية التعبد من خلال الآية الكريمة :

إن كيفية التعبُّد للعزيز الحكيم من خلال الآية الكريمة بهذين الاسمين الحسنيين وبهاتين الصفتين الحميدتين ليظهر واضحاً من خلال الارتباط الوثيق بين تلك الشهادة العظيمة الجليلة ـ من الله تعالى ، ثم من الملائكة المقربين ، ثم من أولى العلم الذي هم صفوة خلق الله ـ وبين ختم الآية العظيمة بقوله ﴿ العزيز الحكيم ﴾ .

فلا يُحَقِّق التوحيد ، ولا يعترف لله بالوحدانية مَنْ لا يؤمن بهذين الاسمين وبهاتين الصفتين ، ولا يتعبَّد لله تعالى حق التعبُّد ، ويدين له بالعبودية الحقة مَنْ لا يتعبَّد لله بهذين الاسمين الحسنيين، وهاتين الصفتين الحميدتين .

ـ فوجب على المتعبِّد للعزيز الحكيم أن يحقِّق التوحيد لله جلَّ في علاه حتى يكون صادقاً في تعبُّده للعزيز الحكيم .

فكما أنه لا يَذِلُّ ولا يذعن إلاَّ للعزيز ، ولا يُسلِّم ولا يُفوِّض إلاَّ للحكيم ، فكذلك فلا يعبد ولا يصرف عبادته إلاَّ للإله الواحد الأحد ، فإيمانه بأنه هو العزيز

---

(١) تفسير الطبري لسورة آل عمران الآية (١٨) [٢/ ٢٣١] .

الذي له العزة المطلقة كما قال تعالى ﴿ فلله العزة جميعاً ﴾[١] .

وتسليمه وتفويضه بأن هذا الإله له الحكمة البالغة التي لا تدانيها أي حكمة، كما قال تعالى: ﴿ آ لر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ﴾[٢] .

وقال أيضاً : ﴿ وإن وعدك حق وأنت أحكم الحاكمين ﴾[٣] ، وقوله تعالى: ﴿ أليس الله بأحكم الحاكمين ﴾(٤) .

كل ذلك يجعله يُخْلص العبادة للعزيز الحكيم ، ويهديه إلى طريق التوحيد الذي خَلَقَ الله الجن والإنس من أجله كما قال تعالى : ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلاَّ ليعبدون ﴾[٥] . أي ليوحدون ، فسبحان العزيز الحكيم الواحد الأحد، الفرد الصمد ، الذي لم يلد ، ولم يولد ،ولم يكن له كفواً أحد .

التعبُّد للعزيز الحكيم بطلب العلم :

إن من التعبُّد للعزيز الحكيم جلَّ في علاه أن يطلب العبد العلم الشرعي الذي يُعرِّفه بالله تعالى ، وبأسمائه الحسنى ، وصفاته العليا .

فإنَّ طلب العبد للعلم الشرعي وسعيه في تحصيله ليجعل العبد أَعْرف من غيره بربه ، وأعلم به من سائر خلقه ، فيجعله يتعرَّف على مدى عزَّة وقدرة العزيز

---

(١) فاطر (١٠) .

(٢) هود (١) .

(٣) هود (٤٥) .

(٤) التين (٨) .

(٥) الذاريات (٥٦) .

في ملكه وبين خلقه ، وأن كل شيء في قبضته وتحت مشيئته ، ووفق إرادته ، ويقول للشيء كن فيكون ، وقدرته على تنظيم شؤون عباده وتصريفها ، وتنعيمهم وتعذيبهم ...

وكذلك فإن طلب العلم ليوقف العبد على مدى حكمة الحكيم ، وأنه أحكم الحاكمين ، وأنه صاحب الحكمة البالغة في خلقه ، خلقهم لحكمة ، ورزقهم بحكمة ، ومَنَّ على مَنْ شاء بالهداية بحكمته ، وأضلَّ من شاء لحكمة ، ويُمْهل من يشاء لحكمة ، وينتقم ممن يشاء بحكمة ولحكمة ، ويكتب السعادة لمن شاء وفق حكمته ، ويعذِّب من شاء لحكمة يعلمها سبحانه وتعالى العزيز الحكيم .

فإذا تعبَّد العبد للعزيز الحكيم ، فإنه سيحقق التوحيد الكامل الذي أراده الله منه والذي شهد الله عليه ، وأشهد عليه ملائكته ، وأولي العلم .

وتظهر لنا الحكمة من ذكر أولي العلم في هذه الآية التي تقرِّر التوحيد وتشهد بالوحدانية لله تعالى ، وختمها بهذين الاسمين الحسنيين ، « العزيز الحكيم » وبهاتين الصفتين الحميدتين « العزَّة والحكمة » ـ والله أعلم بمراده ـ أن العلاقة وطيدة ولصيقة بين طلب العلم والتعبُّد للعزيز الحكيم ، وتحقيق التوحيد الخالص للإله الواحد الأحد ـ سبحانه وتعالى ـ .

قال الإمام القرطبي ـ رحمه الله ـ :

((إن هذه الآية دليل على فضل العلم وشرف العلماء وفضلهم ، فإنه لو كان أحد أشرف من العلماء لقرنهم الله باسمه واسم ملائكته كما قرن اسم العلماء.

وقال في شرف العلم لنبيه - ﷺ - « وقل ربي زدني علماً »[١] .

فلو كان شيء أشرف من العلم لأمر الله تعالى نبيه - ﷺ - أن يسأله المزيد منه كما أمره أن يستزيده من العلم . وقال - ﷺ - : « **إن العلماء ورثة الأنبياء** »[٢] ، وقال : « **العلماء أمناء الله على خلقه** »[٣].

- وهذا شرف للعلماء عظيم ، ومحلٌّ لهم في الدين خطير »[٤] .

وقال الشيخ السعدي - رحمه الله - :

((وفي هذه الآية فضيلة العلم والعلماء ، لأن الله خصَّهم بالذِّكْر ، من دون البشر ، وقرن شهادتهم بشهادته وشهادة ملائكته ، وجعل شهادتهم من أكبر الأدلة والبراهين على توحيده ، ودينه وجزائه ، وأنه يجب على المكلَّفين قبول هذه الشهادة العادلة الصادقة .

وفي ضمن ذلك : تعديلهم، وأن الخلق تبع لهم ، وأنهم هم الأئمة المُتَّبَعُون ، وفي هذا من الفضل والشرف ، وعلو المكانة مالا يقادر قدره »[٥] .

---

(١) طه (١١٤) .

(٢) رواه الترمذي كتاب (العلم) باب (ما جاء من فضل العلم على العبادة) .
ورواه أبو داود كتاب (العلم) باب (الحث على طلب العلم) .

(٣) انظر تفسير القرطبي لسورة آل عمران آية (١٨) المجلد الثاني[جـ ٤ / ٢٧] .

(٤) تفسير القرطبي لسورة آل عمران آية (١٨) المجلد الثاني [جـ ٤ / ٢٧] .

(٥) تفسير السعدي لسورة آل عمران آية (١٨) ص (١٠٣) .

وقال العلامة ابن القيم ـ رحمه الله ـ :

((... ففي هذا أعظم دلالة وأوضحها على أن العَالَم مخلوق لخالق حكيم ، قدير ،عليم ، قدَّره أحسن تقدير ، نظَّمه أحسن نظام ، وإن الخالق له يستحيل أن يكون اثنين بل الإله واحد ، لا إله إلا هو تعالى عما يقول الظالمون والجاحدون علواً كبيراً ، وإنه لو كان في السماوات والأرض إله غير الله لفسد أمرهما واختلَّ نظامهما ، وتعطلت مصالحهما .

وإذا كان البدن يستحيل أن يكون المدير له روحان متكافئان متساويان ، ولو كان كذلك لفسد وهلك مع إمكان أن يكون تحت قهر ثالث ، هذا من المحال في أوائل العقول بداية الفطر لو كان فيهماآ لهة إلاَّ الله لفسدتا ، فسبحان الله رب العرش العظيم عما يصفون ، ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عمَّا يصفون))[1] .

[الموحِّدون أهدى أم المشركون]؟

قال تعالى : ﴿ وإنا أو إياكم لعلي هدى أو في ضلال مبين ﴾[2] .

وقال تعالى : ﴿ قل أروني الذين ألحقتم به شركاء كلا بل هو الله العزيز الحكيم ﴾[3] .

(١) « مفتاح دار السعادة » لابن القيم الجوزية [١ / ٢٤٢ : ٢٤٣] .

(٢) سبأ (٢٤) .

(٣) سبأ (٢٧) .

يجب على العبد المسلم المتعبِّد لله العزيز الحكيم بأسمائه الحسنى ، وصفاته العليا ، أن يُخْلص في عبادته لله تعالى ، ويتوجَّه بها له وحده ، ولا يصرفها إلاَّ له ـ جلَّ في عليائه ـ وأن ينزِّه الله عن الشرك والشريك ، فلا شريك له ، ولا معبود سواه ، بل هو الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، الذي لم يلد ، ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد ، فكل معبود دونه فهو باطل ، وكل إله غيره فهو مربوب له ، فهو الخالق والموجد والمحي والمميت ، وهو الإله والمعبود ، فمن خَلَقَ أحق أن يُعْبد كما أخبر بذلك ربُّ العزَّة مُبَرْهِناً على أحقيته للعبادة والأمر والنهي لأنه هو الخالق فقال ـ جلَّ ذِكْرُه ـ ﴿ **ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين** ﴾[1] . فحَقٌ لله تعالى أن يُعبْد ، فهذا حق للخالق ، فلا يستوي الخالق والمخلوق ، ولا يستوي مَنْ يَخْلُق ومَنْ لا يَخْلُق ، فهذا إله ، وهذا عبد ، قال تعال موضحاً الفرق ﴿ **أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون** ﴾[2] .

فإن الهُدَى كل الهُدَى ، والفطرة السليمة ، الصراط المستقيم ، أن يُعْبد هذا الإله الخالق ولا يُكْفَر ، ويُوحَّد ولا يُشْرك به شيء .

والضلال كل الضلال أن يُشْرَك مع الله إله آخر ، ويُصْرف له شيء من العبادات ، إنه الضلال ،والظلم ، والإجحاف ، وانتكاس الفطرة ، ولذلك أمر الله سبحانه وتعالى نبيه محمداً ـ ﷺ ـ أن يعبده وحده ، ونهاه عن عبادة أي إله أخر مما يعبد هؤلاء المشركون،وبيَّن له أن عبادة الله وحده هي الهدى وطريق الاستقامة، وهي الفلاح والرباح، وأن عبادة غيره هي الغي والضلال، والهلاك والخسران .

---

(١) الأعراف (٥٤) .

(٢) النحل (١٧) .

قال تعالى : ﴿ **قل إني نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله قل لا أتبع أهواءكم قد ضللت إذا وما أنا من المهتدين** ﴾(١) .

فإن العقل السليم ، والفِطَرة السوية لتُقرُّ وتعترف وتُذْعن أن التوحيد وعبادة الله تعالى أهدى الهُدَى ، وأن الشرك بالله والإلحاد في أسمائه وصفاته غي وضلال، وزلل وانتكاس ، وطمس لمعالم الفطرة ، وزيغ عن الحق ، واتباع للشيطان والهوى، وإلاَّ فإن الأمر واضح جلي ، ولا يحتاج لكثير فكر ، ولا إلى كثرة تأمُّل ، وإمعان ، بل من أول وَهْلة ، ومن أول نظرة ، وقليل فكر يتضح للعبد الحق من الباطل ، والهدى من الضلال ، والتوحيد من الشرك .

[الآلهة المزعومة لا تَخْلُق ولا تُعْبد] :

ولقد حاج الله تعالى هؤلاء المشركين الضالين وبيَّن فساد وضلال ما هم عليه من الشرك في كثير من آيات القرآن الكريم حتى لا يكون لهم عند الله حجة ، وليقطع عليهم كل سُبل الشرك والضلال .

فقال تعالى : ﴿ **إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له** ﴾(٢) .

وقال تعالى : ﴿ **والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون** ﴾(٣) .

---

(١) الأنعام (٥٦) .
(٢) الحج (٧٣) .
(٣) النحل (٢٠) .

وقال تعالى : ﴿ **واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون** ﴾[١] .

وليست قضية الخلق وحدها التي يُحاج بها المشركون لبيان ضلالهم ، وبطلان آلهتهم بل قضية البعث والاعادة مرة أخرى ، فمَنْ يملكها من هذه الآلهة المزعومة ؟ لا يملكها منهم أحد ، ولكن الذي يمكن الإعادة والبعث هو الذي قدر على الخلق ، وهو الإله الواحد الفرد الصمد ـ جلَّ في عليائه ـ .

قال تعالى : ﴿ **قل هل من شركائكم من يبدؤا الخلق ثم يعيده ، قل الله يبدؤا الخلق ثم يعيده فأنى تؤفكون** ﴾[٢] .

[**الآلهة المزعومة لا تملك ضراً ولا نفعاً**] :

إن هذه الآلهة المزعومة والباطلة لا تملك لأنفسها نفعاً ولا ضراً ، فلا تجلب لنفسها نفعاً ، ولا تدفع عن نفسها ضرراً ، فإذا كان هذا حالها فكيف تكون آلهة ، وكيف تُعْبد من دون الله.

قال تعالى منكراً على هؤلاء المشركين ومُبيِّناً ضلالهم وبطلان آلهتهم ، وفساد عقولهم ، وانتكاسة فطرتهم ﴿ **قل أفاتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً قل هل يستوى الأعمى والبصير ، أم هل تستوي الظلمات والنور ، أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم ، قل الله خالق كل شيء ، وهو الواحد القهار** ﴾[٣] .

---

(١) الفرقان (٣) .

(٢) يونس (٣٤) .

(٣) الرعد (١٦) .

نَعَم إن الله هوخالق كل شيء ، وهو سبحانه وتعالى الواحد القهَّار ، الذي خلق كل شيء بعزته وقدرته وحكمته ، وقهر كل شيء ، فهو الإله الواحد الأحد، الذي ملك كل شيء وخضع لعزته ، وسلَّم لحكمته كل شيء ، سبحانه وتعالى عما يشركون .

ولمَّا كانت هذه الآلهة المزعومة الباطلة لا تقدر على شيء ، ولاتملك لنفسها نفعاً ، ولا تدفع عن نفسها ضراً ، فكان من باب أولى ألاَّ تملك ذلك لغيرها، فإن هذه الآلهة الباطلة لا تملك أن تنفع معبوديها ، ولا تملك دفع الضر عنهم ، فكيف تكون آلهة ، وكيف يعبدونها من دون الله ـ تعالى الله عمَّا يشركون علواً كبيراً ـ؟!!

قال تعالى: ﴿ قل أتعبدون من دون الله ما لا يملك؛ لكم ضراً ولانفعاً ﴾[١] .

وقال تعالى:﴿ يدعوا لمن ضره أقرب من نفعه لبئس المولى ولبئس العشير ﴾[٢] .

وقال تعالى : ﴿ قل فمن يملك لكم من الله شيئاً إن أراد بكم ضراً أو أراد بكم نفعاً ﴾[٣] .

قال الشيخ السعدي ـ رحمه الله ـ :

((﴿ وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين ﴾[٤] .

---

(١) المائدة (٧٦) .
(٢) الحج (١٣) .
(٣) الفتح (١١) .
(٤) سبأ (٢٤) .

أي : إحدى الطائفتين منا ومـنكم على الهدى مستعـينة عليه ، أو في ضلال بيِّن ، منغـمـرة فيـه ، وهذا الكلام بقـوله من تبـيَّن له الحق ، واتضح له الصـواب ، وجزم بالحق الذي هو عليه ، وبطلان ما عليه خصمه .

أي : قد شرحنا مـن الأدلة الواضحة عندنا وعندكم ما به يُعْلم علمـاً يقيناً لا شك فيـه ، مَنْ المُحِق منا ومن المُبْطل ، ومن المهتـدى ومن الضال ؟ حتى إنه يصـير اليقين بعد ذلك ، لا فائدة فيه .

فإنك إذا وازنت بـين من يدعو إلى عبـادة الخالق بسـائر المخلوقات المتـصرِّف فيـها، بجـميع أنواع التـصرفـات ، المُسْدي جـميع النِّعم ، الذي رزقـهـم ، وأوصل إليهم كل نعمه ، ودفع عنهم كل نقـمة ، الذي له الحمد كله ، والملك كله ، وكل أحد من الملائكة فمَنْ دونهم خـاضعون لهيبـته ، متذللون لعظمته ، وكل الشـفعاء تخافه ، لا يشفع أحد منهم عنده إلاَّ بإذنه .

العلي الكبـير ، في ذاته ، وأوصـافـه ، وأفعـاله ، الذي له كل كمـال ، وكل جلال ، وكل جمال ، وكل حمد وثناء ومـجد ، يدعو إلى التقرب لمن هذا شأنه ، وإخـلاص العـمل له ، وينهى عن عـبـادة من سـواه ، وبين من يتـقـرَّب إلى أوثان ، وأصنام ، وقبور ، لا تخلق ، ولا ترزق ، ولا تملك لأنفسهـا ولا لمن عبدها نفعاً ولا ضراً ، ولا موتاً ولا حياة ، ولا نشوراً .

بل هي جـمـادات لا تعقل ، ولا تسـمع دعـاء عـابديها ، ولـو سمـعـته، مـا استجابت لهم، ويوم القيامة يكفرون بشركهم، ويتبرأون منهم، ويتلاعنون بينهـم ، ليس لهم قسط من الملك ، ولا شِرْكةً فيه، ولا لهم شفاعة يستقلُّون بها دون الله .

فهـو يدعو مَنْ هذا وصـفه، ويتقـرَّب اليه مـهما أمكنه ، ويـعادى مَنْ أخلص الدين لله، ويحاربه ، ويُكَذِّب رسل الله ، الذين جاءوا بالإخلاص لله وحده .

تبين لك أي الفريقين المهتدى من الضال ، والشقي من السعيد ؟ ولم يحتج إلى أن يُعَينَّ لك ذلك لأن وصف الحال أوضح من لسان المقال ...

﴿ قل ﴾[١] لهم يا أيها الرسول - ﷺ - ومَنْ ناب مَنَابَك :

﴿ أروني الذين ألحقتم به شركاء ﴾[٢] أي : أين هم ؟ وأين السبيل إلى معرفتهم ؟ وهل هم في الأرض أم في السماء ؟

فإن عالم الغيب والشهادة قد أخبرنا أنه ليس في الوجود له شريك ...

وكذلك خواص خلقه من الأنبياء والمرسلين لا يعلمون له شريكاً فيا أيها المشركون أروني الذين ألحقتم بزعمكم الباطل « به » أي : بالله « شركاء » .

وهذا السؤال لا يمكنهم الإجابة عنه ، ولهذا قال :

﴿ كلا ﴾[٣] أي : ليس لله شريك ، ولا نِدٌّ ، ولا ضِدٌّ .

﴿ بل هو الله ﴾[٤] الذي لا يستحق التأله والتعبُّد إلاّ هو .

﴿ العزيز ﴾[٥] الذي قهر كل شيء ، فكل ما سواه فهو مقهور له ، مُسخَّر مدبرٌ .

﴿ الحكيم ﴾[٦] الذي أتقن ما خلقه ، وأحسن ما شرعه .

---

(١) سبأ (٢٧) .
(٢) سبأ (٢٧) .
(٣) سبأ (٢٧) .
(٤) سبأ (٢٧) .
(٥) سبأ (٢٧) .
(٦) سبأ (٢٧) .

ولو لم يكن في حكمته وفي شرعه إلاَّ أنه أمر بتوحيده، وإخلاص الدين له ، أوجب ذلك ، وجعله طريقاً للنجاة ، ونهى عن الشرك به واتخاذ الأنداد من دونه، وجعل ذلك طريقاً للشقاء والهلاك، لكفى بذلك برهاناً على كمال حكمته .

فكيف وجميع ما أمر به ونهى عنه ، مشتمل على الحكمة ؟!!! »[1] .

فوجب على العبد المسلم المتعبِّد لله تعالى بأسمائه الحسنى ، وصفاته العليا ، أن يُفْرد العزيز الحكيم ، صاحب العزَّة الكاملة المطلقة ، والحكمة التامة البالغة بالعبودية ، وألاَّ يصرف شيئاً من العبادة إلاَّ له ، ولا يُشْرك به أحداً لا في قول ، ولا في فعل ، ولا في كبير ، ولا في صغير ، تعبُّدًا لله تعالى ، وتنزيهاً له عن الشريك ، واعترافاً بحق الإله العزيز الحكيم أن يُفْرَد في ملكه بالعبادة والألوهية .

فالكون كونه ، والخلق خلقه ، والعباد عبيده ، والأمر بيده ، والسماوات والأرض ملكوته ، والكل تحت قهره ، والأمور وفق مشيئته ، وقدره نافذ ، وقضاؤه مُحكم ، ولا يكون إلاَّ ما أراده ، فلا يُعْبد في ملكوته إلاَّ هو ، ولا يأمر ولا ينهى إلاَّ صاحب العزَّة المطلقة والحكمة البالغة ، والكل له عبيد ، وهو مُنزَّه عن الندِّ والشريك ، فهو الغني الحميد ، فلا يليق أن يُنْسَبَ له الشريك ، فقدْره أعظم ، وشأنه أبلغ ، وذاته مقدَّسة ، وصفاته عن النقص منزَّهة ، فله كل صفات الكمال ، والجمال ، والعظمة ، والإجلال ، والكبرياء ، تعالى في عليائه وعَظُمَتْ أسماؤه ، وتقدَّست صفاته ، العزيز الحكيم جلَّ جلاله .

(١) تفسير السعدي لسورة سبأ الآية (٢٤ ، ٢٧) ، (ص ٦٢٥ : ٦٢٦) .

[المطلب الثاني]

تنزيه العزيز الحكيم عن المِثْل والشَّبَه

قال تعالى : ﴿ للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء ولله المثل الأعلى وهو العزيز الحكيم ﴾(١) .

وقال تعالى : ﴿ وهو الذي يبدؤا الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾(٢) .

وقال تعالى : ﴿ وله الكبرياء في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾(٣) .

وقال تعالى : ﴿ عالم الغيب والشهادة العزيز الحكيم ﴾(٤) .

إن من التعبُّد لله العزيز الحكيم بهذين الاسمين الحسنيين ، وهاتين الصفتين الحميدتين ، أن ينزِّه العبدُ ربَّه وإلاهه عن المِثْل والشبيه ، فإن صاحب العزَّة المطلقة ، والحكمة البالغة ، الذي له الأسماء الحسنى ، والصفات العليا ، له المَثَلُ الأعلى في السماوات والأرض ، ولا يليق بجلاله وعظيم سلطانه ، أن يكون له مثيل ، ولا شبيه ، فلا يدانيه أحد في صفة من صفاته ، ولا في اسم من أسمائه، فإن له - سبحانه - الكمال المطلق ، والعظمة المطلقة ، فليس له مثيل ، ولا يُضْرَبُ له الأمثال التي لا تليق بجلاله وعظمته ، بل له المثل الأعلى في السماوات والأرض .

---

(١) النحل (٦٠) .

(٢) الروم (٢٧) .

(٣) الجاثية (٣٧) .

(٤) التغابن (١٨) .

فهو المُتفَرِّد بكل صفات الكمال ، وصاحب الكمال في تلك الصفات كلها .

والكل لله مخلوق، والعباد عبيده، والملك ملكه، والسلطان سلطانه، فحاشا لصاحب العزَّة والحكمة، والملك والسلطان، أن يكون له مِثْل أو شَبَهٌ، وهو القائل عن نفسه ـ جلَّ في عليائه ـ ﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾[1] .

فَنَفَى سبحانه وتعالى عن نفسه أن يكون مثله شيء ، وأثبت لذاته الأسماء الحسنى والصفات العليا ، مع أنه ليس كمثله شيء على الإطلاق ، ولكنه أيضا يتَّصف بصفات ، ويُسَمَّى بأسماء ، ولكنها منزَّهة عن المِثْل والشَبَه .

فكان ذلك رداً على المُشَبِّه الذين شَبَّهوا الله بخلقه فردَّ عليهم ـ جلَّ في علاه ـ بقوله تعالى : ﴿ ليس كمثله شيء ﴾[2] .

وردَّ على المُعَطِّلة الذين نفوا كل الأسماء والصفات عن الله تعالى ـ أو بعضها ـ فردَّ عليهم سبحانه وتعالى مُثْبِتاً لذاته الأسماء والصفات ﴿ وهو السميع البصير ﴾[3] ، وأخبر عباده أن هذه الأسماء الحسنى ، وهذه الصفات العليا لا يشاركه فيها أحد فقال : ﴿ ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون ﴾[4] .

---

(١) الشورى (١١) .
(٢) الشوري (١١) .
(٣) الشورى (١١) .
(٤) الأعراف (١٨٠) .

وأيضا في إخباره سبحانه عن نفسه وذاته وأسمائه وصفاته ، ونفيه للمثل والشبه لإضاءةِ للطريق ، طريق المتعبِّدين لله العزيز الحكيم ، السميع البصير ، الذي له الأسماء الحسنى ، والصفات العليا ، ودرساً ومنهجاً في كيفية تنزيه الله - سبحانه وتعالى - عن كل نقص ، وكل عيب ، وإفراده - سبحانه وتعالى - بكل صفات الكمال والجلال والعظمة والكبرياء ، فلا يضاف لله عزَّ وجلَّ ألاَّ المَثَل الأعلى ، ولا يُضْرب له إلاَّ المثل الأعلى ، كما أخبر عن نفسه قائلاً - عزَّ مِنْ قائل - ﴿ ولله المثل الأعلى وهو العزيز الحكيم ﴾[1] .

وقال : ﴿ وله المثل الأعلى في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾[2] .

فلا يكون للعزيز الحكيم ، صاحب العزَّة المطلقة ، والحكمة البالغة إلاَّ المثل الأعلى الذي يليق بمقام عزَّته ، وبعظيم حكمته .

[النهي عن ضرب الأمثال لله تعالى]:

لقد نَهَى الله تعالى عباده وخلقه أن يضربوا له الأمثال كما قال - عزَّ مِنْ قائل - ﴿ فلا تضربوا لله الأمثال ﴾[3] .

والمقصود بالأمثال هنا المنهي عنها هي الأمثال التي تدل على التشبيه ، والنقص ، والعيب .

---

(١) النحل (٦٠) .

(٢) الروم (٢٧) .

(٣) النحل (٧٤) .

قال الإمام القرطبي ـ رحمه الله ـ :

((فإن قيل : أن قوله : ﴿ فلا تضربوا لله الأمثال ﴾ أي الأمثال التي توجب الأشباه والنقائص ، أي لا تضربوا لله مثالاً يقتضي نقصاً وتشبيهاً بالخلق .

والمثل الأعلى وصفه بما لا شبيه له ولا نظير ، جلَّ وتعالى عمَّا يقول الظالمون والجاحدون علواً كبيراً))(١) .

فإن تعظيم الله ـ تعالى ـ والابتعاد عن كل ما يؤدي إلى التشبيه والنقص ، فإنه عبادة لله ـ جلَّ في علاه ـ ومن أعلى مقامات التوحيد والعبودية لله العزيز الحكيم ، ولذلك فقد أثبت العزيز الحكيم لنفسه المثل الأعلى ، وتعبَّد عباده الصالحين بالأَّ يضربوا لجلاله إلاَّ المثل الأعلى الذي يليق بجلاله وعظيم سلطانه .

[المقصود بالمثل الأعلى]:

لـمَّا تعبَّد الله ـ عزَّ وجلَّ ـ عباده المؤمنين بألاَّ يضربوا له الأمثال التي تُفْضي إلى التشبيه والتمثيل والنقص والانتقاص، تعبَّدهم أيضاً بأن يضربوا له المثل الأعلى في السماوت والأرض وعَدَّ ذلك منهم عبادة وتقرباً له ، بل هو أعلى مقامات التوحيد، فإن معرفة الإله حق المعرفة بأسمائه وصفاته لحرىٌ بأن يجعل العبد يعبد هذا الإله حق العبادة التي أرادها الله منه ، ولذلك أثبت الله تعالى لنفسه ذلك قائلا:

﴿ ولله المثل الأعلى وهو العزيز الحكيم ﴾(٢).

وقال:﴿ وله المثل الأعلى في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾(٣) .

---

(١) تفسيرالقرطبي لسورة النحل آية (٧٤) المجلد الخامس [جـ ١٠ / ٧٩] .

(٢) النحل (٦٠) .

(٣) الروم (٢٧) .

والمقصود بالمثل الأعلى ـ كما قال أهل التفسير ـ ما يلي :

قال الإمام الطبري ـ رحمه الله ـ :

((وقوله : ﴿ **ولله المثل الأعلى** ﴾ يقول : ولله المثل الأعلى في السماوات والأرض ، وهو أنه لا إله إلاَّ هو وحده لا شريك له ، ليس كمثله شيء ، وذلك المثل الأعلى ، تعالى ربنا وتقدَّس))[١].

وقال أيضاً ـ رحمه الله ـ :

((﴿ **ولله المثل الأعلى** ﴾ يقول : ولله المثل الأعلى ، وهو الأفضل والأحسن والأجمل ، وذلك التوحيد والإذعان له بأنه لا إله غيره))[٢] .

وقال الإمام القرطبي ـ رحمه الله ـ :

((وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ ﴿ **مثل السوء** ﴾ : النار .

و ﴿ **المثل الأعلى** ﴾ : شهادة أن لا إله إلاَّ الله))[٣].

وقال الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله ـ :

((﴿ **ولله المثل الأعلى** ﴾ : أي الكمال المطلق من كل وجه وهو منسوب إليه))[٤] .

---

(١) تفسير الطبري لسورة الروم آية (٢٧) [٦ / ١٠٢] .

(٢) تفسير الطبري لسورة النحل آية (٦٠) [٤ / ٥٣٠] .

(٣) تفسير القرطبي لسورة النحل آية (٦٠) [جـ ١٠ / ٧٩] .

(٤) تفسيرابن كثير لسورة النحل آية (٦٠) [٢ / ٥٥٥] .

وقال أيضا ـ رحمه الله ـ :

((عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ : كقوله تعالى : ﴿ **ليس كمثله شيء** ﴾[١] .

وقال قتادة ـ رحمه الله ـ : مثله أنه لا إله إلاَّ هو ولا رب غيره ...

ـ وعن محمد بن المنكدر ـ رحمه الله ـ قال : لا إله إلاَّ الله))[٢] .

وقال الشيخ السعدي ـ رحمه الله ـ :

((﴿ **ولله المثل الأعلى** ﴾ : وهو كل صفة كمال ، وكل كمال في الوجود فالله أحق به من غير أن يستلزم ذلك نقصاً بوجه من الوجوه ، وله المثل الأعلى في قلوب أوليائه ، وهو : التعظيم والإجلال ، والمحبة ، والإنابة والمعرفة))[٣] .

وقال أيضا ـ رحمه الله ـ :

((﴿ **وله المثل الأعلى في السماوات والأرض** ﴾ : وهو كل صفة كمال . والكمال من تلك الصفة ، والمحبة والإنابة التامة الكاملة ، في قلوب عباده المخلصين، والذِّكْر الجليل ، والعبادة منهم .

فالمثل الأعلى : هو وصفه الأعلى وما يترتب عليه .

---

(١) الشورى (١١) .

(٢) تفسير ابن كثير لسورة الروم آية (٢٧) [٣ / ٤٠٦] .

(٣) تفسير السعدي لسورة النحل آية (٦٠) ص (٣٩٥) .

ولهذا كان أهل العلم ، يستعملون في حق الباري قياس الأولى فيقولون : كل صفة كمال في المخلوقات فخالقها أحق بالاتصاف بها على وجه لا يشاركه فيها أحد .

وكل نقص في المخلوق ينزَّه عنه ، فتنزيه الخالق عنه من باب أولى وأحرى))(١) .

[تنزيه العزيز الحكيم عن المِثْل والشَّبَه من أعلى مقامات العبودية لله تعالى] :

إن من أعلى مقامات العبودية للعزيز الحكيم أن ينزِّهه العبد عن المثل والشبه ، فلا يُنْسب لله تعالى ما لا يليق به تشبيهاً بالخلق ، فإن للخالق في علاه ما ليس لعباده ،وليس كل ما يُحْمد ويُمْدَح به العبد يُنْسب للخالق ، فإن الخالق مُنزَّه عن كل ما يحتاج إليه العبد من صفات النقص ، وإن كانت في حق العبد تعتبر صفات مدح وثناء بل وكمال ومن ذلك [الولد ـ والزوجة ـ والكفو والمثيل والشبيه ـ والشريك ..] .

روى الإمام البخاري ـ رحمه الله ـ :

عن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : ((**قال الله تعالى : كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك ، وشتمني ولم يكن له ذلك ، فأما تكذيبه إياي :فزعم أني لا أقدر أن أعيده كما كان ، وأما شَتْمُه إياي : فقوله لي ولدٌ ، فسبحاني أن أتخذ صاحبة أو ولداً**))(٢) .

(١) تفسير السعدي لسورة الروم آية (٢٧) ص (٥٨٩) .

(٢) رواه البخاري كتاب (تفسير القرآن) باب ﴿ **وقالوا اتخذ الله ولداً سبحانه** ﴾ .

فإن مَنْ استعظم على الله أن يعيد الخلق مرة أخرى ويبعثهم من قبورهم فقد كفر بالله ، وكفر بعزَّة الله وقدرته التي لا تعجز عن فعل أي شيء يريده الله ويُقدِّره، وكذلك أشرك لأنه شبَّه العزيز الحكيم بخلقه في العجز وعدم الاستطاعة ـ تعالى الله عمَّا يقولون علواً كبيراً ـ .

وكذلك من نسب لله الولد فقد مثَّل الخالق بالمخلوق ونسب له مالا يليق به ، فأثبت للعزيز الحكيم ما يُشْبه به المخلوق من صفات النقص في حق الإله وهي [الولد ، الزوجة ـ الحاجة للغير ...] فكل ذلك شرك بالله وكفر به وإن كان ذلك ممدوحة في حق المخلوق ، ومدعاة للفخر وسبباً للقوة ، مثل [كثرة الولد ، والأتباع، والأقارب ، والأصحاب ...] فكل ذلك في حق الإله نقص واحتياج ، يُنزَّه عنه الإله الحق العزيز الحكيم ، صاحب العزَّة المطلقة ، والحكمة البالغة ، الذي يقول للشيء كن فيكون ، ولا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء ، وهو الغني الحميد .

ولذلك لمَّا كان ادعاء المِثْل والشَّبَه في مثل هذه الأشياء لله العزيز الحكيم شرك به وكفر بألوهيته كان نفي ذلك عن العزيز الحكيم ، وتنزيهه عن المِثْل والشَّبَه عين التوحيد ، وأصل الدين ، وأعلى مقامات العبودية ، وأوثق عُرَى الإيمان ، ومن صفات عباد الله الموحِّدين ، الذين يتعبَّدون لله تعالى بأسمائه الحسنى ، وصفاته العليا .

[أثر التعبُّد للعزيز الحكيم بتنزيهه عن المِثْل الشَّبَه]

ومما سبق تبيَّن لنا أن تنزيه العزيز الحكيم عن المِثْل والشَّبَه نوع من أنواع التعبُّد لله تعالى بأسمائه الحسنى ، وصفاته العليا ، بل إنه عين التوحيد ، وأوثق عُرَى الإيمان ، وأصل الدين ، وكما ورد عن كثير السلف وأهل التفسير - كما أسلفنا - أنهم فسَّروا « المَثَل الأعلى » أنه كلمة التوحيد « لا إله إلاَّ الله » .

ويتبقى لنا أن نشير هاهنا ولو على سبيل السرعة إلى بعض آثار هذه العبادة ، وذلك التعبُّد للعزيز الحكيم بتنزيهه عن المِثْل والشَّبَه - جلَّ في علاه - وإن كانت هذه الآثار تكاد لا تُحْصى ، ولكن ما هي إلاَّ إشارات إلى بعضها ، ولعل البعض يشير إلى غيره من الآثار التي يستشعرها العبد المتعبِّد للعزيز الحكيم ، بل ويعيشها ويتعبَّد لله تعالى بها ، ومن هذه الآثار ما يلي :

١ - [التعلق بالله وحده]:

فإن العبد الذي عبد هذا الإله ووحَّده ، وأفرده بالعبادة ، وتعبَّد إليه بأسمائه الحسنى وصفاته اللعيا ، وعلم واعتقد وأيقن بأنه إله عزيز حكيم ، له العزة المطلقة ، والقدرة والقوة القاهرة ، والحكمة والحكم والإحكام البالغين في العظمة كل ذلك يجعل العبد المتعبِّد للعزيز الحكيم لا يتعلق إلاَّ بالله وحده ، ولا يثق ويأمل إلاَّ في صاحب العزة المطلقة ، والحكمة البالغة .

فكما أن هذا الإله له التفرُّد الكامل في صفاته وجلاله وعظمته ، فكذلك لابد أن يُفْرِدَه العبد بالتعلُّق واللجوء ، فلا يُعَلِّق قلبه بغيره ، فليس لغيره ماله ، وليس عند غيره من الأسماء والصفات ما عند هذا الإله ، وليس لغيره من العزَّة ،

والقوة ، والقدرة ، والحكمة ، والحكم ، والإحكام ، ما عنده - تبارك وتعالى في عليائه - .

فلا يُعَلِّق العبد قلبه إلاَّ بمن يملك الأمر ، وبصاحب العزَّة والقوة ، وصاحب الحكمة والحكم ، المُتفرِّد عن خلقه ، المنزَّه عن المِثْل والشَّبه ، العزيز الحكيم قال تعالى : ﴿ ولله المثل الأعلى وهو العزيز الحكيم ﴾[1] .

٢ - [الاعتصام بالعزيز الحكيم وحده] :

إن من التعبُّد للعزيز الحكيم بتنزيهه عن المِثْل والشبه ، ومن آثار هذه العبادة وهذا التعبُّد ، تتولَّد عند العبد عبادة أخرى يتقرب بها للعزيز الحكيم ، ويتعبَّده بها ألا وهي [الاعتصام بالعزيز الحكيم وحده] وذلك لأنه لـمَّا علم العبد وأعتقد أن للعزيز الحكيم التفرُّد في أسمائه وصفاته ، وله الكمال والإحكام في تصرفاته وأفعاله - جلَّ في علاه - ومع ذلك فهو العزيز صاحب القوة والعزة ، والقهر والسلطان ، والحكمة والإحكام ، وبيده كل شيء ولا يعجزه شيء في مكله ، كل ذلك يجعل العبد يعتصم بذلك الرب ، ويؤمِّل في ذلك الإله ، ويلوذ بصاحب العزة والقوة والقهر والسلطان ، فكما أنه أفرده بكل صفات الكمال ومنها القوة والعزة والحكمة ، فإنه أيضا يُفْرده بالاعتصام به وحده دون غيره ، فيؤمِّل فيه الأمل والرجاء وقضاء الحاجات ، وتفريج الكربات ، والنصر على الأعداء ، والنجاة من كل المهالك والأخطار ، وتربص الأعداء ، وغير ذلك من الحاجات ، فلا يملك زمام الأمور ، ومقاليد السماوات والأرض إلاَّ هذا الإله المتفرِّد بكل صفات الكمال

---

(١) النحل (٦٠) .

والجلال ، المنزَّه عن المِثْل والشـبه ، فليس لأحد قـوة كقوته ، ولا عزة كـعزته ، ولا حكمة كحكمته ، ولا تصرُّف في الأمور كتصرفه ، فكل ذلك يدفع المتعبِّد للعزيز الحكيم الذي نزَّهه عن المِثْل والشَّبَه أن يعتصم به وحده ويلجأ إليه في كل ما يخافه ويؤمِّله ـ جلَّ في عليـائه ـ وتفـرَّد في أسـمائه وصـفـاته ، وتنزَّه عن الشـريك والمِثْل والشَّبَه ، ولم يعجزه شيء في ملكه ، وهو العزيز الحكيم .

قال الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله ـ :

((وهو ﴿ العزيز ﴾ : الذي لا يغالب ولا يمانع ، بـل قد غلب كل شيء ، وقهر كل شيء بقدرته وسلطانه.

﴿ الحكيم ﴾ : في أقواله وأفعاله شرعاً وقدراً))[1] .

٣ ـ [مراقبة العزيز الحكيم وحده] :

إن من آثار تعبُّد العبد لربه العـزيز الحكيم بتنزيهه عن الشَّبَه والمِثْل أن [يراقب العبد ربه] ، ذلك العـبد الذي آمن بهذا الإله العزيز الحكيم الـذي تفرَّد بالألوهية ، وبالعزة ، وبالحكمة ، وبكل صفـات الكمال والإجـلال والعظمة ، وآمن به العـبد وتعبَّد إليه بأسمائه الحسنى ، وصفاته العليا ، وعَلِمَ أنه لا يوجد مثيل له ، ولا شبيه، ولا كفـوٌ ، فهـو المتفرِّد في عـليائه ، بالعـزة والحكمة ، والعلم والإحـاطة ، فوجب على هذا العبـد أن يراقبه ويخـشاه ، ويستـشعر مراقـبته له واطلاعـه عليه ، وأن مِنْ وراء هذا الإطلاع والعلم الذي لا يترك شيئاً إلاَّ أحصاه ، مِنْ ورائه عزة وقوة وقدرة يهيمن بها هذا الإله العزيز الحكيم على خلقه ، ويفعل فيهم ما يشاء بقدرته وعزته،

---

(١) تفسير ابن كثير لسورة الروم آية (٢٧) [٣ / ٤٠٦] .

وذلك وفق حكمته ومشيئته فيخاف ذلك العبد أن ينتقم منه العزيز بقوته وقدرته ، ويخشى أن يُذلَّه العزيز بعد عزة ، ويهلكه بعد عافية ، ويفضحه بعد سِتْر ، ويعذِّبه بعد تنعيمه ، ويغضب عليه بعد رضاه ، عن قوة وعزة وحكمة يدعو ذلك كله العبد المتعبِّد لربه العزيز الحكيم ، الذي نزَّهه عن المِثْل والشَّبَه ، أن يراقبه ويخشاه ، ويصرف له من المراقبة والخشية مالا يصرفه لغيره ، لأنه لا مِثْل له ، ولا شبيه لذاته، جل وتعاظم في عليائه .

٤ - [استنصار العزيز الحكيم وحده] :

إن العبد المتعبِّد للعزيز الحكيم ، بأسمائه وصفاته ، والذي نزَّهه عن المِثْل والشَّبَه وعلم تفرُّده في صفاته ، وأفعاله ، وحكمته ، وعزته ، ومشيئته ، وأن له العزة المطلقة والحكمة البالغة ، وأنه صاحب عزَّة يُعزُّ بها من يشاء بحكمته ، وصاحب قوة ينصر بها من يشاء من عبادة عن حكمة بالغة ، وله قدرة وهيمنة لا يخرج عنها وعن سلطانها أحد ، كل ذلك يجعله يطلب النصر من العزيز الحكيم إذا طغى الأعداء ، وإذا استبدَّ الطغاة ، وإذا احلولك الظلام ، فلا ملجأ من الله إلاَّ إليه ، ولا استنصار إلاَّ بالعزيز الذي لا يشاركه أحد ، ولا يماثله شيء في عزته وقوته ، ولا يخرج عن حكمته ومشيئته مخلوق ، فلا يكون لذلك العبد ملجأ ، ولا ملاذ ، ولا قوة إلاَّ الالتجاء والاستنصار بالواحد الأحد المتفرِّد بالألوهية وبالعزة والحكمة ، والمنزَّه عن المثل والشبه ، فكما أنه لا مثيل ولا شبيه له ، فلا يستنصر العبد أحداً غيره ، لأن الأمر كله له ، والنصر من عنده ، والعزة كلها عزته ومنحة من عنده يكسوها من شاء من عباده بقوته وحكمته .

فهذا المتعبِّد للعزيز الحكيم الذي تعوَّد على تنزيه العزيز الحكيم عن المِثْل والشَّبَه ، ويُفْرِده بالعبادة ، فإنه أيضا عند الاستنصار يُفْرَده بطلب النصر فلا يستنصر غيره ، ولا يطلب العون على الأعداء إلاَّ منه ، فالعزة من عنده ، والنصر بحكمته . وهو العزيز الحكيم الذي يملك مقاليد السماوات والأرض ، وهو القادر على أن يهلك الأعداء ، وينتقم من الكفار ، وينصر عباده الأولياء .

وأيضاً حينما يستنصر العبد بإخوانه في الله ـ كما قال تعالى : ﴿ **وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر** ﴾[1] .

يعلم العبد أنه حين يستنصر إخوانه فإنه يستجيب لتوجيهات ربه ومولاه ـ ويعلم أن الأمر لله من قبل ومن بعد ، وأن النصر لا يأتي إلاَّ من عند العزيز الحكيم، وأن إخوانه ما هم إلاَّ سبب من أسباب النصر ، إذا أراده الله عزَّ وجلَّ لعباده المؤمنين ، ويبقى النصر كله بيدي الله ومن عنده ، كما قال تعالى : ﴿ **وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم** ﴾[2] .

قال الإمام الطبري ـ رحمه الله ـ :

((يقول تعالى ذكره : وهو ﴿ **العزيز** ﴾ في انتقامه من أعدائه .

﴿ **الحكيم** ﴾ في تدبيره خلقه ، وتصريفهم فيما أراد من إحياء وإماته ، وبعثٍ ونشرٍ ، وما شاء))[3] .

---

(١) الأنفال (٧٢) .

(٢) آل عمران (١٢٦) .

(٣) تفسير الطبري لسورة الروم آية (٢٧) [٦ / ١٠٢] .

٥ - [الصبر على الأذى مع القدرة على الانتقام] :

إنه لحريٌّ بالعبد المتعبِّد للعزيز الحكيم بأسمائه وصفاته أن يخرج بثمرات ويتخلق بأخلاق ، ويتحلَّى بصفات قد أثمرت فيه وأثَّرت من جراء تعبُّده ، بربه ومولاه ، وخاصة ونحن أمام هذه الآيات ، ومع تلك العبادات التي يتقرب بها العبد لربه ومولاه ، ومنها تنزيه العزيز الحكيم عن المِثْل والشبه ، وكيف أن الله عزَّ وجلَّ قد سمع قول هؤلاء المفترين الذين ضربوا لله مثل السوء ، وأشركوا به ، وجعلوا له الولد ، بل وألصقوا به الإناث ، هذه القسمة الجائرة ، فلم يكفهم كفرهم بالله وادعاء الولد له ، بل تعدَّى ظلمهم أنهم ظلموا حتى في كفرهم ، وجاروا في قسمتهم ، فقال تعالى : ﴿ **تلك إذا قسمة ضيزى** ﴾[1] .

ورغم قدرة الله تعالى وعزته عليهم إلاَّ أنه أمهلهم ، ورغم غَيْرته على التوحيد أعطاهم الفرصة .

قال تعالى : ﴿ **ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون** ﴾[2] .

فهؤلاء الكفار الذين نسبوا لله الولد ،وظلموا حتى في قسمهم وألصقوا به الإناث قال الله تعالى عنهم ﴿ **للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء ولله المثل الأعلى ، وهو العزيز الحكيم** ﴾[3].

فَصَبَرَ الله تعالى على هذا الأذى ، وأمهل هؤلاء الكفار رغم شناعة ما زعموا، وعظيم ما قالوا ، وبهتان ما افتروا ، ولذلك قال الله تعالى في الآية التي

---

(١) النجم (٢٢) .
(٢) النحل (٥٧) .
(٣) النحل (٦٠) .

تليها ﴿ ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾(١) .

فصبر الله تعالى عليهم رغم عزته وقدرته عليهم ، ولكن يأخذهم بعزته وقدرته ووفق حكمته وكيفما شاء ، ووقتما شاء ، فهو العزيز الحكيم .

فحريٌ بالعبد المتعبِّد للعزيز الحكيم ، وهو ينزِّهه عن المِثْل والشَّبه أن يأخذ العبرة والعظة ، ، وأن يتحلَّى بالصبر والحلم ، وأن يتصف بالحكمة حتى مع أعدائه، وعند قدرته عليهم ، فلا يتعجَّل ، بل يتريَّث ، ويتصرَّف بكل حكمة ، بل لا يقطع الحبل بينه وبين أعدائه ، بل يترك لهم مجالاً لعلهم يرجعون ، ولعلهم يؤمنون ، ويكون حكيماً في إيصال العذاب لهم ، وفي انتقاصه منهم ، فيكون بالقدر المناسب ، وفي الوقت المناسب .

وإذا كان ذلك كذلك مع الأعداء فإنه من باب أولى مع المؤمنين ، والمسلمين العصاة ، فلا بد من الصبر على أذاهم ، وغفران زلأتهم ، تعبداً للعزيز الحكيم جلَّ في علاه ، وخاصة إذا امتلك العبد أسباب الانتقام والثأر ، ومقومات البطش والحرمان ، فإن الذي تعبَّد للعزيز الحكيم ، وعلم صبره على من أشرك به ونسب إليه الولد ، لحريٌ به أن تثمر فيه هذه العبادة خلق الصبر والتصبُّر ، والحكمة والتريث ، بل ويتقرب ويتعبَّد إلى الله تعالى بصبره على أذى إخوانه المؤمنين مع قدرته على الانتقام والبطش والانتصار للنفس .

---

(١) النحل (٦١) .

فإن ربه - جلَّ في علاه - أمهل أعداءه ومن كفر وأشرك به مع قدرته عليهم فهو العزيز الحكيم .

قال الإمام الطبري - رحمه الله - :

((وقوله : ﴿ وهو العزيز الحكيم ﴾[1] يقول تعالى ذكره : والله ذو العزة التي لا يمتنع عليه معها عقوبة هؤلاء المشركين الذين وصف صفتهم في هذه الآيات ، ولا عقوبة من أراد عقوبته على معصيته إياه ، ولا يتعذَّر عليه شيء أراده وشاءه ، لأن الخلق خلقه ، والأمر أمره .

﴿ الحكيم ﴾ : في تدبيره ، فلا يدخل تدبيره خلل ، ولا خطأ))[2]

---

(١) النحل (٦٠) .

(٢) تفسير الطبري لسورة النلح آية (٦٠) [٤ / ٥٣٠] .



[المبحث الثاني]

[تعبيد العباد للعزيز الحكيم]

المطلب الأول: نبي الله موسى - ﷺ - يُعبِّد العباد للعزيز الحكيم

المطلب الثاني: نبي الله عيسى - ﷺ - يدعو لعبادة العزيز الحكيم



(تعبيد العباد للعزيـز الحكيـم)

مدخل :

قال تعالى : ﴿ يا موسى إنه أنا الله العزيز الحكيم ﴾(١).

وقال تعالى : ﴿ وما من إله إلاَّ الله وإن الله لهو العزيز الحكيم ﴾(٢) .

إن التعبُّد لله تعالى باسميه الحسنيين (العزيز الحكيم) وبصفتيه الحميدتين (العزة والحكمة) ليجعل العبد يستشعر مدى عزة وقدرة صاحب العزة المطلقة ، ويدرك مدى حكمة الحكيم صاحب الحكمة والحكم والإحكام ، ويرسِّخ عنده وجوب عبادة هذا الإله الذي له هذه العزة المطلقة ، وهذه الحكمة البالغة ، بل يجب إفراده وحده بهذه العبادة من جميع المخلوقات ، وإنه لا بد من تعبيد العباد لرب العباد الحقيقي الذي خلقهم بعزته وقدرته ، ، والذي أحياهم ويميتهم ، والذي يبعثهم ويحاسبهم ، فيُنعِّم مؤمنهم ، ويُعذِّب كافرهم .

والذي خلقهم لحكمة (وهي عبادته وتوحيده) كما قال تعالى : ﴿ و ما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾(٣).

وكذلك هَدَى ووفق مؤمنهم وطائعهم بفضله وبحكمة ، وأضل من شاء من عباده بعدله ولحكمة يعلمها .

---

(١) النمل (٩) .
(٢) آل عمران (٦٢) .
(٣) الذاريات (٥٦) .

فمن كانت هذه صفاته فهو أحق بالعبادة ، بل وصرفها له وحده لا يُشْرَك معه غيره فيها ، وهؤلاء المتعبِّدون للعزيز الحكيم بهذين الاسمين وبهاتين الصفتين هم مِنْ أعلم خلق الله بالله - جل في علاه - مصداقا لقوله تعالى : ﴿ **إنما يخشى الله من عباده العلماء** ﴾[1] لعلمهم بالله وبأسمائه وصفاته .

فلذلك وجب عليهم بعد أن عبدوا الله وحده وأخلصوا له العبادة ، وحقَّقوا له التوحيد الخالص ، وجب عليهم تعبيد العباد لرب العباد العزيز الحكيم ، وشكراً منهم لله أن مَنَّ عليهم بمعرفة ربهم ، وهدايتهم للصراط المستقيم ، طريق التوحيد ، وتعبُّداً منهم للعزيز الحكيم ، صاحب العزَّة المطلقة ، والحكمة البالغة .

وممن حملوا مشعل الهداية ، وعلى رأس مَنْ كان همُّهم تعبيد العباد لرب العباد العزيز الحكيم ، هم صفوة خلق الله من الأنبياء والمرسلين ، فكان شغلهم الشاغل ، وكان مقصودهم الأول ، هو إخراج العباد من عبادة العباد وعبادة الجمادات إلى عبادة ربِّ العباد . ومن هؤلاء الأنبياء المرسلين :

١ - نبي الله ورسوله موسى - ﷺ - .

٢ - نبي الله ورسوله عيسى - ﷺ - .

---

(١) فاطر (٢٨) .

[المطلب الأول]

نبي الله موسى - ﷺ - يُعبِّد العباد للعزيز الحكيم

قال تعالى :﴿ يا موسى إنه أنا الله العزيز الحكيم ﴾(١) .

ونلحظ هذه العبادة السامية العظيمة الشريفة وهي (تعبيد العباد للعزيز الحكيم) في قصة نبي الله موسى - ﷺ - حينما أوحى إليه صاحب العزّة وأمره أن يذهب إلى أكبر طاغوت وطاغية على وجه الأرض - آنذاك - لكي يُعبِّده للعزيز الحكيم ، ويُخْرِجُ مَنْ تحته من عبادته إلى عبادة خالقهم العزيز الحكيم صاحب الحكمة . فلقد كان فرعون - عليه لعنة الله - جباراً متكبراً ووصل به الأمر أن ألّه نفسه فجعل نفسه إلاها من دون الله فأطاعه قومه وعبدوه من دون الله ، فضلّ وأضلهم معه .

قال الله تعالى عنه ﴿ فحشر فنادى فقال أنا ربكم الأعلى ﴾(٢)

وقال تعالى عنه :﴿ وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري ﴾(٣)

وقال تعالى عن تكبُّره وطغيانه :﴿ واستكبر هو وجنوده في الأرض بغير الحق وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون ﴾(٤)

---

(١) النمل (٩) .
(٢) النازعات (٢٣ : ٢٤) .
(٣) القصص (٣٨) .
(٤) القصص (٣٩) .

ولذلك بعث الله تعالى له نبيه ورسوله موسى ـ عليه السلام ـ من أجل أن يُخْرجه من هذه الظلمات هو ومَنْ معه وَمَنْ تَبعه ـ ظلمات الشرك ـ إلى نور الإيمان والتوحيد ، وحتى يُعبِّده ومن معه ومن تحت سلطانه وجبروته إلى ربِّ العباد الذي خلقهم بعزَّته ، وأوجدهم بحكمته ، ولحكمة أرادها جلَّ في علاه .

ونلحظ هذا الأمر وهذا التكليف من الله تعالى لرسوله الكريم موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ بتعبيد العباد له ، وتخليصهم من الشرك ، وإذعانهم للعزيز الحكيم ، وذلك في أول اللحظات ، وفي أول تكليم من الله لرسوله موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ وفي أول كلمات يقرِّر الله تعالى ، ويؤكِّد جلَّ في علاه على مسألة التوحيد ، وإخلاص العبادة له وحده .

فقال عزَّ مِنْ قائل : ﴿ يا موسى إنه أنا الله ﴾[١] ، هكذا في كل وضوح وبيان ، أنه لا إله إلا الله ـ جلَّ في علاه ـ ومن أعظم أسمائه ، وأجل صفاته أنه ﴿ العزيز الحكيم ﴾. قال تعالى :﴿ يا موسى إنه أنا الله العزيز الحكيم ﴾ [٢].

وهنا ومن أول لحظة ، ومن أول تكليم يُرسِّخ الله جلَّ في علاه ثوابت هذه العقيدة عند هذا النبي الرسول ـ ﷺ ـ لتكون منطلقاً في دعوته إلى توحيد الله تعالى، ونبذ الشرك والشركاء ، إنها كلمات قليلة ولكنها تحوي الكثير والكثير ، تحوي التوحيد لله ، وهي الفيصل بين التوحيد والشرك ، وبين الإيمان والكفر ، وبين

---

(١) النمل (٩) .

(٢) النمل (٩) .

الظلمات والنور ، وهي مفرق الطريق بين الجنة والنار ﴿ يا موسى إنه أنا الله العزيز الحكيم ﴾[١].

ففي هذه الآية الكريمة إشارات عظيمة من الله تعالى لهذا الرسول الكريم - ﷺ - في بداية دعوته إلى التوحيد ، والتعبُّد للعزيز الحكيم بأسمائه وصفاته ومن هذه إلاشارات المستفادة من هذه الآية الكريمة في بدايةة حياة نبي الله موسى - ﷺ - التعبُّدية ما يلي :

الإشارة الأولى : [توحيد الله تعالى] :

فإن أول شيء نستفيده من هذا البلاغ الإلهي لرسول من أولي العزم من الرسل وجوب التوحيد ، وأهمية العقيدة ، فهذا توجيه رباني من الله تعالى لهذا الرسول الكريم - ﷺ - أن يحقق التوحيد لله تعالى وكما قال له أيضا في سورة أخرى ﴿ إنني أنا الله لا إله ألا أنا ﴾[٢] .

فعلى هذا الرسول أن يعي القضية ، ويستوعب الأمر ، بأن الله خلق هذا الخلق من أجل توحيده سبحانه - جلَّ في عليائه - كما قال جلَّ شأنه ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلاَّ ليعبدون ﴾[٣].

فليحقق موسي - عليه السلام - التوحيد لله ليكون أهلاً لحمل هذه الرسالة ، وليبلغها لمن أرسله الله لهم من فرعون ومن معه من أتباعه ، ومَنْ تحت سيطرته من بني اسرائيل. هكذا يجب أن يعتقد موسى - ﷺ - وكل مَنْ تصدَّى للدعوة إلى

---

(١) النمل (٩) .

(٢) طه (١٤) .

(٣) الذاريات (٥٦) .

الله، أن الله هو الإله الواحد الأحد ، فلاشريك له ، ولا إله غيره ، ويتبرأ من كل الآلهة المزعومة باطلاً من دون الله .

الإشارة الثانية : [صَرْف العبادة لله وحده] :

إن الإشارة الثانية ، والفائدة ، بل والعبادة الثانية التي نستلهمها من هذه الآية الكريمة ، هي (صرف العبادة لله تعالى) ، فيجب على العبد الذي يتعبَّد للعزيز الحكيم أن يتعبَّد له عبادة تليق بجلال الله وعظيم سلطانه ، وتليق بعزَّته وحكمته ، عبادة خالصة من الشرك ، ولا يكون لأي شريك فيها نصيب ، فإن العزيز الذي لا ينازعه أحد في عزَّته ، والحكيم الذي لا ينازعه أحد في حكمته ، يأبى أن يشاركه أحد من مخلوقاته في أي عمل من الأعمال ، فإنه سبحانه أغنى الأغنياء عن الشرك والشركاء .

قال تعالى في الحديث القدسي : « **أنا أغنى الأغنياء عن الشرك ، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه** »[١] .

ولذلك فإن قوله تعالى لموسى عليه السلام ﴿ **يا موسى إنه أنا الله العزيز الحكيم** ﴾[٢] . يعني لا تعبد سواي ، بل أعبدني وحدي ، فأنا الله ولا يُعْبَدُ إلا أنا ، فكما أنه لا عزة إلاَّ لي ، ولا حكمة إلاَّ لي ، فلا يُعْبد إلاَّ أنا .

وكما أمره الله في الآية الأخرى صراحة : ﴿ **إنني أنا الله لا إله إلاَّ أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري** ﴾[٣] .

---

(١) رواه مسلم كتاب (الزهد والرقائق) باب (مَنْ أشرك في عمله غير الله) .
(٢) النمل (٩) .
(٣) طه (١٤) .

الإشارة الثالثة : [تعبيد العباد للعزيز الحكيم] :

والإشارة الثالثة ، والفائدة العظيمة التي نخرج بها من هذه الآية الكريمة ، بل العبادة المرجوة بعد توحيد الله تعالى من قِبَل العبد ، أن يتوجَّه بهذه العقيدة ويحمل هذا التوحيد ليبلِّغه للعالمين ، ولينشر التوحيد في كل مكان ، وليُخْرِج الناس من الظلمات إلى النور ، ومن الكفر إلى الإيمان ، ومن الشرك إلى التوحيد ، وليُعبِّد العباد للعزيز الحكيم ، وليس أدلُّ على أهمية ووجوب وأولوية هذا الأمر ، وهذه العبادة ، من أنَّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أمر بها موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ في أول تكليمه له ﴿ **يا موسى إنه أنا الله العزيز الحكيم** ﴾[1] .

ـ أي ـ والله أعلم بمراده ـ يا موسى إنَّ دعوتك ومهمتك سوف تتلخص في هذا الأمر، وهو أن تحقق التوحيد في نفسك، ثم تنطلق به لتبلِّغه للناس لكي تُعبِّدهم للعزيز الحكيم، الذي هو الإله الأحد صاحب العزَّة المطلقةوالحكمة البالغة.

فهذه مهمة الرسل، وهذه وظيفة الداعية ، وهذا هو مسلك كل مُحبٍّ للتوحيد وهَمُّ كل مخلص، وثمرة التعبُّد لله تعالى بأسمائه وصفاته ، فهذا هو الطريق ، وتلك هي قافلة التوحيد ، وهاك هو المنهج لمن أراد أن يتعبَّد للعزيز الحكيم، ولمن أراد أن يدعو إلى الله على بصيرة .

الإشارة الرابعة : [العلاقة بين التوحيد واسمى العزيز الحكيم] :

وإنه ليجدر بنا ونحن بصدد هذه الآية العظيمة ، وهذا الدرس التوحيدي، وهذه العقيدة الصحيحة الصافية ، أن نلمح العلاقة بين تقرير الله سبحانه وتعالى

---

(١) النمل (٩) .

لوحدانيته ، وأنه هو الله ، وأنه لا إله غيره ، وأنه لا بد من صرف العبادات كلها له سبحانه بلا شريك ، وبين ختم الآية الكريمة باسمي [العزيز الحكيم] ، وصفتي [العزة والحكمة] .

ويظهر الأمر واضحاً جلياً لكل مُخْلص ومُتعبِّد لله تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العليا ، وخاصة هذين الاسمين ، وهاتين الصفتين أنه لن يحقق التوحيد الخالص لله - عزَّ وجلَّ - مَنْ لم يتعبَّد له باسميه [العزيز الحكيم] وصفتيه [العزة والحكمة] .

ولن يُفْرد العبدُ ربَّه بالألوهية حتى يتعرَّف على عزة العزيز، وحكمة الحكيم ، ومدى قدرته وقوته ، ومدى حكمته ، ولماذا خلقه ربه ، ولأي حكمة أوجده ومدى عزة وَمَنعة وهيمنة صاحب العزة والحكمة على كل المخلوقات ...

فإن مفتاح التعرُّف على أحقية الله - عزَّ وجلَّ - بالألوهية والوحدانية وصرف العبادات له دون سواه - كل ذلك كامن في التعبُّد للعزيز الحكيم ، والتعرُّف على مدي عزته وحكمته ، فهي التي سوف توصل العبد - بعد إذن الله تعالى - إلى طريق التوحيد ، طريق الصراط المستقيم ، طريق نبذ الشرك وأهله ، ونشر التوحيد في كل مكان .

الإشارة الخامسة : [الاعتصام بالعزيز الحكيم عند الدعوة للتوحيد] :

من الإشارات السريعة والمهمة التي نأخذها ، ونستضيء بها في ظل هذه الآية الكريمة ونحن في مسيرتنا التعبُّدية للعزيز الحكيم بهذين الاسمين وبهاتين الصفتين ، أن يستعين العبد عند تعبُّده للعزيز الحكيم بعزة الله وقدرته في تحقيق التوحيد في نفسه ، فإن العبد ضعيف ، وتنازعه نفسه الأمارة بالسوء ، ويوسوس له

الشيطان ، وتدافعه شهواته وهواه ، فلا قوة له على تحقيق التوحيد الخالص ، وصرف العبودية الحقه لله تعالى إلاَّ إذا استعان بقوة وعزة صاحب العزة العزيز ، وتضرَّع وتذلَّل لصاحب الحكمة ، أن تتداركه رحمة صاحب الحكمة الحكيم لكي يعينه على تحقيق التوحيد .

وأيضاً حينما يتحرك هذا العبد بهذا التوحيد لينشره بين العالمين يحتاج إلى أن يتعبَّد للعزيز الحكيم ، ويستغيثه ويطلب منه العون والمدد ، لكي يفتح العزيز سبحانه وتعالى له قلوب من يدعوهم لهذا التوحيد فالأمر يحتاج لعزة ، وقدرة ، وحكمة الله لكي تتفتَّح تلك القلوب، وتستجيب للدعوة إلى التوحيد وترك الشرك، وهذا أمر صعب فقد يكون الأباء والأجداد على هذا الشرك ، والتغيير يحتاج إلى عون وعزة العزيز ، وحكمة الحكيم لكي يلقى هذا الداعية آذاناً صاغية، وقلوباً متفتحة لينة تنصاع إلى الحق ، وتستجيب لداعي الله ، وتوحِّد رب الأرباب، وكل ذلك يحتاج إلى التعبُّد للعزيز الحكيم والتذلُّل بين يديه لكي يمنَّ على هذا الداعية بأن يهدي الله على يديه مَنْ شاء مِنْ عباده .

ولذلك ختم الله تعالى - وهو أعلم بمراده - الآية الكريمة بهذين الاسمين وهاتين الصفتين .

وأيضاً فإن الداعية إلى الله الذي استعان بالعزيز الحكيم ، فتغلَّب على النفس والشيطان والهوى، وحقق التوحيد للعزيز الحكيم، وتجنب مهاوى الضلال والشرك ، ها هو أيضا استعان بالعزيز الحكيم ليقوم بتبليغ هذا التوحيد ، سائلاً صاحب العزة والحكمة أن يُليِّن قلوب من يقوم بدعوتهم .

فعليه وهو في هذا الطريق ، وأثناء تأدية هذه الرسالة ، أن يتعبَّد للعزيز الحكيم، ولا يخاف من أي عدو يقف أمام دعوته ، ويحاول تنحيته عن رسالته ، مهما بلغت قوته وجبروته ـ كما حاول فرعون ـ عليه اللعنة ـ مع موسى عليه الصلاة والسلام . فليعلم وليعتقد هذا الداعية ، وهذا الناشر لعقيدة التوحيد ، وكل من أراد أن يُعبِّد العباد لرب العباد أن الله عزيز صاحب العزة المطلقة والقوة المتين ، المهيمن على جميع خلقه، الذي يمنعه من كل من أراد به سوء ، وليحمل هذه العقيدة بين جنبيه وينطلق متعبِّداً للعزيز صاحب العزة وهوثابت ، راسخ ، متوكل على العزيز ـ جلَّ في علاه ـ .

أيضاً فليعتقد أن الحكيم صاحب الحكمة لن يتركه ، ولن يخذله ، فالأمر كله وفق حكمته ، وإرادته ، إن شاء هدى الله من شاء على يديه بحكمته ، وإن شاء حرمها من شاء بعدله وحكمته ، ولو وصل الضرُّ إلى عبده الداعية إلى التوحيد فذلك وفق حكمة أرادها الحكيم يعلمها سبحانه [ولعل من هذه الحكمة تنقية عبده من الذنوب والمعاصي أو رفع درجاته أو .....] .

فيجب على الداعية إلى توحيد الله تعالى أن يتعبَّد للعزيز الحكيم ، ويستعين بهذا التعبُّد على تحقيق وتنقية التوحيد في قلبه ، والتحرك به بين خلقه ، وهو مطمئن القلب ، واثق في تأييد الرب ، متذلِّل للعزيز الحكيم .

فسبحان القائل وهو أعلم بمراده ﴿يا موسى إنه أنا الله العزيز الحكيم﴾[١] .

---

(١) النمل (٩)

قال الشيخ السعدي ـ رحمه الله ـ :

((﴿ يا موسى إنه أنا الله العزيز الحكيم ﴾[١] .

أي : أخبره الله أنه الله المستحق للعبادة ، وحده لا شريك له ، كما في الآية الأخرى .

﴿ إني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري ﴾[٢] .

﴿ العزيز ﴾ الذي قهرجميع الأشياء ، وأذعنت له كل المخلوقات .

﴿ الحكيم ﴾ في أمره وخلقه . ومن حكمته ، أن أرسل عبده موسى بن عمران ، الذي علم الله منه ، أنه أهل لرسالته ، ووحيه وتكليمه ، ومن عزته أن تعتمد عليه ، ولا تستوحش من انفرادك ، وكثرة أعدائك ، وجبروتهم فإن نواصيهم ، بيد الله وحركاتهم وسكونهم ، بتدبيره))[٣] .

هَمْسَةٌ في آذان رجال الدعوة وشباب الصحوة :

إنه ليجدر بنا ونحن في مسيرة التعبُّد لله تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العليا، وخاصة اسميه الحسنيين [العزيز الحكيم]، وصفتيه الحميدتين [العزة والحكمة]، ونحن أيضاً في إطار التحدُّث عن التعبُّد لله تعالى وتعبيد الخلق للخالق ـ جلَّ في علاه ـ ومن خلال قصة نبي الله ورسوله موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ .

---

(١) النمل (٩) .

(٢) طه (١٤) .

(٣) تفسير السعدي لسورة النمل آية (٩) ص (٥٥٠ : ٥٥٥) .

ليجدر بنا أن نهمس بهذه الهمسة في آذان رجال الدعوة إلى الله ، وشباب الصحوة الإسلامية المباركة ، ليأخذوا العظة والعبرة من سيرة هذا الرسول (موسى عليه الصلاة والسلام) ، في كيفية التعبُّد لله تعالى بأسمائه وصفاته ، وكذلك في كيفية تَعْبيد الخلق والعباد لرب العباد .

العِبْرة الأولى : [ألاَّ نستوحش الطريق] :

- وأول ما يلفت النظر ، وأول هذه الدروس والعبر أن موسى - عليه الصلاة والسلام - كان وحده ليس معه أحد إلا أهله وكان في صحراء موحشة ، وهو في طريقة إلى مصر عائداً من بلاد مدين وحينما رأى ناراً فذهب في اتجاهها لكي يأتي بخبر الطريق لأنه كان قد ضل الطريق ، أو على الأقل يأتي بشهاب لكي يستدفئون ، مما دلَّ على أنه - ﷺ - كان ضل الطريق في ليلة ظلماء ، واشتد به البرد في ليلة برداء، ولكنه وإن كان وحده وغريب وطريد، وضل الطريق ، ويرتجف من البرد هو وأهله، إلاَّ أنه من صفوة خلق الله تعالى ، وقد أعدَّه الله لمهمة شاقة وعظيمة لا يقوم بها إلاَّ عِظَام الرجال الذين يوزنون بأمم . ويُعبِّر الله تعالى عن حالة هذا النبي الرسول - ﷺ - قائلاً جل في علاه: ﴿ **إذ قال موسى لأهله إني آنست ناراً سآتيكم منها بخبر أو آتيكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون** ﴾[1].

فلينظر رجال الدعوة وشباب الصحوة إلى حال هذا الرسول وهذا الرجل الفرد الذي ليس معه أحد إلا خالقه - وكفى بالله حسيبا - كيف سيواجه مجتمعاً بأكمله ، ونظام حكم جبَّار، وليس له مثيل في الكفر والطغيان. نعم فلن يواجههم

---

(١) النمل (٧)

هذا الرسول ـ ﷺ ـ بكثرة عدد وكثرة عتاد ولكنه سيواجههم بعقيدة ، وتوحيد ، وتوكل على الله ، وإخلاص ، وتعبُّد لله تعالى بأسمائه وصفاته فيكون النصر والتمكين ، والغلبة والظفر ، وتعبيد العباد لرب العباد .

العِبْرة الثانية :[ألاَّ نُفْتن بأعمالنا الصالحة] :

إن العبرة الثانية والدرس الثاني الذي نأخذه من قصة هذا الرسول ـ موسى ابن عمران ـ ﷺ ـ ألاَّ نُفْتن بما نحن عليه من عمل صالح ، أو دعوة إلى الله ، أو أمر بالمعروف، أو نهي عن المنكر ، فإن الأمر كله منَّة من الله تعالى ولا دخل لأحد في هداية نفسه وصلاحها ، وإلزامها تقوى الله ، فالأمر كله بفضل الله وكرمه ومنَّته على عباده ، فلا يَغْتر أحد بهدايته والتزامه بشرع الله ، وما هو عليه من منهج صحيح حتى لا يُفْتن في دينه ، وحتى لا يحتقر ولا يزدري غيره ممن هو في حقل الدعوة أيضا ، أو مَنْ هو مِن أهل المعاصي والذنوب ، وهذا أول طريق الفشل والفُرْقة ، وتشتيت الجهد ، وإضاعة الوقت ، وتمكين العدو ، وتأخير التمكين في الأرض .

فلينظر إلى موسى عليه الصلاة والسلام ـ وتكليم الله له ، وفي هذا التوقيت، وفي هذا المكان ، وفي هذه الحالة ، رجل وحيد ، يمشي بأهله في الصحراء ، ضال الطريق ، البرد يؤلمه ويؤلم أهله ، ذاهب إلى بلده القديم الذي خرج منه خائفاً وجلاً، ولا يدري بأي صورة وبأي حال سيستقبلوه ، وهو الذي قتل منهم نفساً ، إنها حالة غير عادية في حياة أي إنسان ، [سفر ، وحشة ، وإضلال الطريق ، وليل مظلم ، وليلة باردة ،وحيد ، مستقبل مجهول ،توقعات كثيرة من أهل مصر ، التفكير في النفس التي قتلها فيهم ، ....] .

كل هذه الأحوال والأمور قد لا تجعل موسى ـ عليه السلام ـ في هذا لتوقيت يصلح للتكليف من الله تعالى لحمل الرسالة ، ومواجهة أُمَّةً ، ونظام حكم جبَّار متكبِّر ـ وذلك في منظور المخلوق . أما الخالق جلَّ في علاه فهو [العزيز الحكيم] يفعل ما يشاء بعزته وقدرته ، ويقدِّر ما يشاء ويُنْفذه بحكمته البالغة ، فله العزة المطلقة والحكمة البالغة ، فيتفضَّل على من يشاء بحكمة ولحكمة يعلمها ، يستوجب ذلك شكر هذا الإله والتعبُّد له بأسمائه وصفاته ، وتعبيد الخلق له ، والحذر من الافتتان بنعمة الله تعالى ومنِّه ، وقَلْب شُكْر نعمة الله كفراً وطغياناً .

ونلحظ هذا الامتنان من الله تعالى على رسوله موسى بن عمران ـ عليه الصلاة والسلام ـ من أول كلمة له وتلقينه الدرس وكيفية العبودية وشكر المُنْعم على نعمه وتسخيرها لطاعته وعبادته . قال تعالى : ﴿ **فلما جاءها نودي أن بورك من في النار ومن حولها وسبحان الله رب العالمين** ﴾[١] .

هكذا يخبر الله ـ سبحانه وتعالى ـ [وهو أعلم بمراده] أنه منَّ على موسى بتكليمه وإرساله وفي هذا الوقت ، وفي هذا المكان ، فضل منه ورحمة وليس لموسى ـ عليه السلام ـ فضل ولا تدَخُّل ، وفي نهاية الآية الكريمة يقول جلَّ شأنه ﴿ **وسبحان الله رب العالمين** ﴾[٢].

أي سبحان الله المنزه عن كل عيب ونقص ، والمنزَّه عن أي تصرف أو فعل ليس لحكمة ، فهو الكامل في صفاته وأفعاله ، الحكيم في كل ما يصدر عنه، العَالِم

---

(١) النمل (٨)

(٢) النمل (٨) .

بِمَنْ هو أهل للمنِّ والعطاء ، ومَنْ هو أهل للرسالة ولوحيه ولتكليمه ، ومَنْ هو أهل لتعبيد العباد لخالقهم جلَّ في علاه .

فإذا كان ذلك كذلك فلا مجال للفخر والتكبُّر والاستعلاء على الآخرين ، بل واحتقارهم والسخرية منهم ومن عبادتهم ومنهجهم ودعوتهم ، خاصة إن كانوا من أهل القبلة ، وعلى طريق الدعوة وإن صدر منهم أفعال وتصرفات قد لا تلاقي قبولاً عند بعض المناهج الأخرة ، وإن وقع منهم بعض الزَّلات ، فالأمر يحتاج إلى تقويم وإرشاد لا إلى التشنيع والخلافات ،ولا التجريح والعصبيات .

العِبْرة الثالثة : [ألا نخشى عدونا] :

إن العبرة الثالثة التي نعتبرها ونستلهما ونقطف ثمارها ، ونستشنق عبيرها من هذه القصة العظيمة لهذا الرسول العظيم (موسى عليه الصلاة والسلام) [ألاَّ نخشى عدونا] ولا نستعظم قوتهم ، ولا نخاف بطشتهم ، ولاننظر إلى عددهم وجيوشهم وعتادهم إذا كنا نتعبَّد للعزيز الحكيم حق التعبُّد ، فإن كان عندهم عزة وقوة ومَنَعة ، فإن العزة والقوة لله جميعاً ، وهو صاحب العزة والقوة المطلقة ،ولا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء وهو العزيز ، وكذلك لا ننظر ولا نُفْتن بما وصلوا اليه من علم واختراعات وتقدُّم ، فإن الله هوالحكيم وأحكم الحاكمين وهو مُصَرِّف أمور عباده ، ولا يخرج عن إرادته وحكمته شيء .

فإن موسى عليه السلام لم ينتصر على فرعون ، ولم يُعَبِّد العباد لرب العباد عن كثرة عدد ، فقد كان وحيداً، ولاعن قوة ، فقد كان مجردا من العتاد والعدة ، ولا عن حسب ومنعة قبليه فقد كان مطروداً هارباً خائفاً ، ولكنَّ الله عز وجل

يُرسِّخ العقيدة عند موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ وعند كل داعية إلى الله أن الله هو العزيز الحكيم كما قال جلَّ شأنه ﴿يا موسى إنه أنا الله العزيز الحكيم ﴾[(١)] .

[عزة لا يُهْزم معها أي ضعيف ، وحكمة لا يَضِل معها أي طريد]

فالكلُّ عبيد لله ، نواصيهم بيده ، ماض فيهم حُكْمُه ، عدل فيهم قضاؤه ، فلا يستوحش أحد الطريق لقلة السالكين ، ولا يستبعد النصر لضعف الدعاة المصلحين ، ولا يستأخر التمكين لسطوة الطغاة والمتكبرين ، ولا ييأس من الفرج لشدة الكرب والضيق ، فإن النصر حليف من كان متعبِّداً للعزيز الحكيم .

قال الشيخ السعدي ـ رحمه الله ـ :

((﴿ العزيز ﴾ الذي قهر جميع الأشياء ، وأذعنت له كل المخلوقات .

﴿ الحكيم ﴾ : في أمره وخلقه ، ومن حكمته أن أرسل عبده موسى بن عمران ـ عليه الصلاة والسلام ـ الذي عَلِمَ الله منه أنه أهل لرسالته ووحيه وتكليمه.

ومن عزته أن تعتمد عليه ولا تستوحش من انفرادك وكثرة أعدائك وجبروتهم ، فإن نواصيهم بيد الله وحركاتهم وسكونهم بتدبيره))[(٢)] .

العِبْرة الرابعة : [الإهتمام بتعبيد العباد لرب العباد] :

العبرة الرابعة التي نهمس بها في آذان رجال الدعوة وشباب الصحوة الإسلامية المباركة في طريقهم للدعوة إلى الله تعالى أن يحققوا التعبُّد للعزيز الحكيم

---

(١) النمل (٩) .

(٢) تفسير السعدي لسورة النمل آية (٩) ص (٥٥٠ : ٥٥١).

حق التحقيق ، فيعرفوا قدرة وعزة الله تعالى وحكمته وحكمه وإحكامه ، ويتعرَّفوا على مدى عزة وقدرة صاحب العزة على خلقه ، ومدى حكمته في صنعه وتصرفاته ، فتدفعهم هذه المعرفة ، وهذا التعبُّد إلى [**تعبيد العباد لرب العباد**] ، فيكون هذا هو هدفهم ، وهذه غاياتهم ، بإخلاص ويقين ، وعقيدة وتعبُّد للعزيز الحكيم ، بعيداً عن الهوى ، والتعصب ، والدنيا ، وحب الرئاسة والزعامة ، والانتصار للنفس وللفكر وللمنهج ، على حساب الدين والدعوة ، وانزلاقاً وبعداً عن الطريق المستقيم طريق الله العزيز الحكيم الذي أرشد الله إليه نبيه موسى بن عمران ـ عليه الصلاة والسلام ـ من أول تكليم له ، وفي أول لحظات إرساله حيث قال جل شأنه له ﴿ **يا موسى إنه أنا الله العزيز الحكيم** ﴾[1] .

إشارة إلى ألوهيته جلَّ في علاه ، ووجوب عبادته وحده ، لأنه هو الإله الأحد، الفرد الصمد ، وكذلك هذه أهم مهمات هذا الرسول من أول تكليم أن يذهب بهذا التوحيد لينشره في العباد ، ليعبدوا رب العباد دون غيره من الآلهة المزعومة الباطلة ، ويأتي هذا الأمر واضحاً في آية أخرى حيث قال جلَّ شأنه :

﴿ **إني أنا الله لا إله إلاَّ أنا فأعبدني وأقم الصلاة لذكري** ﴾[2] .

فكان أبرز وأول ما أُمِرَ به موسى عليه الصلاة والسلام ـ وأُمِرَ بتبليغه هو التوحيد وعبادة الله وحده وإخراج العباد من عبادة العباد لعبادة رب العباد .

ولتكن هذه مهمتكم وهمُّكم وشاغلكم وهدفكم يا رجال الدعوة ويا شباب الصحوة الإسلامية المباركة بإخلاص وعقيدة ويقين ، بعيداً عن الدنيا وزخارفها،

---

(١) النمل (٩) .
(٢) طه (١٤) .

والنفس والهوى ، فليكن شغل كل داعية إلى الله تعالى ، وهدف كل موحِّد، وغاية كل شباب الصحوة هو إخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، وتوحيد رب الأرض والسماوات ، وتحكيم شَرْعه ومِنْهاجه في كل المخلوقات ، وألاَّ يُصْرف لغيره أي شيء من العبادات ، سواء أكان من الإنس أو الجن أو الجمادات ، فذلك كله للأعمال من المُحْبِطات، وعاقبته على من وقع فيه الندم والحسرات ، في يوم لا يكون فيه سوى السيئات والحسنات ، ويا فرحة من جاء يومها وقد تعبَّد لله بالأسماء والصفات ، وفاز يومئذ بالجنات ، فإن عرضها كعرض الأرض والسماوات ، وهيهات هيهات أن ينالها من أشرك في الذات ، وألْحد في الأسماء والصفات ، ولم يتعبَّد لرب الأرض والسماوات .

فهنيئاً لكم يا رجال الدعوة ، ويا شباب الصحوة ، فسيروا على بركة الله ، وانشروا التوحيد في جنبات الأرض ، وعبِّدوا العباد لخالقهم ـ جلَّ في علاه ـ وحكِّموا شرع الله ، وسُنَّة نبيه ـ ﷺ ـ في خلقه وعبيده ، وأصلحوا في الأرض ، انشروا العدل والقسط ، وحقِّقوا السعادة للبشرية كلها ، فالكون كله ينتظركم ، ويؤمِّل فيكم الخير كله ـ بعد الله تعالى ـ.

تقبَّل الله منا ومنكم صالح الأعمال ومنَّ علينا وعليكم بالتمكين في الأرض، ورفع راية التوحيد عالية خفاقة على أنحاء المعمورة ، ونسأله جلَّ في علاه بأسمائه الحسنى وصفاته العليا أن يُعَبِّد له عباده على أيدينا، وأن يخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ، وأن يجعلنا هداة مهتدين، لا ضالين ولا مضلين ، هو ولي ذلك والقادر عليه .

[المطلب الثاني]

نبي الله عيسى - ﷺ - يدعو لعبادة العزيز الحكيم

قال تعالى : ﴿ إن هذا لهو القصص الحق وما من إله إلاَّ الله وإن الله لهو العزيز الحكيم ﴾(١) .

وقال تعالى على لسان نبيه عيسى - عليه الصلاة والسلام - ﴿ ما قلت لهم إلاَّ ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم ﴾(٢). ثم ختم رسول الله عيسى - ﷺ - كلامه بالاعتراف بعبودية الجميع لله تعالى وأنه هو العزيز الحكيم صاحب الأمر كله قائلاً : ﴿ إن تعذبهم فإنهم عبادك ، وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ﴾(٣) .

لقد سبق وأن أشرنا إشارة سريعة عن موسى بن عمران - عليه الصلاة والسلام - وكيف أنه حقق عبوديته لله تعالى ، وتعبَّد له بأسمائه وصفاته ، وكيف دعا للتعبُّد للعزيز الحكيم ، وأخرج الله به الناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد - جلَّ في علاه - .

وها هو أيضا نبي الله عيسى بن مريم - ﷺ - رسول من أولي العزم من الرسل ، خلقه الله لعبادته ، وأرسله لإخراج الناس من عبادة العباد إلى عبادة خالق العباد العزيز الحكيم ، ولا عجب فإنه رسول كريم في قافلة الرسل الذين اصطفاهم الله لتحقيق العبودية للعزيز الحكيم في ملكه وسلطانه ، وبين خلقه وعباده .

---

(١) آل عمران (٦٢) .

(٢) المائدة (١١٧) .

(٣) المائدة (١١٨) .

ويقرِّر هذا المبدأ ، ويُرسِّخ هذا المنطلق نبي الله ورسوله عيسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ من أول يوم خرج فيه لهذه الدنيا ، وفي أول كلماته التي أنطقه الله بها في مهده ، ليكون ذلك آية ، وعظة ، وعبرة ، ومنهج ، لجميع خلق الله ، ولكل من سمع به وبرسالته ، ولكل من آمن ببعثته ، وأراد أن يكون عبداً لله تعالى .

قال تعالى عن هذا النبي الكريم : ﴿ **قال إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيا** ﴾[١] .

هكذا يُلخِّص هذا النبي (عيسى عليه الصلاة والسلام) مهمته في هذه الحياة الدنيا في أمرين :

الأمر الأول : ﴿ **قال إني عبد الله** ﴾[٢] وهو تحقيق العبودية لله تعالى في أكمل معانيها ، وأوضح وأمثل صورها ، والتي تشتمل على التعبُّد لله بأسمائه الحسنى وصفاته العليا .

والأمر الثاني : وهو ﴿ **وآتاني الكتاب وجعلني نبيا** ﴾[٣] أي هذه المهمة المسندة إليه والمكلَّف بها في هذا الكتاب الذي أنزله الله عليه ، وهي الدعوة إلى عبادة الله تعالى وتعبيد العباد لرب العباد للعزيز الحكيم صاحب العزة والحكمة ، القوي المهيمن ، الذي بيده ملكوت السماوات والأرض ، والذي يتصرَّف في الكون كله بإرادته ومشيئته ووفق حكمته . ويعذِّب مَنْ شاء من عباده بعدله وعزته لأنهم عباده ويغفر لمن شاء منهم وفق قوة وعزة وهيمنة وحكمة لأنه هو العزيز الحكيم ، كما أخبر بذلك عيسى عليه السلام وهو يقرِّر أن العبودية لله

---

(١) مريم (٣٠) .

(٢) مريم (٣٠) .

(٣) مريم (٣٠) .

الحكيم ، وأنه هو المستحق للعبادة ، ولا بد أن يتعبَّده عباده بأسمائه وصفاته ، وأن الأمر موكل إليه ، يتصرَّف كيفما شاء في عباده وفق عزته وحكمته .

فقال نبي الله عيسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ مبيناً أنه أدَّى ما عليه من الدعوة إلى الله تعالى وإلى توحيده ، وإلى عبادته وحده ، وترك عبادة من سواه قائلاً ـ كما أخبرالله تعالى عنه: ﴿ **ما قلت لهم إلاَّ ما أمرتني به أن أعبدوا الله ربي وربكم** ﴾(١) .

ثم بعد هذا التبليغ ، وتأدية المهمة بيَّن هذا الرسول الكريم (عيسى عليه الصلاة والسلام) أنه لن يفلح إلاَّ من كان عبداً للعزيز الحكيم ، وتعبَّد لله تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العليا ، ومنها اسميه الحسنيين (العزيز الحكيم) وصفتيه الحميدتين (العزة والحكمة) ، وأن الذُّلَّ والهوان على مَنْ أَبَى أن يخضع لعزة العزيز ومن أَبَى أن يُسلِّم وينقاد لحكمة الحكيم ، فكان في سواء الجحيم .

فقال عليه الصلاة والسلام مقرِّراً ذلك في هذه العبارة الخالدة التي خلَّدها له العزيز الحكيم في كتابه العظيم على لسان عيسى عليه السلام ﴿ **إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم** ﴾(٢) .

نبي الله عيسى ـ ﷺ ـ عليه السلام يتبرأ من التعبُّد لغير العزيز الحكيم :

قال تعالى على لسان نبيه عيسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ : ﴿ **وجئتكم بآية من ربكم فاتقوا الله وأطيعون ، إن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم** ﴾(٣) .

---

(١) المائدة (١١٧) .

(٢) المائدة (١١٨) .

(٣) آل عمران (٥٠ : ٥١) .

هكذا كان شغل نبي الله ورسوله عيسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ الشاغل أن يحقق العبودية للعزيز الحكيم ثم تعبيد العباد للعزيز الحكيم ، وظهر ذلك في غَيْرة هذا الرسول الكريم على التوحيد ومحاولته جهد استطاعته أن يُخْرج الناس مما هم فيه من الضلال والشرك والخرافات ، وتعبيدهم لله العزيز الحكيم ، فلقد أعلنها منذ ولادته وعلى الملأ حيث قال:﴿ **قال إني عبد الله أتاني الكتاب وجعلني نبياً** ﴾(١)

وما زال على هذا المنهج وتلك الرسالة ، ولم يترك فرصة ولا مناسبة إلاَّ ذكَّر قومه بالله ، وأمرهم بالعبودية للعزيز الحكيم ، ومما قال لهم ﴿ **فاتقوا الله وأطيعون إن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم** ﴾(٢) .

هكذا بكل قوة وإصرار على إكمال مسيرة التوحيد ، وتعبيد العباد لربهم وخالقهم وإلاههم الحق ، وهذا هو همٌّ وشغل كل رسول ونبي وداعية إلى الله ـ تعالى ـ ، ولكن لـمَّا شهد هذا الرسول تمردهم وعدم استجابة بعضهم تبرأ منهم ونادى فيهم ليعلم مَنْ أنصاره الذين آمنوا به ، وحَقَّقوا العبودية لله تعالى ، ممن آثر الكفر والإعراض عن طاعته ، وتكبَّر على عبادة الله ـ جلَّ في علاه ـ .

قال تعالى واصفاً حالة هذا الرسول الكريم وهو مشغول بأمر التوحيد والدعوة إلى الله تعالى﴿ **فلمَّا أحسَّ عيسى منهم الكفر قال من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون** ﴾(٣).

---

(١) مريم (٣٠) .

(٢) آل عمران (٥٠ : ٥١) .

(٣) آل عمران (٥٢) .

فَوالَى مَنْ نصره وآمن به ، وعادى وتبرأ ممن عصاه وكفر بالله تعالى .

وهكذا واصل نبي الله عيسى عليه السلام دعوته لتعبيد العباد للعزيز الحكيم، ولذلك لقد أخبر الله تعالى عنه وعن قصته مع قومه بأنها قصص حق ، وأن همَّه كان تعبيد العباد للعزيز الحكيم ، والكفر والتبرؤ من أي إلاه مزعوم ، أو معبودٍ مفترى ، من دون العزيز الحكيم صاحب العزة والحكمة ـ جلَّ في علاه ـ .

فقال الله ـ تعالى ـ عن قصته مع قومه ودعوته للتوحيد ، ونبذ الشرك ، وتعبيد العباد للعزيز الحكيم : ﴿ **إن هذا لهو القصص الحق وما من إله إلاَّ الله وإن الله لهو العزيز الحكيم** ﴾[1] . هكذا يقرِّر الله تعالى انفراده بالألوهية ، وأنه هو العزيز الحكيم الذي بعزته يُعزُّ من آمن به وعَبَدَه ، وبعزته وقوته يُذلُّ من عصاه وكفر به وعَبَد غيره ، وصاحب الحكمة البالغة ، والحكم النافذ في جميع خلقه ، فيعذِّب من يشاء بقوته ، ويُعزُّ من يشاء بعزته ويهلك من يشاء بعزته وحكمته ، فله العزة المطلقة ، والحكمة البالغة .

وفي نهاية المطاف وبعد هذا الصراع مع قومه يعلن مرة أخرى نبي الله ورسوله عيسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ عبوديته وتعبُّده للعزيز الحكيم بهذين الاسمين الحسنيين وبهاتين الصفتين الحميدتين ، ومتبرئاً مِنْ كل مَنْ عَبَد غير العزيز الحكيم قائلاً : ﴿ **ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن أعبدوا الله ربي وربكم** ﴾[2] .

---

(١) آل عمران (٦٢) .

(٢) المائدة (١١٧) .

ثم فوَّض الأمر لصاحب العزة والحكمة في عباده وخلقه ،فهو خالقهم ، وهو الذي يتوفاهم ، وهو الذي سيحاسبهم وهو صاحب العزة والحكمة في تعذيب من شاء من عباده ، وتنعيم من شاء من خلقه فقال مفوِّضاً الأمر لخالقه ، ومعلناً تعبُّده للعزيز الحكيم حيث قال كما أثبت ذلك الله ـ عزَّ وجلَّ ـ في كتابه العزيز على لسان هذا الرسول الكريم عيسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ : ﴿ **إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم** ﴾(١) .

وفي ذلك ردٌّ صريح من هذا النبي والرسول ـ عيسى عليه الصلاة والسلام ـ على هؤلاء النصاري الذين بالغوا فيه وادعو أنه ابن الله ، بل تجرؤا وادعوه إلاهاً هو وأمه ـ عليهما السلام ـ ومنهم من جعلوه أحد ثلاثة آلهة ، وغير ذلك من الشركيات التي أبطلها الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وحكم بكفر من ادعى ذلك في القرآن الكريم حيث قال ـ جلَّ شأنه ـ ﴿ **لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم وقال المسيح يا بني اسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار** ﴾(٢) .

وقال تعالى : ﴿ **لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة ومامن إله إلا إله واحدٌ** ﴾(٣) .

---

(١) المائدة (١١٨) .

(٢) المائدة (٧٢) .

(٣) المائدة (٧٣) .

قال الإمام الطبري ـ رحمه الله ـ :

((يقول تعالى ذكره : إن تعذب هؤلاء الذين قالوا هذه المقالة(١) بإماتتك إياهم عليها .

﴿ **فإنهم عبادك** ﴾ مستسلمون لك ، لا يمتنعون مما أردت بهم ، ولا يدفعون عن أنفسهم ضراً ولا أمراً تنالهم به .

﴿ **وإن تغفر لهم** ﴾ : بهدايتك إياهم إلى التوبة منها ، فتستر عليهم .

﴿ **فإنك أنت العزيز** ﴾ في انتقامه ممن أراد الانتقام منه ، لا يقدر أحد بدفعه عنه .

﴿ **الحكيم** ﴾ في هدايته مَنْ هدى من خلقه إلى التوبة وتوفيقه مَنْ وفَّق منهم لسبيل النجاة من العقاب))(٢) .

قال الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله ـ :

((قوله : ﴿ **إن تعذبهم فإنهم عبادك** ﴾ الآية التبري منهم وردُّ المشيئة فيهم إلى الله ، وتعليق ذلك على الشرط لا يقتضي وقوعه كما في نظائر ذلك في الآيات ، والذي قاله قتادة وغيره هو الأظهر والله أعلم أن ذلك كائن يوم القيامة ليدل على تهديد النصارى وتقريعهم وتوبيخهم على رؤوس الأشهاد يوم القيامة .

---

(١) والمقصود بهذه المقالة قولهم افتراء على عيسى عليه السلام أنه قال لهم اتخذوني وأمي إلاهين من دون الله . إشارة إلى قوله تعالى لعيسى عليه السلام ﴿ **أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله** ﴾ المائدة (١١٦) .

(٢) تفسير الطبري لسورة المائدة آية (١١٨) [٧ / ٢١٠] .

وقوله : ﴿ إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ﴾ (١).

هذا الكلام يتضمن رد المشيئة إلى الله - عزَّ وجلَّ - فإنه الفعَّال لما يشاء ، الذي لا يُسْأل عمَّا يفعل وهم يُسْألون .

ويتضمن التبري من النصارى الذين كذبوا على الله وعلى رسوله ، وجعلوا لله نداً وصاحبة وولداً - تعالى الله عمَّا يقولون علواً كبيراً - وهذه الآية لها شأن عظيم ، ونبأ عجيب ، وقد ورد في الحديث أن النبي - ﷺ - قام بها ليلة حتى الصباح يردِّدها .

قال الإمام أحمد حدثنا محمد بن فضل حدثني فليت العامري عن حبرة العامرية عن أبي ذر - رضي الله عنه - قال : صلَّى النبي - ﷺ - ذات ليلة ، فقرأ بآية حتى أصبح يركع بها ويسجد بها ﴿ إن تعذبهم فإنهم عبادك وان تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ﴾(٢) .

فلما أصبح قلت يا رسول الله - ﷺ - ما زلت تقرأ هذه الآية حتى أصبحت، تركع بها وتسجد بها؟ قال: « إني سألت ربي - عزَّ وجلَّ - الشفاعة لأمتي فأعطانيها، وهي نائلة ، إن شاء الله لمن لا يشرك بالله شيئاً (٣) »(٤) .

وروى الإمام البخاري - رحمه الله - في صحيحه :

عن ابن عباس - رضي الله عنه - عن النبي - ﷺ - قال : « إنكم محشرون ، وإن ناساً يؤخذ بهم ذات الشمال ، فأقول كما قال العبد الصالح : ﴿ وكنت

---

(١) المائدة (١١٨) .
٢) المائدة (١١٨) .
(٣) رواه النسائي كتاب (الافتتاح) .
(٤) تفسير ابن كثير لسورة المائدة آية (١١٨) . [٢ / ١٢١ : ١٢٢] .

عليهم شهيداً ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد ، إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ﴾[١] »[٢].

وفي رواية أخرى :

عن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ قام : فينا النبي ـ ﷺ ـ يخطب على المنبر يقول : إنكم محشرون حفاة عراة غرلا ﴿ **كما بدأنا أول خلق نعيده** ﴾[٣] وإن أول الخلائق يُكْسى يوم القيامة إبراهيم الخليل ، وإنه سيُجَاء برجال من أمتي فيؤخذ بهم ذات الشمال ، فأقول : يا رب أصحابي ، فيقول إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك فأقول كما قال العبد الصالح ﴿ **وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم** ﴾[٤].

قال : فيقال : إنهم لم يزالوا مرتدين على أعقابهم »[٥] .

قال الحافظ ابن حجر ـ رحمه الله ـ في الفتح :

((عن قبيصة قال : هم الذين ارتدوا على عهد أبي بكر فقاتلهم أبو بكر ، يعني حتى قتلوا وماتوا على الكفر ...

---

(١) المائدة (١١٧ : ١١٨) .

(٢) رواه البخاري كتاب (التفسير) باب (إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ﴾.

(٣) الأنبياء (١٠٤) .

(٤) المائدة (١١٧ : ١١٨) .

(٥) رواه البخاري كتاب (الرقاق) باب (الحشر) .

وقال الخطابي : لم يرتد من الصحابة أحد وإنما ارتد قوم من حفاة الأعراب ممن لا نصرة له من الدين ، وذلك لا يوجب قدحاً في الصحابة المشهورين .

وقال غيره : قيل هو على ظاهره من الكفر ، والمراد بأمتي أمة الدعوة لا أمة الإجابة .

وقال ابن التين : يحتمل أن يكونوا منافقين أو من مرتكبي الكبائر .

وقيل : هم قوم من حفاة الأعراب دخلوا في الإسلام رغبة ورهبة .

وقال البيضاوي: ليس قوله « مرتدين » نص في كونهم ارتدوا عن الإسلام، بل يحتمل ذلك ، ويحتمل أن يراد أنهم عصاة المؤمنين المرتدون عن الاستقامة ، يبدِّلون الأعمال الصالحة بالسيئة))[1] .

[بيان ضلال الشرك والمشركين]

قال تعالى : ﴿ إن الله يعلم ما يدعون من دونه من شيء ، وهو العزيز الحكيم ﴾[2] .

وقال تعالى : ﴿ قل أروني الذين ألحقتم به شركاء بل هو الله العزيز الحكيم ﴾[3] .

---

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري للحافظ ابن حجر العسقلاني كتاب (الرقاق) باب (الحشر) [١١/٣٩٣:٣٩٤] باختصار .

(٢) العنكبوت (٤٢) .

(٣) سبأ : (٢٧) .

وقال تعالى : ﴿ وجعل كلمة الذين كفروا السفلى ، وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم ﴾[١].

إن من أوجب الواجبات على الداعية إلى الله تعالى ، والمتعبِّد لله بأسمائه وصفاته ، وخاصة ونحن بصدد كيفية التعبُّد للعزيز الحكيم بهذين الاسمين الحسنيين ، وهاتين الصفتين الحميدتين أن يبيِّن ويوضِّح للمشركين وغيرهم مدى ضلال الشرك والمشركين وأنهم ليسوا على شيء ، وأنهم في غَيِّهم يتخبَّطون ، وأنهم لطريق الضلال والخسران سالكون ، ليقيم الحجة على كل المشركين ، فيعرفون أنهم على ضلال ، وأن أمرهم إلى الهلاك ، وكذلك ليزداد المؤمنون إيماناً مع إيمانهم ، ويثبتوا على توحيدهم ، ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيا من حيَّ عن بيِّنة ، وليحقق العبد الموحِّد عبوديته لله تعالى ، ويتعبَّده بأسمائه الحسنى وصفاته العليا .

فإنه من أوجب الواجبات على المتعبِّد لله تعالى بأسمائه وصفاته أن يغار على التوحيد ، وأن يتبرأ من الشرك والمشركين ، ويبيِّن ويوضِّح أن كل مَنْ تعبَّد لغير العزيز الحكيم من الآلهة المزعومة الباطلة ، فهو ليس على شيء ، وفي الحقيقة لا يعبد شيئاً ، فإن هذه الآلهة من دون الله ـ تعالى ـ لا تملك له شيئاً ، ولا تنفع ولا تضر ، بل لا تستطيع أن تدفع عن نفسها الضر إن أرادها الله بضر، أو قدَّر عليها الهلاك .

---

(١) التوبة (٤٠) .

فكيف يُشْرِك هؤلاء المشركون مع الله غيره من هذه الآلهة ، وهو (العزيز) القوى الذي بيده ملكوت السماوات والأرض ، ويفعل ما يشاء ، ولا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء ، وهو (الحكيم) صاحب الحكمة والحكم والإحكام ، يُدبِّر الأمر ويمهل مَنْ يشاء ممن تجرأ على معصيته وأشرك به ، ويُهْلك من يشاء من المشركين وآلهتهم ، ويُسخِّر مَنْ يشاء بحكمته وإرداته مِنْ عباده للدفاع عن التوحيد ، ومحاربة الشرك وأهله ، وبيان باطلهم وزورهم ، وخُبث معتقداتهم ، وكشف مخططاتهم وتسفيه عقولهم ، ودحض حججهم ، تعبُّداً للعزيز الحكيم - جلَّ في علاه فمن أراد التعبُّد الحق للعزيز الحكيم فعليه بيان وتوضيح بطلان وضلال الشرك والمشركين .

قال تعالى مسفِّهاً هؤلاء المشركين وآلهتهم : ﴿ **مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون ، إن الله يعلم ما يدعون من دونه من شيء وهو العزيز الحكيم** ﴾[1] .

قال الإمام الطبري - رحمه الله - :

((يقول تعالى ذكره : لو كان هؤلاء الذين اتخذوا من دون الله أولياء يعلمون أن أولياءهم الذين اتخذوهم من دون الله في قلة غنائهم عنهم ، كغناء بيت العنكبوت عنها ، ولكنهم يجهلون ذلك ، فيحسبون أنهم ينفعونهم ويتقربون إلى الله زلفى ..

---

(١) العنكبوت (٤١ : ٤٢) .

فتأويل الكلام إذا كان الأمر كما وصفنا : إن الله يعلم أيها القوم حال ما تعبدون من دونه من شيء، وأن ذلك لا ينفعكم ولا يضركم إن أراد الله بكم سوءً، ولا يغني عنكم شيئاً ، وإن مَثله في قلة غنائه عنكم مثل بيت العكنبوت في غنائه عنها .

وقوله : ﴿ وهو العزيز الحكيم ﴾ يقول : والله ﴿ العزيز ﴾ في انتقامه ممن كفر به ، وأشرك في عبادته معه غيره فاتقوا أيها المشركون عقابه بالإيمان به قبل نزوله بكم ، كما نزل بالأمم الذين قص الله قصصهم في هذه السورة عليكم .

﴿ الحكيم ﴾ في تدبيره خلقه ، فمُهْلك مَنْ استوجب الهلاك في الحال التي هلاكه صلاح ، والمؤخِّر مَنْ أخَّر هلاكه من كَفَرة خلْقه به إلى الحين الذي في هلاكه الصلاح))[1] .

وقال الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله ـ :

((هذا مَثَلٌ ضربه الله ـ تعالى ـ للمشركين في اتخاذهم آلهة من دون الله يرجون نصرهم ورزقهم ويتمسَّكون بهم في الشدائد ، فإنهم في ذلك كبيت العنكبوت في ضعفه ووهنه ، فليس في أيدي هؤلاء من آلهتهم إلاَّ كمن يتمسَّك ببيت العنكبوت فإنه لا يُجْدي عنه شيئاً ، فلو علموا هذا الحال لما اتخذوا من دون الله أولياء . وهذا بخلاف المسلم المؤمن قلبه لله وهو مع ذلك يُحْسن العمل في اتباع الشرع ، فإنه متمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها لقوتها وثباتها .

---

(١) تفسير الطبري لسورة العنكبوت آية (٤١ : ٤٢) [٦ / ٧٤ : ٧٥] .

ثم قال تعالى متوعِّداً لمن عَبَدَ غيره وأشرك به أنه تعالى يعلم ما هم عليه من الأعمال ، ويعلم ما يشركون به من الأفراد وسيجزيهم وصفهم إنه حكيم عليم))[١] .

[تسفيه الشرك والمشركين]

قال تعالى : ﴿ قل أروني الذين ألحقتم به شركاء بل هو الله العزيز الحكيم ﴾[٢] .

إن المتعبِّد للعزيز الحكيم بهذين الاسمين الحسنيين ، ولهاتين الصفتين الحميدتين ليجدر به أن يُفنِّد أباطيل هؤلاء المشركين الذين تجرأوا على الشرك بالله تعالى ، واتخاذ آلهة من دونه ، وإبطال ما هم عليه من الشرك ، وتعرية هذه الآلهة المزعومة التي اتخذوها من دون الله تعالى ، وبيان أنها لا تملك شيئاً ، ولم تخلق شيئا ، وليس لهامن الأمر شيء ، بل هي مملوكة لله تعالى ، ومخلوق من مخلوقات الله ، وأمرها بيدي العزيز القوي الذين يهيمن ويسيطر ويتصرَّف في كل شيء ، فإن الله له العزة المطلقة ، والقدرة على خلقه ، والحكيم في كل تصرفاته وأفعاله ، فكل شئ يحدث في ملكه بحكمة ولحكمة يعلمها ، حتى إمهاله لهذه الآلهة المزعومة ، وهؤلاء المشركين لحكمة يعلمها ، وهو على أخذهم والفتك بهم وإهلاكهم إذا شاء قدير ، فهو العزيز الحكيم ـ جلَّ في عزته وحكمته ـ فإن العزيز ما تركهم في شركهم وغيِّهم لعدم القدرة عليهم ، أو لعدم علمه بهم ، أو لعدم

---

(١) تفسير ابن كثير لسورة العنكبوت آية (٤١ : ٤٢) [٣ / ٣٩٠] .

(٢) سبأ (٢٧) .

استطاعة محاجاتهم ـ حاشا للعزيز الحكيم في علاه ـ ولكن ما هي إلاَّ حكمة صاحب الحكمة البالغة ، فإن عزته وقوته ومَنَعَتَه وقدرته على خلقه تصاحبها حكمة بالغة يعلمها جلَّ في علاه ، ويؤمن بها ويتعبَّده بها عباده الذين يؤمنون باسميه [العزيز الحكيم] ، وبصفتيه [العزة والحكمة] فهم يعلمون أن الله ما خلق كل الخلق إلاَّ بعزة وبحكمة ، وما ترك مشركاً ولا أمهل كافراً إلاَّ لحكمة ، وما قصم ملحداً ومشركاً وكافراً وأخذهم أخذ عزيز مقتدر إلاَّ لحكمة ، فيتعبَّد المتعبِّدون للعزيز الحكيم بأن يُفَنِّدوا بطلان وعجز هذه الآلهة المزعومة وبطلان شرك المشركين ، وكذلك يؤمنون بقدرة وعزة الله وهيمنته على خلقه ، وأنه ما ترك مَنْ ترك إلاَّ عن عزة وقوة ، وحكمة وإحكام ، وما أهلك مَنْ أهلك إلاَّ عن عزة وقوة ، وحكمة وإحكام ـ فسبحان العزيز الحكيم ـ صاحب العزة المطلقة والحكمة البالغة .

قال الإمام الطبري ـ رحمه الله ـ :

((يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ـ ﷺ ـ : قل يا محمد لهؤلاء المشركين بالله الآلهة والأصنام أروني أيها القوم الذين ألحقتموهم بالله فصيَّرتموهم له شركاء في عبادتكم إياهم : ماذا خلقوا من الأرض ، أم لهم شرك في السماوات .

﴿ **كلا** ﴾ : يقول تعالى ذكره : كَذَبُو ، ليس الأمر كما وصفوا ، ولا كما جعلوا وقالوا من أن لله شريكا.

﴿ **بل هو** ﴾ : المعبود الذي لا شريك له ، ولا يصلح أن يكون له شريك في ملكه .

﴿ **العزيز** ﴾ في انتقامه ممن أشرك به من خلْقه .

﴿ الحكيم ﴾ في تدبير خلقه))[1] .

وقال الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله ـ :

((﴿ قل أروني الذين ألحقتم به شركاء ﴾[2] .

أي أروني هذه الآلهة التي جعلتموها لله أنداداً ، وصيرّتموها له عدلاً .

﴿ كلا ﴾ : أي ليس له نظير ، ولا نديد ، ولا شريك ، ولا عديل ، ولهذا قال تعالى : ﴿ بل هو الله ﴾ : أي الواحد الأحد الذي لا شريك له .

﴿ العزيز الحكيم ﴾ : أي ذو العزة الذي قهر بها كل شيء ، وغلبت كل شيء ، [الحكيم] في أفعاله وأقواله وشرعه وقدره ، تبارك وتعالى وتقدّس عمّا يقولون علواً كبيراً والله أعلم))[3] .

وقال الشيخ السعدي ـ رحمه الله ـ :

((﴿ قل ﴾ لهم يا أيها الرسول ومن ناب منابك :

﴿ أروني الذين ألحقتم به شركاء ﴾ أي : أين هم ؟ وأين السبيل إلى معرفتهم ؟ وهل هم في الأرض ، أم في السماء ؟ فإن عالم الغيب والشهادة قد أخبرنا أنه ليس في الوجود له شريك .

---

(١) تفسير الطبري لسورة سبأ آية (٢٧) [٦ / ٢٢٣] .

(٢) سبأ (٢٧) .

(٣) تفسير ابن كثير لسورة سبأ آية (٢٧) [٣/٥٠٤] .

ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قل أتنبئون الله بما لا يعلم ﴾[1] الآية .

﴿ وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء إن يتبعون إلاَّ الظن وإن هم إلاَّ يخرصون ﴾[2].

وكذلك خواص خلقه من الأنبياء والمرسلين لا يعلمون له شريكاً . فيا أيها المشركون أروني الذين ألحقتم بزعمكم الباطل ﴿ به ﴾ أي : بالله ﴿ شركاء ﴾ .

وهذا السؤال لا يمكنهم الإجابة عنه ، ولهذا قال :

﴿ كلا ﴾ أي : ليس لله شريك ، لا ند ، ولا ضد .

﴿ بل هو الله ﴾ الذي لا يستحق التأله والتعبد إلاَّ هو .

﴿ العزيز ﴾ الذي قهر كل شيء ، فكل ما سواه فهو مقهور له ، مسخَّر مدبَّر .

﴿ الحكيم ﴾ الذي أتقن ما خَلَقَهَ ، وأَحْسَنَ ما شَرَعَه .

ولو لم يكن في حكمته في شرعه إلاَّ أنه أمر بتوحيد ، وإخلاص الدين له أوجب ذلك وجعله طريقاً للنجاة ، ونهى عن الشرك به واتخاذ الأنداد من دونه ، وجعل ذلك طريقاً للشقاء والهلاك ، لكفى بذلك برهاناً على كمال حكمته .

فكيف وجميع ما أمر به ونهى عنه مشتمل على الحكمة ؟!!! »[3] .

---

(١) يونس (١٨) .

(٢) يونس (٦٦) .

(٣) تفسير السعدي لسورة سبأ (آية (٢٧) ص (٦٢٦) .

هكذا يجب على العبد المتعبِّد لله تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العليا ، وخاصة اسمي [العزيز الحكيم] وصفتي [العزة والحكمة] . أن يتصدى لهؤلاء المشركين وشركهم ، ويُسفِّه عقولهم ، ويُبْطل آلهتهم المزعومة ، ويوضِّح ويبيِّن مدى ضلالهم ، وأنهم ليسوا على شيء ، بل هم في وهْم ويعشيون على سراب ، وأنهم منخدعون ومخادعون ، قل ضلوا وأضلوا ، وهذا من كمال التعبُّد للعزيز الحكيم ـ جلَّ في علاه ـ .

ولهذا ـ والله أعلم بمراده ـ ختم الله تعالى هذه الآية التي يُسفِّهم فيها ـ جلَّ شأنه ـ ويبيِّن ضلالهم ، وأنهم ليسوا على شيء ، وأن آلهتهم مزعومة ومكذوبة ، يختم الله تعالى هذه الآية باسميه العظيمين الحسنيين [العزيز الحكيم] وهاتين الصفتين الحمديتين [العزة والحكمة] وكأن فيها إشارة من الله تعالى ـ وهو أعلم بمراده ـ أن من أراد التعبُّد للعزيز الحكيم بأسمائه وصفاته ، وخاصة اسمي [العزيز الحكيم] ، وهاتين الصفتين [العزة والحكمة] فعليه أن يتصدى لهؤلاء المشركين ، غَيْرة على التوحيد وبراءة من الشرك وتسفيهاً للمشركين ، وتعرية لهم ، وهذه هي الكيفية ، وهذا هو المنهج الإلهي ، والأسلوب القرآني ، فأين المتعبِّدون للعزيز الحكيم؟، وأين الموحِّدون للإله الحق ؟ ، وأين الذين يسلكون الطريق المستقيم ، وينهجون نهج القرآن الكريم ، وسبيل الأنبياء والمرسلين ، فيحشرون يوم القيامة في زمرة الموحِّدين ، المتعبِّدين لرب العالمين [العزيز الحكيم] مالك يوم الدين ؟!!

[من ثمرات التعبُّد للعزيز الحكيم : (النُّصْرة)]

نُصْرة العزيز الحكيم لعيسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ :

قال تعالى: ﴿ وما قتلوه يقيناً بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً حكيماً ﴾(١) .

لقد أمر الله تعالى عباده المؤمنين أن يتعبَّدوه بأسمائه الحسنى وصفاته العليا ، ومن ذلك اسميه الحسنيين [العزيز الحكيم] وصفتيه الحميدتين [العزة والحكمة] ووعد سبحانه وتعالى بنُصْرة هؤلاء العباد الذين ينصرونه ويعبدونه وحده ولا يشركون به شيئًا ويكفرون بغيره من الآلهة الباطلة المزعومة .

قال تعالى : ﴿ ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز ﴾(٢) .

وها هي نُصْرة الله تعالى تحالف عيسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ وثمرة من ثمارات تعبُّد عيسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ للعزيز الحكيم صاحب العزة والحكمة، فطالما تعبَّد له بهذين الاسمين الحسنيين ، وهاتين الصفتين الحميدتين ، ولطالما دعا العباد لعبادته ـ جلَّ في علاه ـ ولطالما عبَّد العباد للعزيز الحكيم .

فما كان من العزيز الحكيم صاحب العزة والقوة والهيمنة والسلطان ، والحكمة والحكم والإحكام إلاَّ أن نَصَرَ عبده عيسى ـ عليه السلام ـ وهكذا تكون نُصْرَة الله تعالى لكل المتعبِّدين له بأسمائه الحسنى وصفاته العليا ، وكل من آمن به رباً وإلاهاً قوياً عزيزاً ، قادراً حكيماً .

---

(١) النساء (١٥٧ : ١٥٨) .

(٢) الحج (٤٠) .

وتمثلت نُصْرة العزيز الحكيم ـ جلَّ في علاه ـ لعيسى عليه السلام في أمور كثيرة منها ما يلي :

الأمر الأول : [حفظه من أعدائه] .

وتجلَّت نُصْرة الله تعالى ـ العزيز الحكيم ـ لرسوله عيسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ صاحب التَّعبُّد للعزيز الحكيم ، والذي دعا لتعبيد العباد لصاحب العزة والحكمة بأن حفظه من أعدائه الذين أرادوا قتله من اليهود وعَبَدَةِ الكواكب (اليونانيين)، فلم يستطيعوا الوصول إليه، والتمكُّن منه ، فلقد حفظه الله منهم بعزته وقدرته على الخلق ، وبحكمته وحُكمه فلا راد لمشيئته ، ولا مُعقِّب لحكمه ، يفعل ما يشاء ، ولا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء فهو صاحب العزة والقوة المطلقة ، وصاحب الحكمة البالغة ، يحفظ عباده المتعبِّدون به بأسمائه وصفاته ، بحفظه ورعايته .

ويُثْبِت الله تعالى حفظه لهذا الرسول الكريم قائلاً : ﴿ **وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم** ﴾[1] .

الأمر الثاني : [رفعه الله إليه] :

إن من نُصْرة العزيز الحكيم لرسوله عيسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ الذي تعبَّد لصاحب العزة والحكمة ، ودعا لعبادته ، أنه رفعه إليه بعدما حفظه من أذى ومكر وتدبير اليهود وعُبَّاد الكواكب من اليونانيين [حُكام البلاد آنذاك] ـ تكريماً

---

(١) النساء (١٥٧) .

له ، ورفعة لشأنه ، وعوضاً عما لاقى من صعوبات ومشاق في طريق الدعوة إلى تعبيد العباد للعزيز الحكيم . ونُصْرةً لمن تعبَّد للعزيز الحكيم بهذين الاسمين الحسنيين ، وهاتين الصفتين الحميدتين .

فلقد تعرَّف هذا العبد وهذا الرسول الكريم - ﷺ - إلى الله وعَبَدهُ في الرخاء، وتعبَّد إليه بأسمائه وصفاته ، فتعرَّف إليه العزيز الحكيم في وقت الشدة والمحنة ، فليستبشر كل متعبِّد .

فليستبشر كل متعبِّد للعزيز الحكيم بنُصْرة الله له ، وليفرح بنصر الله وتأييده لكل متعبِّد له بأسمائه الحسنى وصفاته العليا فإنه عزيز قوي ، قادر حكيم ، يفعل ما يشاء ، ولا يعجزه شيء ، والأمر كله له ، والخلق كلهم عبيده .

قال تعالى [عن نُصْرته لرسوله عيسى عليه الصلاة والسلام] ﴿ **وما قتلوه يقيناً بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً حكيماً** ﴾[1] .

قال الإمام الطبري - رحمه الله - :

((فإنه يعني : بل رفع الله المسيح إليه . يقول : لم يقتلوه ولم يصلبوه ، ولكن الله رفعه إليه فطهَّره من الذين كفروا))[2] .

الأمر الثالث : [انتقامه الله من اليهود] :

إن من ثمار التعبُّد لله تعالي بأسمائه وصفاته ، والدعوة إلى تعبيد العباد للعزيز الحكيم - جلَّ في علاه - أن ينتقم العزيز صاحب العزة والقوة من كل من أراد

---

(١) النساء (١٥٧ : ١٥٨) .

(٢) تفسير الطبري لسورة النساء آية (١٥٨) [٢ / ٦٠٥] .

بعباد الرحمن ، المتعبِّدين له بجميع جوارحهم ، وكل نبضاتهم ، والحاملين لواء التوحيد، المعادين للشرك والمشركين فينتقم الله مِنْ كل مَنَ عادهم وحاول إيذائهم ، وكاد ، وخطَّط ، ودبَّر، لينالهم بسوء ، فإن الذي يتولى حمايتهم والدفاع عنهم العزيز القوي ، صاحب العزة والقوة ، فيمنعهم من عدوهم بقوته ، وينتقم من أعدائهم بقدرته ، ويعزُّ أولياءه بعزته ، وكل ذلك وفق حكمة بالغة ، وحكم أحكم الحاكمين .

فليستبشر كل متعبِّد للعزيز الحكيم بنصر الله له ، وتأييده إياه ، وإهلاك عدوه، والانتقام من كل من سولَّت له نفسه أن يؤذي عباد الله الموحدين فإن العزيز الحكيم ، قد حفظ عبده ورسوله عيسى - عليه الصلاة والسلام - من كيد اليهود ومن أراد به سوءًا ، وكرَّمه ورفعه إليه رفعة لشأنه ، وانتقم من اليهود الغادرين الذين أرادوا قتله فمزَّقهم كل مُمزَّق وسلَّط عليهم مَنْ قتلهم وساءهم سوء العذاب ليكونوا عبرة لمن بعدهم ممن يتجرأ على عباد الله الموحِّدين ، وتثبيتاً للموحِّدين المتعبِّدين للعزيز الحكيم - جلَّ في علاه - .

قال الإمام القرطبي - رحمه الله - :

((﴿ وكان الله عزيزا ﴾[1] أي قوياً بالنقمة من اليهود فسلَّط عليهم بطرس بن استيسانوس الرومي فقتل منهم مقتلة عظيمة .

﴿ حكيماً ﴾ : حكم عليهم باللعنة والغضب))[2] .

---

(١) النساء (١٥٨) .

(٢) تفسير القرطبي لسورة النساء آية (١٥٨) المجلد الثالث [جـ ٦ / ٩] .

وقال الإمام الطبري ـ رحمه الله ـ :

((وأما قوله : ﴿ وكان الله عزيزاً حكيماً ﴾[١] فإنه يعني : ولم يزل الله منتقماً من أعدائه ، كانتقامه من الذين أخذتهم الصاعقة بظلمهم ، وكلعنه الذين قصَّ قصتهم بقوله : ﴿ فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله ﴾ .

﴿ حكيما ﴾ يقول ذا حكمة في تدبيره وتصريفه خلقه في قضائه . يقول: فاحذروا أيها السائلون محمداً أن ينزل عليكم كتاباً من السماء ، من حلول عقوبتي بكم ، كما حلَّ بأوائلكم الذين فعلوا فعلكم ، في تكذيبهم رسلي وافترائهم على أوليائي))[٢] .

وقال الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله ـ :

((﴿ بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً ﴾[٣] أي منيع الجناب لا يُرام جنابه ولا يضام مَنْ لاذَ به .

﴿ حكيماً ﴾ أي في جميع ما يُقدِّره من الأمور التي يخلقها وله الحكمة البالغة ، والحجة الدامغة ، والسلطان العظيم ، والأمر القديم))[٤] .

هكذا يختم الله ـ عزَّ وجلَّ ـ هذه القصة العظيمة لنبي ولرسول من أولي العزم من الرسل مع هؤلاد اليهود وهؤلاء الكفار المعاندين ، وهؤلاء المشركين الذين

---

(١) النساء (١٥٨) .

(٢) تفسير الطبري لسورة النساء آية (١٥٨) [٦ / ٦٠٥] .

(٣) سورة النساء (١٥٨) .

(٤) تفسير ابن كثير لسورة النساء آية (١٥٨) [١ / ٥٤٥] .

أشركوا بالله تعالى ، وعادوا هذا الرسول الكريم وهمُّوا بقتله، يختم الله - عزَّ وجلَّ - هذه القصة (قصة عيسى عليه الصلاة والسلام) بقوله تعالى : ﴿ وكان الله عزيزاً حكيماً ﴾[1] .

﴿ عزيزاً حكيماً ﴾ لمن أراد أن يتعبَّده بهذين الاسمين العظيمين ، وهاتين الصفتين الحميدتين .

﴿ عزيزاً حكيماً ﴾ لمن لاَذَ به ، واعتصم بعزته ، واحتمى بجنابه ، فله العزة المطلقة التي يُعزُّ بها من شاء من عباده ، والحكمة البالغة التي يرعى ويحفظ بها أولياءه .

﴿ عزيزاً حكيماً ﴾ يؤيد ، وينصر ، ويرحم ، ويعزُّ كل من دعا إلى تعبيد العباد للعزيز الحكيم - جلَّ في علاه - .

﴿ عزيزاً حكيماً ﴾ يفتك وينتقم من كل من أبى أن يتعبَّد له بأسمائه وصفاته ، وعَبَد غيره من المخلوقات الفانية ، وينتقم من كل منْ عادى أولياءه المخلصين الداعين إلى التوحيد وعبادة رب العباد - جلَّ في عليائه - العزيز الحكيم ، صاحب العزة المطلقة ، والحكمة البالغة.

---

(١) النساء (١٥٨) .

الفصل الثاني

وجوب تحكيم العزيز الحكيم والتحاكم إليه

مدخل :

المبحث الأول : [وجوب تحكيم العزيز الحكيم بين خلقه]

المطلب الأول : أنواع الحكم في كتاب الله تعالى

المطلب الثاني : إن الحكم إلاَّ لله

المطلب الثالث : وجوب الحكم بما أنزل الله تعالى

المطلب الرابع : حكم من لم يحكم بما أنزل الله

المطلب الخامس : الإيمان والتسليم بحكمة التنزيل

المبحث الثاني : [وجوب التحاكم إلى العزيز الحكيم]

المطلب الأول : وجوب التحاكم إلى العزيز الحكيم

المطلب الثاني : التحاكم إلى الله ورسوله - ﷺ - من شروط الإيمان

المطلب الثالث: السمع والطاعة لحكم الله والرسول - ﷺ - من علامات الإيمان

المطلب الرابع : (الإعراض عن التحاكم إلى الله ورسوله - ﷺ - من النفاق الأكبر)

المطلب الخامس : أفحكم الجاهلية يبغون ؟!!



(وجوب تحكيم العزيز الحكيم والتحاكم إليه)

مدخل :

قال تعالى : ﴿ إن الحكم إلاَّ لله أمر ألاَّ تعبدوا إلاَّ إياه ﴾[١] .

وقال تعالى : ﴿ ذالكم حكم الله يحكم بينكم والله عليم حكيم ﴾[٢].

وقال تعالى : ﴿ وأن أحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك ﴾[٣] .

وقال تعالى : ﴿ واتبع ما يوحى إليك واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين ﴾[٤] .

وقال تعالى : ﴿ إن ربك يقضي بينهم بحكمه وهو العزيز العليم ﴾[٥] .

وقال تعالى : ﴿ أليس الله بأحكم الحاكمين ﴾[٦] .

إن هذه الآيات التي بين أيدينا وغيرها كثير - من كتاب ربنا العزيز الحكيم - آيات واضحات صريحات جليات في إثبات الحكم لله تعالى بين خلقه ، وإنها لتؤكد أحقية الله تعالى بهذا الحكم بين خلقه ، بل تثبت أن العدول عن ذلك

---

(١) يوسف (٤٠) .

(٢) الممتحنة (١٠)

(٣) المائدة (٤٩) .

(٤) يونس (١٠٩).

(٥) النمل (٧٨).

(٦) التين (٨) .

وتحكيم غير الله تعالى ، والتحاكم إلى غيره تعرُّض للكفر والفسق والظلم ، وتعدٍ على الذات الإلهية وتعطيل لحق من حقوق الله تعالى على عباده ، وأن هذا الفعل تجرؤ بل هو إجرام وانتكاس في الفطرة وسقوط في الهاوية ، وخسران للدين والدنيا معاً .

إن من مقتضى التعبُّد لله تعالى باسميه (العزيز الحكيم) وصفتي (العزة والحكمة) ليوجب على العبد المسلم الذي أسلم زمامه لله تعالى ، واستسلم لخالقه ومعبوده صاحب العزة والحكمة ، أن يُحكِّمه في كل أموره وفي كل حياته فإن العبد المسلم الحق هو الذي يستشعر بأن حياته كلها لله جلَّ في علاه بل ومماته وكل ما يتصل به من عبادات وغيرها مصداقا لقوله تعالى - عزَّ مِنْ قائل - : ﴿ **قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين** ﴾(١) .

بل لا بد وأن يتعدَّى الأمر من الحكم بحكم الله إلى التحاكم إليه فإن الأمرين لا ينفكان ، فكما أن الحكم بحكم الله تعالى فرض وعبادة واجبة على كل مَنْ عَبَدَ الله تعالى، فأيضا التحاكم إلى الله فرض ومن التعبُّد لله فيجب ألاَّ يكون إلاَّ للخالق - جلَّ في علاه - صاحب الحكم والحكمة . فإنه من الفطرة السليمة ، والطبيعة السوية ، والنفوس الزكية ، والأمزجة المعتدلة ، والقلوب الطاهرة ، والصدور النقية ، أن يحكم بين الخلق العزيز وصاحب القوة ، الشديد صاحب الأمر والنهي ، الخالق جلَّ في علاه ، صاحب القوة العادلة المنزَّه عن الظلم ،

---

(١) الأنعام (١٦٢ : ١٦٣) .

المتعالي عن الحيف ، الموصوف بالحكمة ، فهو قوي حكيم ، وحاكم عادل ، يقضي بين عباده بالحق وهو خير الحاكمين .

قال تعالى : ﴿ **والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء** ﴾(١) .

فهو سبحانه صاحب الملك ، وهو الخالق، وهو العزيز القوي المهمين ، وهو صاحب الحكمة ، الحكيم في أقواله وأفعاله ، فكل شيء يصدر منه جلَّ في علاه بحكمة ولحكمة يعلمها سبحانه فهو العليم الحكيم ، الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، فإنها حكمة أتت عن عزة وقوة وصاحبها جلَّ في علاه خبير وعليم بكل شيء ولا يخفى عليه أي شيء قال تعالى : ﴿ **آلر كتاب أحكمت أياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير** ﴾(٢) .

فإن هذا الإله ـ جلَّ في علاه ـ الذي يملك وصاحب القوة والعزة ، وصاحب الحكمة العليم الخبير ، خالق الخلق ، هو أولى وأحق بأن يحكم بين خلقه ، وهذا من حقه تعالى على عباده ، ومَنْ عَدَلَ عن ذلك وقع في الظلم قال تعالى : ﴿ **إن الشرك لظلم عظيم** ﴾(٣).

نعم إنه أعلى مراتب الظلم أن ينصرف المخلوق عن خالقه ويُعْرض عن حُكْمه ، ويطلب التحاكم إلى غيره ، فأي ظلم هذا ، وأي فسوق هذا ، وأي

---

(١) غافر (٢٠) .

(٢) هود (١) .

(٣) لقمان (١٣) .

خروج عن الطبيعة ، والفطرة السوية التي خلق الله الناس عليها ﴿ فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ﴾(١) .

نعم لقد فَطَرَ الله تعالى النفوس السوية ، والفِطَر السليمة على عبودية خالقها، والسجود لمولاها ، والتحاكم إلى العزيز الحكيم ، الذي أحكم كل شيء ، وشرَّع لعباده ما يصلح لهم أحوالهم ، ويسعدهم في دينهم ودنياهم ، فتبارك الله أحكم الحاكمين .

فيامَنْ رضيت بالله تعالى رباً، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد - ﷺ - نبياً ورسولاً ، يا مَنْ تريد التعبُّد لله تعالى بأسمائه وصفاته ، يا مَنْ آمنت بأن ربك عزيز ، قوي ، حكيم ، ذو حكمة ، عليم خبير ، يجب عليك أن تنقاد لربك ومولاك ، وأن تحكم بشرع الله ، وتحكِّم ربك ومولاك ، في دينك ودنياك ، ولا تُعرِّض نفسك للهلاك ، بل يجب أيضاً التحاكم لهذا الحكيم الذي يحكم بحكمة ، ويُشرِّع لحكمة ، ويأمر بحكمة ، وينهي لحكمة ، فهو أحكم الحاكمين ، وهو الحكيم الخبير ، فتبارك الله رب العالمين .

قال تعالى : ﴿ والله يحكم لا مُعقِّب لحكمه وهو سريع الحساب ﴾(٢) .

فمن أراد أن يعبد الله تعالى حق العبادة ، ومن أراد التعبُّد لله تعالى بأسمائه وصفاته ، وخاصة اسميه [العزيز الحكيم] ، وصفتي [العزة والحكمة] فعليه مقتضيات لهذا التعبُّد ومن ذلك :

---

(١) الروم (٣٠) .

(٢) الرعد (٤١).

أولاً : [تحكيم الله تعالى بين خلقه]

ثانياً : [التحاكم إلى الله تعالى]

وسنلقي هنا بإذن الله تعالى الضوء على كيفية تحقيق هذا العبادات ، وكيفية التعبُّد لله باسميه [العزيز الحكيم] وصفتي [العزة والحكمة] من خلال تحكيم الله تعالى بين خلقه والتحاكم إليه، وذلك من خلال كتاب الله تعالى وسنة نبيه - ﷺ - وسيرة سلفنا الصالح - رضي الله عنهم - ، واتباعاً لمنهج أهل السنة والجماعة ، وبالله التوفيق وعليه التكلان .



[المبحث الأول]

وجوب تحكيم العزيز الحكيم بين خلقه

المطلب الأول : أنواع الحكم في كتاب الله تعالى

المطلب الثاني : إن الحكم إلاَّ لله

المطلب الثالث : وجوب الحكم بما أنزل الله تعالى

المطلب الرابع : حكم من لم يحكم بما أنزل الله

المطلب الخامس : الإيمان والتسليم بحكمة التنزيل



[المطلب الأول]

أنواع الحكم في كتاب الله تعالى

قال تعالى : ﴿ إن الحكم إلاَّ لله إمر ألاَّ تعبدوا إلاَّ إياه ﴾[(١)] .

إن من مقتضيات التعبُّد لله تعالى باسميه [العزيز الحكيم] وبصفتي [العزة والحكمة] أن يحكم العزيز الحكيم بين خلقه ويُتَحَاكَم إليه، فصاحب العزة والحكمة أحق بأن يُحكَّم بين خلقه ويَحْكُم فيهم ، وهو أحق من يَتَحَاكم إليه الخلق ، فهو الخالق وهو أعدل وأسرع وأحكم الحاكمين ، تبارك وتعالى في عليائه .

فلا عجب أن نتكلم هنا عن (الحُكْم) ونحن في اطار حديثنا عن اسم [الحكيم] وصفة [الحكمة] فإن من معاني (الحكيم) : الحاكم ، والمادة واحدة وهي [ح - ك - م] .

قال ابن منظور - رحمه الله - :

((الحَكَم : الله سبحانه وتعالى أحكم الحاكمين ، وهو الحكيم له الحكم سبحانه وتعالى))[(٢)] .

وقال الأزهري - رحمه الله - :

((من صفات الله الحكم والحكيم والحاكم ، ومعاني هذه الأسماء متقاربة))[(٣)].

وقال ابن الأثير - رحمه الله - :

((في أسماء الله تعالى الحَكَم والحكيم وهما بمعنى الحاكم ، وهو القاضي فهو فعيل بمعنى فاعل))[(٤)] .

---

(١) يوسف (٤٠) .

(٢) ، (٣) ، (٤) لسان العرب لابن منظور - مادة حَكَم [ج ٢ / ٩٥١ : ٩٥٤] .

وقال فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين ـ رحمه الله ـ :

((أمـا الحكيم : هـذه المادة (ح ـ ك ـ م) : تدل على (حَكَـمَ وإحكام) ، فعلى الأول يكون الحكيم بمعنى الحاكم ،وعلى الثاني يكون الحكيم بمعنى المُحْكِم، إذاً : يدل الإسم الكريم على أن الحُكْم لله ، ويدل على أن الله موصوف بالحكمة ، لأن الإحكام : هو الاتقان ، والاتقان: وضع الشيء في موضعه، فالله ـ عزَّ وجلَّ ـ وحده هو الحاكم))[١] .

والآيات القـرآنية في كـتاب الله تعـالى التي تثبت لله تعالى اسـمي [الحكيم والحاكم] وصـفتي [الحكمة والحكم] كـثيرة جداً ، وكـذلك بإثبات أحقـية الله بالحكم بين خلقه كثيرة جداً ، ولقد ورد الحكم في كتاب الله تعالى بصور متعددة كلها صريحة في إفراد الله تعالى بهذه الخاصية ، وهذا الحق .

ومن هذه الصور للحكم في كتاب ربنا ما يلي :

١ ـ الحكم الشرعي :

والحكم الشرعي هو الحكم الذي جاءت به الرسل ـ صلى الله عليهم وسلم ـ ونزلت به الكتب السماوية من شرائع الدين ، وذلك ليكـون منهاجاً وشِرْعةً يحكم به الناس بينهم ويتحاكمون إليه ففيه صلاح الدين والدنيا ، وفيه الخير والبركة ، وبه يحقق العبد عبوديته لله تعـالى ، ويكون صالحـاً في نفسه ، ومـصلحاً لغيره ولمن حوله ، ويؤكـد الله تعالى كثيـراً على هذا الأمر المهم والعظيم في كتـابه العزيز في أكثر من موضع ، قال تعالى : ﴿ **إن الحكم إلاَّ لله أمر ألاَّ تعبدوا إلاَّ إياه** ﴾[٢] .

---

(١) شرح العقيدة الواسطية للشيخ محمد صالح بن عثيمين [١/ ١٨٨] .

(٢) يوسف (٤٠) .

ولننظر إلى هذه الآية العظيمة وكيف أن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ بعد إثبات الحكم له وحده ، ونفيه عمن سواه يؤكِّد على أن هذا التحكيم لله ـ عزَّ وجلَّ ـ بين خلقه عبادة لله تعالى ، ومن التعبُّد له جلَّ في عليائه ، بل وأوضح جلَّ شأنه أن من صرف هذه العبادة لغير الله تعالى ، وحَكَّم غير الله تعالى بين خلقه فقد عَبَدَه واتخذه إلاهاً من دون الله تعالى .

ويؤكد العزيز الحكيم مرات ومرات على هذا الأمر وعلى تلك العبادة فيقول جلَّ شأنه ﴿ **ذالكم حكم الله يحكم بينكم والله عليم حكيم** ﴾[1].

بل ويُحذِّر سبحانه وتعالى مِنْ حُكْم غيره ، ويُبيِّن ضلال من يلتفت إلى هذه الأحكام وإلى مُشرِّعيها ، وإلى من يريدها ويبتغيها قال تعالى : ﴿ **أفحكم الجاهلية يبغون ، ومن أحسن من اللهحكماً لقوم يوقنون** ﴾[2] .

ولذلك فإن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ يأمر في الآية التي قبل هذه الآية الكريمة رسوله الكريم ـ ﷺ ـ بأن يحكم بين عباد العزيز الحكيم بشرع العزيز الحكيم ، صاحب العزة والحكمة ، وصاحب الحُكْم والسلطان ، ويُحذِّره من أن يخدعوه بأن يتبع أهواءهم وماعندهم من الزيغ والضلال ، والحيف والظلام ، والكفر والطغيان ، حتى ولو أدَّى ذلك إلى إعراضهم ونفورهم، فليس العبرة بكثرة السالكين للطريق ، ولكن العبرة بمن يسلك الطريق المستقيم ، طريق ا لعزيز الحكيم ، صاحب الحُكْم والحكمة ، القوي العزيز .

---

(١) الممتحنة (١٠) .

(٢) المائدة (٥٠) .

قال تعالى : ﴿ وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وإن كثيراً من الناس لفاسقون ﴾(١) .

٢ ـ الحكم الكوني :

وهذا النوع من الحكم هو ما قضاه الله تعالى على عباده من الخلق ، والرزق ، والحياة ، والموت ونحو ذلك من معاني ربوبيته سبحانه وتعالى ومقتضيات هذه الربوبية التي يتفرّد بها الله تعالى فهو الخالق والرازق والمحي والمميت والمعطي والمانع، بيده ملكوت السماوات والأرض يخلق ما يشاء ، ويفعل ما يريد ، لا مُعقِّب لحكمه ، ولا رادَّ لقضائه إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون جلَّ في عليائه ، والكون كله ومن فيه تحت مشيئته وتابع لإرادته ، يحكم فيه بما شاء ، ويقضي ما يريد .

ومن هذا النوع (الحكم الكوني) قوله تعالى عن أحد إخوة يوسف ـ عليه السلام ـ ﴿ فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أبي أو يحكم الله لي وهو خير الحاكمين ﴾(٢).

الجمع بين الحُكمين :

وقد نرى في كتاب الله تعالى من الآيات المحكمات التي تشتمل على الحُكْمين [الحكم الشرعي ـ والحكم الكوني] للعزيز الحكيم ـ سبحانه وتعالى ـ .

---

(١) المائدة (٤٩) .

(٢) يوسف (٨٠) .

فـالله ـ عـزَّ وجلَّ ـ حكـيم بالحُكْم الشـرعي وبالحُكْم الـكوني ، وهو أيضـا مُحْكِم لهما ، فكل من الحُكْمين موافق للحكمة .

فهو سبحـانه حينما يشرِّع لعبادة حكمه الشرعي فلحكمة علمـها سبحانه ، ولحكمة يريدها.

قال تعالي : ﴿ وكل شيء عنده بمقدار ﴾[1] .

فلم يأمر سبـحانه خلقه بأمر إلاَّ لمصلحـة لهم ،ولم ينهاهم عن شيء إلاَّ لرفع ضُرٍ عنهم ، عَلِمَ ذلك مَنْ عَلِم ، ووصل لهذه الحكمة مَنْ وصل ، وجهلها وعُمِّيت على مَنْ جـهلهـا ، ولكن يبقي الأمـر للحكيم صـاحب الحكمـة المنزَّه عن الظلم ، والمتصف بالعدل .

وكذلك حُكْم الله ـ عـزَّ وجلَّ ـ الكوني مـن الخلق، والإحـيـاء ، والإمـاتة، والرزق، والإعطاء ... فكـل ذلك بحكمـة بالـغـة من الله تعالى ، وتدبيـر ومشيئة وإرادة من صاحب الحكمة الحكيم العليم ، المنزَّه عن العبث .

ومن هذه الآيات التي جمع الله فيها بين [الحكم الشرعي والحكم الكوني] قوله تعالى : ﴿ أليس الله بأحكم الحاكمين ﴾[2] .

قال الإمام القرطبي رحمه الله ـ :

((وقـوله : ﴿ ألـيس الله بـأحكـم الحـاكـمين ﴾ : أي أتقن الحـاكمين صنعاً

---

(١) الرعد (٨) .

(٢) التين (٨) .

[وهذا الحكم الكوني] وقيل [بأحكم الحاكمين] : قضاءً بالحق، وعدلاً بين الخلق))[(١)][وهذا الحكم الشرعي] .

قال فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين :

((وحكم الله ينقسم إلى قسمين :

الأول : كوني ، وهذا لا رادَّ له ، فلا يستطيع أحد أن يرده ، ومنه قوله تعالى : ﴿ **فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أبي أو يحكم الله لي وهو خير الحاكمين** ﴾[(٢)] .

الثاني : شرعي ، وينقسم الناس فيه إلى قسمين : مؤمن وكافر ، فمن رضيه وحكم به فهو مؤمن، ومن لم يرضَ به ولم يحكم به فهو كافر، ومنه قوله تعالى : ﴿ **وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله** ﴾[(٣)] وأما قوله : ﴿ **أليس الله بأحكم الحاكمين** ﴾[(٤)]وقوله تعالى : ﴿ **ومن أحسن من االله حكماً لقوم يوقنون** ﴾[(٥)] فهو يشمل الكوني والشرعي وإن كان ظاهر الآية الثانية أن المراد الحكم الشرعي ، لأنه في سياق الحكم الشرعي ، والشرعي يكون تابعاً للمحبة والرضا والكراهة والسخط ، والكوني عام في كل شيء))[(٦)].

---

(١) تفسير القرطبي لسورة التين آية (٨) المجلد العاشر [ج ٢٠ / ٧٩] .
(٢) يوسف (٨٠) .
(٣) الشوري (١٠) .
(٤) التين (٨) .
(٥) المائدة (٥٠) .
(٦) (القول المفيد على كتاب التوحيد) لفضيلة الشيخ محمد بن صالح عثيمين [٢ / ٢٦١:٢٦٢] .

كيفية التعبُّد للعزيز الحكيـــم

إن العبـد المؤمن الذي آمن بالعـزيز الحكيم ، والذي تعبَّـد لله تعالى بـهذين الاسمين [العزيز الحكيم] وبصفتي [العزة والحكمة] يجب عليه أن يُسلِّم لله تعالى في جميع أموره ، ويُسْلِم له زمامه ليحكم فيه بحكمة ، فهو الذي خلق الإنسان بعزته وقوته ، وهو الذي أوجده بحكمته ، فصاحب القوة ، الحكيم في أفعاله ، أحق أن يَحْكُم ويكون حكماً وحاكماً بين عباده وخلقه ، فمن أراد التعبُّد [للعزيز الحكيم] فعليه أن يُحكِّمه في جميع أموره من دنياه وآخرته ، وأن يَحْكُم بحكمه ، ويتَّبع شرعه ويقف عند حدوده ، ويلتزم أوامره ، وينتهي عن نواهيه إذا كان قد آمن حقاً بعزة الله وحكمه ، وأيقن قلبه أن أحسن شرع ، وأحكم حكم ، وأصلح منهج ، هو شرع وحكم ومنهج صاحب القوة والغلبة ، وصاحب الحكم والحكمة تبارك وتعالى ، فلا بد من الإلتزام بحكم العزيز الحكيم ، وتحكيمه ، والحكم بحكمه ، والانقياد لشرعه [إيماناً بحكمه الشرعي] .

قال تعالى : ﴿ والله يحكم لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب ﴾(١) .

وكذلك لابد للعبد المُتَعبِّد للعزيز الحكيم أن يؤمن ويوقن أن كل شيء حوله، وأن كل ما في الوجود ، وكل ما يحدث ويقع في هذا الكون بعلم الله ، وبقدرة العزيز ، وبحكمة الحكيم ، فتعبُّداً لله تعالى باسميه [العزيز الحكيم] وصفتي [العزة والحكمة] لا بد من التسليم لله تعالى في كل ما يقضيه ويُقدِّره في هذا الكون ، والرضا عن أفعاله وما يصدر عنه ، وعن قَدَرِه وقضائه ،مع اليقين التام أن كل شيء يقع ويحدث في هذاالكون عن إرادة وقوة وبحكمة من الله تعالى في عليائه وأن الله

(١) الرعد (٤١) .

ـ عزَّ وجلَّ ـ له الحكم في الأولى والآخرة ، ويجب التسليم له كل التسليم والرضا عنه وعن قضائه سبحانه وتعالى [إيمانا بالله تعالى وبحكمه الكوني] .

قال تعالى: ﴿ **له الحمد في الأولى والآخرة وله الحكم وإليه ترجعون** ﴾[١] .

قال الشيخ السعدي ـ رحمه الله ـ :

((فهل تقتضي حكمته أن يترك الخلق سدى لا يؤمرون ولا ينهون ، ولا يُثابون ولا يعاقبون ؟!!

أم الذي خلق بني الإنسان أطواراً بعد أطوار ، وأوصل إليهم من النِّعم والخير والبِّر ما لا يحصونه ، وربَّاهم التربية الحسنة ، لا بد أن يُعيدهم إلى دار هي مستقرهم ، وغايتهم التي يقصدون ، ونحوها يؤمون))[٢] .

نعم يجب على هذا العبد أن يوقن أن الله خلقه وأوجب عليه طاعته ، واتباع حُكْمه وأوامره ، والانتهاء عن نواهيه ، حتى يفوز برضا ربه في الدنيا ، وينجو من عذابه يوم يلقاه ، فكل شيء صدر عن الله بحكمة ولحكمة فيجب التعبُّد لله تعالى بذلك خضوعاً لحكمه، والتزاماً بشرعه، وتطبيقاً لأحكامه ، وكل ذلك بحب ورضى عن العزيز الحكيم صاحب العزة والحكمة ، والحكم والإحكام تبارك في علاه .

---

(١) القصص (٧٠) .

(٢) تفسير السعدي لسورة التين آية (٨) ص (٨٥٩) .

[المطلب الثاني]

إن الحكم إلاَّ لله

يأبى العزيز الحكيم أن يحكم أحد غيره في ملكه وبين خلقه ، فهو الله الخالق ذو القوة المتين، الفعَّال لما يريد ، صاحب الحكمة والحكم ، الحكيم العليم ، فمن تجرأ على العزيز الحكيم صاحب القوة والحكمة ، والحَكَمِ العدل ، فقد عرَّض نفسه للهلاك ، وأعلن الحرب على الله تعالى ، فمَنْ هذا الذي اغترَّ بقوته ونسى قوة العزيز الجبار ؟!! وفُتِن بعقله وقوته وتغافل عن حكمة الحكيم الخبير ، وقوة العزيز؟!!!

مَنْ هذا الذي انقلبت طبيعته ، وانتكست فطرته ، واستعمل قوته ـ التي امتنَّ الله عليه بها ـ في أن يفرض حكمه وحكم أمثاله على خلق الله ، وفي ملك الله ، وعلى أرض الله ، وتحت سماء الله ؟!!

أي كفران هذا للمُنْعِم ـ جلَّ في علاه ـ ، فهل هذا شكر النعمة ، والتحدُّث بفضل الله ومِنَنِه ، أم أنه التمرُّد على الخلاَّق جلَّ في علاه ، وإعلان التحدي لكل ما هو من عند الله ؟!!! .

فليعلم كل عَبْدٍ وكل مخلوق أن الله يغار ، يغار على دينه ، يغار على شرعه، يغار على حكمه ، يغار على وحدانيته ، ويأبي ـ جلَّ في علاه ـ أن ينازعه أحد من خلقه أي شيء من خصائصه وتفرُّده ، فيقرِّر الله تعالى هذا الأمر ويؤكده في كتابه العزيز، إقراراً وتحذيراً لكل مَنْ تسوِّل له نفسه أن ينازع الله خاصية الحكم، وأحقية الحكم بين خلقه .

قال تعالى : ﴿ إن الحكم إلاَّ لله أمر ألاَّ تعبدوا إلاَّ إياه ﴾(١) .

فمِنَ التعبُّد لله العزيز الحكيم إفراده تعالى بالحكم فلا يُنازَعُ في هذا الأمر فهو حق لهذا الإله صاحب العزة والحكمة ، فلا مجال لأحد مهما كان أن يشارك الحكيم في حكمه ، والعزيز في ملكه .

ولننظر لهذ االموقف وهذا الدرس العظيم من الرسول - ﷺ - الذي يُعلِّمنا فيه التوحيد ، ويلقِّنا العقيدة ، ويُرْسي قواعد الإيمان الحق بالعزيز الحكيم ، ويردُّ الحق لصاحبه ، ويضع الأمور في نصابها ، ويتعبَّد للعزيز الحكيم صاحب العزة والحكمة والحكم ، وذلك حينما غيَّر اسم الصحابي الذي كان يُكنَّى بأبى الحكم ، فقال له الرسول - ﷺ - قولته المشهورة الخالدة [إن الله هو الحكم وإليه الحكم]، ولمَّا سأله الرسول - ﷺ - عن سبب التسمية قال له : إن قومي إذا اختصموا في شيء أتوني ، فحكمت بينهم ، فرضى كلا الطرفين . فقال الرسول - ﷺ - « ما أحسن هذا ، فما لك من الولد » ؟

قلت : شريح ، ومسلم ، وعبد الله .

قال : « فمن أكبرهم؟ ، قلت : شريح ، قال : « أنت أبو شريح »(٢) .

---

(١) يوسف (٤٠) .

(٢) أخرجه البخاري في التاريخ الكبير [٨/٢٢٧] ، وفي الأدب المفرد (٨١١) .
ورواه أبو داود في (الأدب) باب (في تغييرالاسم القبيح) [٥ / ٢٤٠] .
ورواه النسائي في (القضاء) باب (إذا حكّموا رجلاً فقضى بينهم) [٨ / ٢٢٦] .
والحديث صححه الألباني في (الإرواء) [٨ / ٢٣٧] .
وفي (تعليقة على المشكاة) (٤٧٦٦) وقال : « إسناده جيد » . انظر كتاب (القول المفيد على كتاب التوحيد) للشيخ صالح بن عثيمين [٢ / ٢٦٣] .

هكذا قالها الرسول - ﷺ - وأرساها ورسَّخها ، ﴿ إن الله هو الحكم وإليه الحكم ﴾ إيماناً بالعزيز الحكيم ، وتعبُّداً لله بصفتي العزة والحكمة ، وتصديقاً لقوله تعالى ﴿ إن الحكم إلاَّ لله ﴾(١).

أحقية الله تعالى بالحكم بين خلقه :

إن اللّه - عزَّ وجلَّ - [العزيز الحكيم] هو أحق من يحكم بين الخلق لأنه هو خالقهم ، وهو موجودهم ، وهو العزيز القوي ، صاحب الملك والسلطان ، صاحب الحكم والحكمة ، العليم الخبير ، ويشير اللّه تعالى إلى هذه الأحقية في كتابه العزيز قائلاً جلَّ في علاه ﴿ ذالكم حكم الله يحكم بينكم والله عليم حكيم ﴾(٢) .

فيقرِّر اللّه - عزَّ وجلَّ - أنه هو الذي يحكم بين عباده ، وهو صاحب الحكم ، وأن هذا الحكم جاء عن استحقاق ، وليس فيه ظلم ولا تعدي ، فالله يحكم بين خلقه فما الغضاضة في ذلك ؟!! [يحكم بينكم] فلماذا العجب ولما الاعتراض إذا كان الخالق يحكم بين خلقه؟!!! ويؤكِّد اللّه - عزَّ وجلَّ - هذا الاستحقاق قائلاً جلَّ في علاه ﴿ والله عليم حكيم ﴾ أي مع أنه سبحانه يحكم بين خلقه الذين خلقهم بنفسه وبقدرته ، فإنه سبحانه (عليم) يعلم كل شيء ما كبر وما صَغُرَ ، ويعلم كل شيء في السماوات والأرض ، ولا يغيب عن علمه أي شيء مهما صغر فسبحانه وتعالى يسمع ويرى النملة السوداء، على الصخرة الصماء،في الليلة الظلماء، بل ما هو أصغر من ذلك وأدقُّ حتى الذَّرة ، ألم تسمع قوله تعالى :

---

(١) يوسف (٤٠) .

(٢) الممتحنة (١٠) .

﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يرى ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾[(١)] .

فإن هذا العليم الخبير هو أحق من يحكم ، وأولى من يُشرِّع ، فحكمه وشرعه قد أتى عن علم بكل شيء . قال تعال : ﴿ فالحكم لله العلي الكبير ﴾[(٢)] .

وكذلك لقد أتى هذا الحكم ، وكانت هذه الأحقية عن علم وحكمة ﴿ والله عليم حكيم ﴾ فقد تتوفر للشخص القوة والعلم (مع الفارق بين قوة وعلم البشر وقو ة وعلم الله تعالى) ولكنه لا تتوفر له الحكمة فتدعوه قوته للظلم والبطش ، ولا ينفعه علمه لعدم وجود حكمة لتوظيف القوة ، والانتفاع بعلمه .

فسبحان العزيز صاحب العزة والقوة فلا تدعوه قوته لظلم أحد قال تعالى : ﴿ وماربك بظلام للعبيد ﴾[(٣)] فبرغم أنهم عبيده ومِلْكٌ له وهو صاحب الأمر والنهي والقوة والجبروت ، ولكن لا يظلم أحداً ، قال تعالى : ﴿ ولا يظلم ربك أحداً ﴾[(٤)] .

بل يتعدّي الأمر لما هو أعظم من ذلك فيحرِّم الله تعالى الظلم على نفسه وهو سبحانه وتعالى الذي لا يُسأل عما يفعل قال تعالى : ﴿ لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ﴾[(٥)] .

---

(١) الزلزلة (٧ ، ٨) .
(٢) غافر (١٢) .
(٣) فصلت (٤٦) .
(٤) الكهف (٤٩) .
(٥) الأنبياء (٢٣) .

ولننظر لهذا الحديث القدسي العظيم الذي هو درس وموعظمة وزجر وتهديد لكل طاغية وكل جبار متكبِّر متغطرس، يظلم ويبطش بعباد الله تعالى ، ولا يألوا في مؤمن إلاًّ ولا ذمة .

قال تعالى في الحديث القدسي : « **يا عبادي إني حَرَّمْتُ الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا** »[١] .

قال ابن الأثير ـ رحمه الله ـ :

((حَرَّمْتُ الظلم على نفسي : أي تَقَدَّستُ عنه وتعاليت فهو في حقه كالشيء المحرم على الناس))[٢].

وسبحان صاحب الحكمة الذي لا يصدر عنه أمر أو قول أو فعل إلاَّ بحكمة ولحكمة يعلمها سبحانه وتعالى في عليائه يُطْلع من شاء من عباده على ما شاء منها، ويحجب ما شاء منها عمن يشاء . فلله الحكم والأمر والنهي تبارك وتعالى وهو العليم الحكيم .

قال تعالى : ﴿ **آلر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير** ﴾[٣] .

---

(١) رواه مسلم في كتاب (البر والصلة والأدب) باب (تحريم الظلم) .

(٢) كتاب النهاية لابن الأثير [١ / ٣٧٤] .

(٣) هود (١) .

حكمُ الطغاة والطواغيت :

أما هؤلاء الطغاة والطواغيت الذين يُنصبّون أنفسهم حُكّاماً ومشرّعين يحكمون في الناس بغير ما أنزل الله ، ويشرّعون لهم غير شِرْعة الله ، فهؤلاء غرّهم بالله الغرور ، وغرّهم بالله حلمه ، وإمهالهم ، وهو على إهلاكهم قدير ، وحينما يأخذهم لن يفلتهم ، فإن أخذه عزيز ، إنهم لم يؤمنوا بالعزيز الحكيم ، ولم يتعبّدوا لصاحب العزة والحكمة ، ولم ينقادوا لصاحب الأمر والنهي ، وتعرّضوا لغضب الجبار . ونقول لهؤلاء جميعا ما هي مؤهلاتكم لأن تحكموا في الناس وتُشرّعوا للخلق غير شرع الله تعالى . وتحكموا فيهم بغير حكمه جلّ جلاله :

هل الكون كونكم ؟!!

﴿ الله الذي خلق السماوات والأرض ﴾[١] .

هل الخلق خلقكم ؟!!

﴿ هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه ﴾[٢].

- هل لكم عزة كعزة الله - تعالى عن ذلك علوا كبيراً - ؟!!

﴿ فالله العزة جميعا ﴾[٣] .

- هل لكم قوة كقوة الله - تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً - ؟!!

﴿ إن الله لقوي عزيز ﴾[٤] .

---

(١) إبراهيم (٣٢) .

(٢) لقمان (١١) .

(٣) فاطر (١٠) .

(٤) الحج (٤٠) .

﴿ وأن القوة لله جميعا ﴾[1] .

ـ هل لكم علم كعلم الله ـ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ـ ؟!!

﴿ وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم ﴾[2] .

ـ هل عندكم حكمة كحكمة الله ـ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ـ ؟!!

﴿ ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم ﴾[3] .

ـ هل حكمكم كحكم الله ـ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ـ ؟!!

﴿ وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين ﴾[4] .

ـ إن حكم هؤلاء الطغاة والطواغيت مبني على الجهل والظلم والطغيان ، والمصالح الشخصية ، والجاهلية والعنصرية ، ومرتكز على الوطنية والقومية ، وأساسه الحزبية التعصبية ، وتحيط به الشهوات ، وأساسه الهوى ، وخالٍ من الحكمة والإحكام ، ولم يأمر بخُلُقٍ قويم، ولم يحث على فضيلة ، ولم يراع مصالح الناس العامة ، ولا الصلاح ولا الإصلاح ، فكل هذه التشريعات الباطلة هي من نتاج العقل البشري المخلوق القاصر ، الذي يفتقد الحكمة والإحكام ، والعلم بما يصلح الناس وما يفسدهم ، فلا علم ولا حكمة ، ولا عدل ولا إنصاف، ولا خُلُق ولا فضيلة .

---

(١) البقرة (١٦٥) .

(٢) الأنعام (١٠١) .

(٣) البقرة (١٢٩) .

(٤) هود (٤٥) .

أفلا يستحي هؤلاء جميعاً من خالقهم العزيز الحكيم، خالق الخلق ومُربيِّهم ، وصاحب الملك والسلطان ، وصاحب العزة والحكمة .

فليرجع الجميع إلى الله تعالى ، ويتوبوا إليه ، ويتعبَّدوا له بأسمائه الحسنى ، وصفاته الحميدة ، ويُنيبون إلى العزيز الحكيم ، فيحكمون بشرعه ، ويتحاكمون إليه ، فهو سبحانه وتعالى [الحَكَمُ وإليه الحُكْم] صاحب العزة والحكمة ، لا إله إلاَّ هو أحكم الحاكمين .

[المطلب الثالث]

وجوب الحكم بما أنزل الله

إن الله هو الحكيم ، وهو الحَكَمُ ، وهو الحاكم ، وله الحكم في السماوات وفي الأرض ، وإليه المرجع والمصير ، سمَّي نفسه (الحكيم) ، وسمَّاه رسوله - ﷺ - (الحَكَم) ، ويأبى سبحانه وتعالى أن ينازعه أحد من مخلوقاته هذا الاختصاص ، ولذلك فرض سبحانه وتعالى على خلقه وعلى عباده أن يلتزموا هذا الأمر ، وأن يتعبَّدوا لله بصفة (الحكمة والحكم) ، فواجب على كل متعبِّد لله بأسمائه وصفاته، أن يقف عند أسماء الله تعالى وصفاته ويتعبَّد لله بما يليق بكل صفة ، فالله يحكم ولا معقِّب لحكمه ، ولا رادَّ لقضائه ويجب أن يرى عبده مذعناً لحكمه ، خاضعاً لأمره ، منتهياً عن نواهيه ، راضياً بحكمه ، مؤمناً بحكمته ، مستسلماً لأحكامه ، مُتَّبعاً لشرعه، منقاداً لمنهجه .

فأوجب ذلك على جميع خلقه، وأمر أنبيائه ورسله القيام على دينه وشرعه ، وفرض عليهم الحكم بما أنزل عليهم من أحكامه وحكمته .

[الله يأمر الرسول - ﷺ - أن يحكم بما أنزل إليه] :

قال تعالى آمراً رسوله - ﷺ - بالحكم بما أنزل عليه في كتابه العزيز : **﴿ وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون ﴾**[1].

---

(١) المائدة (٤٨) .

قال الشيخ السعدي ـ رحمه الله ـ :

((﴿ وأنزلنا إليك الكتاب ﴾ : الذي هو القرآن العظيم ،أفضل الكتب وأجلّها .

﴿ بالحق ﴾: أي: إنزالاً بالحق ، ومشتملاً على الحق، في أخباره ، وأوامره ، ونواهيه .

﴿ مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ﴾ : لأنه شهد للكتب السالفة ، ووافقها ، وطابقت أخباره أخبارها ، وشرائعه الكبار شرائعها ، وأخبرت به ، فصار وجودها[1] مصدقاً لخبرها .

﴿ ومهيمناً عليه ﴾ : أي : مشتملاً على ما اشتملت عليه الكتب السماوية ، وزيادة في المطالب الإلهية والأخلاق النفسية .

فهو الكتاب الذي يتّبع كل حق جاءت به الكتب فأمر به ، وحثّ عليه ، وأكثر من الطرق الموصلة إليه .

وهو الكتاب الذي فيه نبأ السابقين واللاحقين ، وهو الكتاب الذي فيه الحكم ، والحكمة والأحكام ، التي عرضت عليه الكتب السابقة ، وما شهد له بالردّ فهو مردود قد دخله التحريف والتبديل، وإلاّ فلو كان من عند الله لم يخالفه.

﴿ فاحكم بينهم بما أنزل الله ﴾: من الحكم الشرعي الذي أنزله الله عليك .

---

(١) لعلها : (وجوده) وأظن أنه خطأ في الطباعة وليس من الشيخ رحمه الله ـ . لأن الكلام هنا يُقْصد به القرآن الكريم وليس الكتب السابقة ، فإن وجود القرآن الكريم ونزوله على سيدنا محمد ـ ﷺ ـ يُصَدِّق ما أخبرت به الكتب السابقة عن نزول القرآن العظيم بعدها .

﴿ ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق ﴾ : أي : لا تجعل اتباع أهوائهم الفاسدة المعارضة للحق بدلاً عما جاءك من الحق ، فتستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير .

﴿ لكل جعلنا منكم ﴾ أيها الأمم .

﴿ شرعة ومنهاجاً ﴾ : أي سبيلاً وسُنَّة . وهذه الشرائع التي تختلف باختلاف الأمم ، هي التي تتغير بحسب تغير الأزمنة والأحوال ،وكلها ترجع إلى العدل في وقت شرعتها .

أما الأصول الكبار التي هي مصلحة وحكمة في كل زمان فإنها لا تختلف فتشرع في جميع الشرائع .

﴿ ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ﴾ : تبعاً لشريعة واحدة لا يختلف متأخرها ولا متقدمها .

﴿ ولكن ليبلوكم فيما آتاكم ﴾ : فيختبركم ، وينظر كيف تعملون ، ويبتلى كل أمة بحسب ما تقتضيه حكمته ، ويؤتى كل أحد ما يليق به ، وليحصل التنافس بين الأمم فكل أمة تحرص على سبق غيرها ، ولهذا قال :

﴿ فاستبقوا الخيرات ﴾ أي بادروا إليها ، وأكملوها ، فإن الخيرات الشاملة لكل فرض ومستحب من حقوق الله وحقوق عباده، لا يصير فاعلها سابقاً ، لغيره، مستولياً على الأمر إلاَّ بأمرين :

المبادرة إليها وانتهاز الفرصة حين يجيء وقتها ، ويعرض عارضها ، والاجتهاد في آدائها كاملة على الوجه المأمور به ، ويُستدل بهذه الآية على المبادرة لآداء ا لصلاة وغيرها في أول وقتها .

وعلى ألاَّ يقتصر العبد على مجرد ما يجزي في الصلاة وغيرها من العبادات من الأمور الواجبة . بل ينبغي أن يأتي بالمستحبات التي يقدر عليها لتتم وتكتمل ويحصل بها السبق .

﴿ إلى الله مرجعكم جميعاً ﴾ : الأمم السابقة واللاحقة ، كلهم سيجمعهم الله ليوم لا ريب فيه .

﴿ فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون ﴾ : من الشرائع والأعمال . فيثيب أهل الحق والعمل الصالح ، ويعاقب أهل الباطل والعمل السيء))[1] .

فهذه الآية الكريم توضِّح وجوب الحكم بما أنزل الله على رسوله - ﷺ - (القرآن الكريم) وتوضح أحقية الله تعالى بالحكم والتشريع ، وأحقية شرعه بالسيادة والهيمنة ، لما يتضمنه هذا الشرع الحنيف من الحكمة البالغة ، والحُكْم العدل ، وكل ما يصلح الخلق ، بل كل ما يصلح الدنيا والدين .

الله يُحَذِّر رسوله - ﷺ - من ترك الحكم بما أنزل عليه :

لم يقتصر الأمر على فرضية الحكم بما أنزل الله تعالى على رسوله الكريم - ﷺ - بل إن الله - عزَّ وجلَّ - يُحذِّر رسوله - ﷺ - من أن يتبع أهواء المخلوق ويترك حكم الخالق - جلَّ في علاه - ، كذلك يُحذِّره أن يترك ولو بعض ما أنزل إليه من حُكْم الله المحكم الحكيم ويلتفت لحكم وشرع وهوى هؤلاء الطغاة والطواغيت .

---

(١) تفسير السعدي لسورة المائدة آية (٤٨) ص (١٩٦ : ١٩٧) .

فإن كل من أعرض عن حكم الله المُحْكَم ، وعن شرعه القويم فليس فيه خير ولن يأتي منه الخير ، وليس في اتباعه إلاَّ الندم والضلال ، والغي والهلاك ، والفساد والإفساد ، ونشر الظلم والحرمان ، وخسران الدنيا والآخرة .

قال تعالى : ﴿ وأن أحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك ﴾[١] .

قال الإمام القرطبي -رحمه الله- :

((قال ابن عباس - رضي الله عنه - : اجتمع قوم من الأحبار منهم ابن صوريا وكعب بن أسود وابن صَلُوبَا وشاس بن عَديٍّ وقالوا : اذهبوا بنا إلى محمد فلعلنا نفتنه عن دينه فإنما هو بشر، فأتوه فقالوا: قد عرفت يا محمد أنَّا أحبار اليهود، وإن اتبعناك لم يخالفنا أحد من اليهود ،وإن بيننا وبين قوم خصومه فنحاكمهم إليك، فاقض لنا عليهم حتى نؤمن بك، فأبى رسول الله - ﷺ - فنزلت الآية))[٢] .

فهؤلاء هم اليهود ، فهذا هو ديدنهم ، وهذا هو دأبهم ، المكر والخديعة ، والصدُّ عن سبيل الله ، ويبغونها دائماً عوجاً ، يودون لو أنهم فتنوا كل موحِّد ، وأهلكوا كل مؤمن ، وقضوا على كل ما هو من عند الله تعالى .

فيجب الحذر من كل من أراد أن يفتن المسلم عن دينه ، ويُبْعده عن ربه ، ويحول بينه وبين شرع الله ، ويُحَوِّله عن الحكم بما أنزل الله تعالى . ذلك لمن أراد أن يتعبَّد لله تعالى بأسمائه وصفاته، لمن أيقن أن له رباً عزيزاً حكيماً ، صاحب حكمة،

---

(١) المائدة (٤٩) .

(٢) تفسير القرطبي لسورة المائدة آية (٥٠) المجلد الثالث [ج ٦ / ١٣٨] .

يُشرِّع لعباده ، ويحكم فيهم بحكمه ، ويجب التعبُّد لله العزيز الحكيم بأن يأخذ العبد دين الله وشرعه وحكمه جملة وبقوة ولا يُعْرِض عن بعض ما أنزل الله تعالى ، بل التسليم كل التسليم ، والإذعان كل الإذعان ، وكما قال الله لنبيه يحيى عليه السلام : ﴿ يا يحيى خذ الكتاب بقوة ﴾[١] .

وقال تعالى : ﴿ خذوا ما أتيناكم بقوة واذكروا ما فيه ﴾[٢] .

نعم إنه يجب على كل متعبِّد لله العزيز الحكيم ، أن يأخذ دينه بقوة ، وأن يحكم بما أنزل الله على رسوله ، وأن يَحْذر شياطين الإنس والجن أن يثنوه عن التعبُّد للعزيز الحكيم ، وعن الحكم بما أنزل على نبيه - ﷺ - ، حتى يحقق العبودية الحقة لله جل في علاه ، وحتى يتعبَّد للعزيز الحكيم حق التعبُّد ، وحتى يؤكد قوة إيمانه بأن الله هو الحكم، وأن الله هو الحكيم، وأن الله هو صاحب الحكم والحكمة .

---

(١) مريم (١٢) .

(٢) البقرة (٦٣) .

[المطلب الرابع]

حُكم من لم يحكم بما أنزل الله

إنه من لم يحكم بما أنزل الله على رسوله - ﷺ - قد تمرَّد على الله تعالى ، واعترض على العزيز الحكيم ، ولم يُقر لله تعالى بالعزة والحكمة ، فإن صاحب العزة والقوة المطلقة من حقه أن يحكم ، وصاحب الحكمة الحكيم الخبير أولى مَنْ يحكم ، فهذا المتمرِّد على ربه والمعترض على خالقه - صاحب العزة والقوة ، وذي السلطان والجبروت ، والمهيمن على جميع خلقه ، والحكيم في جميع أقواله وأفعاله وأحكامه - قد عرَّض نفسه لغضب مولاه - جلَّ في علاه - وعرَّض نفسه للكفر والظلم والفسق ، ألم يسمع قول ربه في كتابه العزيز وهو يحكم على من لم يحكم بحكمه ، وما أنزل على رسوله - ﷺ - حُكْماً واضحاً شافياً جلياً في ثلاث آيات بيِّنات تقرع الآذان، وتُحذِّر المخدوع ، وتنذر المفتون، وهي حجة على كل من تجرأ على الحكيم، وكل من سولت له نفسه الخروج عن حكم أحكم الحاكمين والعدول عن ما أنزل في كتابه الحكيم .

قال تعالى : ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾[1] .

وقال تعالى : ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون ﴾[2] .

وقال تعالى : ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون ﴾[3] .

---

(١) المائدة (٤٤) .

(٢) المائدة (٤٥) .

(٣) المائدة (٤٧) .

لقد حَكَمَ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ في هذه الآيات الثلاث على من لم يحكم بما أنزل على رسوله ـ ﷺ ـ (بالكفر والظلم والفسق)[١] ، وكيف لا وقد عَطَّل هذا المتمرِّد حُكْمَ العزيز في ملكه، وحُكْم الحكيم بين خلقه، فكيف يقوى هذا المتمرِّد، الذي عطَّل شرع الله وأعرض عن الحكم بما أنزل الله ـ كيف يقوى على سماع هذه الآيات وهي تقرع آذانه ، وتُرَدَّدُ عليه ليلاً ونهاراً ، ويُذكِّره بها الدعاة المخلصون إلى الله ، ويُحذِّره من مغبة فعله كل موحِّد مخلص ، وكل مُحبٍ لدين الله ولشرعة الحكيم ، ألا يرجع هذا المتمرد وكل من انزلق في فعله ، ألا يتوبون جميعاً إلى الله ، ويتعبَّدون للعزيز الحكيم باسميه [العزيز الحكيم] وبصفتي [العزة والحكمة] فيحكمون بما أنزل الله العزيز (في ملكه وسلطانه) ويتمسَّكون (بحكمه وحكمته) ، فيعلنون بذلك عن عبوديتهم لله تعالى وتَعَبُّدِهم لله بأسمائه وصفاته جلَّ في علاه .

وليحذر هؤلاء الذين أبوا أن يتعبَّدوا لله تعالى بأسمائه وصفاته، وتجرأوا على (العزيز الحكيم) فليحذروا بطش الله وانتقامه ، فإن بطشه شديد ، وأخذه أليم ، وسبحانه وتعالى يغار على ملكه، ويغار على حكمه ، ويغار على دينه ، ويغار على حُرُمَاته، فمن أثار غَيْرة الله تعالى فقد عرَّض نفسه للهلاك فقد قال الرسول ـ ﷺ ـ **« إن الله يغار ، وإن المؤمن يغار ، وغَيرْة الله أن يأتي العبد ما حَرَّم الله »**[٢] .

فأي شيء أكبر حُرْمة (بعد الشرك بالله) أن يلغي عبدٌ من عبيد الله ، ضعيفٌ من الضعفاء، مغرور من المغرورين ، مفتون من المفتونين ، يلغي حكم الله ،

---

(١) وذلك على التفصيل الذي سيأتي ـ إن شاء الله تعالى ـ .

(٢) رواه البخاري كتاب (النكاح) باب (الغيرة) .
ورواه مسلم في كتاب (التوبة) باب (غيرة الله تعالى وتحريم الفواحش) .

ويستبدله بحثالة فكر البشر ، بقوانين ونُظُم وتشريعات من نتاج هذا المخلوق ، الجاهل القاصر، صاحب الهوى والشهوات ، والعصبيات والقوميات ، المفتقر إلى الحكمة والبصيرة ، العاجز عن الكمال والإحكام ، والله إنها من أكبر ما يُرْتكب في حق الله تعالى، ومن أكثر ما يُثير غَيْرة العزيز الحكيم، صاحب الملك والسلطان ، والعزة والحكمة ، أحكم الحاكمين .

وليعلم هؤلاء جميعاً أن غَيْرة الله يتبعها بطش وانتقام ، وعذاب وهوان ، ومدافعة عن الحرمات ، وذبٌّ عن الدين والشريعة ، وحماية للأحكام والعقيدة ، وتثبيت للموحدين ، وخذلان للجاحدين والمبطلين ، ونصر للمتعبِّدين لله رب العالمين ، وبشرى للمتعبِّدين بالأسماء والصفات أجمعين ، فإنهم من المقرَّبين ، ويوم القيامة من الفائزين فلطالما دافعوا عن الدين ، وعظَّموا حرمات رب العالمين ، وحكموا بما أنزل أحكم الحاكمين ، فلم يهلكوا مع الهالكين ، وفازوا برضا رب العالمين ، فهم في أعلى عليين ، بإذن ومشيئة رب العالمين ، فنعم أجر العاملين .

[سبب نزول الآيات الثلاث وأقوال أئمة المفسرين]

وإننا لنرى من تتمة الفائدة ، وتوضيح الحق ونحن نتكلم عن التعبُّد للعزيز الحكيم ، وتحكيم العزيز الحكيم بين خلقه ، وحكم من لم يحكم بما أنزل العزيز الحكيم ، أن نسوق أقوال بعض السلف ، وذلك من خلال بعض التفاسير المعتمدة عند أهل السنة والجماعة ، من خلال تفسيرهم للآيات الثلاث الآتية ، وذلك تعبُّداً للعزيز الحكيم ، وحبّاً وموالاة لكتاب الله الحكيم ، وإنارة للطريق لكل من أراد التعبُّد للعزيز الحكيم - جلَّ في علاه - والآيات الثلاث هي :

- قال تعالى : ﴿ **ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون** ﴾[1].

- قال تعالى : ﴿ **ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون** ﴾[2] .

- قال تعالى : ﴿ **ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون** ﴾[3] .

[أولاً : سبب نزول الآيات]

روى الإمام مسلم في صحيحه :

((عن البراء بن عازب - رضي الله عنه - قال : مُرَّ على النبي - ﷺ - بيهوديٍّ محمَّماً مجلوداً ، فدعاهم النبي - ﷺ - فقال : « **هكذا تجدون حدَّ الزاني في كتابكم ؟** » .

---

(١) المائدة (٤٤) .

(٢) المائدة (٤٥) .

(٣) المائدة (٤٧) .

قالوا : نعم ، فدعا رجلاً من علمائهم ، فقال : « أنشدك بالله الذي أنزل التوراة على موسى - ﷺ - أهكذا تجدون حدَّ الزاني في كتابكم ؟ » .

قال : لا ، ولولا أنك نشدتني بهذا لم أخبرك ، نجدُهُ الرجم ، ولكنه كَثُرَ في أشرافنا ، فكنا إذا أخذنا الشريف تركناه ، وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحدَّ ، قلنا : تعالوا نجتمع على شيء نقيمه على الشريف والوضيع ، فجعلنا التحميم والجلد مكان الرجم فقال رسول الله - ﷺ - : « اللهم إني أول مَنْ أحيا أمرك ، إذا أماتوه » .

فأمر به فرُجِمَ ، فأنزل الله - عزَّ وجلَّ - : ﴿ يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر - إلى قوله - إن أوتيتم هذا فخذوه ﴾[1] .

يقول : ائتوا محمداً - ﷺ - فإن أمركم بالتحميم والجلد فخذوه ، وإن أفتاكم بالرجم فاحذروا ، فأنزل الله - تعالى - : ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾[2] .

﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون ﴾[3].

﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون ﴾[4] وفي الكفار كلها))[5] .

---

(١) المائدة (٤١) .

(٢) المائدة (٤٤) .

(٣) المائدة (٤٥) .

(٤) المائدة (٤٧) .

(٥) رواه مسلم في كتاب (الحدود) باب (رجم اليهود ، أهل الذمة في الزنى) . =

[ثانياً : من أقوال أئمة المفسرين]

قال الإمام الطبري ـ رحمه الله ـ :

((يقول تعالى ذِكْره : ومن كتم حكم الله الذي أنزله في كتابه وجعله حكماً بين عباده ، فأخفاه وحكم بغيره ، كحكم اليهود في الزانيين المحصنين بالتجبية والتحميم ، وكتمانهم الرجم ، وكقضائهم في بعض قتلاهم بدية كاملة وفي بعض بنصف الدية ، وفي الأشراف بالقصاص ، وفي الأدنياء بالدية ، وقد سوّى الله بين جميعهم في الحكم عليهم في التوراة ﴿ **فأولئك هم الكافرون** ﴾ .

يقول : هؤلاء الذين لم يحْكموا بما أنزل الله في كتابه ، ولكن بدّلوا وغيّروا حكمه ، وكتموا الحق الذي أنزله في كتابه ﴿ **هم الكافرون** ﴾ .

يقول : هم الذين ستّروا الحق الذي كان عليهم كشْفه وتبينه ، وغطوه عن الناس ، وأظهروا لهم غيره وقضوا به ، لسُحْتٍ أخذوه منهم عليه .

* وقد اختلف أهل التأويل(١) في تأويل « الكفر » في هذا الموضع :

ـ **فقال بعضهم** : بنحو ما قلنا في ذلك ، من أنه عنى به اليهود الذين حرّفوا كتاب الله وبدّلوا حكمه .

وقال بعضهم : عَنَى بالكافرين أهلَ الإسلام ، وبالظالمين اليهود ، وبالفاسقين النصارى .

= ورواه أبو داود في كتاب (الحدود) باب (في رجم اليهوديين) حديث (٤٤٤٧) ، (٤٤٤٨) . ورواه ابن ماجة في كتاب (الأحكام) باب (بما يستخلف أهل الكتاب) حديث (٢٣٢٧) مختصر.

(١) يقصد بأهل التأويل أهل التفسير . وليس المقصود الذين يؤولون أسماء الله وصفاته عن معانيها الظاهرة .

وقال آخرون : بل عنى بذلك كفر دون كفر ، وظلم دون ظلم ، وفسق دون فسق .

ـ **وقال آخرون** : بل نزلت هذه الآيات في أهل الكتاب ، وهي مرادٌ بها جميع الناس ، مسلموهم وكفارهم .

ـ **وقال آخرون** : معنى ذلك : ومن لم يحكم بما أنزل الله جاحداً به . فأما الظلم والفسق فهو للمُقرِّ به .

ـ وأولى هذه الأقوال عندي بالصواب قول من قال : نزلت هذه الآيات في كفَّار أهل الكتاب ، لأن ما قبلها وما بعدها من الآيات ففيهم نزلت ، وهم المعنيون بها ، وهذه الآيات سياق الخبر عنهم ، فكونها خبراً عنهم أولى .

فإن قال قائل : فإن الله تعالى ذكره قد عمَّ بالخبر ذلك عن جميع من لم يحكم بما أنزل الله ، فكيف جعلته خاصّا ؟ .

قيل : إن الله تعالى عمَّ بالخبر بذلك عن قوم كانوا بحكم الذي حكم به في كتابه جاحدين ، فأخبر عنهم أنهم بتركهم الحكم على سبيل ماتركوه كافرون .

وكذلك القول في كل من لم يحكم بما أنزل الله جاحداً به هو بالله كافر ،كما قال ابن عباس ، لأنه بجحوده حُكْم الله بعد علمه أنه أنزله في كتابه ، نظير جحوده نبوة نبيه بعد علمه أنه نبيٌّ)) (1) .

---

(1) تفسير الطبري لسورة المائدة آيات (٤٤ ، ٤٥ ، ٤٧) [٣ / ١٠١ : ١٠٣] .

وقال الإمام القرطبي - رحمه الله - :

((قوله تعالى : ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾[(١)] و ﴿ الظالمون ﴾[(٢)] ، و ﴿ الفاسقون ﴾[(٣)] نزلت كلها في الكفار ،ثبت ذلك في صحيح مسلم من حديث البراء ، وقد تقدَّم ، وعلى هذا المُعْظَم ، فأما المسلم فلا يكفر وإن ارتكب كبيرة .

- **وقيل** : فيه إضمار ، أي ومن لم يحكم بما أنزل الله رداً للقرآن ، وجحداً لقول الرسول - ﷺ - فهو كافر ، قاله ابن عباس ومجاهد ، فالآية عامة على هذا .

- **قال ابن مسعود والحسن** - رضي الله عنهما -

هي عامة في كل من لم يحكم بما أنزل الله من المسلمين واليهود والكفار أي معتقداً ذلك ومستحلاً له ، فأمَّا من فعل ذلك وهو معتقد أنه راكب مُحرَّم فهو من فُسَّاق المسلمين ، وأمره إلى الله - تعالى - إن شاء عذَّبه ، وان شاء غفر له .

- **وقال ابن عباس** - رضي الله عنه - في رواية :

ومن لم حكم بما أنزل الله ، فأمَّا من حكم بالتوحيد ولم يحكم ببعض الشرائع فلا يدخل في هذه الآية ، والصحيح الأول .

---

(١) المائدة (٤٤) .

(٢) المائدة (٤٥) .

(٣) المائدة (٤٧) .

- وقال الشعبي - رحمه الله - :

هي في اليهود خاصة ، واختاره النحاس .

- ويروى أن حذيفة - رضي الله عنه - :

سُئِل عن هذه الآيات أهي في بني إسرائيل ؟ قال : نعم هي فيهم ، ولتسلْكن سبيلهم حذو النعل بالنعل .

- وقيل :

الكافرون للمسلمين ، والظالمون لليهود ، والفاسقون للنصارى ، وهذا اختيار أبي بكر بن العربي ، قال : لأنه ظاهر الآيات .

وهو اختيار ابن عباس وجابر بن زيد وابن أبي زائدة وابن شُبُرْمة والشعبي أيضا .

قال طاوس وغيره :

ليس بكفر ينقل عن الملة ، ولكنه كفر دون كفر ، وهذا يختلف إن حَكَمَ بما عنده على أنه من عند الله ، فهو تبديل له يوجب الكفر ، وإن حكم به هوى ومعصية فهو ذنب تدركه المغفرة على أصل أهل السنة في الغفران للمذنين .

قال القُشيري :

ومذهب الخوارج أن من ارتشى وحكم بغير ما أنزل الله فهو كافر ، وعُزِي هذا إلى الحسن والسُّدي ، وقال الحسن أيضا : أخذ الله - عزَّ وجلَّ - على الحُكَّام

ثلاثة أشياء : ألاَّ يتبعوا الهوى ، ولا يخشوا الناس ويخشوه ، وألاَّ يشتروا بآياته ثمناً قليلاً))(١) .

قال الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله ـ :

((وقوله تعالى: ﴿ **ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون** ﴾(٢).

ـ قال البراء بن عازب ، وحذيفة بن اليمان ، وابن عباس ، وأبو مجلز ، وأبو رجاء العطاردي ، وعكرمة ، وعبيد الله بن عبد الله ، والحسن البصري وغيرهم : نزلت في أهل الكتاب ، زاد الحسن البصري وهي علينا واجبة .

ـ وقال عبد الرزاق عن سفيان الثوري عن منصور بن إبراهيم قال : نزلت هذه الآيات في بني إسرائيل ، ورضي الله لهذه الأمة بها ـ رواه ابن جرير .

ـ وقال ابن جرير ـ أيضا ـ حدثنا يعقوب حدثنا هشيم أخبر عبد الملك بن أبي سليمان عن سلمة بن كهيل عن علقمة ومسروق أنهما سألا ابن مسعود عن الرشوة فقال من السحت قال فقالا : وفي الحكم قال ذاك الكفر ثم تلا : ﴿ **ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون** ﴾ .

ـ وقال السُّدّى :

﴿ **ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون** ﴾ يقول ومن لم يحكم بما أنزلت فتركه عمداً ، أو جار وهو يعلم فهو من الكافرين .

(١) تفسير القرطبي لسورة المائدة آيات (٤٤ ، ٤٥ ، ٤٧) ، المجلد الثالث [جـ ٦ / ١٢٤] .
(٢) المائدة (٤٤) .

ـ وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قوله ﴿ **ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون** ﴾ قال من جحد ما أنزل الله فقد كفر ، ومن أقرَّ به ولم يحكم به فهو ظالم فاسق ـ رواه ابن جرير ثم اختار أن الآية المراد بها أهل الكتاب، أومن جحد حكم الله المُنَزَّل في الكتاب .

ـ وقال عبد الرزاق عن الثوري عن زكريا عن الشعبي : ﴿ **ومن لم يحكم بما أنزل الله** ﴾ قال للمسلمين .

ـ وقال ابن جرير حدثناابن المثنى حدثنا عبد الصمد حدثنا شعبة عن ابن أبي السفر عن الشعبي : ﴿ **ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون** ﴾ قال : هذا في المسلمين . ﴿ **ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون** ﴾ قال : هذا في اليهود .

﴿ **ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون** ﴾ قال : هذا في النصارى .

وكذا رواه هشيم والثوري عن زكريا بن أبي زائدة عن الشعبي .

ـ وقال عبد الرزاق أيضا أخبرنا معمر عن ابن طاوس عن أبيه قال سئل ابن عباس عن قوله ﴿ **ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون** ﴾ قال هي به كفر .

ـ قال ابن طاوس : وليس كمن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله .

ـ وقال الثوري عن ابن جريج عن عطاء أنه قال : كفر دون كفر ، وظلم دون ظلم وفسق دون فسق ـ رواه ابن جرير

ـ وقال وكيع عن سعيد المكي عن طاوس :

﴿ **ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون** ﴾ .

قال : ليس بكفر ينقل من الملة .

ـ وقال ابن أبي حاتم حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد المقرى حدثنا سفيان ابن عيينة عن هشام بن حجير عن طاوس عن ابن عباس في قوله : ﴿ **ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون** ﴾ قال ليس بالكفر الذي تذهبون إليه ـ ورواه الحاكم في مستدركه من حديث سفيان بن عيينة وقال صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه))(١) .

خلاصة أقوال السلف في الحكم بغير ما أنزل الله :

ومما تقدَّم من استعراض لأقوال كثيرمن أئمة السلف الصالح ، الذين هم أئمة أهل السنة والجماعة يتبين لنا أنهم على قولين في هذه المسألة كما نصَّ على ذلك الحافظ ابن كثير ـ رحمه االله ـ حيث قال عند قوله تعالى : ﴿ **ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون** ﴾(٢) .

قال : « فيه قولان سيأتي بيانهما ... »(٣) .

القول الأول : أن من لم يحكم بما أنزل الله فهوكافر كفراً يخرج من الملَّة وينقض التوحيد .

---

(١) تفسير ابن كثير لسورة المائدة آية (٤٤) [٢/٦٢] .

(٢) المائدة (٤٤) .

(٣) تفسير ابن كثير لسورة المائدة آية (٤٤) [٢ / ٦١] .

القول الثاني : أن من لم يحكم بما أنزل فهو كافر كفراً لا يخرج من المِلّة ، فهو كفر دون كفر - أي أنه كفر أصغر - ما لم يَجْحَد حكم الله ، أو يَسْتَحِل الحكم بغيرما أنزل الله ، فإن جَحَدَ أو اسْتَحَل فيكفر بذلك كفراً يخرج من المِلّة إجماعاً .

حكم تبديل شرع الله بغيره :

ومما تقدم من استعراض لأقوال وآراء كثير من أئمة السلف - رحمهم الله - نلاحظ أن كلامهم - رحمهم الله - يدور حول الحكم بغير ما أنزل الله - تعالى - واختلافهم في الحكم على مَنْ فَعَلَ ذلك - كما تقدم - ولكن يبقى الأمر مطروحاً فيمن قام بتنحية شرع الله تعالى كلية أومعظمة ، وبدّله بغيره من تشريعات المخلوقين، وجعله شرعاً مُتَّبعاً يُلزِمْ الولاة والقضاة والأتباع بالحكم والقضاء به ، ويُثِيبُ مَنْ حكم به ، ويعاقب مَنْ يخرج عنه ويخالفه .

فإن مثل هذه الصورة لم تكن موجودة في عهد الصحابة - رضي الله عنهم - ولا في عهد التابعين وتابعي التابعين - رحمهم الله - فكلامهم يَنْصَبُّ على مَنْ قام بالحكم في القضايا التي يحكم فيها - أو بعضها - فيحكم بغير ما أنزل الله تعالى ، مع أن الأصل العام في الدولة الإسلامية هو الحكم بكتاب الله تعالى ، وما أُنزل على الرسول - ﷺ - فجاءت أحكامهم على الواقع الذي يعيشونه .

أما قضية التبديل الكلي لشرع الله ، أومعظمة ، بحيث تكون التنحية الكلية - أو لمعظم شرع الله - وتبديله بغيره من التشريعات البشرية فإنها حدثت بعد ذلك كما فعل [جنيكيز خان] أيام محنة التتار - حينما بدّل شرع الله - تعالى - بغيره من تشريعات البشر فقاتله المسلمون وعلى رأسهم كبار العلماء وأئمة الدين .

[أقوال لأهل العلم في قضية تبديل شرع الله] :

وأسوق هنا ـ وعلى عجالة من الأمر ـ[١] أقوالاً لبعض أئمة المسلمين وعلمائهم ، في حالات يظهر فيها التبديل ، وحكمهم على من وقع فيه ،دون تَدَّخُل في النصوص ، وعلى حسب ما وصل إليه علمي ، ووقع عليه نظري ، ويبقى للموضوع تأصيله والنظر فيه ، واسقاطه على الواقع في أبحاث أخرى تعنى بهذا الموضوع المهم والضروري.

قال الإمام الطبري ـ رحمه الله ـ :

قال ـ رحمه الله ـ في قوله تعالى : ﴿ **ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون** ﴾[٢] .

((يقول : هؤلاء الذين لم يحكموا بما أنزل الله في كتابه ، ولكن بدَّلوا وغيَّروا حكمه ، وكتموا الحق الذي أنزله في كتابه هم الكافرون))[٣] .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ :

((فإن الحاكم إذا كان ديِّناً لكنه حكم بغيرما أنزل الله وكان بغيرعلم ، كان من أهل النار ، وإن كان عالماً لكنه حكم بخلاف الحق الذي يعلمه كان من أهل النار، وإذا حكم بلا عدلٍ ولا علمٍ أولى أن يكون من أهل النار .

---

(١) لأن المجال ليس مجال بحث تخصص في الموضوع ، فلتراجع كُتب التفسير والعقيدة في هذا الموضوع وأقوال أئمة المسلمين من أهل السنة والجماعة والله الهادي إلى سواء السبيل .

(٢) المائدة (٤٤) .

(٣) تفسير الطبري لسورة المائدة آية (٤٤) [٣ / ١٠٢] .

وهذا إذا حكم في قضية شخصية ، وأما إذا حكم حكماً عاماً في دين المسلمين فجعل الحق باطلاً ، وجعل المعروف منكراً والعكس ، ونهى عما أمر الله به ، ورسوله - ﷺ - وأمر بما نهى الله عنه ورسوله - ﷺ - فهذا لون آخر يحكم فيه رب العالمين وإله المرسلين ومالك يوم الدين الذي له الحمد في الأولى والآخرة))(١).

- وقوله رحمه الله (فهذا لون آخر يحكم فيه رب العالمين) كناية عن كِبَر جُرْم مَنْ فعل هذا الفعل ، ومن تجرَّأ على هذا العمل ، فيلاحظ في هذه العبارة مدى إنكار ابن تيمية - رحمه الله - لهذاالأمر واستنكاره له، واستغرابه إياه، حيث لم يُعْهد ذلك على المسلمين وآمرائهم وحكامهم في العصورالأولى من صدر الإسلام !!! .

- وقال الحافظ ابن كثير - رحمه الله - :

قال يرحمه الله - تعالى - عند قوله تعالى : ﴿ **أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون** ﴾(٢).

((ينكر تعالى على من خرج عن حكم الله المحكم المشتمل على كل خير الناهي عن كل شر وعدل إلى ما سواه من الآراء والأهواء والاصطلاحات التي وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الضلالات والجهالات مما يضعونها بآرائهم وأهوائهم ، وكما يحكم التتار من

---

(١) مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية [٣٥ / ٣٨٨] .
(٢) المائدة (٥٠) .

السياسات الملكية المأخوذة عن ملكهم (جنكيز خان) الذي وضع لهم [الياسق] وهو عبارة عن كتاب مجموع من أحكام قد اقتبسها من شرائع شتى من اليهودية والنصرانية والملة الإسلامية وغيرها وفيها كثيرمن الأحكام أخذها من مجرد نظره وهواه فصارت في بنية شرعاً مُتَّبعاً يُقدِّمونه على الحكم بكتاب الله وسنة رسول الله - ﷺ - فمن فعل ذلك منهم فهو كافر يجب قتاله حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله فلا يُحَكَّم سواه في قليل ولا كثير))[1] .

وقال فضيلة الشيخ محمد بن إبراهيم - رحمه الله - :

((إن من الكفر الأكبر المستبين ، تنزيل القانون اللعين منزلة ما نزل به الروح الأمين على قلب محمد - ﷺ - ليكون من المنذرين ، بلسان عربي مبين في الحكم به بين العالمين ، والردٌّ إليه عند تنازع المتنازعين ، مناقضة ومعاندة لقوله تعالى : ﴿ **فإن تنازعتم في شيء ، فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً** ﴾[2] .

وقد نفى الله سبحانه وتعالى الإيمان عن من لم يُحكِّموا النبي - ﷺ - فيما شجر بينهم ، نفياً مؤكداً بتكرار أداة النفي وبالقسم قال تعالى : ﴿ **فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً** ﴾[3]))[4] .

(١) تفسير ابن كثير لسورة المائدة آية (٥٠) [٢ / ٦٨] .
(٢) النساء (٥٩) .
(٣) النساء (٦٥) .
(٤) (تحكيم القوانين) لفضيلة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ مفتي المملكة العربية السعودية سابقا ص (٢٠ : ٢١) .

وقال أيضا ـ رحمه الله ـ :

قال ـ رحمه الله ـ عن كفر الاعتقاد بعد أن قسّمه إلى خمسة أقسام :

والخامس : وهو أعظمها وأشملها وأظهرها معاندة للشرع ، ومكابرة لأحكامه ، ومشاقة لله ولرسوله ـ ﷺ ـ ومضاهاة بالمحاكم الشرعية ، إعداداً ، وإمداداً ، وإرصاداً ، وتأصيلاً ، وتفريعاً ، وتشكيلاً ، وتنويعاً ، وحكماً ، وإلزاماً ، ومراجع ومستندات .

فكما أن للمحاكم الشرعية مراجع مستمدات ، مرجعها كلها إلى كتاب الله تعالى ،وسنة رسوله ـ ﷺ ـ فلهذه المحاكم مراجع هي : القانون الملفّق من شرائع شتى ، وقوانين كثيرة ، كالقانون الفرنسي ، والقانون الأمريكي ، والقانون البريطاني ، وغيرها من القوانين ، ومن مذاهب بعض البدعيين المنتسبين إلى الشريعة، وغير ذلك .

فهذه المحاكم في كثيرمن أمصار الإسلام مهيأة مكملة ، مفتوحة الأبواب ، والناس إليها أسراب إثر أسراب ، ويحكم حُكامها به ، وتُقرِّهم عليه ، وتحتِّمه عليهم .

فأي كفر فوق هذا الكفر ، وأي مناقضة للشهادة بأن محمداً رسول بعد هذه المناقضة))[1] .

وقال أيضا ـ رحمه الله ـ :

((وأما الذي قيل فيه إنه كفر دون كفر ، إذا حاكم إلى غير الله مع اعتقاده أنه عاصٍ ، وأن حكم الله هو الحق ، فهذا الذي يصدر منه المرة ونحوها .

(١) (تحكيم القوانين) لفضيلة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ ص (٢٠ : ٢١) .

ـ وأما الذي جعل قوانين بترتيب وتخضيع فهو كفر ، وإن قالوا : أخطأنا وحكم الشرع أعدل ، فهذاكفر ناقل عن الملة))[١] .

وعلَّق فضيلة الشيخ الدكتور صالح الفوزان[٢] على هذه الفتوى قائلاً :

((ففرَّق رحمه الله بين الحكم الجزئي الذي لا يتكرر ، وبين الحكم العام الذي هو المرجع في جميع الأحكام أو أغلبها ، وقرَّر أن هذا الكفر ناقلٌ عن الملة مطلقاً وذلك لأن من نحيّ الشريعة الإسلامية وجعل القانون الوضعي بديلاً عنها فهذا دليل على أنه يرى أن القانون أحسن من الشريعة ، وهذا كفر أكبر يخرج من الملة))[٣] .

وقال فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين[٤] ـ رحمه الله ـ :

((من لم يحكم بما أنزل الله استخفافاً به واحتقاراً له ، أو اعتقاداً أن غيره أصلح منه وأنفع للخلق ، فهوكافر كفراً مخرجاً من الملة ، ومن هؤلاء من يضعون للناس تشريعات تخالف التشريعات الإسلامية ، لتكون منهاجاً يسير الناس عليه، فإنهم لم يضعوا تلك التشريعات المخالفة للشريعة الإسلامية إلاَّ وهم يعتقدون أنها أصلح وأنفع للخلق ، إذ من المعلوم بالضرورة العقلية والجبلة الفطرية ، أن الإنسان

---

(١) فتاوى الشيخ محمد بن ابراهيم آل الشيخ [١٢ / ٢٨٠] .

(٢) هو فضيلة الشيخ الدكتور صالح بن فوزان الفوزان عضو هيئة كبار العلماء بالمملكة العربية السعودية وعضو اللجنة الدائمة للإفتاء .

(٣) كتاب (التوحيد) لفضيلة الدكتور صالح الفوزان (للصف الثالث الثانوي) وزارة المعارف ـ فصل الحكم بكتاب الله تعالى .

(٤) هو فضيلة الشيخ محمد بن صالح بن عثيمين عضو هيئة كبار العلماء بالسعودية ـ والأستاذ بكلية الشريعة ـ جامعة الإمام محمد بن سعود بالقصيم وامام المسجد الكبير بعنيزة ـ وهو من العلماء المعروفين لطلبة العلم في العالم الإسلامي ـ رحمه الله ـ .

لا يعدل عن منهاج الى منهاج يخالفه إلا وهو يعتـقد فضل ما عدل إليه ، ونقص ما عدل عنه))[1] .[2] .

وقال أيضاً ـ رحمه الله ـ :

((يجب على طالب العلم أن يعـرف الفرق بين التـشريع الذي يجـعل نظاماً يمشي عليه ويستبـدل به القرآن ، وبين أن يحكم في قضية معـينة بغير ما أنزل الله ، فهذا قد يكون كفراً أو فسقاً أو ظلمـاً ، فيكون كفراً إذا أعتقد أنه أحسن من حكم الشرع أو مماثل له . ويكـون فسقاً إذا كـان لهوى في نفس الحـاكم . ويكون ظلماً إذا أراد مـضرة المحكوم عليـه ، وظهـور الظلم في هذه أبين من ظهـوره في الثانيـة ، وظهور الفسق في الثانية أبين من ظهوره في الثالثة))[3] .

---

(١) (المجموع الثمين) من فتاوى الشيخ محمد بن صالح العثيمين .

(٢) وانظر كتـاب (حقيقـة الولاء والبراء في معـتقد أهل السنة والجمـاعة) سيـد سعيد عـبد الغني ، فضل التحاكم إلى كتاب الله (ص ٨٠ : ١١٦) .

(٣) (القول المفيد على كتاب التوحيد) لفضيلة الشيخ محمد صالح بن عثيمين [٢/٢٦٥ : ٢٦٦].

علاقة الحكم بالتعبُّد للعزيز الحكيم :

وأقول :

مهما كان الأمر في موضوع الحكم بغير ما أنزل الله تعالى ، وسواء أكان الكفر كفراً أصغراً ، أم كفراً أكبراً يُخْرج من الملة ، ومهما كان حُكْم من بدَّل شرع الله تعالى ، يبقى الأمر قائماً بأن هذا الذي ترك شرع الله تعالى وعدل عنه ومال لغيره، وحكم بسواه ، فإن من تجرأ على ذلك لم يتعبَّد لله العزيز الحكيم بأسمائه وصفاته ، وخاصة اسميه (العزيز الحكيم) وصفتي (العزة والحكمة) .

إذ كيف به يعترف به ويؤمن ويوقن بأن الله هو العزيز ، وأن العزة لله جميعاً وأن لله العزة والكبرياء ، والسلطة والهيمنة على جميع خلقه ، ثم يجعل سلطان الحكم لغيره ، ويجعل الأمر والنهي لسواه، ويُحكِّم غيره في خلقه وهو الذي له الخلق والأمر ، فهو الذي خلق الخلق بعزته وقوته وهو الأحق بالحكم بين عباده ﴿ ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين ﴾[1] .

كيف بهذا الذي حكم بغير شرع الله يعدل عن حُكْم الحكيم ، وحكمة أحكم الحاكمين ، إلى غيره من المخلوقين القاصرين ، الضعفاء ، الذين تتحكم فيهم شهواتهم ، ونزعاتهم ، وعِرْقيتهم ، وعصبيتهم ، وقوميتهم ، ووطنيتهم ، وخلودهم إلى الأرض ، واتباع النفس والهوى ؟!!!.

(١) الأعراف (٥٤) .

إنه التجرؤ كل التجرؤ على العزيز الحكيم ، صاحب العزة والحكم ، إنه العزوف والنكول عن التعبُّد لله باسمي (العزيز الحكيم) وبصفتي (العزة والحكمة) ، إنه التجافي كل التجافي للعزيز الحكيم ، وعدم تحقيق التوحيد كما أمر به العزيز الحكيم ، فإن التعبُّد لله تعالى كلٌّ متكامل لا يتجزأ فمن اعترف بالله خالقاً ، ورباً رازقاً ، وإلاهاً معبوداً ، فلا بد وأن يُذعن له حاكماً ومُشرِّعاً ، ولا بد أن يُسلِّم له بالأمر والنهي ،والحكم والتشريع ، حتى لا يقع في التناقض ، وحتى يُثبِّت أقدامه في دائرة الدين ، وحتى يكون داخل حظيرة التوحيد ، وفي بوتقة الإيمان .

فيا كُل مَنْ آمن بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد - ﷺ - نبياً ورسولاً ، ويا كل مَنْ أراد التعبُّد لله تعالى بأسمائه الحسنى ، وصفاته العليا ، ويا كُلَّ مَنْ عَرف قدر الله حق المعرفة ، وتعرَّف على عزَّة الله وقدرته ، وآمن به إلاهاً عزيزاً حكيماً ، فعليك بالتعبُّد لله حق التعبُّد في كل أمور حياتك ، (وخاصة الحكم) فلا تحكم إلاَّ بما حكم العزيز الحكيم ، ولا تقض إلاَّ بما قضى به العزيز الحكيم ، ولا ينطق لسانك ، ولا تخطُّ يدك إلاَّ بما قضى وحكم به العزيز الحكيم ، حتى تكون ممن تعبَّد لله حق التعبُّد فسبحان العزيز الحكيم القائل ﴿ **إن الحكم إلاَّ لله أمر ألاَّ تعبدوا إلاَّ إياه** ﴾ . فقرن سبحانه وتعالي بين الحكم والعبادة لتلازمهما .

[المطلب الخامس]

الإيمان والتسليم بحكمة التنزيل

قال تعالى : ﴿ تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم ﴾(١) .

إن من مقتضيات الإيمان بالأسماء والصفات ، والتعبُّد لرب الأرض والسماوات ، باسميه [العزيز الحكيم] وبصفتي [العزة والحكمة] أن يؤمن العبد المتعبِّد لله رب العالمين ويسلِّم بأن العزيز الحكيم له حكمة بالغة في شرعة وحُكْمه ، وتنزيله ، وأن تنزيل العزيز الحكيم لا يدانيه أي شرع ، ولا يقرب منه أي حُكْم ، فإن شرع وتنزيل العزيز يَغْلب ولا يُغْلب ، ويعلو ولا يُعلى عليه ، ويُهيْمن ولا يُهَيْمن عليه ، فإن العزيز القوي سبحانه صاحب الغلبة ، القهَّار ، الفعَّال لما يريد ، شرعه وحكمه أيضا عزيز ، وغالب ، ومهيمن ، وقاهر ، فإنه يعلو ولا يُعلى عليه ، وغالب فلا يُغْلب ، مَنْ قال به صدق ، ومَنْ حَكَم به عَدَلَ ، ومن تمسَّك به نجا ، ومن ابتغى فيه الهوى هُدى إلى صراط مستقيم، ومن أعرض عنه ضل ضلال مبيناً، وما تركه من جبَّار إلاَّ قسمه الله ، وما حاربه أحد إلاَّ أهلكه الله ، ومن ابتغى العزة في غيره أذله الله ، هو حبل الله المتين ، والسراج المنير، لمن أراد أن يستقيم ، ولمن أراد أن يتعبَّد لله رب العالمين ، واختار لنفسه أن يكون من الناجين ، ومن المتعبِّدين للعزيز الحكيم .

---

(١) الزمر (١) .

[شرع الله فيه صلاح العباد]:

قال تعالى على لسان نبيه إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ﴿ ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم ﴾(١).

وقال تعالى : ﴿ تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصا له الدين ﴾(٢) .

إن الله تعالى يخبر أنه هو سبحانه وتعالى الذي أنزل الكتاب وهو (القرآن الكريم) وهو الذي يحمل بين أياته أحكام الله وحُكْمه إلى خلقه أجمعين .

أنزل هذه الأحكام وهذا الشرع بعزته ، وقوته ، وقدرته على الخلق ، وهيمنته على سلطانه وأنزله بحكمته ، وإحكامه ، وحُكْمه ، فهو الحكيم الذي يضع الأمور في نصابها ، وفي موضعها ، وهو الذي يعلم ما يصلح الخلق فيأمرهم به بحكمته ، ويعرف ما يفسدهم فينهاهم عنه بحكمته ورحمته بل وهو (العزيز) القوي القادر على تعذيب مَنْ يُعرض عن حُكْمه ، ويترك أحكامه ، ويستبدلها بأحكام البشر وقوانيهم ، وهو القوي العزيز صاحب القهر والغلبة ، القادر على إهلاك مَنْ نصَّب نفسه مُشرِّعاً من دون الله تعالى ليضاهي الله في مُلكه ، وفي عزته ، وفي حكمه وحكمته ، فالله يحذِّرهم جميعاً بأنه هو العزيز ، صاحب العزة والقوة والقهر والغلبة ، فله الكبرياء في السماوات والأرض ، ولدينه، ولحُكْمه ، ولشرعه الغلبة

---

(١) البقرة (١٢٩) .

(٢) الزمر (١ : ٢) .

والهيمنة ، والهلاك كل الهلاك، والخسران كل الخسران لمن تجرأ على أن يُنازع الله - عزَّ وجلَّ - خصائصه وصفاته التي لا تنبغي إلاَّ له في عليائه ، وهو القائل جلَّ وعلا في الحديث القدسي : « **الكبرياء ردائي والعزّ إزاري ، فمن نازعني واحداً منهما ألقيته في النار** »[(١)] .

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ - : «**العزُّ إزاره، والكبرياء رداؤه، فمن نازعني عذَّبْتُه** »[(٢)] .

فليحذر من أراد أن يتعبَّد لله العزيز الحكيم أن يُنازع الله عزته ،وغلبته ، وغلبة شرعه وأحكامه في ملكه ، فإن العزَّة لله ولحكمه في ملكه وسلطانه ، والذّلَّ والهوان والعذاب على من نازع العزيز القهار . فإن الله - عزَّ وجلَّ - يغار على دينه وشرعه وحكمه وحرماته كما أخبر الرسول - ﷺ - قائلا : ﴿ **ما أحد أَغْير من الله** ﴾[(٣)].

---

(١) رواه الإمام أحمد في مسند المكثرين .

(٢) رواه مسلم كتاب (البر والصلة والآداب) باب (تحريم الكبر) .

(٣) رواه البخاري في كتاب (النكاح) باب (الغيرة) .

ورواه مسلم في كتاب (التوبة) باب (غيرة الله وتحريم الفواحش) .

[العزيز الحكيم يمهل من أعرض عن شرعه] :

وهو (الحكيم) والحاكم ، والحَكَمُ ، صاحب الحُكْم والحكمة ، يعذِّب من شاء بحكمته ممن خرجوا على حُكْمه وأحكامه ، ويمهل منهم من شاء أيضاً بحكمته ، فيرجع منهم من شاء الله بحكمته أن يرجع إلى صراط العزيز الحكيم ، ويزيد مَنْ شاء بحكمته في الضلال والغي ، فيمهل من شاء منهم في الدنيا ، ويأخذ من شاء منهم في الدنيا أخذ عزيز مقتدر ، ويؤخِّر العذاب لمن شاء منهم أيضا بحكمته ، فهو الحكيم الخبير ، .

وهذا كله يُسْتشف من ختم آيات كثيرة من الآيات التي تتحدث عن الأحكام، وحكم الله إلى خلقه ، وإنزال الكتاب المبين على سيد المرسلين ، وتخصيص ختم هذه الآيات الكريمة باسمي [العزيز الحكيم] وصفتي [العزة والحكمة] .

قال تعالى : ﴿ **كذلك يوحي إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم** ﴾[1] .

وفي سورة الزمر ، وسورة الجاثية، وسورة الأحقاف تكرر قوله تعالى : ﴿ **تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم** ﴾[2].

قال الإمام الطبري ـ رحمه الله ـ :

((يقول تعالى ذِكْره : ﴿ **تنزيل الكتاب** ﴾ : الذي نزّلناه عليك يا محمد .

﴿ **من الله العزيز** ﴾ : في انتقامه من أعدائه .

---

(١) الشورى (٣) .

(٢) الزمر (١) .

﴿ الحكيم ﴾: في تدبير خَلْقَه ، لامن غيره ، فلا تكونن في شك من ذلك .

وقوله : ﴿ إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق ﴾ : يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ـ ﷺ ـ إنا أنزلنا إليك يا محمد الكتاب ، يعني بالكتاب : القرآن .

﴿ بالحق ﴾ : يعني بالعدل ، يقول : أنزلنا إليك هذا القرآن بأمر الحق والعدل، ومن ذلك الحق والعدل أن تعبد الله مخلصاً له الدين ، لأن الدين له لا للأوثان التي لا تملك ضراً ولا نفعاً .

وقوله : ﴿ فاعبد الله مخلصاً له الدين ﴾ : يقول تعالى ذِكْره : فاخشع لله يا محمد بالطاعة ، أخلص له الألوهة ، وأفرده بالعبادة ، ولا تجعل له في عبادتك إياه شريكاً ، كما فعلت عَبَدةُ الأوثان))[1] .

وقال الشيخ السعدي ـ رحمه الله ـ :

((يخبر تعالى عن عظمة القرآن ، وجلالة مَنْ تكلَّم به ، ونزل منه . وأنه نزل من الله العزيز الحكيم أي الذي وصفه الألوهية للخلق ، وذلك لعظمته وكماله والعزة التي قهر بها كل مخلوق ، وذلَّ له كل شيء ، والحكمة في خلقه وأمره .

فالقرآن نازل ممن هذا وصفه ، والكلام وصف للمتكلم ، والوصف يتبع الموصوف ، فكما أن الله تعالى هو الكامل من كل وجه ، الذي لا مثيل له ، فهذا وحده كافٍ في وصف القرآن ، دال على مرتبته .

ولكنه ـ مع هذا ـ زاد بياناً لكماله ، بمن نزل عليه وهو محمد ـ ﷺ ـ الذي هو أشرف الخلق فعُلِمَ أنه أشرف ،وبما نزل به ، وهو الحق ، فنزل بالحق الذي لا مِرْية فيه ، لإخراج الخلق من الظلمات إلى النور .

---

(١) تفسير الطبري لسورة الزمر آية (١ ، ٢) [٦ / ٣٦٥] .

ونزل مشتملاً على الحق في أخباره الصادقة وأحكامه العادلة ، فكل ما دلَّ عليه فهو أعظم أنواع العدل من جميع المطالب العلمية ، وما بعد الحق إلاَّ الضلال))(١) .

قال الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله ـ :

يخبر تعالى أن تنزيل هذا الكتاب وهو القرآن العظيم من عنده تبارك وتعالى فهو الحق الذي لا مرية فيه ولا شك كما قال ـ عزَّ وجلَّ ـ : ﴿ **وإنه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين** ﴾(٢) وقال تبارك وتعالى : ﴿ **وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد** ﴾(٣) ، وقال جلَّ وعلا ههنا : ﴿ **تنزيل الكتاب من الله العزيز** ﴾(٤) أي المنيع الجناب « **الحكيم** » أي في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره .

﴿ **إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصاً له الدين** ﴾(٥) .

أي فاعبد الله وحده لا شريك له وأدع الخلق إلى ذلك وأعلمهم أنه لا تصلح العبادة إلاَّ له وحده وأنه ليس له شريك ولا عديل ولا نديد ولهذا قال تعالى : ﴿ **ألا لله الدين الخالص** ﴾(٦) .

أي لا يقبل من العمل إلاَّ ما أخلص فيه العامل لله وحده لا شريك له))(٧) .

---

(١) تفسير السعدي لسورة الزمر آية (١) ص (٦٦٤) .
(٢) الشعراء (١٩٢ : ١٩٥) .
(٣) فصلت (٤١ : ٤٢) .
(٤) الجاثية (٢) .
(٥) الزمر (٢) .
(٦) الزمر (٣) .
(٧) تفسير ابن كثير لسورة الزمر آية (١ : ٢) [٤ / ٤٤] .



[المبحث الثانـــــي]

وجوب التحاكم إلى العزيز الحكيم

المطلب الأول : حكم التحاكم إلى العزيز الحكيم

المطلب الثاني : التحاكم إلى الله ورسوله - ﷺ - من شروط الإيمان

المطلب الثالث : السمع والطاعة لحكم الله والرسول - ﷺ - من علامات الايمان

المطلب الرابع : الإعراض عن التحاكم إلى الله ورسوله - ﷺ - من النفاق الأكبر

المطلب الخامس : أفحكم الجاهلية يبغون ؟!!



[المطلب الأول]

حكم التحاكم إلى العزيز الحكيم

قال تعالى : ﴿ وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله ذالكم الله ربي عليه توكلت وإليه أنيب ﴾(١) .

[وجوب التحاكم إلى العزيز الحكيم] :

إن التعبُّد لله تعالى بأسمائه وصفاته من أجلِّ العبادات التي يتعبَّد بها العبد لربه جلَّ في علاه ، ومن التعبُّد لله باسميه [العزيز الحكيم] وصفتي [العزة والحكمة] أن يتحاكم العبد المسلم الموحِّد إلى الله تعالى وإلى حكمه وشرعه ، فلا بد أن يستشعر العبد المسلم أن له رباً قوياً صاحب قوة وسلطان وهيمنة ، يسيطر على الكون ، ويملك كل مافيه ، وهو أحق مَنْ يتوجه إليه الخلق أجمعين ليكون بينهم حكما وحاكما، فيحكم فيهم بحُكْمه ، ويتعبَّدهم بشرعه، فالحكم كله لله تعالى، ويؤكد على ذلك سبحانه وتعالى في محكم آياته قائلاً : ﴿ فالحكم لله العلي الكبير ﴾(٢) .

قال الشيخ السعدي ـ رحمه الله ـ :

((فالحكم لله العلي الكبير ﴿ العلي ﴾ : الذي له العلو المطلق من جميع الوجوه ، علو الذات ، وعلو القدر ، وعلو القهر ، ومن علو قدره كمال عدله تعالى ، وأنه يضع الأشياء مواضعها ، ولا يساوي بين المتقين والفجّار .

﴿ الكبير ﴾ : الذي له الكبرياء والعظمة والمجد في أسمائه ، وصفاته ، وأفعاله ، المتنزّه عن كل آفة وعيب ونقص .

---

(١) الشورى (١٠) .

(٢) غافر (١٢) .

فإذا كان الحكم له تعالى ، وقد حكم عليكم بالخلود الدائم فحكمه لا يغيِّر ولا يُبدَّل))[1] .

نَعَم إنَّ الحكم كله لله جلَّ في علاه ، فله الأمر من قبل ومن بعد ، ولا معقِّب لحكمه ، ولا رادَّ لقضائه فيجب على عباد الله التحاكم لله جلَّ في علاه ، إذا أرادوا أن يحقِّقوا العبودية الحقة لله تعالى ، وإذا أرادوا أن يتعبَّدوا للعزيز الحكيم بصفتي (العزة والحكمة) . فمِنْ تمام العزة لله ألاَّ يكون في ملكه من يحكم إلاَّ هو سبحانه ، ومن تمام حكمته أن يكون هو الحاكم والآمر والناهي ، وأن تكون الحاكمية له سبحانه وتعالى .

فعلى كل مُتعبِّد [للعزيز الحكيم] أن يحتكم إلى صاحب العزة والحكمة ، وأن يتوجَّه إلى مَن بيده العزة والحكم ، ليحقق عبوديته لله ، وليذ عن للعزيز في ملكه ، وللحاكم في مملكته ، وللحكيم في سلطانه ، فإن التحاكم للعزيز الحكيم إعلان مِن العبد ، واعتراف من المخلوق ، بألوهية الخالق جلَّ في علاه ، وهو أسمى مقامات العبودية لله، ولذلك فرض الله على عباده هذه العبادة العظيمة التي هي مِنْ أصول الدين ألاوهي عبادة (**التحاكم إلى الله إله العالمين**) فمن أراد أن يتعبَّد فهذا هو الطريق ، ومن أن أراد النجاة فهذا هو السبيل ، ومن أراد الحُكْم العدل فعليه بحكم أحكم الحاكمين، وليكون من الصالحين المصلحين ، وليفوز بالدنيا والدين ، وبرضا رب العالمين .

---

(١) تفسير السعدي لسورة غافر آية (١٢) ص (٦٨٠) .

[ومن أقوال الأئمة في وجوب التحاكم للعزيز الحكيم] :

قال الله تعالى : ﴿ وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله ، ذالكم الله ربي عليه توكلت وإليه أنيب ﴾(١) .

قال الإمام القرطبي ـ رحمه الله ـ :

((﴿ وما اختلفتم فيه من شيء ﴾ : حكاية قول رسول الله ـ ﷺ ـ للمؤمنين، أي وما خالفكم فيه الكفار من أهل الكتاب والمشركين من أمور الدين ، فقولوا لهم حُكْمه إلى الله لا إليكم ، وقد حكم أن الدين هو الإسلام لا غيره .

وأمور الشرائع إنما تُتَلَّقى من بيان الله .

﴿ ذلكم الله ربي ﴾ : أي الموصوف بهذه الصفات هو ربي وحده ، وفيه إضمار : أي قل لهم يا محمد ـ ﷺ ـ ذالكم الله الذي يحيي الموتى ويحكم بين المختلفين هو ربي .

﴿ عليه توكلت ﴾ : اعتمدت .

﴿ وإليه أنيب ﴾ أرجع))(٢) .

وقال الشيخ السعدي ـ رحمه الله ـ :

((يقول تعالى : ﴿ وما اختلفتم فيه من شيء ﴾ من أصول دينكم وفروعه ، مما لم تتفقوا عليه .

---

(١) الشورى (١٠) .

(٢) تفسير القرطبي لسورة الشورى آية (١٠) المجلد الثامن [ج ١٦ / ٧] .

﴿ فحكمه إلى الله ﴾ : يردُّ إلى كتابه ، وإلى سنة رسوله - ﷺ - ، فما حكما به فهو الحق ، وما خالف ذلك فباطل .

﴿ ذالكم الله ربي ﴾ : أي فكما أنه تعالى الرب الخالق الرازق المدبِّر ، فهو تعالى الحاكم بين عباده بشرعه في جميع أمورهم))[١] .

ويؤكِّد الله - عزَّ وجلَّ - على وجوب التحاكم إليه وإلى شرعه ، وإلى حكمه قائلاً جل في علاه : ﴿ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا ﴾[٢] .

قال الحافظ ابن كثير - رحمه الله - :

((وقوله : ﴿ فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول ﴾ .

قال مجاهد وغير واحد من السلف - رضي الله عنهم - أي إلى كتاب الله وسنة رسوله - ﷺ - .

وهذا أمر من الله - عزَّ وجلَّ - بأن كل شيء تنازع الناس فيه من أصول الدين وفروعه أن يُردَّ التنازع في ذلك إلى الكتاب والسُّنَّة كما قال تعالى : ﴿ وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله ﴾[٣] فما حكم به الكتاب والسُّنَّة وشهدا له بالصحة فهو الحق ، وماذا بعد الحق إلاَّ الضلال ، ولهذا قال تعالى : ﴿ إن كنتم

---

(١) تفسير السعدي لسورة الشورى آية (١٠) ص (٦٩٩) .

(٢) سورة النساء (٥٩) .

(٣) الشورى (١٠) .

تؤمنون بالله واليوم الآخر ﴾ فدلَّ على أن من لم يتحاكم في محل النزاع إلى الكتاب والسُّنَّة ولا يرجع إليهما في ذلك فليس مؤمنا بالله ولا باليوم الآخر وقوله ﴿ ذلك خير ﴾ أي التحاكم إلى كتاب الله وسنة رسوله - ﷺ - والرجوع إليهما في فصل النزاع خير ﴿ وأحسن تأويلاً ﴾ أي أحسن عاقبة ومآلاً كما قال السدِّي وغير واحد . وقال مجاهد : وأحسن جزاء وهو قريب))[1].

فيجب على كل متعبِّد لله العزيز الحكيم أن يحتكم إلى حكمه وشرعه ، وأن يرجع إليه عند التنازع وعند الاختلاف ، فإن ذلك من أصل الإيمان ، ومن فروض التوحيد ، ومن مظاهر العبودية الحقَّة للعزيز الحكيم ، لأن في هـذا الإحتكام لله - عزَّ وجلَّ - اعتراف بألوهية العزيز الحكيم وإذعان لله رب العالمين ، وإعلان للولاء لله ولرسوله - ﷺ - وللدين ، والبراء من كل معبود غير الله ، ومن كل مُشرِّع غير العزيز الحكيم - جلَّ في عليائه - .

---

(١) تفسيرابن كثير لسورة النساء آية (٥٩) [٤٩٢/١] .

[المطلب الثاني]

التحاكم إلى الله ورسوله - ﷺ - من شروط الإيمان

قال الله تعالى : ﴿ فإن تنازعتم في شيءٍ فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً ﴾[(١)] .

إنَّ المتعبِّدَ لله تعالى بأسمائه وصفاته حريص دائماً على تحقيق الإيمان ، والمحافظة عليه من أن يُخْدَش أو يصيبه ما ينقصه أو يزيله بالكلية ، فإن همَّ المسلم دائماً وشغله الشاغل أن يزيد هذا الإيمان ويرتقي به إلى درجة الكمال ، ليكون يوم القيامة في أعلى الجنات ، وفي الدنيا من عباد الله الصالحين ، وأوليائه المقربين .

ومما يزيد في الإيمان ، ويرفع الدرجات ، ويُثقِّل الميزان ، ويرضي الرحمن ، ويحزن الشيطان ، أن يتعبَّد المؤمن لله العزيز الحكيم ، ويرجع إليه ، ويتحاكم إلى شرعه ، ويُحكِّمه في كل أموره ، وخاصة عند التنازع ، والتخاصم ، والاختلاف فبذلك يحقق تعبُّده لله تعالى بالأسماء والصفات ، وبَرْهَنَ على صدق إيمانه ، ورسوخ توحيده ،وصحة معتقده ، وثبات عقيدته ، فإن العبد الذي آمن حق الإيمان بأن له رباً وإلاهاً فلا بد أن يرجع إليه دائماً في كل أموره، في كل ما يخُصّه، وكل ما يَعْرض إليه من أمور الدين والدنيا ، وذلك إن كان صادقاً في إيمانه، مخلصاً لربه ومولاه ، فإن المسلم الحق صاحب شخصية متزنة ، صريحة ، واضحة، باطنها مثل ظاهرها ، سرُّها كعلانيتها ، تحمل بين جنبيها الصدق والإخلاص ، والصراحة والوضوح ، والوفاء لخالقها بتعبُّدها له ، وصرف كل

---

(١) النساء (٥٩) .

أنواع العبودية لخالقها جلَّ في علاه ، مع الاعتراف بالتقصير والقصور ، والطمع فيما عند الكريم الغفور ، صاحب العزة والحكمة ، العزيز الحكيم ، الذي يملك عن قوة وقدرة وكل ذلك بحكمة ورحمة وعدل وإنصاف .

[الدليل من الكتاب والسُّنَّة] :

ويؤكد الله - عزَّ وجلَّ - على هذه المسألة ، ويُرسِّخ هذا المعتقد ، فيجعل التحاكم إليه وإلى رسوله - ﷺ - وإلى الشرع الحنيف شرطاً من شروط الإيمان بالله تعالى ، قال تعالى في محكم التنزيل : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كتم تؤمنون بالله واليوم والآخر ذلك خير وأحسن تأويلا** ﴾[1] .

وقال جلَّ ذكره : ﴿ **فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً** ﴾[2] .

قال الحافظ ابن كثير - رحمه الله - :

((وقوله تعالى: ﴿ **فلاوربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم** ﴾ يُقْسم تعالى بنفسه الكريمة المقدَّسة أنه لا يؤمن أحد حتى يُحكِّم الرسول - ﷺ - في جميع الأمور ، فما حكم به فهو الحق الذي يجب الانقياد له باطناً وظاهراً ولهذا قال : ﴿ **ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً** ﴾ .

---

(١) النساء (٥٩) .

(٢) النساء (٦٥) .

أي إذا حكَّموك يطيعونك في بواطنهم فلا يجدون في أنفسهم حرجاً مما حكمت به وينقادون له في الظاهر والباطن ، فيسلِّموا لذلك تسليما كلياً من غير ممانعة ولا مدافعة ، ولا منازعة))(١) .

فلا عجب فإن الرسول - ﷺ - إنما جاء بشرع الله ، وبحكم الله ، وما ينطق عن الهوى ، فكل ما جاء به هو حكم الله تعالى قال - عزَّ وجلَّ - : ﴿ **وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحي علمه شديد القوى** ﴾(٢) .

وما كان لرسول الله - ﷺ - أن يأتي بشيء من عند نفسه ، وما يتجرأ على ذلك ، ولو همَّت نفسه بذلك - حاشا لرسول الله - ﷺ - أن يهم بذلك - ما تركه الله - عزَّ وجلَّ - فإنه جلَّ في علاه يغار على شرعه وعلى دينه قال تعالى : ﴿ **ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ، ثم لقطعنا منه الوتين فما منكم من أحد عنه حاجزين** ﴾(٣) .

ولذلك جعل الله - عزَّ وجلَّ - الاحتكام إلى الرسول - ﷺ - عند التنازع والتخاصم ، وفي التشريع والحكم من علامات وشروط الإيمان .

بل إن الرسول - ﷺ - يُخبر أن المؤمن الحق هو الذي يكون هواه تبعاً لما جاء به الرسول - ﷺ - .

قال الرسول - ﷺ - : « **والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به** »(٤) .

---

(١) تفسيرابن كثير لسورة النساء آية (٦٥) [١/ ٤٩٣] .
(٢) النجم (٣ : ٥) .
(٣) الحاقة (٤٤ : ٤٧) .
(٤) رواه أبو نعيم في كتاب الأربعين ، وقال ابن رجب الحنبلي : رويناه في كتاب الحجة بإسناد صحيح .

ويروى لنا الإمام البخاري ـ رحمه الله هذه القصة في صحيحه :

((عن عروة بن الزبير ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ قال : « خاصم الزبير رجلاً من الأنصار في شريج من الحرَّة فقال النبي ـ ﷺ ـ : اسق يا زبير ثم أرسل الماء إلى جارك .

فقال الأنصاري : يا رسول الله أنْ كان ابن عمَّتك ؟ فتلوَّن وجهه ـ ﷺ ـ ، ثم قال : اسق يا زبير ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجدر ، ثم أرسل الماء إلى جارك . واستوعى النبي ـ ﷺ ـ للزبير حقه في صريح الحكم حين أحفظه الأنصاري ، وكان أشار عليهما بأمر لهما فيه سعة .

قال الزبير : فما أحسب هذه الآيات إلاَّ نزلت في ذلك ﴿ **فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم** ﴾[1] »[2].

فليحذر كل مؤمن وكل متعبِّد للعزيز الحكيم ، صاحب العزة والحكمة ، أن يخالف أمره أو أن يخرج عن حكمه ، أو يسخط من قضائه ، أو يعترض على شرعه وما جاء به الرسول ـ ﷺ ـ ، لأن ذلك ينقض الإيمان ، ويحبط الأعمال ، ويؤدي إلى الهلاك والعياذ بالله ، فيجب التعبُّد لله تعالى حق التعبُّد بالإذعان والتسليم بعد الاحتكام لرب العالمين ، والرضى عن الشرع والدين ، وكل ما جاء من عند أحكم الحاكمين .

---

(١) النساء (٦٥) .

(٢) رواه البخاري كتاب (التفسير) تفسير سورة النساء باب (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم) ، ورواه في كتاب (الشرب والمساقاة) (باب سكر الأنهار) .

واجب المؤمن تجاه حكم الله ورسوله ـ ﷺ ـ :

إن الأمر لا يقتصر على مجرد التحاكم إلى شرع الله، وإلى أحكام الله تعالى، فإن المسلم والمؤمن يدور دائماً في دائرة الدين ، فهواه، وفطرته، ومزاجه ، وراحته ، وطمأنينته تبعاً لما جاء به هذا الدين الحنيف ، فلقد خالط هذا الدين عظم ولحم المؤمن ، بل إن هذا الدين ليجري من المؤمن مجرى الدم في العروق أو أكثر، وللمؤمن تجاه حكم الله ورسوله ثلاثة مواقف :

الموقف الأول : [قبول الحكم] :

يجب على المؤمن الحق أن يقبل حكم الله تعالى ، قبولاً كلياً لا تردُّد فيه ، ولا تواني ، فما تحاكم إليه العباد إلاَّ من أجل الانقياد لما يقضي به الشرع وليس من أجل الاختيار ، وليس من أجل المساومة ، فدين الله لا يقبل المساومة ، وحكم الله مُبرَّأ من المجاملة ، وقضاء الله لا يخضع للاختيار قال تعالى : ﴿ **وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم** ﴾[1] .

نعم لا بد من القبول والإذعان لما قضى الله ورسوله ـ ﷺ ـ فالأمر أمر عقيدة، والموقف موقف تعبُّد ، لا مجال للاختيار ولا للرأي ، ولا للتفلسف ، بل القبول ، والانقياد ، والاذعان ، والاستجابة .

قال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذ دعاكم لما يحييكم** ﴾[2] ، حقا إن في الاستجابة لله وللرسول ـ ﷺ ـ الحياة كل الحياة ،

---

(١) الأحزاب (٣٦) .

(٢) الأنفال (٢٤) .

الحياة الشريفة ، الحياة الكريمة ، الحياة السعيدة الهنيئة ، فهنيئاً لكل من استجاب لله وللرسول - ﷺ - ، وتحاكم إليهما ، وقَبِلَ حكمهما وأذعن إليه ، تعبُّداً لله العزيز الحكيم ، صاحب العزة والحكمة .

[**الموقف الثاني : عدم الضيق بحكم الله**] :

يجب على العبد المتعبِّد لله بأسمائه وصفاته ، الخاشع ، والخاضع للعزيز الحكيم ، بعدما تحاكم لصاحب العزة والحكمة ، وعَلِمَ حكم الله فيما عَرَض له ، وقَبِلَ هذا الحكم ولم يردَّه على الله وعلى رسوله الكريم - ﷺ - وطبَّقه والتزم به ، إنه ليجب عليه في نفس الوقت ألاَّ يضيق صدره لهذا الحكم ، وألا يَجِد في قلبه ونفسه غضاضة من هذا الحكم ، لأن هذا الحكم صدر عن ربه الذي أسلم له نفسه وزمامه ، وآمن وأيقن أن هذا الإله لا يصدر منه إلاَّ الخير ، ولا يقضي إلاَّ بالحق ، وأن حكمه كله حكمة ، فتعبَّده بذلك ، فلم يَجِد في صدره أي حرج ولا ضيق من حكم الله تعالى ، بل استقبله بكل ترحاب واستبشار فإن فيه الخير كل الخير لأنه الحُكْم العدل ، من إله عدل، صاحب عزة وحكمة وهذا مصداقا لقوله تعالى:

﴿ **ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت** ﴾(1) .

قال الشيخ السعدي - رحمه الله - :

((ثم أقسم تعالى بنفسه الكريمة ، أنهم لايؤمنون حتى يحكِّموا رسوله - ﷺ - فيما شجر بينهم أي : في كل شيء يحصل فيه اختلاف ، بخلاف مسائل

---

(1) النساء (٦٥) .

الإجماع لا تكون إلاَّ مستندة للكتاب والسنة ، ثم لا يكفي هذا التحكيم حتى ينتفي الحرج من قلوبهم والضيق وكونهم يحكمونهم على وجه الإغماض »[١] .

الموقف الثالث : [الرضا والتسليم لحكم الله تعالى] :

إن التعبُّد لله العزيز الحكيم ، صاحب العزة والحكمة ، يشمل عبادة البدن والجوارح ، وكذلك عبادة القلب ، فكما أن الجسد والجوارح كلها تنقاد لله عز وجلَّ وتخضع للعزيز ، ويُسلِّم للحكيم ، كذلك قلب المؤمن يتعبَّد لله العزيز الحكيم ، فيرضى عن الله ويذعن لعزة العزيز ، ويُسلِّم لحكم الحكيم ، فليست عبادة القلب أقل في ميزان العبودية لله تعالى عن عبادة البدن ، بل قد يُؤْجَرُ العبد على عبادة نواها بقلبه ،وعزم عليها في فؤاده ، ولم يتمكَّن منها ومن فعلها ببدنه ، فيثبت له الأجر ، ولا يُحْرم المثوبة .

وقد قال الرسول ـ ﷺ ـ في الحديث الصحيح الذي يرويه عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ : « **إنما الأعمال بالبنيات وإنما لكل إمرئ ما نوى** »[٢] .

والنية كما هو معلوم محلها القلب ، فعبادة القلب لا تقل بحال من الأحوال عن عبادة البدن ، وقد تكون في بعض الأحوال أثقل في الميزان من عبادة البدن .

وكذلك ينبغي على العبد المتعبِّد لله تعالى بأسمائه وصفاته عند الاحتكام لحكم الله وشرعه ، وبعد قبول الحكم ، وعند انتقاء الضيق والحرج ، ينبغي أن يُزيِّن ذلك كله ويتوَّج بالرضا عن حكم الله تعالى ، وأن تطمئن نفسه ، ويطيب خاطره،

---

(١) تفسير السعدي لسورة النساء آية (٦٥) ص (١٤٩) .

(٢) رواه البخاري كتاب (بدء الوحي) باب (كيف كان بدء الوحي إلى الرسول ـ ﷺ ـ .

ويرضى قلبه ، ويُسلِّم فؤاده لحكم الله تعالى ، فيرضى عن الله ، وعن حكم الله ، ويُسلِّم تسليم المستسلمين لله تعالى ، الخاضعين المتذلِّلين ، بل والمجيبين والمخبتين لله رب العالمين .

وهذا مصداقاً لقوله تعالى جلَّ في علاه : ﴿ ويسلموا تسليماً ﴾[١] .

ويقول الشيخ السعدي ـ رحمه الله ـ في هذا المضمار :

((ثم لا يكفي هذا التحكيم حتى يُسلِّمو لحكمه تسليماً بانشراح صدر ، وطمأنينة نفس ، وانقياد بالظاهر والباطن .

فالتحكيم في مقام الإسلام ، وانتفاء الحرج في مقام الإيمان ، والتسليم في مقام الإحسان ، فمن استكمل مراتب الدين كلها وترك هذا التحكيم المذكور غيرملتزم له فهو كافر . ومن تركه مع التزامه فله حكم أمثاله من العاصين))[٢] .

---

(١) النساء (٦٥) .

(٢) تفسير السعدي لسورة النساء آية (٦٥) ص (١٤٩) .

[المطلب الثالث]

السمع والطاعة لحكم الله والرسول ـ ﷺ ـ من علامات الإيمان

قال تعالى : ﴿ إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون ﴾[1] .

[السمع والطاعة من سمات المؤمنين] :

إن من علامات الإيمان ، ومن حُسن التعبُّد لله العزيز الحكيم ، صاحب العزة والحكمة ، أن يقول العبد المؤمن ، المتعبِّد لربه ومولاه ، إذا دُعِيَ لحكم الله تعالى ، وإلى شرعه الحنيف أن يقول سمعنا وأطعنا ، غفرانك ربنا واليك المصير ، سمع وطاعة ، ورجوع وإنابة ، وخشوع وخشية ، واستقامة على الصراط المستقيم ، فعنوان المؤمن دائما وصفته الخاصة ، وميزته المميزة ، السمع والطاعة ، والانقياد والإذعان لله رب العالمين ولو جاءه حكم الله وحكم رسوله ـ ﷺ ـ على يدي مَنْ كان ، ولو كان عبداً حبشياً ، ولو كان أعجمياً ، فالمؤمن منقاد دائما لله وللرسول ـ ﷺ ـ ويكون حيث يكون الدين، ويدور مع أحكام العزيز الحكيم حيث كانت .

ويُعلِّمنا الرسول ـ ﷺ ـ كيف نتعبَّد لله تعالى بصفتي [العزَّة والحكمة] ، وكيف يكون الإلتزام بشرع الله ، ويبيِّن ما يجب أن يكون عليه المؤمن تجاه أحكام الله تعالى ، وشرع الله تعالى ، وأنه يجب أن يدور المؤمن مع القرآن حيثما دار ، وأن يلتزم حكم الله ولو جاء على يد مَنْ كان ، فالمؤمن مع القرآن حيثما كان ،

(١) النور (٥١) .

فالمؤمن متبع للشرع لا مبتدع ، ولا متمرِّد ، ولا جاحد ، ولا خارج على حكم ربه جلَّ في علاه .

فعن أم الحصين ـ رضي الله عنها ـ أنها سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ خطب في حجة الوداع يقول : « **ولو استُعْمِلَ عليكم عبد يقودكم بكتاب الله فاسمعوا له وأطيعوا** »(١) .

وفي لفظ له « عبدا حبشياً مُجَدَّعاً »(٢) .

قال الإمام النووي ـ رحمه الله ـ :

« والمراد أخس العبيد ، أي أسمع وأطيع للأمير، وإن كان دنيء النسب حتى لو كان عبداً أسود مقطوع الأطراف ، فطاعته واجبة »(٣) .

الله أكبر ، هكذا يُعلِّمنا الرسول ـ ﷺ ـ الدرس ، ويُلقِّنا العقيدة فليس المهم على يد مَنْ كان الحكم ، وقَدْر ومكانة الناطق بالحكم ، ولكن العبرة لمن الحكم ، وبما حكم ، فالحكم لله تعالى ، والشرع والمنهج في كتاب الله تعالى ، ولذلك رسَّخها الرسول ـ ﷺ ـ بقوله الخالد « **ويقودكم بكتاب الله** » هذا هو المهم ، وهذا هو الأصل ، وهذا هو التوحيد ، وتلكموا هي العقيدة ، فلا بد أن يكون الردُّ

---

(١) رواه مسلم كتاب (الإمارة) باب (وجوب طاعة الأمراء في غير معصية ، وتحريمها في المعصية)

(٢) رواه مسلم كتاب (الإمارة) باب (وجوب طاعة الأمراء في غير معصية ، وتحريمها في المعصية)

(٣) شرح صحيح مسلم للإمام النووي كتاب (الإمارة) باب (وجوب طاعة الأمراء في غير معصية) [١٢ / ٤٢٨ : ٤٢٩) .

والجواب بالسمع والطاعة ، إذا كان هناك إيمان والتزام بالمنهج الرباني ، واحتفاظ بالعقيدة الإسلامية الصافية ، وبالنبع الصافي ، فالسمع والطاعة لله تعالى ، والانقياد لحكمه من علامات الإيمان ، وصحة المعتقد ، ورسوخ العقيدة .

وأخبر الله تعالى عن هؤلاء المؤمنين ، وعن هذه الكلمات التي يُزيِّنون ويرطِّبون بها أفواههم ، ويُعطِّرون بها مجالسهم عند سماع حكم الله وحكم رسوله ـ ﷺ ـ وعند الإحتكام للعزيز الحكيم [سمعنا وأطعنا] قال الله تعالى عنهم : ﴿ وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير ﴾[1] .

نعم قالوا سمعنا وأطعنا لقول وحكم الحكيم ، والتزمنا بشرع ومنهج القوي العزيز ، فالحكيم أحق بأن يحكم ويُشرِّع ، والقوي أحق أن يُطاع ، ويُسْمع له ويُجاب .

السمع والطاعة لحكم الله والرسول ـ ﷺ ـ سبب في دخول الجنة :

إن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ يجب أن يرى عبده الضعيف متذلِّلاً بين يديه ، متعبِّداً له بأسمائه وصفاته ، فيرحم هؤلاء المسلمين المؤمنين ، ويحلُّ عليهم رضوانه ، ويدخلهم جنَّاته ، ويثيبهم أجرهم غير منقوص فهم الذين طالما خرج من أفواههم العطرة قول سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير .

فيكلأهم الله تعالى برعايته، ويمنُّ عليهم بجنَّات عرضها كعرض السماوات والأرض أعدت للمتقين المخبتين الذين سمعوا وأطاعوا لحكم الله تعالى في عليائه ، فلبَّوا نداء ربهم ، واستجابوا لداعي الله ، فكان جزاؤهم الفوز والرباح ، والرَوْح

---

(١) البقرة (٢٨٥) .

والريحان ، قال تعالى : ﴿ ومن يطع الله ورسوله ويخشى الله ويتقه فأولئك هم الفائزون ﴾[(١)] وقال تعالى: ﴿ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيما ﴾[(٢)] .

لقد فازوا حقاً برضا الله تعالى ، لَمَّا تعبَّدوه بأسمائه وصفاته ، ولـمَّا تعبَّدوا للعزيز الحكيم وسمعوا وأطاعوا لحكمه ، ولأمره ونهيه ، فكان لهم هذا الجزاء ، وتلك النعمة ، وذلك الفضل من الله تعالى ، إن هذا الفوز ليس كأي فوز من فوز الدنيا ،كلاًّ وربي ، إنه الفوز الأعظم ، والفوز المبين ، لهؤلاء المتقين ، ولهؤلاء المخبتين ، الطائعين لله والمستجيبين ، فيمنُّ الله عليهم بما يتمناه كل العالمين ، من الجنَّات وحور العين ، وما لم يُرى ، وما لم يُسْمع ، وما لم يخطر على قلب البشر ، فإن سلعة الله غالية ، إن سلعة الله هي الجنة .

قال تعالى: ﴿ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار.. ﴾[(٣)] .

وقال تعالى:﴿ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم﴾[(٤)] .

لقد نالتهم رحمة الله تعالى وفضله وسعته فمنَّ عليهم بكرمه بما لم يخطر على قلب بشر ، وبما لا يتوقعه ولا يتخيله عقل ، تكريماً لهم ولسمعهم وطاعتهم

---

(١) النور (٥٢) .
(٢) الأحزاب (٧١) .
(٣) الفتح (١٧) .
(٤) النساء (٦٩) .

واحترامهم وتقديسهم لحكم الله ، ولشرع الله ، فرحمهم برحمته التي وسعت كل شيء قال تعالى : ﴿ **وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون** ﴾(١) .

وقال تعالى : ﴿ **ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله** ﴾(٢) .

فيا فرحة كل من تعبَّد للعزيز الحكيم ، ويا فوز من أطاع صاحب العزِّة والحكمة ، ويا سعادة من حَكَمَ بشرع مَنْ له الحُكْم والإحكام ، وهنيئاً لكل من تحاكم إلى الشرع الحنيف ، وقدَّم حكم الحكيم - جلَّ في علاه - وسُنَّة نبيه الأمين - ﷺ - فيفوز برضا العزيز الحكيم ، ويَسْعد برحمة مَنْ بيده الأمر كله ، صاحب العزة والحكمة ، الذي يملك تنعيم وإسعاد ورحمة من أطاعه ، وتعذيب وإذلال وإهلاك مَنْ عصاه ، عن قوة لا ظلم معها ، وعن حكمة لا غفلة فيها .

فهنيئاً لكل المتعبِّدين ، لرب العالمين ، بصلاح الدنيا والدين ، والفوز برضا أحكم الحاكمين ، والظفر برحمة أرحم الراحمين ، والعاقبة للمتقين ، والهلاك والخسران للظالمين ، والحمد لله رب العالمين .

---

(١) آل عمران (١٣٢) .

(٢) التوبة (٧١) .

[المطلب الرابع]

الإعراض عن التحاكم إلى الله ورسوله - ﷺ - من النفاق الأكبر

قال تعالى : ﴿ وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون ﴾[1] .

لقد تقرَّر من خلال استعراضنا لبعض آيات الله تعالى من كتابه الحكيم ، ومن خلال ما وقفنا معه من حديث سيد المرسلين محمد بن عبدالله - ﷺ - ، أن التحاكم إلى العزيز الحكيم من علامات الإيمان ، ومن فقه التعبُّد لله تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العليا ، وخاصة اسمي [العزيز الحكيم] ، وصفتي [العزة والحكمة] .

ومن خلال نفس الآيات الكريمة ، والأحاديث الشريفة ، وغيرهامن الآيات والأحاديث ، نستطيع أن نُقرِّر ونجزم - بما قرَّره وجزم به الكتاب والسنة - أن الإعراض عن التحاكم إلى الله تعالى وإلى رسوله الكريم - ﷺ - من النفاق الأكبر .

فإن من كان هذا حاله فقد تمكَّن المرض من قلبه حتى ران عليه ، بل وخُتِمَ عليه وعرَّض صاحبه للهلاك .

[المنافقون يُعْرِضون عن التحاكم إلى الله ورسوله - ﷺ] :

قال تعالى : ﴿ في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون ﴾[2] .

---

(١) النور (٤٨) .

(٢) البقرة (١٠) .

نعم إنه لمرض النفاق الأكبر ، الذي يهلك صاحبه ، فأي مرض ، وأي نفاق بعد أن يتكبَّر هذا العبد على خالقه ، ويُعْرِض عن حُكْم الحكيم ، ويذعن بالعزة ويصرفها لغير العزيز ، فيجعل غير الله يحكم في مُلْك الله ، وبين خلق الله تعالى ، فكيف يكون الملك ملكه ،والسلطان سلطانه وتكون الكلمة والحكم والسلطان لغيره ؟!!!

كيف يعدل هذا العبد ـ الظالم لنفسه ـ عن حكم الحكيم ، العليم الخبير ، صاحب العزة والحكمة الذي خلق الإنسان ، ويعلم بعلمه ما يصلحه ، وما يُفسده، فشرَّع له بحكمته ما يصلحه ونهاه عمًّا يفسده ، فسبحانه الحكيم في أمره، والحكيم في نهيه ، ولكنَّ هؤلاء المنافقين ديدنهم الإعراض عن الحكيم في حكمه ، والتمرُّد على العزيز في ملكه .

قال الشيخ السعدي ـ رحمه الله ـ :

((﴿ وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم ﴾: أي : إذا صار بينهم وبين أحد حكومة (أي خصومة) ودعوا إلى الله ورسوله .

﴿ إذا فريق منهم معرضون ﴾ يريدون أحكام الجاهلية ، ويفضِّلون أحكام القوانين غير الشرعية على الأحكام الشرعية ، لعلمهم أن الحق عليهم ، وأن الشرع لا يحكم إلاَّ بما يطابق الواقع))(١) .

إن قلوبهم مريضة ، وعقائدهم فاسدة ، وفطرتهم مُلوَّثة ، وأمزجتهم متقلِّبة ، وعقولهم مُخْتلَّة ، فهم يدَّعون كذباً إيمانهم بالله وبالرسول ـ ﷺ ـ وبما أنزل الله على رسوله ـ ﷺ ـ ، بل يدَّعون أنهم يؤمنون بكل ما أنزل الله تعالى من الكتب

---

(١) تفسير السعدي لسورة النور آية (٤٨) ص (٥٢٠) .

السماوية السـابقة ، ويدّعون إذعانهم وانقـيادهم لكل ما أنزل الله تعالى على رسله الكرام - ﷺ - ولكن الواقع يُكذِّبهم ، وفعلُهم يفضحهم ، وعـقيدتهم تفشي ما في صدورهم ، وسلوكهم يحكم على إيمانهم ، والدعوة إلى التحاكم إلى شرع العزيز الحكيم (صاحـب العزة والقوة) تكشف النقاب عن وجوههم ، وترفـع اللثام عن مكرهم وخداعهم .

قال الله تعـالى: عنهم فـاضـحهم ومُـحـذِّرا منهم : ﴿ **ألـم تـر إلـى الـذيـن يزعمـون أنهـم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكـموا إلى الطاغـوت وقـد أمـروا أن يـكفـروا به ويـريد الشـيطان أن يضلهـم ضـلالا بعيدا** ﴾[1] .

قال الحافظ ابن كثير - رحمه الله - :

((هذا إنكـار من الله - عـزَّ وجلَّ - على مَنْ يدَّعـي الإيمان بما أنزل الله على رسوله وعلى الأنبياء الأقدمين وهو مع ذلك يريد أن يتـحاكم في فصل الخصومات إلى غير كتاب الله وسنة رسوله - ﷺ - كما ذُكِـرَ في سبب نزول هذه الآيات أنها في رجل من الأنصـار ، ورجل من اليـهود تخـاصمـا فجـعل اليـهودي يقـول بيني وبينك محمد - ﷺ - ، وذاك يقول بيني وبينك كعب بن الأشرف .

وقيل في جـماعة من المنافـقين ممن أظهروا الإسـلام أرادوا أن يتحاكـموا إلى حُكّام الجاهلية، وقيل غيـر ذلك، والآية أعم من ذلك كله، فإنها ذامَّة لمن عدل عن الكتاب والسنَّة وتحاكموا إلى ما سواهما من الباطل وهو المراد بالطاغوت هنا))[2].

---

(١) النساء (٦٠) .

(٢) تفسير ابن كثير لسورة النساء آية (٦٠) [١ / ٤٩٢] .

فهؤلاء هم المنافقون ، وهذه عاداتهم ، وهذا دَيْدَنهَم ، وتلك مواقفهم ، فهم لا يؤمنون بالله تعالى ، ولم يتعبَّدوا لله تعالى بأسمائه وصفاته ، ولم يتعبَّدوا للعزيز الحكيم بما يليق بعزته وحكمته ، صاحب العزة والحكمة ، وأكبروا غير الله في ملكه وسلطانه، وحكَّموا غير الحكيم بين خلقه ، وخرجوا من الإسلام - على افتراض أنهم دخلوا فيه - وكان دأبهم دائماً عندما يُدْعون لكتاب الله وسنة رسوله - ﷺ - الإعراض والصدود .

قال الله تعالى مُصوِّراً حالهم ، ومُجسِّداً موقفهم ، ومنكراً عليهم : ﴿ **وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا** ﴾[1].

سبب صدودهم وحكم فعلهم :

إنَّ الله - عزَّ وجلَّ - يفضح هؤلاء المنافقين في كتابه العزيز ، ويحدِّد المرض ، ويذكر لنا سبب هذا المرض ، ثم بعد ذلك يحكم ربنا جلَّ وعلا العزيز الحكيم ، على فعل هؤلاء المنافقين ، فيذكر سبحانه سبب إعراضهم عن كتاب الله تعالى ، وحكم العزيز الحكيم . ويحكم على فعلهم هذا ، ويفصل في أمرهم .

قال تعالى : ﴿ **وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون ، وان يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين ، أفي قلوبهم مرض أم ارتابوا أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله بل أولئك هم الظالمون** ﴾[2] .

---

(١) النساء (٦١) .
(٢) النور (٤٨ : ٥٠) .

فذكر سبحانه وتعالى هنا ثلاث أسباب لهذا الإعراض والصدود :

١ - في قلوبهم مرض أو :

٢ - ارتابوا وعَرَضَ لهم شك في الدين أو :

٣ - يخافون أن يظلمهم الله ورسوله - ﷺ - بحكمهما .

ثم حكم الله عليهم بالكفر وعدم الإيمان وبالظلم الذي هو قمة التعدِّي وتجاوز الحدِّ ، حيث أنهم لم يتعبَّدوا للعزيز الحكيم في ملكه ولم يتحاكموا إلى حكمه .

قال ابن كثير - رحمه الله - :

((يعني لا يخرج أمرهم عن أن يكون في القلوب مرض لازم لها ، أو قد عَرَضَ لها شك في الدين ، أو يخافون أن يجور الله ورسوله عليهم في الحكم .

وأياما كان فهو كفر محض والله عليم بكل منهم وما هو منطوٍ عليه من هذه الصفات))[1] .

فواجب على العبد أن يتعبَّد لخالقه ومولاه ، صاحب العزة والملك ، والحكم والحكمة فيُحكِّم العزيز في مُلْكه وبين خلقه ، ويحكْم ويتحاكم الى الحكيم الخبير، عالم السرَّ وأخفى ، لا بد للعبد أن يتعبَّد لله باسميه [العزيز الحكيم] ، وبصفتي [العزة والحكمة] فلا يتحاكم إلاَّ لصاحب الحكم والحكمة جلَّ في علاه.

وكذلك يجب على العبد المسلم أن يتبرأً من هؤلاء المنافقين الذين يعترضون على العزيز في مملكته ، وعلى الحكيم في حكمه ، بل يجب مجاهدة هؤلاء

---

(١) تفسير ابن كثير لسورة النور آية (٥٠) [٣ / ٢٨٤] .

المنافقين والإغلاظ عليهم ـ موالاة لله تعالى ولدينه ولكتابه، وتعبُّداً للعزيز الحكيم، صاحب العزة والحكمة .

قال تعالى لرسوله ـ ﷺ ـ ولأمته من خلفه : ﴿ **يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير** ﴾[1] .

---

(١) التحريم (٩) .

[المطلب الخامس]

أفحكم الجاهلية يبغون ؟!!!

قال تعالى : ﴿ أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون ﴾[1] .

[العزيز الحكيم يأبى الشريك] :

إنَّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، العزيز الحكيم ، لا يقبل الشريك ، ويأبى المشاركة ، فهو واحد أحد ، فرد صمد ، يأبي أن يشاركه أحدٌ في عزِّه وكبريائه، وحكمه وملكه.

فعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « العزُّ إزاره ، والكبرياء رداؤه فمن ينازعني عَذَّبْتُه »[2].

وفي رواية الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ قال الله تعالى : « الكبرياء ردائي ، والعزُّ إزاري فمن نازعني واحداً منهما ألقيته في النار »[3] .

فكما أنه يأبى أن يكون له شريك في الملك ، فكذلك يأبى أن يكون له شريك في الحكم ، فلا يكون في ملك الله إلاَّ حكمه وشرعه ، ولا يأذن ولا يسمح سبحانه وتعالى لأي حُكْم أو شرع أو حَكَمٍ غيره جلَّ في علاه . قال تعالى: ﴿ ولا يشرك في حكمه أحدا ﴾[4] .

---

(١) المائدة (٥٠) .
٢) رواه مسلم كتاب البرِّ والصلة ، باب (تحريم الكبر) .
(٣) رواه أحمد في مسند المكثرين .
(٤) الكهف (٢٦) .

فـإمَّا أن يكـون حكم العزيـز الحكيم ، صاحـب العزَّة والحكمـة ، وصـاحب الملك والسلطان ، وإمَّا تكون الجاهلية بكل أنواعها ، فـالحاكمية لا تقبل الوسطية ، فإمَّا أن تكون الحاكمية لله تعالى العزيز الحكيم ، وإمَّا أن تكون ، لأولياء الشياطين ، من السَّفهة الجاهليين .

قال تعالى : ﴿ **أفـتؤمنون بـبعض الكتـاب وتكفرون بـبعض فـما جـزاء من يفعل ذلك منكم إلاَّ خزي في الحيـاة الدنيا ويوم القيام يردون إلى أشد العذاب وما الله بغافل عمَّا تعملون** ﴾[1] .

فإمَّـا أن يكون هناك تعبُّـد بحق للعزيز الحكيم ، بصـفتي [العـزة والحكمة] ، وإمَّا أن يكون هناك تـعبُّد لكل طاغـوت ، والانغماس في الجـاهلية ، فـحكم العزيز الحكيم لا يجتـمع مع حكم الجاهليـة ، فإمَّا أن يكون العـبد متـعبِّداً للـعزيز الحكيم بأسمائه وصفاته، وإمَّا أن يكون متعبِّداً للجاهلية بكل أنواعها ودروبها .

قال الإمام الطبري ـ رحمه الله ـ :

((يقول تعالى ذكـره : أيبغى هؤلاء اليهود الذين احتـكموا إليك فلم يرضوا بحكمك ، إذ حكمت فيهم بالقسط .

﴿ **حكـم الجاهـلية** ﴾ يعني:أحكام عـبـدة الأوثان مـن أهل الشـرك، وعندهم كتاب الله فيـه بيان حقيـقة الحكم الذي حكمت به فيـهم، وأنه الحق الذي لايجوز خلافه .

---

(١) البقرة (٨٥) .

ثم قال تعـالى ذِكْره موبِّخـاً لهؤلاء الذين أبوا قبـول حكم رسول الله ـ ﷺ ـ عليهم ولهم من اليهود ، ومستجهلاً فعلهم ذلك منهم : ومَنْ هذا الذي هو أحسن حكمـاً أيها اليـهـود من الله تعالى ذكـره عند مَنْ كـان يوقن بوحـدانية الله ، ويُقـرُّ بربوبيته .

يقول تعالى ذِكْره أي حكـم أحسن من حكم الله ، إن كنتم موقنين أن لكم ربا ، وكنتم أهل توحيد وإقرار به))[١] .

ويوضِّح الشيخ السعدي ـ رحمه الله ـ الأمر قائلا :

((﴿ أفحكـم الجاهلية يبـغون ﴾ : أي أفيطلبـون بتوليهم وإعـراضهـم عنك حكم الجاهلية ؟!!! .

وهو كل حكم خالف ما أنزل الله على رسوله ـ ﷺ ـ .

فـلا ثمَّ إلاَّ حكـم الله ورسـوله ـ ﷺ ـ أوحكـم الجـاهليـة ، فمن أعـرض عن الأول ابْتُلِي بالثاني المبني على الجهل، والظلم، والغي ، ولهذا أضافه الله للجاهلية . أمَّـا حُكْم الله تعالى فمبني على العلم ، والعدل ، والقسط ، والنور ، والهدى .

﴿ ومن أحـسن من الله حكمـاً لقـوم يوقنون ﴾ : فالموقن هـو الذي يعرف الفرق بين الحكمين ويميز ـ بإيقانه ـ ما في حكـم الله من الحسن والبهاء ، وأنه يتعين ـ عقلاً وشرعاً ـ اتباعه))[٢] .

---

(١) تفسير الطبري لسورة المائدة آية (٥٠) [٣ / ١١٥] .

(٢) تفسير السعدي لسورة المائدة آية (٥٠) ص (١٩٧) .

لقد أوضح الله - عزَّ وجلَّ - المسألة أيَّما إيضاح ، وأحكمها أيَّما إحكام ، أنه ليس هناك وسطاً في الحاكمية [فإمَّا حُكْم الله تعالى ، وإمَّا حُكْم الجاهلية] ، وإمَّا أن يتعبَّد العبد للعزيز الحكيم ، صاحب العزة والحكمة ، وإمَّا أن يتعبَّد للجاهلية على اختلاف أنواعها وطواغيتها .

ويأبى الله - عزَّ وجلَّ - إلاَّ أن يكون الحُكْم له وحده في مملكته وسلطانه ، وبين خلقه فيؤكِّد ذلك سبحانه وتعالى ويكرره ويرسِّخه في كتابه العزيز ﴿ إن الحكم إلا لله أمر ألاَّ تعبدوا إلاَّ إياه ﴾[1] .

فهنيئاً لكل عبد مؤمن تعبَّد لله تعالى بأسمائه وصفاته ، وحقَّق عبوديته للعزيز الحكيم ، فأقرَّ له بالعزة المطلقة ، واحتكم لحكمه ، وانصاع لأوامره ، وانتهى عن نواهيه ، فسبحان الله العزيز الحكيم .

دروس تعبُّدية مستفادة من الآيات الكريمة :

إن الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة التي تعرَّضنا لها في هذا المقام فيها الكثير والكثير من الدروس التعبُّدية التي تُضيء للمسلم طريق التعبُّد لله تعالى بأسمائه وصفاته - عامة - واسمي [العزيز الحكيم] ، وصفتي [العزة والحكمة] - خاصة - .

ومن هذه الدروس ما يلي :

١ - أن يؤمن المسلم الموحِّد بحكم الله الشرعي كما جاء في كتاب الله تعالى ، وفي سنة رسوله - ﷺ - ، فينعكس ذلك على سلوكه ، وأفعاله وتصرفاته ، والتزامه بأوامر الله تعالى ، والانتهاء عن نواهيه .

(١) يوسف (٤٠) .

٢ ـ أن يُسلِّم المسلم بحكم الله الكوني ، على ما أراده الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ، تسليماً كله رضا بحمد الله فيما حكَم ، وفيما قضى وقدَّر .

٣ ـ أن يوقن المسلم بأحقية الله تعالى بالحكم بين خلقه ، وأن هذا الحكم من خصوصيات الإله ، فلا حُكْم إلاَّ لله تعالى ، ولا حَكَمَ إلا الله . فإن الله هو الحَكَمُ ، وهو الحاكم ، وإليه الحُكْم .

٤ ـ أن يَحْكُم المسلم بحكم الله تعالى ، وأن يلتزم بما أنزل على رسوله ـ ﷺ ـ في كتابه العزيز وفي سُنَّة النبي الكريم ـ ﷺ ـ .

٥ ـ أن يتجنَّب المسلم الحكم بغير حكم الله ، فلا يحيد عن حكم الله قيد أنملة أو أقل من ذلك ، فلا يعدل عنه ليحكم بحكم المخلوفين ويذر حُكْم أحكم الحاكمين ، من أجل حثالة فكر ونُظم المنحرفين ، والمُتجرئين على شرع رب العالمين ، فيكون من الهالكين .

٦ ـ أن يُسلِّم المسلم ويوقن بحكمة التنزيل ، وأن كل ما يصدر عن الله فهو لحكمة بالغة عَلِمَها من أراد الله له عِلْمُها، وحجبها الله عمن شاء من عباده، فكل شيء عنده بحكمة ، وكل شيء عنده بمقدار .

٧ ـ يعتقد المسلم اعتقاداً جازماً بأن حُكْم الله مع أن كله حكمة ، فإن فيه صلاح وخير للعباد ، فما أمر الله بأمر إلاَّ فيه الصلاح والرباح ، وما نهى عن شيء إلاَّ كان في هذا النهي الخير والفلاح .

٨ ـ أن يتحاكم المسلم في كل ما يعرض له إلى العزيز الحكيم ، وإلى شرعه الحنيف فإن فيه الخير كل الخير ، والصلاح والفلاح والرباح .

٩ - أن يَكْفُر المسلم بكل شرع ، وكل حُكْم ، وكل حاكم ، وكل تحاكم إلى غير شرع وحكم الله تعالى .

١٠ - أن يتبرأ المسلم من كل من شرَّع شرعاً ، أو قنَّن قوانيناً ، أو نظَّم نُظماً ، تخالف شرع الله تعالى وحُكْمهِ الحكيم .

١١ - أن يتبرأ المسلم مِنْ كل مَنْ تحاكم إلى غير شرع الله تعالى تبروءاً منه ، وموالاة لحكم الله ولشرعه الحنيف .

١٢ - أن يُظهر المسلم السمع والطاعة ، والاذعان والانقياد ، والتسليم والتفويض لكل ما جاء من عند رب العالمين .

١٣ - أن يُظْهر المسلم العداوة والبغضاء لكل من جار عن حُكْم الحكيم ، أو تحاكم إلى غير شرعه الحنيف ، أو طلب العزة عند غير العزيز صاحب العزة والسلطان ، والقهر والجبروت جلَّ في علاه .

١٤ - أن يلتمس العبد المسلم - المتعبِّد لله تعالى بأسمائه وصفاته - العزة والكرامة عند العزيز الحكيم ، وعند رب العزة ، ومالك الخلق أجمعين .

١٥ - أن يحذر المسلم من طلب العزة عند أي مخلوق ، فإن من طلب العزة عند غير العزيز الحكيم ، أذله العزيز بين يدي خلقه أجمعين .

الفصل الثالث

الحذر من بطش وانتقام العزيز الحكيم



الحذر من بطش وانتقام العزيز الحكيم

مدخل :

قال تعالى: ﴿ولله جنود السماوات والأرض وكان الله عزيزاً حكيماً﴾[1] .

وقال تعالى : ﴿إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم ناراً كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب إن الله كان عزيزاً حكيماً﴾[2].

وقال تعالى : ﴿ فإن زللتم من بعد ما جاءتكم البينات فاعلموا أن الله عزيز حكيم ﴾[3] .

وقال تعالى : ﴿ والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاءٌ بما كسبا نكالاً من الله والله عزيز حكيم ﴾[4].

إن من أسماء الله تعالى الحسنى [العزيز الحكيم] ومن صفاته العليا [العزة والحكمة].

ومن التعبُّد لله تعالى بأسمائه وصفاته التعبُّد له بهذين الاسمين الحسنيين وهاتين الصفتين الحميدتين .

فإن للتعبُّد لله تعالى بأسمائه وصفاته من كمال العبودية مالايعلمه إلاَّ الله جلَّ في علاه ، فإنه سبحانه وتعالى يحب أن يتعبَّد إليه عباده بأسمائه وصفاته ، فرغَّبهم في هذه العبادة، بل أمرهم بها، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في أسمائه سيجزون ماكانوا يعملون ﴾[5] .

---

(١) الفتح (٧) .
(٢) النساء (٥٦) .
(٣) البقرة (٢٠٩) .
(٤) المائدة (٣٨) .
(٥) الأعراف (١٨٠) .

فإن العبد يعترف لله تعالى بألوهيته ووحدانيته من خلال تعبُّده له بأسمائه وصفاته . فيكون عبداً ربانياً لو أقسم على الله لأبرَّه ، ثقة في الله - عزَّ وجلَّ - وفي فضله ومنِّه ، ومن إحسان الظن بالله ، لأن أفضل ما يتقرَّب به العبد لربه هو توحيده جلَّ في علاه حق التوحيد وبأنواع التوحيد التي فرضها الله على عباده .

ومن هذا التعبُّد لله تعالى بأسمائه وصفاته أن يعلم العبد أن ربه عزيز حكيم ، وأنه صاحب عزة وحكمة ، وذو قوة وقهر ، وجبروت وسلطان ، وحكم وإحكام جلَّ في علاه ، فإن من كمال الألوهية أن يكون الإله الذي خلق ، والذي يأمر ، والذي ينهى ، والذي يُشَرِّع لعباده ، والذي يحكم بين عباده ، والذي يثيب ويعاقب ، والذي إليه مرجع الأمور ، لا بد أن يكون هذا الإله قوياً ذا قوة وقدرة ، وذا عزة ومنعة ، فإن العزة من صفات الكمال التي يتَّصف بها الإله المتصرِّف في الكون .

وكذلك فإن هذا الإله صاحب العزة والقوة حكيم ذو حكمة وحكم وإحكام ، ومُنزَّه عن الظلم ، فإن قوته يُعزُّ بها أولياءه ، وينصر بها عباده ، ويُنَعِّم بها أصفياءه ، ويُذلُّ بها أعداءه ، ويهزم بها من حارب دينه وأولياءه ، ويعذِّب بها من تكبَّر عن عبادته ، ويُحِقُ بها الحق ، ويُبْطل بها الباطل ، وكل ذلك عن قوة وحكمة وإحكام ، وتدبير وعدل وإنصاف ، فهو جل في علاه مُنزَّه عن الظلم والطغيان ، والعبث واللامبالاة ، فلا يصدر عنه شيء إلاَّ عن عزة وقوة وحكمة ، فهو حكيمٌ في قوله وفعله ، عدلٌ في أحكامه وتصرفاته .

فيُنعِّمُ من شاء بقدرته وحكمته لعلمه بمن يستحق التنعيم ،ويُعذِّب من يشاء بقدرته وحكمته وعدله ، فهو أعلم بمن يستحق العذاب ، وحكيم في إيصال عذابه لمن شاء من عباده وبالقَدْر الذي تقتضيه حكمته ، ويُعزُّ من يشاء بعزته فهو

صاحب العزة التي لا تعلوها عزة ، ويكسو من شاء من عباده المؤمنين من عزته عن حكمة يعلمها جلّ في علاه ، وهو القائل في محكم التنزيل ﴿ **ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون** ﴾[1] .

وقال تعالى : ﴿ **قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير** ﴾[1] .

فإن هذا الإله الحكيم الذي يملك زمام الأمور ، ويملك العذاب والبطش والانتقام ، والذي يملك التنعيم والتعذيب ، صاحب العزة والقوة والحكمة والحكم أحق أن يُعْبد من عباده ، ويوحَّد من خلقه ، ولذلك فقد وجب على المتعبِّد للعزيز الحكيم أن يعبده وهو موقن ومؤمن في سويداء قلبه ،وفي صميم اعتقاده أن العزيز الحكيم قادر على إثابته وتنعيمه ، فهو قوي وقادر على تنعيم عباده الموحِّدين المتعبِّدين له بأسمائه وصفاته .

وكذلك يجب على المتعبِّد للعزيز الحكيم أن يؤمن ويوقن ويعتقد أن هذا الإله العزيز الحكيم قادر على تعذيب كل من عصاه ، وقادر على البطش بكل من تكبَّر عن عبادته ، وقادر على الانتقام والفتك بكل من حارب دينه وكتابه ورسوله وعباده المؤمنين ، لأن هذا الإله قوي عزيز حكيم يستطيع إيصال عذابه وبطشه وانتقامه بمن شاء ممن عصاه وتكبَّر عن عبادته ، فيدفع ذلك كله العبد المؤمن الطائع إلى الخوف من هذا الإله ، والحذر من بطشه وانتقامه ، وفتكه وأليم عذابه . تعبُّداً

---

(١) المنافقون (٨) .

(٢) آل عمران (٢٦) .

لهذا الإله العزيز الحكيم ، وطمعاً في رحمته ، وخوفاً من عقابه وعذابه قال تعالى : ﴿ إن بطش ربك لشديد ، إنه هو يبدئ ويعيد وهو الغفور الودود ذو العرش المجيد فعال لما يريد ﴾[1] .

وإن للتعبُّد للعزيز الحكيم صوراً عدة ، وعبادات كثيرة نلقي الضوء بعون الله ومشيئته على بعضها لعلها تكون قنديلاً في طريق التعبُّد لله تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العليا .

---

(٢) البروج (١٢ : ١٦) .

[المبحث الأول]

توقير العزيز الحكيم والخوف منه

المطلب الأول : توقير العزيز الحكيم

المطلب الثاني : الخوف من العزيز الحكيم

[المطلب الأول]

توقير العزيز الحكيم

قال تعالى : ﴿ فإن زللتم من بعد ما جاءتكم البينات فاعلموا أن الله عزيز حكيم ﴾[١] .

وقال تعالى : ﴿ وما أرسلنا من رسول إلاّ بلسان قومه ليبين لهم فيضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وهو العزيز الحكيم ﴾[٢] .

وقال تعالى : ﴿ رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيماً ﴾[٣] .

وقال تعالى : ﴿ ومن عاد فينتقم الله منه والله عزيز ذو انتقام ﴾[٤] .

إن من التعبُّد لله العزيز الحكيم ، صاحب العزة والقوة ، والحكيم ذو الحُكْم والإحكام ، وذو الملكوت والسلطان ، أن يترك العبد معصية هذاالإله العظيم ، القوي الحكيم ، ويترفَّع عن كل ما يوقعه في غضب القوي الشديد ، ولا يُعرِّض نفسه لبطش الجبار ، رب الأرض والسماء ، المبدئ والمعيد ، الفعَّال لما يريد .

قال تعالى : ﴿ إن بطش ربك لشديد أنه هو يبدئ ويعيد ﴾[٥] .

---

(١) البقرة (٢٠٩) .

(٢) إبراهيم (٤) .

(٣) النساء (١٦٥) .

(٤) المائدة (٩٥) .

(٥) البروج (١٢ : ١٣) .

فإن العبد الذي عرف ربه ، وعَبَد مولاه ، وخشعت جوارحه للعزيز الجبار وسلَّم زمامه للحكيم ذي الحكمة والإحكام ، لحرىٌّ به أن يتجنب غضب هذا الإله ، ويبتعد عن كل ما يغضب مولاه ، من المعاصي والمخالفات ، فهو لا يقوي على تعذيب العزيز ذي القوة والبطش والجبروت ، صاحب الحكمة في إيصال عذابه لمن عصاه ، ولا يمنعه عزيز ولا ذليل في تعذيب خلقه وعبيده ، فالكلٌّ في قبضته ، والجميع تحت سطوته ، ولا يعجزه أحد من خلقه ، فالكلٌّ تحت مشيئته ، ومحكوم بعزته وقدرته ، والجميع خاضع لحكمة وحكمته وقدرته ، فمن ذا الذي يتجرأ على العزيز القوي صاحب الملك ، وخالق الخلق ، وأحكم الحاكمين ، ورب العالمين ، فيقع في معصيته ، ويتجرأ على محارمه ، ويعص أوامراه ، ويُعرَّض نفسه لأخذ العزيز ، وانتقام القوي الشديد ، وغضب أحكم الحاكمين ، إن العبد المؤمن المتعبِّد لله العزيز الحكيم ، الذي يعلم ويوقن أنَّ هذا الإله ذو عزة وقوة وحكم وحكمة وإحكام ، وقادر على إهلاك وتعذيب من عصاه ، عن (قوة وحكمة) لحرىٌّ به أن ينتهي عن المعاصي ويحتجب عن الذنوب ، ويستحي أن يعصي هذا الإله ، ويحذر من غضبه وبطشه وعذابه وإهلاكه .

فلا يطيع نفسه ، ولا ينساق خلف هواه ، ولا يتَّبع شهواته ، بل يعص هواه ، ويجمح جماح شهوته ، ويؤدِّب نفسه ، ويهذِّب أخلاقه ، تعبُّدا لهذا الإله العزيز الحكيم ، وخوفاً من عذابه وانتقامه وأخذه الأليم .

فلا بد أن يرتقي هذاالعبد المتعبِّد لله تعالى بأسمائه وصفاته وخاصة اسمي [العزيز الحكيم] ، وصفتي [العزة والحكمة] لا بد أن يرتقي بهذه النفس عن تلكم الشهوات والمهاوي والدنيِّات حتى يحقق عبوديته للواحد الدَّيان ، رب الأرض والسماوات ، ويرتقي إلى عالم الملائكة ذي الروحانيات والشفافيات .

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ :

((جُمِعَ فيك عقل المَلَك ، وشهوة البهيمة ، وهوى الشيطان ، وأنت للغالب عليك من الثلاثة : إن غَلَبْتَ شهوتك وهواك زدت على مرتبة المَلَك ، وإن غَلَبَكَ هواك وشهوتك نقصت عن مرتبة الكلب))(١) .

ولقد أخبرنا الله تعالى عن هذه النفس وأنواعها وميولها فقال جلَّ شأنه وتعالت قدرته ﴿ **ونفس وما سواها فألهما فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها** ﴾(٢) .

فيا أيها العبد الضعيف الفقير إلى مولاه أنت طبيب نفسك ، فإما أن تزيكها وترتقي بها حتى تفوق عالم الملائكة بهذه النفس الطاهرة النقية ، الطائعة لرب البرية وتكون ممن زكَّاها ونجَّاها من بطش العزيز الجبار ، وأعتقها من عذاب النار .

وإما أن تُتْبع نفسك هواها ، وتتجرأ على معصية العزيز الحكيم ، الذي أوجدك بعزته وقوته، والذي تولاك بحكمته ورعايته ، ثم بعد ذلك تستهين بقوته ، وتغفل عن حكمته ، وتقع في معصيته ، وتكفر بنعمه وآلائه . بل وتبارزه بالآثام والمعاصي ، وهو الذي أوجدك بقوته ، وأنشأك بعزته ، وأملي لك بحكمته ، وأنعم عليك بلطفه وإحسانه ، فلسْت عليه بعزيز ، وإنه على إهلاكك قدير ، وأمهلك لأنه حكيم ، ولكن إذا أخذك فإن أخذه أليم ، أخذ عزيز حكيم .

مجاهدة النفس :

لا بد للعبد المؤمن المتعبِّد لله تعالى بأسمائه وصفاته وخاصة اسمي [العزيز الحكيم] وصفتي [العزة والحكمة] أن يجاهد نفسه وما رُكِّبَ فيها بحُكْم البشرية

(١) (الفوائد) لابن القيم ص ٩١ .

(٢) الشمس (٧ : ١٠) .

من ميـل إلى الشهـوات والهوى ، والملذات والتـمرُّد ، والفـساد والطغـيان ، وحب النفس ، وكـراهيـة التقـيد والإلـتزام ، لا بد لهـذا المؤمن المتـعبِّـد للعـزيز الحكيم أن يجاهد هذه النفس ، وأن يكبح جـماحهـا ، وأن يُهذِّبها لكي تنصاع لأوامـر ربها وخالقـها ،ولكي تتـزكّى وتطهروتعلو ، وتتـعبَّد لخـالقها العـزيز الذي خلقهـا بقوته وإرادته ، والذي أوجدها بحكمته ومشيئته ، والذي أعطاها من القوة ، وأنعم عليها من النِّعم بعـزته وقدرته ، وهيَّـأ لها مـن أسبـاب السعـادة والهناء بحكـمتـه ، وأملى لهاعند المعصية رغم عزته وقوته ، وأمهلها بحكمته ، ولو شاء البطش بها لبطش بها فهو العزيز الحكيم ، القوي القادر على ما يريد ، الحكيم ذو الحكمة فيما يفعل وفي كل ما يريد .

فوجب على هذا العـبد المتعبِّـد لهذا الإله العزيز الحكيم أن يراقبـه ، ويخشى عزته وقوته وبطشه وانتقامه ، وأن يحـذر حُكْمه وحكمته ، وإرادته ، فهو قوي في عذابه وانتقامه ، حكيم في تعذيب من شاء من عباده .

فليحـذر هذا العبد المتعـبِّد لله العـزيز الحكيم من أن ينالـه غضـبـه وبطشـه ، وليحذر أن يشاء الله بحكمته تعذيبه وإهلاكه ، فليُرِي الله منه خيـراً ، وليطَّلع عليه العزيز الحكيم وهو يجـاهد نفسه ، وهو يتـخلَّص من كل دواعي المعصيـة والخروج على حـدود الله وأوامـره ، وليستـمـد من العـزيز العزة والقـوة على ترك المعـصيـة ، وليسـتغـيث الحكيم بأن يمنَّ عليه بحكمـته من الإيمان واليـقين والخشـية ما يـجعله طائعاً لله العزيز الحكيم .

فـلا بد من المجاهدة والتـصبُّـر ، والعزم واليـقين ، والتـحمُّل والتـجلُّد ، لكي تنجـو هذه النفس الأمَّـارة بالسوء من عـذاب وبطش العـزيز الحكيم ، ولكي تحـقق

التعبُّد الذي أُمِرَتْ به لصاحب العزة والحكمة جلَّ في علاه قال تعالى : ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان ﴾[١] .

قال العلامة ابن القيم ـ رحمه الله ـ :

((سبحان الله ، في النفس كبر إبليس ، وحسد قابيل ، وعتوّ عاد ، وطغيان ثمود ، وجرأة نمرود ، واستطالة فرعون ، وبغي قارون ، وقحة[٢] هامان ، وهوى بلعام[٣] ، وحِيَل أصحاب السبت ، وتمرُّد الوليد[٤] ، وجهل أبي جهل .

وفيها من أخلاق البهائم : حرص الغراب ، وشره الكلب ، ورعونة الطاووس، ودناءة الجُعل ، وعقوق الضب ، وحقد الجمل ، ووثوب الفهد ، وصولة الأسد ، وفسق الفأرة ، وخبث الحية ، وعبث القرد ، وجمع النملة ، ومكر الثعلب ، وخفة الفراش ، ونوم الضبع .

غير أن الرياضة والمجاهدة تُذْهب ذلك . فمن استرسل مع طبعه فهو من هذا الجند، ولا تصلح سلعته لعقد ﴿ **إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم** ﴾[٥] فما اشترى إلاّ سلعة هذَّبها الإيمان فخرجت عن طبعها إلى بلد سُكَّانها التائبون العابدون))[٦] .

---

(١) الرحمن (٤٦) .

(٢) القح : الخالص من اللؤم والكرم وكل شيء .

(٣) بلعام : هو عرَّاف أرسله ملك مؤاب ليعلن اسرائيل فبارك ولم يعلن .

(٤) لعله الوليد بن المغيرة الذي تمرد على خالقه وغرَّه ماله وولده .

(٥) التوبة (١١١) .

(٦) (الفوائد) لابن القيم الجوزية (ص ٨٦) .

ويسترسل ابن القيم - رحمه الله - ناصحاً :

((سلِّم المبيع[١] قبل أن يتلف في يدك[٢] فلا يقبله المشتري[٣] ، قد عَلِمَ المشترى[٤] بعيب السلعة[٥] قبل أن يشتريها ، فسلِّمها ولك الأمان من الرد))[٦] .

وجوب توقير العزيز الحكيم :

قال الله تعالى: ﴿ ولله جنود السماوات والأرض وكان الله عزيزاً حكيماً ﴾[٧] .

وقال تعالى : ﴿ مالكم لا ترجون لله وقاراً ﴾[٨] .

إن من التعبُّد لله العزيز الحكيم بأسمائه وصفاته وخاصة اسمي (العزيز الحكيم] وصفتي [العزة والحكمة] أن يوقِّر العبد ربه العزيز الحكيم صاحب العزة والقوة ، والغلبة والمنعة ، والحكم والإحكام والحكمة .

فهذا الإله صاحب العزة والحكمة ، هو المستحق للتوقير والتعظيم والإجلال والإكبار ، فقد أوجد كل شيء بقوته ، وهيمن على كل شيء بعزته ، وأحكم كل شيء بحكمته ، فله الحمد والثناء ، والمجد والإكرام ، والجبروت والسلطان ، يفعل ما يريد بقوته، ويُعزُّ من يشاء بعزته ، ويُحْكِم ما يشاء بحكمه ، ويقضي ما يشاء

---

(١) أي نفسك وجسدك .

(١) أي قبل أن يأتيه الموت .

(٣، ٤) المقصود بالمشترى الله جل جلاله فهو الذي اشترى من المؤمنين أنفسهم بأن لهم الجنة .

(٥) أي نفسك وما فيها من عيوب .

(٦) (الفوائد) لابن القيم الجوزية (ص ٨٦) .

(٧) الفتح (٧) .

(٨) نوح (١٣) .

بحكمته ، فلله العزة والحكم ، والمنعة والإحكام ، والقوة والحكمة ، فنعْم الإله هوالإله العزيز الحكيم ، الذي يفعل ما يشاء بقوة وعزة ، ويقضي في ملكه ما يشاء بحكمة ، فله العزة جميعاً ، والحكمة البالغة . فوجب على العبد المتعبِّد لهذا الإله العزيز الحكيم أن يوقِّره ويُعظِّمه بعدما عَلِم وآمن وأيقن بعزته وحكمته .

ولذلك ينكر العزيز الحكيم على هؤلاء الذين غرتهم قوتهم واتبعوا أهواءهم وتناسوا عزة وقوة العزيز ، وحكم وإحكام وحكمة الحكيم ، وتجرأوا على عصيانه ، والخروج على أوامره ، وتكذيب رسله قائلاً جلَّ في علاه : ﴿ **مالكم لا ترجون لله وقاراً** ﴾[1].

ألا يعلم هؤلاء أن لله جنود السماوات والأرض ، وأنه إذا شاء شيئاً فعله بقوته وعزته ، فهو الذي يُعزُّ من يشاء بعزته ، ويُذلُّ من يشاء بقدرته ، ويكتب الهوان لمن شاء من خلقه بحكمته ، وهو العزيز الحكيم .

ألم يسمعوا قوله تعالى مهدداً إياهم ، ومُنْذرهم ومَنْ على شاكلتهم ، حتى يوقِّروه ويُعظِّموه وحده جلَّ في عزته وكبريائه وحكمته ﴿ **ولله جنود السماوات والأرض وكان الله عزيزاً حكيما** ﴾[2] .

فلو شاء العزيز الحكيم لأهلكهم وعذَّبهم بأي جند من جنوده ، فله العزة والسلطان والهيمنة والكبرياء ، فإذا أمر أي جند من جنوده لأطاعه ، وانصاع لعزته وقوته ، ولرضخ لهيمنته وجبروته ، وكان طوعاً لحكمته وإراداته ، جلَّ في علاه [العزيز الحكيم] .

---

(١) نوح (١٣) .
(٢) الفتح (٧) .

قال الشيخ السعدي ـ رحمه الله ـ :

((كرَّر الإخبار بأن له ملك السماوات والأرض وما فيها من الجنود ليعلم العباد أنه تعالى هو المُعزُّ المذلُّ ، وأنه سينصر جنوده المنسوبة إليه ، كما قال تعالى : ﴿ وإن جندنا لهم الغالبون ﴾[١] .

﴿ وكان الله عزيزاً حكيماً ﴾ أي : قوياً غالباً ، قاهراً لكل شيء .

ومع عزته وقوته ، حكيم في خلقه ، وتدبيره ،يجري على ما تقتضيه حكمته واتقانه))[٢] .

وقال الإمام الطبري ـ رحمه الله ـ :

((وقوله : ﴿ ولله جنود السماوات والأرض ﴾ : يقول جلَّ ثناؤه : ولله جنود السماوات والأرض أنصاراً على أعدائه ، إن أمرهم بإهلاكهم أهلكوهم ، وسارعوا إلى ذلك بالطاعة منهم له .

﴿ وكان الله عزيزاً حكيماً ﴾ يقول تعالى ذِكْره : ولم يزل الله ذا عزة ، لا يغلبه غالب ، ولا يمتنع عليه مما أراده به ممتنع ، لعظم سلطانه وقدرته ، حكيم في تدبيره خَلْقَه))[٣] .

فيجب على العبد المؤمن تعبُّدا للعزيز الحكيم أن يوقِّره ويعظِّمه ، وأن يعرف له قدره ، وأن يتعبَّد له بأسمائه الحسنى ، وصفاته العليا ، وبما تحمله من معاني ،

---

(١) الصافات (١٧٣) .

(٢) تفسير السعدي لسورة الفتح آية (٧) ص ٧٣٦ .

(٣) تفسير الطبري لسورة الفتح آية (٧) [٧ / ٥٥] .

وبما تقتضيه من عبادات ، حتى يصل إلى كمال العبودية لخالقه صاحب العزة والحكمة ، وليحقق الحكمة والغاية من خلقه كما أخبر العزيز الحكيم في محكم تنزيله أن الغاية والحكمة من خلق هذا الإنسان ـ بل والجن ـ هي التعبُّد لله تعالى حق التعبُّد ، ولا تتحقق هذه العبودية في صورتها المثلى حتى يتعبَّد العبد لله تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العليا .

قال تعالى : ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلاَّ ليعبدون ﴾(١) .

وإذا حقق العبد هذا الوقار للعزيز الحكيم فوقَّره وعظَّمه ومجَّده ، رضى الله عنه وأرضاه ، وكتب له الوقار والعزة في الأرض بين خلقه ، فيكسوه الله من عزته، ويمدُّه بقوته ، ويجعل له الهيبة والمكانة بين خلقه بحكمته و فهو أكرم الأكرمين ، وخير من يجازي عباده المتعبِّدين ، فيكتب لهذا العبد المتعبِّد للعزيز الحكيم العزة والكرامة ، والسيادة والمهابة في الأرض بشارة له بقبول عمله في الدنيا ، وفوزه ورباحه في الآخرة بعزة العزيز ، وحكمة الحكيم ، قال تعالى : ﴿ فإن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين ﴾(٢) .

وقال تعالى : ﴿ فبشِّر عباد ﴾(٣) .

وقال تعالى : ﴿ وبشِّر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم ﴾(٤) .

---

(١) الذاريات (٥٦) .
(٢) المنافقون (٨) .
(٣) الزمر (١٧) .
(٤) يونس (٢) .

وقال تعالى : ﴿ وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلاً كبيراً ﴾[(١)] .

قال العلامة ابن القيم ـ رحمه الله ـ :

((من أعظم الظلم والجهل أن تطلب التعظيم والتوقير لك من الناس وقلبك خالٍ من تعظيم الله وتوقيره ، فإنك توقِّر المخلوق وتُجلّه أن يراك في حال لا توقِّر الله أن يراك عليها ، قال تعالى : ﴿ ما لكم لا ترجون لله وقاراً ﴾[(٢)] .

أي لا تعاملونه معاملة من توقِّرونه .

والتوقير : العظمة . ومنه قوله تعالى ﴿ وتوقروه ﴾[(٣)].

قال الحسن ـ رحمه الله ـ : مالكم لا تعرفون للهحقاً ولا تشكرونه ؟!!

وقال مجاهد ـ رحمه الله ـ : لا تبالون عظمة ربكم .

وقال ابن زيد ـ رحمه الله ـ : لا ترون لله طاعة .

وقال ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ : لا تعرفون حق عظمته

وهذه الأقوال ترجع إلى معنى واحد ،وهو أنهم لو عظَّموا الله وعرفوا حق عظمته وحَّدوه وأطاعوه وشكروه .

فطاعته سبحانه ، واجتناب معاصيه ، والحياء منه بحسب وقاره في القلب .

ولهذا قال بعض السلف ـ رحمهم الله ـ ليعظم وقار الله في قلب أحدكم أن يذكره عندما يستحي من ذكره ....))[(٤)] .

---

(١) الأحزاب (٤٧) .
(٢) نوح (١٣) .
(٣) الفتح (٩) .
(٤) (الفوائد) لابن القيم الجوزية (٢٨) .

كيفية التوقير والتعظيم للعزيز الحكيم :

هكذا نرى العلامة ابن القيم - رحمه الله - يُفصِّل ويبيِّن كيفية توقير وتعظيم العزيز الحكيم ، وينير لنا الطريق - رحمه الله - في مسيرتنا للتعبُّد للعزيز الحكيم بهذين الاسمين الحسنيين وبهاتين الصفتين الحميدتين . فمن هذا التوقير والتعظيم :

- أن نوقِّر ونُعظِّم العزيز الحكيم بألاَّ تُعْصَى أوامره .
- أن نوقِّر ونُعظِّم العزيز الحكيم بأن نأتمر بأوامره .
- أن نُوقِّر ونُعظِّم العزيز الحكيم بألاَّ نجعل عينه ، أهون الأعين ، فيُجلُّ العبدُ ربَّه ومولاه عن أن يهون في نظرة ، فلا يرى العزيز الحكيم عبده في حال يوقِّر المخلوق أن يراه عليها .
- ومن توقيره سبحانه وتعالى صاحب العزة والحكمة وتعظيمه أن لا يعدل العبد به شيئاً من خلقه ، لا في اللفظ ، ولا في الحب ، ولا في التعظيم والإجلال ، ولا في الطاعة ، ولا في الخوف والرجاء ؛ ولا في أسمائه ولا في صفاته .
- فلا يجعله أهون الناظرين إليه - وهو يعلم أنه صاحب العزة والقادر عليه - .
- ولا يستهين بحقه جلَّ في علاه - وهو ما تركه إلاَّ لحكمة بالغة ، فهو أحكم الحاكمين - .
- ولا يُقدِّم أحداً من الخلق على العزيز الحكيم ، مهما بلغ من عزة وقوة دنيوية فانية .
- ولا يعطي المخلوق قلبه ولُبَّه ، ويعطي العزيز الحكيم بدنه ولسانه فقط ، وهو العزيز الذي وهبه كل شيء ، وهو صاحب الفضل والمنَّه على كل الخلق .
- ولا يُقدِّم هواه ومراد نفسه على أوامر ومراد العزيز الحكيم ، الذي يَقْدِرُ بعزته وقدرته أن يُرْغمه على ما يشاء وما يريد .

- وأن يستحي من العزيز الحكيم ، صاحب العزة ، والقوة ، والقادر على كل شيء في الخلوة أعظم مما يستحي من أكابر الناس وعظمائهم ، فالعزيز الحكيم أعظم وأكبر من كل مخلوق .

وإجمالاً يجب على العبد المؤمن المتعبِّد للعزيز الحكيم ، أن يُوقِّر ويُعظِّم ويُجلَّ ويُجِّل هذا الإله صاحب العزة والقوة والهيمنة ، والقاهر فوق عباده ، والحكيم صاحب الحكمة والحكم والإحكام جلَّ في علاه ، الذي يعز بعزه ، ويقهر بقوته ، ويُذلُّ بإرادته ، ويعذِّب من شاء بحكمته ، ويرحم ويُنعِّم من يشاء بحكمته ، فله الأمر من قبل ومن بعد ، واستحق أن يعبده العابدون ، وأن يتضرع اليه المتضرِّعون ، من غير حاجة له في عبادة عابد ، ولا ذِكْر ذاكر ، ولا شُكْر شاكر، فهو الغني الحميد ، والعزيز الحكيم ، الغني عن كل العبيد ، فسبحانه له الأسماء الحسنى والصفات العليا جلَّ في عليائه ، وعَظُمَ في سلطانه .

قال تعالى : ﴿ لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلاً ﴾[1] .

---

(١) الفتح (٩) .

[المطلب الثاني]
الخوف من العزيز الحكيم

قال تعالى : ﴿ فإن زللتم من بعد ما جاءتكم البينات فاعلموا أن الله عزيز حكيم ﴾[١].

وقال تعالى : ﴿ ومن عاد فينتقم الله منه والله عزيز ذو انتقام ﴾[٢] .

[وجوب الخوف من العزيز الحكيم] :

إن من التعبُّد للعزيز الحكيم باسميه [العزيز والحكيم] وصفتي [العزة والحكمة] أن يستشعر العبد مدى قدرة وعزة وحكمة وإحكام هذا الإله فيحمله هذا الشعور وهذا الإحساس ، بل هذا الاعتقاد على الخوف من هذا الإله ، والحذر من بطشه وقوته ، وجبروته وانتقامه ، وحكمته في إيصال عذابه لمن شاء من عباده. فإن هذاا لعبد الذي تعبَّد لله تعالى بأسمائه الحسنى ، وصفاته العليا ، واستشعر ما يحمله كل اسم من صفات ، وما تتضمَّنه وتقتضيه هذه الأسماء والصفات من عبادات يجب على العبد التعبُّد بها لرب الأرض والسماوات . وتحقيقها في حياته العملية ، فتظهر على سلوكه وأفعاله وتصرفاته في ذاته ، ومع مَنْ حوله مِنْ جميع الكائنات ، بل وفي علاقته مع ربه ومولاه .

* فلمَّا استشعر وأيقن هذا المتعبِّد للعزيز الحكيم باسمه العظيم [**العزيز**] وبصفته الحميدة [**العزة**] أنه إله ذو قوة وعزة ومَنَعَة وإرادة ، وأنه قادر على تعذيب من شاء من عباده ، والانتقام ممن أراد ، وإذلال من شاء إذلاله من مخلوقاته ، فهو إله لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء وهو على كل شيء قدير .

---

(١) البقرة (٢٠٩) .

(٢) المائدة (٩٥) .

قال تعالى : ﴿ فلمَّا تبيَّن له قال أعلم أن الله على كل شيء قدير ﴾(١).

وقال تعالى : ﴿ وماكان الله ليعجزه من شيء في السماوات ولا في الأرض إنه كان عليماً قديراً ﴾(٢) .

وقال تعالى : ﴿ قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير ﴾(٣).

فلمَّا آمن هذا العبد وأيقن بعزة وقدرة هذا الإله العزيز ، تولَّد في قلبه عبادة الخوف من العزيز صاحب العزَّة والقوة ، فتعبَّده بهذه العبادة فكانت حافزاً ومعيناً له على الائتمار بأوامره ، والانتهاء عن نواهيه ، ومراقبته في السر والعلن ، وفي السَّراء والضَّراء ، وعن إيمان وعقيدة ، وعن حب ورضا .

* وأيضا لـمَّا استشعر هذا العبد وآمن وأيقن بأن الله [حكيم] فتعبَّده بهذا الاسم العظيم [الحكيم] وبهذه الصفة الحميدة [الحكمة] وتولَّد في قلبه الخوف من هذا الإله الحكيم الذي خلق هذا الانسان وكل مَنْ حوله بحكمته ، ولحكمة يعلمها ، وأنه أراد من هذا الإنسان أن يعبده لحكمة يعلمها ، وأنه سبحانه وتعالى ما خلق هذا الإنسان عبثاً ولم يتركه هملاً ولن يخرج عن إرادته ومشيئته وحكمته، ولن تكون نهايته بلا حساب وثواب وعقاب .

---

(١) البقرة (٢٥٩) .

(٢) فاطر (٤٤) .

(٣) آل عمران (٢٦) .

وعلم العبد أن الحكيم يتصرَّف بحكمة ، ولن يخرج عن حكمته أحد ، حتى الكافر والعاصي الذي أعطاه الدنيا ، وأغدق عليه من النِّعم ، فإن ذلك كله لحكمة يعلمها جلَّ في علاه ، ولعلَّه استدراج ، فهو سبحانه يمهل من شاء من عباده حتى إذا أخذه لم يفلته ، بل يأخذه أخذ عزيز مقتدر . وذلك يجعل العبد دائماً على خوف وَوَجَلٍ من الحكيم حتى في حالة التَّنعُّم والتمتُّع بالمال والصحة والولد ، بل وجميع الملذات ، فلا يعلم هذا العبد أهذا عن رضا من الله تعالي ، أم هو استدراج من العزيز الحكيم ، ويكون بعدها العذاب والأخذ الأليم ، والويل والثبور .

[الحذر من استدراج العزيز الحكيم] :

قال تعالى : ﴿ **ويمدهم في طغيانهم يعمهون** ﴾[1] .

وقال تعالى : ﴿ **ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خير لأنفسهم إنما نملي لهم ليزدادوا إثما ولهم عذاب مهين** ﴾[2] .

كل ذلك ليجعل العبد المؤمن المتعبِّد للحكيم دائما على خوف وَوَجل في كل حياته وأحواله من الحكيم ، صاحب الحكم والحكمة والإحكام ، يخاف من بطشه وعزته وقوته وزوال نعمته ، ومن استدراجه للعبد ، ليكون دائماً مع طمعه في كرم ،ورحمة ، وفضل ،وعفو الحكيم ، يكون دائماً على خوفٍ وَوَجَلٍ ورَهْبةٍ من حكمة الحكيم أن يشأ استدراجه ومَدَّه في النعم والملذات ويكون بعدها الندم

---

(١) البقرة (١٥) .

(٢) آل عمران (١٧٨) .

والثبور . فيتعبَّد العبد المؤمن للحكيم [بالخوف والرجاء] أبداً ما بقى في هذه الحياة الدنيا . قال تعالى : ﴿ **ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها وادعوه خوفاً وطمعاً** ﴾(١) .

وقال تعالى : ﴿ **تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً** ﴾(٢).

وهكذا يتعبَّد المؤمن [للعزيز الحكيم] بهذين الاسمين الحسنيين وهاتين الصفتين الحميدتين بين الخوف والرجاء ، ذلك (الخوف) الذي يجعل المسلم دائماً يراقب العزيز الحكيم في كل أموره ومع كل من حوله ، فلا يكون منه إلاَّ ما يرضي صاحب العزة والقوة ، ولا يصدرمنه إلاَّ ما أمَر به الحكيم صاحب الحكمة والحكم والإحكام .

وهذا (**الخوف**) الذي يجعل العبد دائماً يستشعر ويستحضر قوة وعظمة وجبروت العزيز ، وعذاب وانتقام صاحب الحكمة ممن شاء من عباده فيجعله دائماً من أولياء العزيز الحكيم ، وتبعاً لإرادة ومشيئة صاحب العزة والقوة ، ووفق إرادة ومنهج وشرع الحكيم العليم فنعم التعبُّد هذا الذي يجعل العبد وفق شرع ومنهج إلاهه ومولاه ، ويجعله من أوليائه وأصفيائه الذين يخشونه في السر والعلن ، وفي السَّراء والضَّراء فنعم أجر المتعبِّدين .

---

(١) الأعراف (٥٦) .
(٢) السجدة (١٦) .

ويُهدِّد الله عباده ويخوِّفهم بعزته وحكمته ، وشديد عذابه قائلاً جلَّ في علاه ﴿ فإن زللتم من بعد ما جاءتكم البينات فاعلموا أن الله عزيز حكيم ﴾[1].

قال الشيخ السعدي ـ رحمه الله ـ :

((ولَمَّا كان العبد لا بد أن يقع منه خلل وذلك قال تعالى : :

﴿ فإن زللتم ﴾ أي : أخطأتم ووقعتم في الذنوب .

﴿ ومن بعد ما جاءتكم البينات ﴾ أي :على علم ويقين .

﴿ فاعلموا أن الله عزيز حكيم ﴾ . وفيه من الوعيد الشديد والتخويف ما يوجب ترك الزلل ، فإن العزيز المقام الحكيم ، إذا عصاه العاصي ، قهره بقوته ، وعذَّبه بمقتضى حكمته ، فإن من حكمته تعذيب العصاة والجناة .

وهذا فيه من الوعيد الشديد والتهديد ما تنخلع له القلوب))[2] .

وقال الإمام الطبري ـ رحمه الله ـ :

((يعني بذلك جلَّ ثناؤه : فإن أخطأتم الحق ، فضللتم عنه ، وخالفتم الإسلام وشرائعه ، من بعد ما جاءتكم حججي وبينات هداى ، واتضحت لكم صحه أمر الإسلام بالأدلة التي قطعت عذركم أيها المؤمنون ، فاعلموا أن الله [ذو عزة] لا يمنعه من الانتقام منكم مانع ، ولا يدفعه عن عقوبتكم على مخالفتكم أمره ومعصيتكم إياه دافع .

---

(١) البقرة (٢٠٩) .

(٢) تفسير السعدي لسورة البقرة آية (٢٠٩) ص ٧٧ .

﴿ حكيم ﴾ فيما يفعل بكم من عقوبته على معصيتكم إياه ، بعد إقامته الحجة عليكم ، وفي غيره من الأمور))[١] .

وقال الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله ـ :

في قوله تعالى : ﴿ والله عزيز ذو انتقام ﴾[٢] .

((يقول ـ عزَّ ذِكْرُه ـ : والله منيع في سلطانه لا يقهره قاهر ، ولا يمنعه من الانتقام ممن انتقم منه ، ولا من عقوبة من أراد عقوبته مانع . لأن الخلق خلقه والأمر أمره له العزة والمنعة .

وقوله ﴿ ذو انتقام ﴾ يعني أنه ذو معاقبة لمن عصاه على معصيته إياه[٣] .

فعلى العبد المتعبِّد لربه ومولاه العزيز الحكيم بأسمائه وصفاته وباسمي [العزيز الحكيم] وصفتي [العزة والحكمة] أن يتعبَّد لصاحب العزة والحكمة بعدما عرف عزته وقوته ، وآمن بحكمه وحكمته ، بأن يخاف من هذا الإله العزيز الحكيم ويتعبَّد له بهذه العبادة التي تُقرِّبه من ربه وتُبْعده عن غضب العزيز وعذاب الحكيم ، وتجعله من أوليائه وأصفيائه ، وذلك في مسيرة التعبُّد لله تعالى بأسمائه وصفاته على ما يرضى العزيز الحكيم ، صاحب العزة والحكمة جلَّ في عليائه وعَظُمَ في سلطانه .

---

(١) تفسير الطبري لسورة البقرة آية (٢٠٩) [١ / ٥٦٦] .

(٢) المائدة (٩٥) .

(٣) تفسير ابن كثير لسورة المائدة آية (٩٥) [٢/ ١٠٢] .

[المبحث الثاني]

التعبُّد بالذُّل والانكسار للعزيز الحكيم

المطلب الأول : كيفية التعبُّد بالذُّل والانكسار للعزيز الحكيم

المطلب الثاني : آثار التعبُّد بالذُّل والانكسار للعزيز الحكيم



[المطلب الأول]

كيفية التعبُّد بالذُّل والانكسا للعزيز الحكيم

قال تعالي : ﴿ ولله جنود السماوات والأرض وكان الله عزيزاً حكيماً ﴾(١)

وقال تعالى : ﴿ والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالاً من الله والله عزيز حكيم ﴾(٢).

وقال تعالى : ﴿ ومن عاد فينتقم الله منه والله عزيز ذو انتقام ﴾(٣).

إن من التعبُّد لله العزيز الحكيم باسميه الحسنيين [العزيز الحكيم] وصفتيه الحميدتين [العزة والحكمة] ، حق التعبُّد ليولِّد عند العبد خُلُق الذُّل والانكسار ، فيتعبَّد للعزيز الحكيم بأن يذل وينكسر لعزته وحكمته ، وذلك لعلمه بمدى قدرة وعزة وقهر وجبروت العزيز ، ولإيمانه بحكمة وحكم وإحكام الحكيم العليم ، صاحب العزة المطلقة ، والحكمة الكاملة التامة .

فكلَّما اطّلع العبد المتعبِّد لربه ومولاه على عزة العزيز ، وإزداد علماً بقدرته وهيمنته على كل المخلوقات ، وأيقن بحكمته ، وإحكام حكمه ، وانفاذ أحكامه كلما زاده ذلك كله ذُلاً وانكساراً لهذا الإله العزيز الحكيم .

وكيف لا يَذلُّ هذا العبد المتعبِّد لمولاه ، وكيف لا ينكسر لصاحب العزة والحكمة ، وقد ذلَّ لعظمته وقدرته وعزته كل مَنْ في السماوات والأرض .

---

(١) الفتح (٧) .

(٢) المائدة (٣٨) .

(٣) المائدة (٩٥) .

قال تعالى: ﴿ ولله يسجد من في السماوات والأرض طوعاً وكرهاً ﴾[١] .

فالكلُّ يسجد لله العزيز الحكيم ، ويُذْعن ويسلِّم لعزته ، ويؤمن بحكمته ، فالكلُّ يخضع لقوته وعزته وجبروته ، و«لا يستكبرون عن عبادته ، وكلهم له خاضعون .

قال تعالى : ﴿ ولله يسجد ما في السماوات وما في الأرض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون ﴾[٢] .

فلله العزة والكبرياء في السماوات والأرض ، وفي الأولى وفي الآخرة ، والكل آتي الرحمن عبداً ، والكل تحت مشيئته ، ووفق حكمته ، طوعاً أو كرهاً ، شاء المخلوق أم لم يشأ ، فحكمة الله نافذة ، وحُكْمه واقع ، وإحكامه لا يشك فيه إلاَّ كافر ، فالكل طوعاً لحكمته ومُدَبَّر بإحكامه ، ووفق حكمه ، وإرادته .

قال تعالى : ﴿ ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرها قالتا أتينا طائعين ﴾[٣] .

وكلَّما جهل المتعبِّد لله تعالى بتمام عزته وكمال حكمته، قلَّ ذلُّه ، وضعف انكساره ، وما قَدَرَ الله حق قدره ، على ما لله من عظيم القدر ، ومنتهى القوة والجبروت ، وعظيم السلطان .

قال تعالى : ﴿ وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قضبته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾[٤] .

---

(١) الرعد (١٥) .
(٢) النحل (٤٩) .
(٣) فصلت (١١) .
(٤) الزمر (٦٧) .

تذكُّر قُدرة العزيز على تعذيب العباد :

وإن مما يساعد العبد على التعبُّد للعزيز الحكيم بعبادة الذُّل والانكسار لصاحب العزة والقوة أن يستحضر العبد قدرة العزيز على تعذيب العباد ، وحكمته في تعذيب من شاء من عباده ، حسب ما تقتضيه حكمته البالغة في الكمال والإحكام ، فيدعو ذلك العَبْدَ إلى أن يذلَّ لمولاه ، ويخاف عذابه وعقابه ، وينكسر لمولاه يحذر أن يشاء بحكمته تعذيبه في نيرانه ، فلا يأمن العبد العارف بربه من غضبه وبطشه وعزته وقوته، فيكون دائماً حاله حال المسكين المتذلِّل لرب العالمين ، الخائف من الحكيم العليم ، الوَجِل من أن يدركه غضب رب العالمين ، وهو يقرع آذانه ليلاً ونهاراً آيات الوعيد ، والعذاب والتهديد ومنها قوله تعالى : ﴿ **إن بطش ربك لشديد إنه هو يبدي ويعيد** ﴾[1] .

وقوله تعالى : ﴿ **ومن عاد فينتقم الله منه والله عزيز ذو انتقام** ﴾[2].

وكيف يهدأ له بال ، وكيف يهنأ له عيش ، وكيف تطيب له الحياة ، وكيف لا يتذلَّل لربه ، وينكسر للعزيز الحكيم وهو يسمع قوله تعالى في محكم التنزيل : ﴿ **إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم ناراً كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب إن الله كان عزيزاً حكيماً** ﴾[3] .

ففي هذه الآية الكريمة بيان لمدى العذاب لهؤلاء الذين تمرّدوا على خالقهم ، ولم يتذلَّلوا للعزيز ، ولم ينكسروا للحكيم ، فأذلَّهم بعزته ، وعذَّبهم بحكمته ،

---

(١) البروج (١٢ ، ١٣) .
(٢) المائدة (٩٥) .
(٣) النساء (٥٦) .

وألبسهم لباس الذُّل والهوان، وأحرقهم بالنيران ، وكتب عليهم الهلاك والخسران.

قال الشيخ السعدي ـ رحمه الله ـ :

((﴿ إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم ناراً ﴾ أي : عظيمة الوقود ، شديدة الحرارة .

﴿ كلما نضجت جلودهم ﴾ أي : ليبلغ العذاب منهم كل مبلغ . ولمَّا تكرر منهم الكفر والعناد ، وصار وصفاً لهم وسجية ، كرَّرعليهم العذاب جزاءاً وفاقاً . ولهذا قال :

﴿ إن الله كان عزيزاً حكيماً ﴾ أي : له العزة العظيمة ، والحكمة في خلقه وأمره ، وثوابه وعقابه))[1] .

فمن تعبَّد للعزيز الحكيم بالذُّل والانكسار ألبسه الله لباس العزِّ في الدنيا والآخرة ، وأعزَّه بعزته ، وكتب له الهيبة والرفعة بين خلقه بحكمته ، فهو العزيز الحكيم ، يعز من يشاء بعزته ويرفعه بحكمته .

ومن أبى واستكبر أن يتعبَّد للعزيز الحكيم بالذُّل والانكسار ، أذلَّه العزيز بين خلقه ،وأهانه بين عباده ، ويأبى العزيز الحكيم أن تكون العزة لغيره ، أو أن يتكبَّر أحد في مملكته . فلله العزُّ والكبرياء جلَّ في عليائه كما أخبر عن نفسه في الحديث القدسي فيما يرويه عنه الرسول ـ ﷺ ـ « العز إزاره ، والكبرياء رداؤه ، فمن ينازعني عذبته »[2] .

---

(١) تفسير السعدي لسورة النساء آية (٥٦) ص ١٤٨ .

(٢) رواه مسلم في كتاب : (البرِّ والصلة) باب (تحريم الكبر) .

وفي رواية أخرى للإمام أحمد ـ رحمه الله ـ « الكبرياء ردائي، والعزُّ إزاري ، فمن نازعني واحداً منهما ألقيته في النار »[١] .

الذُّل للعزيز عِزٌّ ورِفْعة :

إن التعبُّد للعزيز الحكيم بالذُّل والانكسار يرضى الإله جلَّ في علاه ، فهو إعلان من العبد المتعبِّد لمولاه بكمال العبودية للإله العزيز الحكيم ، صاحب العزة والحكمة، فيرضى العزيز بِذُلِّ عبده بين يديه، وانكساره لعزته ، وتواضعه لعظمته ، وخضوعه لقدسيته ، وهيبته لجلاله .

ويُحبُّ العزيز الحكيم أن يتعبَّده عبده بالتسليم لأحكامه ، والتفويض لأمره ، والإذعان لحكمه ، والإيمان بحكمته وإحكامه .

وهكذا يجب أن يكون التعبُّد لله تعالى بالذُّل والانكسار لعزته وحكمته ، هذا الذُّل الذي يورث العبد عزة ورفعة ، وهذا الانكسار الذي يورث العبد هيبة ووقاراً ، ويكتب له السيادة والكرامة في الدنيا ، والفوز والنجاة في الآخرة .

قال تعالى : ﴿ إن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين ﴾[٢] .

فمن أراد أن يكسوه العزيز من عزته ، ويكتب له الرباح والفلاح بحكمته ، وأن يرضى عنه العزيز الحكيم ، ويُسْكنه في عليين ، في دار الخلد مع المؤمنين المتقين، فاليتعبَّد له بالذّل والانكسار والخضوع والإذعان والتفويض والتسليم ، ليفوز بعزِّ الدنيا وجنات الآخرة ولا عجب فلقد قال الرسول الكريم ـ ﷺ ـ مؤكداً

---

(١) رواه أحمد في مسند المكثرين .

(٢) المنافقون (٨).

هذا المعنى « ما نقصت صدقة من مال ، وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزا ، وما تواضع أحد لله إلاَّ رفعه»[١].

وقال العلامة ابن القيم ـ رحمة الله ـ :

((فإن الله سبحانه أبى أن يجعل ذخائره في قلب فيه سواه وهمته متعلقة بغيره .

وإنما يودع ذخائره في قلب يرى الفقر غنى مع الله ، والغنى فقراً دون الله ، والعزَّ ذلاًّ دونه ، والذُّل عزاً معه ،والنعيم عذاباً دونه ، والعذاب نعيماً معه .

وبالجملة فلا يرى الحياة إلاَّ به ومعه ، والموت والألم والهم والغم والحزن إذا لم يكن معه ، فهذا له جنتان : جنة في الدنيا معجَّلة ، وجنة يوم القيامة »[٢] .

فمن أراد العزة فليتعبَّد للعزيز ، ويتقرَّب إلى صاحب العزة والقوة ، ومن أراد المكانة والصدارة والزعامة، والسيادة فليتعبَّد للحكيم صاحب الحكمة والإحكام ، الذي بيده الحكم ومقاليد السماوات والأرض ، فهو الذي يُعزُّ من يشاء بعزته ، ويُعزُّ من يشاء ويذلُّ من يشاء بحكمته سبحانه وتعالى العزيز الحكيم .

ومن أراد العزة عند غير الله أذله الله ، ومن طلب الكرامة والمهابة من غير العزيز الحكيم أهانه الله بعزته وحكمته .

ووبَّخ الله مثل هؤلاء الذين يطلبون العزة وغيرها عند غير العزيز الحكيم قائلا ﴿ **أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعاً** ﴾[٣] .

---

(١) رواه مسلم في كتاب (البر والصلة والآداب) باب (استحباب العفو والتواضع) .
(٢) (الفوائد) لابن القيم الجوزية ص (٢١٦ : ٢١٧) .
(٣) النساء : (١٣٩) .

ويؤكِّد ابن القيم ـ رحمه الله ـ هذا المعنى قائلا :

((إذا استعنى الناس بالدنيا فاستغن أنت بالله، وإذا فرحوا بالدنيا فافرح أنت بالله ، وإذا أَنِسُوا بأحبابهم فاجعل أُنْسَكَ بالله، وإذا تعرَّفوا إلى ملوكهم وكُبَرائِهم وتقرَّبوا إليهم لينالوا بهم العزة والرِّفعة فتعرَّف أنت إلى الله وتودَّد إليه تَنَلْ بذلك غاية العز والرفعة))[1] .

ويقول الإمام النووي ـ رحمه الله ـ :

((وقوله ـ ﷺ ـ « **وما زاد الله عبداً بعفو إلاَّ عزاً** » فيه أيضا وجهان :

أحدهما : أنه على ظاهره ، وأن مَنْ عُرِفَ بالعفو والصفح ساد وعظم في القلوب ، وزاد عزّه وإكرامه .

والثاني : أن المراد أجره في الآخرة وعزّه هناك .

ـ وقوله ـ ﷺ ـ :

« **وما تواضع أحد لله إلاَّ رفعه** » فيه أيضا وجهان :

أحدهما : يرفعه في الدنيا ، ويثبت له بتواضعه في القلوب منزلة ، ويرفعه الله عند الناس ، ويحل مكانه .

والثاني : أن المراد ثوابه في الآخرة ورفعه فيها بتواضعه في الدنيا .

قال العلماء : وهذه الأوجه في الألفاظ الثلاثة موجودة في العادة معروفة ، وقد يكون المراد الوجهين معاً في جميعها في الدنيا والآخرة والله أعلم))[2] .

---

(١) (الفوائد) لابن القيم الجوزية ص ١٣٢ .

(٢) شرح صحيح مسلم للإمام النووي [١٦ / ٣٥٨] .

وهذه الثمار يقطفها ، ويستمتع بها ، ويفوز بها كل من تعبَّد للعزيز الحكيم بعبودية الذُّل والانكسار لعزته وحكمته ، [ومن هذه الثمار] كما ذكر الرسول - ﷺ - في الحديث الشريف السابق وكما علَّق الإمامان النووي وابن القيم - رحمهما الله -. ما يلي :

١ - تُعَجّلُ له البشرى في الدنيا .

٢ - له جنتان : جنة في الدنيا ، وجنة في الآخرة .

٣ - له العزة والرفعة والإكرام في الدنيا .

٤ - يسود ويعظم في القلوب .

٥ - يثبت له في القلوب منزلة ، ويرفعه الله عند الناس .

٦ - ثبوت الأجر في الآخرة .

٧ - له العزة الكاملة عند الله يوم القيامة .

كل ذلك لأن الله يحب ويرضى لعبده أن يتعبَّد له باسميه [العزيز الحكيم] ، ويصفتي [العزة والحكمة] ، ويحقق عبودية الذُّل والانكسار للعزيز الحكيم ، صاحب العزة والقوة ، والحكم والحكمة والإحكام جلَّ في علاه .

كمال العبودية في كمال الذُّل :

إن التعبُّد لله تعالى بأسمائه الحسنى ، وصفاته العليا ، من أهم أسباب ودعائم كمال العبودية لله تعالى .

وكمال العبودية لله العزيز الحكيم لا يكون إلاَّ بكمال الذُّل والانكسار لهذا الإله المعبود ، فلقد خلق الله تعالى الجن والإنس ليُحقِّقوا هذا الذُّل لعزته وعظمته، بحكمه ولحكمة أرادها جلَّ في علاه ، فهو الذي خلق الثقلين وأوجب عليهم

عبادته ، تلك العبادة التي لا تكون ولا تتحقق إلاَّ بغاية الحب ، وغاية الذُّل ، لعزة العزيز، ولحكمة الحكيم. قال تعالى: ﴿ وماخلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾[١].

قال الإمام الطبري ـ رحمه الله ـ :

((فقال بعضهم : معنى ذلك : وماخلقت السعداء من الجن والإنس إلاَّ لعبادتي ، والأشقياء منهم لمعصيتي .

وقال آخرون: بل معنى ذلك : وما خلقت الجن والإنس إلاَّ ليذعنوا لي بالعبودة.

وأولى القولين في ذلك بالصواب قول من قال هو : ما خلقت الجن والإنس إلاَّ لعبادتنا والتذلُّل لأمرنا)) [٢].

وقال الإمام القرطبي ـ رحمه الله ـ :

((وقال عكرمة ـ رحمه الله ـ إلاَّ ليعبدون ويطيعون فأثيب العابد وأعاقب الجاحد وقيل : المعنى إلا لأستعبدهم .

والمعنى متقارب : تقول : عبدٌ بيِّن العبودة والعبودية ، وأصل العبودية الخضوع والذُّل ، والتعبيد التذليل ، يقال طريق مُعبَّد .

والتعبيد : الاستعباد وهو أن يتخذه عبدا وكذا الاعتباد .

والعبادة : الطاعة ـ والتعبُّد : التنسُّك .

فمعنى « ليعبدون » ليذلوا ويخضعوا ويعبدوا »[٣] .

---

(١) الذاريات (٥٦) .

(٢) تفسير الطبري لسورة الذاريات آية (٥٦)] ٧ / ١٢٤ : ١٢٥] .

(٣) تفسير القرطبي لسورة الذاريات آية (٥٦) المجلد التاسع [جـ ١٧ / ٣٨] .

وقال الشيخ السعدي ـ رحمه الله ـ :

« هذه الغاية التي خلق الله الجن والإنس لها ،وبعث جميع الرسل يدعون إليها ، وهي عبادته المتضمنة لمعرفته ومحبته ، والإنابة إليه ، والإقبال عليه ، والإعراض عما سواه .

وذلك متوقف على معرفة الله تعالى ، فإن تمام العبادة ، متوقف على المعرفة بالله ، بل كلّما ازداد العبد معرفة بربه ، كانت عبادته أكمل ، فهذا الذي خلق الله المكلّفين لأجله فماخلقهم لحاجة منه إليهم))[1] .

وقال العلامة ابن القيم ـ رحمه الله ـ :

((وكما أنه ليس كمثله شيء فليس كمحبته محبة . والمحبة مع الخضوع هي العبودية التي خلق الخلق لأجلها ، فإنها غاية الحب بغاية الذُّل ، ولا يصلح ذلك إلاَّ له سبحانه ، والإشراك به في هذا هو الشرك الذي لا يغفره الله ولا يقبل لصاحبه عملاً))[2] .

وهكذا كما أوضح الأئمة ـ رحمهم الله ـ لا بد من كمال الذُّل لله تعالى حتى يتحقق للعبد كمال العبودية ، وكمال التوحيد الذي خلق الله الجن والإنس من أجله ـ وكلمَّا تعرَّف العبد المسلم على ربه بأسمائه الحسنى ، وصفاته العليا ، وعلم وآمن وأيقن بمدى عزة العزيز ، وحكمة الحكيم ، وتعبَّد له بهذين الاسمين

(١) تفسير السعدي لسورة الذاريات آية (٥٦) ص (٧٥٥) .

(٢) (الفوائد) لابن القيم الجوزية ص (٢٠٤) .

وبهاتين الصفتين كان أكثر ذُلاً وخضوعا وانكساراً للعزيز الحكيم فيتحقق له بذلك كمال العبودية لله تعالى العزيز الحكيم جلَّ في علاه .

فإن كمال العبودية والتعبُّد لله العزيز الحكيم يتحقق حينما يشعر العبد بالذُّل والصغار ، والضعف والاستكانة ، والفقر والعَوَز بين يدي مولاه وخالقه العزيز صاحب العزة ، والحكيم صاحب الحكمة ، فيظهر الفرق وتتضح الصورة وتتجلَّى العقيدة ، ويُسلِّم بالفرق بين الخالق والمخلوق ، وبين العابد والمعبود ، وبين صاحب العزة المطلقة والعبد المتذلِّل له ، فتكون العبادة الحقَّة بالذُّل والانكسار للعزيز الحكيم، الذي يرضى من عبده هذا الذُّل والانكسار ، فيعزه ويرفعه ،ويعلي مكانته ، ويرضى منه تلك العبادة ، فيُقرِّ به منه منزلة ، ويُعْلي درجته في جنة عرضها كعرض السماوات والأرض ، بعزة العزيز ، وحكمة الحكيم .

[المطلب الثاني]

آثار التعبُّد بالذُّل والانكسار

إن التذلُّل والانكسار للعزيز الحكيم عبادة يتقرَّب بها العبد لربه في إطار التعبُّد له بأسمائه الحسنى وصفاته العليا . وهذه العبادة ، وهذا التعبُّد له واقع في علاقة العبد مع ربه ومولاه ، وكذلك له واقع مع عباد الله ، بل مع مخلوقات الله جميعاً .

أولاً : مع الله - سبحانه وتعالى - :

إن الله العزيز الحكيم ، صاحب العزة والحكمة، يتعبَّد إليه عباده المؤمنون بالذُّل والانكسار ، تلك العبادة التي يؤمن فيها العبد بأن كل شيء بيدي العزيز ، وكل شيء بتقدير الحكيم ، وأن ما بالإنسان من نِعَمٍ فهي بقدرة العزيز ، وبحكمة الحكيم ، فبقدرة الله وحكمته أنعم على عباده ، وليس عن استحقاق لهم ، ولا من قوة منهم ، ولا لنسب لهم ،ولا عن علم عندهم ،كما ادعى المغرور الهالك قارون - عليه لعنة الله - حينما طُلب منه أن يشكر الله على ما عنده من المال فقال : ﴿ **إنما أوتيته على علم عندي** ﴾[1] .

فردَّ الله عليه وعلى أمثاله : ﴿ **أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا ولا يسئل عن ذنوبهم المجرمون** ﴾[2] إن العبد المتعبِّد للعزيز الحكيم ليتعبَّد لهذا الإله بهذين الاسمين الحسنيين ، وتلك

---

(١) القصص (٧٨) .

(٢) القصص (٧٨) .

الصفتين الحميدتين بأن يستشعر نِعَم الله تعالى عليه ، وأن ما به من نعمة فمن الله تعالى ، مؤمناً بقوله تعالى : ﴿ **وما بكم من نعمة فمن الله** ﴾[(١)] .

وأنه ليس له حول ولا قوة في هذه النعم ، ولا استحقاق له ، فيدعوه ذلك إلى الذُّل والانكسار للعزيز الحكيم ، فيشكر ربه ومولاه على هذه النعم ، وكلَّما زادت النِّعم زاد الذُّل والانكسار للعزيز الحكيم ، وزاد الاعتراف للعزيز بنعمه ، وتسخيرها في مرضاة العزيز ، ووفقاً لحكمة الحكيم ، فيرضى الإله العزيز الحكيم عن عبده الذليل الضعيف .

وهكذا يدعو ذلُّ العبد وانكساره، وتعبُّده للعزيز الحكيم أن يشكر نعم ربه، ويعرف أنها بحول الله وقوته، وقدرة الله وحكمته، ويحذر أن تتحوَّل عنه النعمة والعافية بقدرة العزيز، وحكمة الحكيم، كما زالت عن أناس آخرين ، لم يشكروا العزيز الحكيم، وتناسوا فضل وعطاء من بيده مقاليد السماوات والأرض فكانوا من الهالكين .

قال تعالى : ﴿ **أليس الله بأعلم بالشاكرين** ﴾[(٢)].

فنِعْم التعبُّد للعزيز الحكيم بالذُّلِّ والانكسار ، والاعتراف بالنِّعم والآلاء ، والشكر والعرفان ، لصاحب العزة والإنعام ، والحذر من انتقام وبطش صاحب الحُكْم والحكمة والإحكام .

قال العلامة ابن القيم ـ رحمه الله ـ :

((فإذا كان المحل قابلاً للنعمة بحيث يعرفها ويعرف قدرها وخطرها ويشكر المنعم بها ويثني عليه بها ويعظِّمه عليها ، ويعلم أنها من محض الجود وعين المنَّة ،

---

(١) النحل (٥٣) .

(٢) الأنعام (٥٣) .

من غير أن يكون هو مستحقًا لها ولا هي له ولا به، وإنما هي لله وحده وبه وحده.

فوحَّده بنعمته إخلاصًا، وصرفها في محبته شكرًا ، وشهدها من محض جوده منَّة ، وعرف قصوره وتقصيره في شكرها عجزاً وضعفاً وتفريطاً ، وعلم أنه إن أدامها عليه فذلك محض صدقته وفضله وإحسانه ، وإن سلبه إياها فهو أهل لذلك مستحق له .

وكلما زاده من نعمة ازداد ذُلاً له وانكسارًا وخضوعًا بين يديه ، وقيامًا بشكره ،وخشيته له سبحانه أن يسلبه إياها لعدم توفيته شكرها ،كما سلب نعمته عمن لم يعرفها ولم يرعها حق رعايتها ، فإن لم يشكر نعمته وقابلها بضد ما يليق به سلبه إياها ولا بد))[1] .

ثانياً : مع سائر المخلوقات

إن التعبُّد للعزيز الحكيم بالذُّلِّ والانكسار تظهر آثاره واضحة في تعامل العبد مع مخلوقات الله جميعاً . فإن العبد الذي عرف مدى قدرة الله وعزته ، وحكمه وإحكامه وحكمته ، يَذِلُّ وينكسر للعزيز الحكيم في ملكه ، فلا يفسد في الأرض، ولا يتكبَّر فيها ، فإن الكبرياء كله لله جلَّ في علاه ، فلا ينازع الله صفة من صفاته التي لا تنبغي إلاَّ لجلاله ، ولأنه يعلم مصير ومثوى المتكبِّرين فيحذر أن يكون منهم وفي زمرتهم .

قال تعالى : ﴿ **أليس في جهنم مثوى للمتكبرين** ﴾[2] .

---

(١) (الفوائد) لابن القيم الجوزية ص (٢٢٦ : ٢٢٧) .

(٢) الزمر (٦٠) .

وقال تعـالى: ﴿ قيـل ادخلوا أبواب جـهنم خالدين فيـها فبئس مثوى المتكبرين ﴾[١] .

وقـال تعـالى : ﴿ فـاليـوم تجزون عـذاب الهـون بما كنـتم تسـتكبـرون في الأرض بغير الحق ﴾[٢] .

فهـذا التعبُّد للعـزيز الحكيم بالذُّلِّ والانكسار طَبَعَ عنـد العبد خُلُق الـتواضع واللين وخـفض الجناح مع عبـاد الله المؤمنين، بل التـذلُّل لعبـاد الله الموحديـن ، فلا تكون الغلظة والشدة والعزة إلاَّ على الكفار والمشركين والمنافقين .

قال تعالى : ﴿ أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين ﴾[٣] .

بل جعل الله ـ تبارك وتعـالى ـ هذه الرحمة التي طُبِعت في قلوب المؤمنين ، والتي اكتسبوها من عبـادة التذلُّل للعزيز الحكيم من صفات الرسول ـ ﷺ ـ والذين آمنوا معه ، فمن أراد أن ينتسب إليهم ، ويكون فـي زمرتهم فليتَّصف بصفاتهم من الرحمـة على المؤمنين ، ومن الشدة على الكافـرين ، وليتعبَّد للعزيز الحكيم بعـبادة الذُّلِّ والانكسار لصاحب العزة والحكمة .

قال تعالى : ﴿ محمد رسول الله ، والذين آمنوا معه أشداء على الكفار رحماء بينهم ﴾[٤].

ووصفهم الله تعالى بأنهم:﴿ أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين ﴾[٥] .

---

(١) الزمر (٧٢) .
(٢) الأحقاف (٢٠) .
(٣) المائدة (٥٤) .
(٤) الفتح (٢٩) .
(٥) المائدة (٥٤) .

ولا يقتصر تواضع ورحمة العبد المؤمن المتعبِّد للعزيز الحكيم بعبادة الذُّل والانكسار مع عباد الله المؤمنين فقط ، بل يمتد ذلك التواضع ، وتلك الرحمة إلى كل من حوله من المخلوقات، فلقد رحم هذا العبد كل مَنْ حوله، وتعامل معهم بإصلاح وليس بإفساد، بلينٍ وليس بغلظة، برحمة وشفقة وليس بتكبُّر وإفساد، حتى نالت الحيوانات - بل والنَّجِس منها - رحمة فريدة وشاملة ، فهذا الرجل المتعبد للعزيز الحكيم بالذُّلِّ والانكسار ، نراه ينزل خصيصا الى هذا البئر ليملأ خفه ماء بعدما شرب وارتوى ، وحمد الله ، لكي يسقى كلبا وجده يلهث ويأكل الثرى من العطش ، فشكر الله له هذا الصنيع فغفر له . فعن أبي هريرة - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - قال : قال رسول الله - ﷺ - « **بينما رجل بطريق اشتد عليه العطش ، فوجد بئراً فنزل فيها فشرب ، ثم خرج فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش ، فقال الرجل : لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ بي ، فنزل البئر فملأ خفه ثم أمسكه بفيه فسقى الكلب ، فشكر الله له فغفر له . قالوا : يا رسول الله ، وإن لنا في البهائم أجراً ؟ فقال : في كل ذات كبد رطبة أجر** »(١) .

أيُّ عظمة هذه التي في دين الإسلام ، وأيُّ رحمة تلك التي في قلوب هولاء المؤمنين ، وأي تربية هذه لهؤلاء الصفوة ، وأي ارتقاء هذا في سلوكيات هؤلاء النُّخبة ، فليرْتع الشرق والغرب في رياض هذه البساتين ، وليستنشقوا عبير هذه الأخلاقيات ، وليتعلَّموا كيف تكون السلوكيات ، وليتلقُّوا المدنية والحضارات ، وليطوا صفحاً على ما عندهم من نُظُم وغثاءات ، مما ادعوها مدنية وحضارات ،

---

(١) رواه البخاري كتاب (الأدب) باب (رحمة الناس والبهائم) ورواه مسلم كتاب (الحيوان) باب (فضل ساقي البهائم المحترمة وإطعامها) واللفظ للبخاري .

وليعلنوا جميعاً والكون معهم ومن حولهم « لا إله إلا الله» ، «ولادين إلاَّ الإسلام» ، « ولا مُعلِّم للبشرية إلا محمد - ﷺ - معلم الأنام » ، « ولا صلاح إلاَّ في اتباع هؤلاء الصفوة من الأتباع » .

وليست هذه حالة فريدة أيها المتعجِّبون والمنبهرون ، بل هي روح الإسلام ، وتعاليم الدين الحنيف الذي شُرِّع للأنام ، فهذا يسقى كلبا فيشكر الله له فيغفر له ، وهذه امرأة حبست هرة حتى ماتت ، لا هي أطعمتها ولا سقتها ، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض فدخلت النار ، ونزل بها أشدُّ العذاب .

قال رسول الله - ﷺ - : « **دخلت امرأة النار في هرة ربطتها ، فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض**»[1] .

وفي رواية أخرى للإمام مسلم - رحمه الله - : « **عُذِّبت امرأة في هرة سجنتها حتى ماتت ، فدخلت فيها النار ، لا هي أطعمتها ، وسقتها ، إذ حبستها ، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض** »[2] .

الله أكبر إنه الإسلام ، إنها الرحمة ، إنها الرأفة ، إنه التواضع ، إنه التعبُّد للعزيز الحكيم بالذُّل والانكسار ، والبعد عن التكبُّر والإفساد ، والبطش والطغيان .

وقبل أن نفيق من هذه المواقف التي تدهش العقول ، وهذه الأخلاقيات التي تشرح الصدور ، نرى هذه الأخلاقيات قد نال الكفار منها نصيباً ، وتمتعوا بطرف من عظمتها فها هو ديننا الحنيف ، وقائده العظيم الرؤوف الرحيم - ﷺ - ومن بعده

(١) رواه البخاري كتاب (بدء الخلق) باب (خمس من الدواب يقتلن في الحرم) .

(٢) رواه مسلم كتاب (الحيوان) باب (تحريم قتل الهرة) .

من الخلفاء الراشدين ومن تبعهم من الأمة والقادة المهدين ، يأمرون ويوصون قادة الجيوش في حروبهم مع الكفار والمشركين بأن يتقوا الله فيهم ، ولا يتشبَّهوا بالمفسدين والطغاة الظالمين ، فكانوا يوصونهم بألا يقتلوا طفلاً ولا امرأة ، ولا شيخاً كبيراً ولا يقطعوا شجراً ولا يهلكوا زرعاً ، ولا يُمثّلوا بجثة .

قال تعالى : ﴿ **والله يعلم المفسد من المصلح** ﴾(١) .

الله أكبر ، ولا كبرياء إلاَّ لله ، ولا عزة إلاَّ لله ، ولا حكم وحكمة إلاَّ لله ، والكلُّ له عبيد ، والكل له ذليل، والكل تحت عزته وقوته، ووفق حكمه وحكمته .

فنِعْم التعبُّد للعزيز الحكيم بالذُّل والانكسار ، للواحد القهار ـ جلَّ في علاه ـ

أبعد هذا يتخذ أحد ديناً غير الإسلام ، ويقتدى بغيرمحمد ـ ﷺ ـ سيد الأنام ، ويقتفى آثار غير هؤلاء الصفوة الكرام، فوالله لا يمنعهم بعد ذلك إلاَّ الكِبْر ، وبُغية الإفساد في الأرض بعد إصلاحها ، قال تعالى : ﴿ **وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد** ﴾(٢).

ـ ومن هنا ، ومن خلال هذا الدين الحنيف ، ومن خلال هذا المنهج القويم ، ومن خلال هؤلاء الصفوة المصلحين ندعو كل العالمين ، للانصياع لهذا الدين ، والإذعان لهذا المنهج العظيم ، والتسليم والتفويض للذِّكر الحكيم ، كتاب الله رب العالمين ، فلا تُشَرِّقوا ولا تُغَرِّبوا فهذا دين رب العالمين ، وسُنَّة وهدى سيد الأولين والآخرين ، لمن أراد الدنيا والدين ، ولمن كان من المصلحين ، ولمن أراد أن يكون من الهداة المهدين ، فلا خلاص ولا فلاح إلاَّ في اتباع هذا الدين ، والعودة

---

(١) البقرة (٢٢٠) .

(٢) البقرة (٢٠٥) .

لرب العالمين ، لنكون من الناجين ، قبل أن يأتي الهلاك المبين ، فنكون من النادمين، والعافية للمتقين ، ولا عدوان إلاَّ على الظالمين ، والحمد لله رب العالمين .

قال تعالى : ﴿ **إن الدين عند الله الإسلام** ﴾[١] .

وقال تعالى : ﴿ **ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين** ﴾[٢] .

---

(١) آل عمران (١٩) .

(٢) آل عمران (٨٥) .



[المبحث الثالث]

[التعبُّد للعزيز الحكيم بالصبر عن المعصية]

المطلب الأول : منزلة التعبُّد بالصبر عن المعصية وصوره

المطلب الثاني : حكمة الحكيم في قدرة العبد على المعصية

المطلب الثالث : أسباب نشوء الصبر عن المعصية وآثار تركها



[المطلب الأول]

منزلة التعبُّد بالصبر عن المعصية وصوره

قال تعالى : ﴿ إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم ناراً كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب إن الله كان عزيزاً حكيماً ﴾(١).

إن العبد المؤمن المتعبِّد لله العزيز الحكيم باسميه الحسنيين [العزيز الحكيم] وبصفتيه الحميدتين [العزة والحكمة] ليعلم مدى عزة وقدرة الله صاحب العزة على تعذيب من شاء من عباده ممن عصاه أوكفر به ، وأنه حكيم في إيصال عذابه إلى من شاءت حكمته تعذيبه .

وهذا العبد يسمع آيات الله البينات من كتابه العزيز تقرع آذانه ليلاً ونهاراً بما أعدَّه العزيز الحكيم ، بعزته وحكمته ، لهؤلاء الكفار والعصاة من العذاب الأليم ، والبطش والتنكيل قال تعالى : ﴿ إن بطش ربك لشديد ، إنه هو يبدئ ويعيد ﴾(٢) .

وقال تعالى : ﴿ يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد ﴾(٣) .

يسمع الآيات تلو الآيات فتهزُّه هزاً ، وتسيطر على مشاعره وأحاسيسه خاصة وهو المتعبِّد لله تعالى بأسمائه وصفاته ، ويعلم مدى قدرة وعزة وهيمنة صاحب العزة العزيز ، وحكم وحكمة وإحكام الحكيم ، فيدفعه ذلك كله إلى

---

(١) النساء (٥٦) .
(٢) البروج (١٢ : ١٣) .
(٣) ق (٣٠) .

الحرص كل الحرص ألاَّ يقع فيما يغضب العزيز ، وألاَّ يتصرَّف تصرُّفا يُعرِّضه لعذاب صاحب الحكمة الحكيم ، فيكون ذلك كله حاجزاً له عما يوجب العذاب، فيتعبَّد لرب العباد ، بأن [يصبر عن المعصية] ، تعبُّداً للعزيز الحكيم ، وخوفاً من عذابه الأليم ، وطمعاً في رحمة صاحب العزة الذي يملك تعذيبه وتنعيمه ، وآملاً في كرم وجود الحكيم الذي يمنُّ على من شاء من عباده بعزَّته ووفق حكمته ومشيئته جلَّ في علاه .

فحريٌّ بهذا العبد الذي يتعرَّف إلى ربه ، ويتعبَّد لله بأسمائه وصفاته أن تثمر فيه هذه العبادة ، وأن يؤثِّر فيه هذا التعبُّد بأن يصبر عن المعصية ، ويقاوم نفسه ، ويتحكَّم في هواه وشهوته ، ويسيطر على نوازعه ، ويكبح جماح نفسه ، ويأطرها على الحق أطراً ، ويُهذِّبها تهذيباً ، ويطوِّعها على منهج الله تطويعاً ، حتى يصل إلى أن يكون هواه تبعاً لما جاء به الشرع الحنيف . فيفوز برضا رب العالمين ، وينجو من عذاب العزيز ، وتتداركه رحمة الحكيم ، فيكون من الرابحين ، الذين فازوا في الدنيا ويوم الدين ، فنعم التعبد لرب العالمين .

قال تعالى : ﴿ وبشر الصابرين ﴾[1] .

فالتصبْرِ أيها العبد المتعبِّد للعزيز الحكيم ، فلْتصبِر عن معصية الله تعالى فإن الصبر من شيم الأنبياء والمرسلين ، ومن صفات أولياء الله الصالحين ،والصبر عاقبته كلها خير ، ولا يُفْضي إلاَّ إلى خير ، وما تحلَّى به أحد إلاَّ كان من الفائزين الرابحين ، وما تركه أحد إلا كان من النادمين ، فهو خير معين ـ بعد الله تعالى ـ على الطاعات، وعلى اجتناب المعاصي ، واحتمال الشدائد والمصائب ، ولذلك كَثُرَ ذِكْر الأمر به في القرآن الكريم .

---

(١) البقرة (١٥٥) .

الصبر في القرآن الكريم :

لقد ذكر الله - عزَّ وجلَّ - الصبر في كتابه العزيز في نحو تسعين موضعاً ، وذلك بصيغ مختلفة ، وفي مواقف متباينة ، فأمر به مرة ، وأثنى على أهله مرة ، ومرة جعله شرطاً في حصول النصر والكفاية ، وبشَّر أهله مرة أخرى ، وأثنى كثيراً على أنبيائه الذين تحلَّوا بالصبر .

فقال تعالى عن نبيه أيوب عليه السلام ﴿ **إنا وجدناه صابراً نعم العبد إنه أواب** ﴾[1] .

وقال للرسول محمد - ﷺ - ﴿ **فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل** ﴾[2] .

وقال له أيضا : ﴿ **واصبر وما صبرك إلا بالله** ﴾[3].

وقال يوسف الصديق - عليه السلام - مادحاً الصبر ﴿ **إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين** ﴾[4] .

ولقد وعد الله عباده الصابرين بأن يوفى لهم أجورهم بغير حساب رضىً بما اتصفوا به من الصبر ، فقال جلَّ في علاه .

﴿ **إنما يُوفَّى الصابرون أجرهم بغير حساب** ﴾[5] .

---

(١) ص (٤٤) .
(٢) الأحقاف (٣٥) .
(٣) النحل (١٢٧) .
(٤) يوسف (٩٠) .
(٥) الزمر (١٠) .

وأمرنا سبحانه وتعالى أن نستعين بالصبر والصلاة على طاعة الله تعالى ، وعلى كل ما يواجهنا في حياتنا قائلاً عزَّ مِنْ قائل : ﴿ **واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين** ﴾[١] .

بل لقد شرَّف الله - سبحانه وتعالى - عباده الصابرين بمعيته جلَّ في عليائه ونعم به من شرف ، إنه شرف معية الله - جلَّ في عليائه - وعلى ما يليق بجلاله ، وعظمة سلطانه قال تعالى : ﴿ **إن الله مع الصابرين** ﴾[٢] .

وقال تعالى : ﴿ **والله مع الصابرين** ﴾[٣] .

بل أوجب الله محبته للصابرين الذين صبروا ابتغاء وجه الله تعالى ، وطمعاً في مرضاته ، وطلباً للعون من الله - جلَّ في علاه - .

قال تعالى : ﴿ **والله يحب الصابرين** ﴾[٤] .

ولقد أمر الله تعالى عباده المؤمنين بالصبر في غير موضع في كتابه العزيز ، لأنه يحب أن يتصف به عباده ، ويتحلَّى به أولياؤه ، ويتخلَّق به أصفياؤه ، فقال - جلَّ شأنه - : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون** ﴾[٥] .

---

(١) البقرة (٤٥) .
(٢) البقرة (١٥٣) .
(٣) البقرة (٢٤٩) .
(٤) آل عمران (١٤٦) .
(٥) آل عمران (٢٠٠) .

وقال تعالى : ﴿ واصبروا إن الله مع الصابرين ﴾[١] .

إلى غير ذلك من المواضع والمواقف التي ذكر الله فيها الصبر وحثّ عليه وأمر به وأثنى ومدح أهله ...

الصبر في السنة المطهَّرة :

إن السنة المطهَّرة - أيضاً - ذُكِر فيها الصبر ، وأمربه الرسول - ﷺ - ، وأثنى عليه وعلى من تحلَّى به ، وعلى من اتصف به من المؤمنين ، ووعد وبشَّر بالأجر العظيم لكل الصابرين ، الذين صبروا ابتغاء وجه الله ، ورجاءً في ثواب الله ، وطلباً للأجر العظيم ، والمقام الرفيع .

وذلك في أحاديث كثيرة منها :

عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - : أن أناساً من الأنصار سألوا رسول الله - ﷺ - فأعطاهم ، ثم سألوه فأعطاهم ، حتى إذا نفد ما عنده قال : « **ما يكن عندي من خير فلن أدخره عنكم ، ومن يستعفف يعفَّه الله ، ومن يستغْن يُغْنه الله ، ومن يصبر يصبِّره الله ، وما أُعطِي أحد من عطاء خير وأوسع من الصبر** »[٢] .

---

(١) الأنفال (٤٦) .

(٢) رواه البخاري كتاب (الزكاة) باب (الاستعفاف عن المسألة) . رواه مسلم كتاب (الزكاة) باب (فضل التعفف والصبر) . ورواه أبو داود كتاب (الزكاة) باب (الاستعفاف) . ورواه الترمذي كتاب (البر والصلة) باب (ما جاء في الصبر) . ورواه النسائي كتاب (الزكاة) باب (الاستعفاف عن المسألة) .

وفي رواية أخرى للبخاري ـ رحمه الله ـ : بوَّب لها باباً سمَّاه [الصبر عن محارم الله] وذكر قوله تعالى : ﴿ إنما يوفى الصابرون أجرهم بغيرحساب ﴾[1].

وذكر قول ـ عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ « وجدنا خير عيشنا بالصبر »

عن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ـ ﷺ ـ قال : « ... ولن تُعْطوا عطاءً خيراً وأوسع من الصبر »[2] .

قال الحافظ ابن حجر ـ رحمه الله ـ :

((قوله (باب الصبر عن محارم الله) : يدخل في هذا المواظبة على فعل الواجبات ، والكفُّ عن المحرمات ، وذلك ينشأ عن علم العبد بقبحها وأن الله حرَّمها صيانة لعبده عن الرذائل ، فيحمل ذلك العاقل على تركها ولو لم يرد على فعلها وعيد .

ومنها الحياء منه ، والخوف منه أن يوقع وعيده فيتركها لسوء عاقبتها ، وأن العبد منه بمرأى ومسمع فيبعثه ذلك على الكفِّ عما نهى عنه ، ومنها مراعاة النعم فإن المعصية غالباً تكون سبباً لزوال النعمة ، ومنها محبة الله فإن المُحب يُصبِّر نفسه على مراد من يحب .

وأحسن ما وُصِفَ به الصبر : [أنه حبس النفس عن المكروه ، وعقد اللسان عن الشكوى ، والمكابدة في تحمله ، وانتظار الفرج]))[3] .

---

(١) الزمر (١٠) .
(٢) رواه البخاري كتاب (الرقاق) باب (الصبر عن محارم الله) .
(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني كتاب (الرقاق) باب (الصبر عن محارم الله) [١١ / ٣٠٩] .

منزلة الصبر في طريق التعبُّد لله :

إن للصبر منزلة عظيمة في الإسلام ، ومكانة مرموقة لا يصل إليها إلاَّ من تعبَّد لله تعالى حق التعبُّد بأسمائه الحسنى وصفاته العليا ، فحينئذ يعلم العبد أن كل شيء يحدث في هذا الكون بإذن الله ومشيئته ، وبعزة الله وقدرته ، وبحكم الحكيم وحكمته . فيحمله ذلك على الرضا والصبر على الطاعة ، والصبر عن المعصية ، والصبر لله وبالله تعالى - جلَّ في علاه - .

ولذلك فقد أخبر الرسول - ﷺ - عن صبر مَنْ قبله من الرسل ،وكيف أنهم تعبَّدوا لله تعالى بالصبر بجميع أنواعه خوفاً من العزيز ، ومراقبة للحكيم ، وفراراً من النار ، وإقبالاً على الجنة فبيِّن أنهم أشد الناس ابتلاءً ، فمنهم من ابتلاه الله بالمرض كأيوب - عليه السلام - فصبر عليه، ومنهم من ابتلاه الله بكيد النساء فصبرعن المعصية كيوسف - عليه السلام - ومنهم من ابتلاه الله بايذاء قومه له كإبراهيم ، وموسى ، ومحمد - ﷺ - وغيرهم من الأنبياء والمرسلين فما كان منهم إلاَّ التعبُّد لله تعالى بأسمائه وصفاته ، فراقبوه وخشوا عذابه ، وفرُّوا إليه ، واعتصموا به فنجَّاهم الله بعزته وحكمته من كل المهالك ، وجعلهم هم الفائزون .

قال الله تعالى : ﴿ **فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل** ﴾[(١)]

وقال - ﷺ - « **أشد الناس بلاءً الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل** »[(٢)].

---

(١) الأحقاف (٣٥) .

(٢) رواه الترمذي في الزهد باب (ما جاء من الصبر على البلاء) (٢٣٩٨) . وقال حديث حسن صحيح . ورواه ابن ماجة في الفتن : باب (الصبر على البلاء) (٤٠٢٣) . ورواه الدارمي في الرقاق باب (في أشد الناس بلاء (٢ / ٣٢٠) . وأحمد في المسند (١/ ١٧٢) ، والحاكم في المستدرك (٣/ ٣٤٣) .

وكـان ـ ﷺ ـ يتـوجّـع ويتـألم أشـد الألم في مـرضـه ويقـول ـ ﷺ ـ : «وارأساه»(١) .

بل كان ـ ﷺ ـ يتعبّد لله ـ عز وجل ـ في علاه ـ حـتى آخر لحظاته في هذه الحياة الدنيـا وهو في سكرات الموت يستعين بربه ، ويستلهـم الصبر من مـولاه ، ويتعبّـد لصاحب العزة والحكمة ، الذي يقدر بعـزته وقوته على كل شيء ، والذي يقـضي بحكْـمتـه كل شيء ، أن يعـينه على سكـرات الموت فكان يقـول ـ ﷺ ـ «اللهم أعني على سكرات الموت »(٢) .

فيـجب على العـبد المتعـبِّد للعزيز الحكيم جلَّ في عـلاه أن يستـعين بمولاه ، ويتجمَّل بالصبر عن أن يسخط على قدر الله ، أو أن يجزع مما قـضاه الحكيم جلَّ في علاه ، فيـصبر على ما بـه ، ويصبر عن معـصية الله تعالى فلا تخـرج منه كلمة سخط ، ولا حـركة جزع ، بل يصبر على المرض والطاعـة ، ويصبر عن المعصية فلا يسخط ولا يـقنط ، وليوقن أن كل شيء بعـزة العزيز وقدرته ، وأن كل أمـر بحكم الحكيم وحكمته ، فيكون الرضا والتسليم والإذعان للعزيز الحكيم .

---

(١) رواه البخاري كتاب (المرض) باب (ما رخص للمريض أن يقول) .
والبيهقي في دلائل النبوة (٧ / ١٦٨ : ١٦٩) . وابن كـثير في البداية والنهاية (٥ / ١٩٧) ، وابن هشـام في السـيـرة النبـوية (٣ / ٢٩٢) ، والذهبـي في تاريخ الإسـلام ـ السـيـرة النبـوية ـ ص٥٤٧ .

(٢) رواه الترمـذي في الجنائز باب (ما جاء في التـشديد عند الموت) (٩٧٨) ، وقال حـسن غريب ، وابن ماجـة في الجنائز باب (ما جاء في مـرض الرسول ـ ﷺ) (١٦٢٣) ، وأحمـد في المسند (٦/٦٤، ٧٠، ٧٧، ١٥١) . والطبـراني في تاريخـه (٣/١٩٧: ١٩٨) ، والذهبي في تاريخ الإسلام ـ السيرة النبوية (ص : ٥٥٨) .

ويقول ابن القيم - رحمه الله - :

((هذا يدل على أن الصبر من أجلّ مقامات الإيمان ، وأن أخصّ الناس بالله وأولاهم به أشدهم قياماً وتحققاً به ، وأن الخاصة أحوج إليه من العامة .

وأن الصبر سبب في حصول كل كمال ، فأكمل الخلق أصبرهم ، ولم يتخلف عن أحد كماله الممكن إلاَّ من ضعف صبره ، فإن كمال العبد بالعزيمة والثبات ، فمَنْ لم يكن له عزيمة فهو ناقص ، ومَنْ كانت له عزيمة ولكن لاثبات له عليها فهو ناقص .

فإذا انضم الثبات إلى العزيمة أثمر كل مقام شريف وحال كامل ، ولهذا في دعاء النبي - ﷺ - الذي رواه الإمام أحمد ، وابن حبان في صحيحه : « **اللهم إني أسألك الثبات في الأمر ، والعزيمة على الرشد** »[1] .

ومعلوم أن شجرة الثبات والعزيمة لا تقوم إلاَّ على ساق الصبر ، فلو علم العبد الكنز الذي تحت هذه الأحرف الثلاثة أعنى اسم « الصبر » لما تخلّف عنه»[2].

صور للصبر عن المعاصي تعبُّداً للعزيز الحكيم :

لقد أسلفنا أن التعبُّد لله - تعالى - باسميه [العزيز الحكيم] وبصفتي [العزة والحكمة] ليجعل العبد يصبر عن المعصية ، لما يعلمه من عزة الله وقدرته وحكمته في تعذيب من عصاه ، واتبع هواه ، وتجرأ على حرمات مولاه .

(١) رواه أحمد في المسند (٤/١٢٣ ، ١٢٥) ، وابن حبان في صحيحه (٣ / ٢١٤) .

(٢) (طريق الهجرتين وباب السعادتين) لابن القيم الجوزية (ص : ٤٧٧) تحقيق يوسف علي بديوي ويراجع (فصل الصبر) من (ص : ٢٧٤) إلى (ص : ٤٨٤) فهو قيم ومفيد .

ولهذه المعاصي التي يمتنع عنها العبد صور كثيرة، وهي - مجملة - « كل قول أو فعل يغضب الله - جلّ في علاه - » ومن هذه المعاصي على سبيل المثال مايلي:

١ - الصبر عن معصية الزّنى - والعياذ بالله - :

[إن الصبر عن معصية الزنى - والعياذ بالله -] فإن العبد رُكّبت فيه الشهوة والميل للجنس الآخر ، وحُبّب ذلك للنفس ، وتطوق له أيما طوقان ، فيوسوس لها الشيطان ويؤزها أزاً ، ويجعلها تتطلّع إلى ما حرّم الله ، ولا تقنع بما أحل لهاثما بين أيديها ، ويأتي دور التعبُّد لله تعالى بأسمائه وصفاته وخاصة [العزيز الحكيم] ، فيذكر العبد عزة الله وقدرته على تعذيب من عصاه ، وتجرأ على حرماته ،ويضع نُصب عينيه حكمة الحكيم في قضائه وحُكْمه على من انتهك الأعراض ، وكشف الأستار ، وتتبُّع العورات ، أن يعذِّبه - إن شاء - في الدنيا ، ويوم القيامة يُردُّ إلى أشد العذاب ، فيكون ذلك رادعاً كبيراً لهذا العبد ولتلك الأمَة من الوقوع في معصية الزنى وارتكاب الفاحشة، والوقوع في غضب العزيز الحكيم جلّ في علاه.

٢ - الصبرعن معصية السرقة والرشوة :

فإن النفس البشرية مجبولة على حُبّ المال ، ومجبولة على حُبّ التملُّك ، وذلك متأصِّل فيها . قال تعالى ﴿ **وتحبون المال حبًا جماً** ﴾[١].

بل جعل الله هذا المال من أكبر الفتن التي يبتلى بها الإنسان في حياته الدنيا قال تعالى : ﴿ **إنما أموالكم وأولادكم فتنة** ﴾[٢] .

---

(١) الفجر (٢٠) .

(٢) التغابن (١٥) .

وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : « **لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى ثالثاً ولا يملأ جوف ابن آدم إلاَّ التراب ، ويتوب الله على من تاب** »(١).

وجعله الله زينة الحياة الدنيا ، فيميل له الإنسان ميلاناً ، ويحنُّ إليه حنيناً ، ويبتهج به أيَّما ابتهاج قال تعالى : ﴿ **المال والبنون زينة الحياة الدنيا** ﴾(٢) .

فتوسوس النفس الأمَّارة بالسوء لصاحبها أن يمتلك هذا المال من أي طريق كان ، وبأي صورة ، وعلى أي هيئة ، وبكل وسيلة ، مهما كان في ذلك إغضاب لرب العالمين ، أو أكل أموال الآخرين ، فلا يبالي أكسبه من حلال أم من حرام ، أكان عن طريق السرقة والنهب ، أم كان عن طريق الرشوة والاختلاس .

ويأتي دور التعبُّد لله تعالى بأسمائه الحسنى ، وصفاته العليا ، وخاصة اسمي [العزيز الحكيم] وصفتي [العزة والحكمة] فتتحرك عقيدة العبد المؤمن من داخله ، ويؤثِّر فيه تعبُّده للعزيز الحكيم ، فنراه يقاوم نفسه ، ويتغلَّب على شهواته ، ويخالف هواه ، ويهزم وساوسه، ويخذل شيطانه، ويأبي إلاَّ أن يتعبَّد للعزيز الحكيم ، ويراقبه ويخشاه، ويفرُّ إليه ، ويهرب من نفسه وشهواته، ويلتجأ إلى مولاه ، خوفاً من عذابه وقدرته وعزته وقوته ،وحُبًّا لذاته ولمايرضاه ،وبغضاً لمعصيته وما يُغْضبه .

قال تعالى : ﴿ **والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية ويدرءون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار** ﴾(٣) .

---

(١) رواه البخاري كتاب (الرقاق) باب (ما تبقى من فتنة المال) .
(٢) الكهف (٤٦) .
(٣) الرعد (٢٢) .

وذلك مهما ألحَّت النفس، ومهما اشرأبت إلى المعصية، ومهما حنت للمال، ومهما دعت الظروف ، ومهما كانت الحاجة ، ومهما عضَّ الفقر بالأنياب ، ومهما ضاقت الأمور ، وبلغت الذروة ، وضاقت الأرض بما رحبت ، ومهما تهيأت الظروف ، وسنحت الفرصة للسرقة وللرشوة ، وللاختلاس ، ولأكل أموال الناس بالباطل . فحينما يتذكَّر العبد المؤمن المتعبِّد ـ لله تعالى ـ مدى عزة وقدرة الله ـ تعالى ـ علي فضح أمره ، وعلى كشف سريرته ، وعلى تعذيبه والتنكيل به في الدنيا والآخرة ، وعلى أنه إذا قضت حكمته فَضْحه وتعْذيبه ، فلارادَّ لقضائه ، مُعقِّب لحكمه ، فهو الحكيم صاحب الحكم والإحكام .

وكذلك حينما يوقن بعزة وقدرة العزيز على أن يغنيه من فضله بالمال الحلال ولو تأخر ، وأن الله إذا شاء بحكمته رزقه بغير حساب ، ومن حيث لا يحتسب ، فسبحانه ذو الفضل العظيم .

قال تعالى : ﴿ **ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها** ﴾[١]

كل ذلك حينما يتذكَّره العبد المؤمن المتعبِّد للعزيز الحكيم يجعله يتعفَّف عن كل مال حرام ، حرَّمه الله عليه ، فلا يُدْخل فمه ، ولا يطعم أهله وأولاده ، ولا يمتلك إلاَّ ما كان حلالاً طيباً . وذلك من جراء التعبُّد لله تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العليا .

ويوضِّح لنا الرسول ـ ﷺ ـ المنهج الصحيح في التعامل مع المال وكيفية الحصول عليه :

---

(١) فاطر (٢) .

فعن حكيم بن حزام ـ رضي الله عنه ـ قال: « سألت النبي ـ ﷺ ـ فأعطاني، ثم سألته فأعطاني، ثم سألته فأعطاني، ثم قال: إن هذا المال خَضِرة حلوة، فمن أخذه بطيب نفس بورك له فيه، ومن أخذه بإشراف نفس لم يُبَارك له فيه، وكان كالذي يأكل ولا يشبع. واليد العليا خير من اليد السفلى »[1].

٣ ـ الصبر عن معصية الكذب والغيبة وشهادة الزور:

إن كثيراً من الناس يقعون في الكذب، والغيبة، والنميمة، وشهادة الزور، من حيث يعلمون، ومن حيث لا يعلمون، رغم عِظَمِ هذه الذنوب، وقُبْحها عند الله تعالى، فلقد حرَّمها، وأوعد عليها بالعذاب الأليم، بل جعل بعضها من صفات المنافقين، والبعض الآخر من كبائر الذنوب.

قال تعالى: ﴿ **ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين** ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿ **ولا يغتب بعضكم بعضاً أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه** ﴾[3].

عن أبي بكرة ـ رضي الله عنه ـ قال: كنا عند رسول الله ـ ﷺ ـ فقال: « **ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ ـ ثلاثاً الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وشهادة الزور ـ أو قول الزور ـ وكان رسول الله ـ ﷺ ـ متكئاً فجلس، فما زال يكررِّها حتى قلنا: ليته سكت** »[4].

---

(١) رواه البخاري كتاب (الرقاق) باب (قول الرسول ـ ﷺ ـ هذا المال خضرة حلو).
(٢) آل عمران (٦١).
(٣) الحجرات (١٢).
(٤) رواه البخاري في كتاب (الشهادات) باب (ما قيل في شهادة الزور)، ورواه مسلم في كتاب (الايمان) باب (بيان الكبائر وأكبرها)، واللفظ لمسلم.

فقد يتعوَّد الإنسان على الكذب ، وقد يدعوه الموقف لكي يجامل إنساناً تربطه به مصلحة أوقرابة أو نسب إلى الكذب ، أو من أجل مصلحة دنيوية ظاهرة له ، أو لأي غرض دنيوي ، مادي أو معنوي ، وكذلك قد يدعوه المجلس أن يقول الغيبة ، أو يسمعها ويسكت ولا يُنْكر ، خاصة إذاكان المجال مجال سمر وفكاهة ، ولعب ومرح ، وعبث ولهو ، ولا سيما إذا كان المغتاب صاحب منصب أو وجاهة، فلا يُنْكِر عليه أحد ، بل كل مايخرج منه يلقي الإعجاب والقبول . [إنها فاكهة المجالس !!!] .

وكذلك شهادة الزور فما أكثر شاهديها، وما أكثر الواقعين فيها، إمَّا لمصحلة مادية، أو فائدة معنوية، أو مجاملة لصاحب أو صديق، أو عظيم أو حسيب .

ولكن العبد المؤمن المتعبِّد لربه ومولاه بأسمائه الحسنى وصفاته العليا ، يصبر عن معصية الله مهما دعت الدواعي ، ومهما كانت الظروف والملابسات ، فهولا يخشى في الله لومة لائم ، ولا يجامل أحداً على حساب دينه وإخوانه المسلمين .

فهو يخشى غضب وانتقام العزيز صاحب العزة والقوة أن ينتقم منه ويبطش به لكذبه وغيبته وشهادته الزور والجراءة على حرمات الله تعالى .

أو يخشى أن يُقدِّر الله بحكمته فضحه وكشف سريرته ، وبيان كذبه وبهتانه ، أوأن يناله حكم الله وقضاؤه بتعذيبه والفتك به في الدنيا والآخرة .

قال تعالى : ﴿ **ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار** ﴾[1] .

---

(١) إبراهيم (٤٢) .

كل ذلك وغيره من علم العبد مدى قدرة وعزة وحكم وحكمة العزيز الحكيم ، وأنه قد يمهل العبد ولكنه إذا أخذه أخذه أخْذ عزيز مقتدر ، وأنه إذا أخذ العاصي لم يُفْلته ، كل ذلك يكون دافعاً قوياً ، وإيماناً فتياً ، وعزيمة صادقة على حمل العبد على التعبُّد للعزيز الحكيم بالصبر عن معاصيه ، وان اشتهتها النفس ، ودعت اليها الحاجة ، وتناقلها القوم ، وفشت في المجتمع ، وتعوَّدها الناس ، فتتجلَّى حينئذ عقيدة المؤمن الحق ، ويظهر التعبُّد للعزيز الحكيم ـ جلَّ في علاه ـ ويجنى العبد المؤمن ثمرة التعبُّد لله تعالى بأسمائه وصفاته فتكون حاجزاً له عن معصية الله ـ جلَّ في علاه ـ.

[المطلب الثانـــي]
حكمة الحكيم في قدرة العبد على المعصية

إن الله تعالى هو الحكيم العليم ، وهو الذي خلق الخلق ،وخلق أعمالهم ، وأفعالهم ، وقدَّر كل شيء من حولهم وفق حكمة بالغة ، وإحكام عظيم ، وشاء الله بحكمته أن يَقْدر العبد على المعصية ، ويُخلِّي بينه وبين الذنب ، وتهيَّأ له أسباب المعصية ، وفق مشيئة إلاهية ، ووفق حكمة ربانية ، وذلك لحكمة يعلمها الحكيم ـ جلَّ في علاه ـ فله الحكم والحكمة والإحكام ، ولا يعلم مراده إلاَّ هو ـ تعالى في عليائه ـ .

[العزيز الحكيم يحبُّ التوَّابين] :

فقد يقع العبد في المعصية لحكمة قدَّرها الحكيم ، فيشعر العبد بالذنب ويتذكَّر عزَّة الله وقدرته عليه وحكمته في صبره عليه رغم معصيته له ، فرغم قدرة الله على عبده ، وضعف عبده وحاجته إلى ربه ، ويستر الحكيم عليه بستْره، فحينئذ يستحي العبد من ربه ومولاه، ويقلع عن المعاصي، وإغضاب العزيز الحكيم، وذلك لعلم العبد أن الحكيم جلَّت حكمته فتح باب التوبة ليتوب إليه العاصي ، ويُنِيب إليه التائب ، ويلتجأ إليه النادم ، ويفرُّ اليه المُفرِّط ، فالباب مفتوح، والتوبة واجبة ، والربُّ يغفر بحكمة ، ويعفو عن قدرة ، ويسامح بعزة ، فيرجع العبد لربه ولا يستمر في غيه ، ويستحي أن يعود لمعصية العزيز الحكيم ، ويتعبَّد له بهذين الاسمين الحسنيين ، وبهاتين الصفتين الحميدتين ، فيكون ذلك كله سبباً في عودة العبد لربه ، وتعبُّده له ، والصبر عن معصيته ـ جلَّ في علاه ـ .

قال تعالى : ﴿ **إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين** ﴾[1] .

---

(١) البقرة (٢٢٢).

وغير ذلك من الحِكم التي لا يعلمها إلاَّ الحكيم في قدرة العبد على معصية الخالق . وللعلامة ابن القيم ـ رحمه الله ـ كلام طيب وقيم في هذا الموضوع نذكره بنصه كاملاً لتمام الفائدة ـ والله المستعان ـ .

قال العلامة ابن القيم ـ رحمه الله ـ :

((المشهد السابع : [مشهد الحكمة] ، وهو أن يشهد حكمة الله في تخليته بينه وبين الذنب ، وإقداره عليه ، وتهيئة أسبابه له ، وأنه لو شاء لعصمه وحال بينه وبينه ، ولكنه خلَّى بينه وبينه لحِكَمٍ عظيمة لا يعلم مجموعها إلاَّ الله :

أحدهما : أنه يحبُّ التَّوابين ويفرحُ بتوبتهم ، فلمحبته للتوبة وفرحه بها قضى على عبده بالذنب ، ثم إذا كان ممن سبقت له العناية قضى له بالتوبة .

الثاني: تعريف العبد عزة الرب تعالى في قضائه ونفوذ مشيئته وجريان حكمه .

الثالث : تعريفه حاجته إلى حفظه وصيانته ،وأنه إن لم يحفظه ويصنه فهو هالك ولا بد ، والشياطين قد مدَّت أيديها إليه تمزقه كل ممزق .

الرابع : استجلابه من العبد استعانته به، واستعاذته به من عدوه وشر نفسه ، ودعائه والتضرع إليه والابتهال بين يديه .

الخامس : إرادته من عبده تكميل مقام الذُّلِّ والانكسار ، فإنه متى شهد صلاحه واستقامته شمخ بأنفه وظن أنه وأنه ... فإذا ابتلاه بالذنب تصاغرت عنده نفسه وذَلَّ ، وتيقَّن ، وتمَنَّى أنه وأنه ...

السادس : تعريفه بحقيقة نفسه وأنها الخطالة(١) الجاهلة ، وأن كل ما فيها من علم أو عمل أو خير فمن الله منَّ به عليه لا من نفسه .

---

(١) والخطالةَ : خَطِل : أسرع وحاد عن الصواب . والخَطَل : الكلام الفاسد الكثير المضطرب .

السابع : تعريفه عبده سعة حلمه وكرمه في ستره عليه ، فإنه لو شاء لعاجله على الذنب ، ولهتكه بين عباده ، فلم يصف له معهم عيش .

الثامن : تعريفه أنه لا طريق إلى النجاة إلا بعفوه ومغفرته .

التاسع : تعريفه كرمه في قبول توبته ومغفرته له على ظلمه وإساءته .

العاشر : إقامة الحجة على عبده ، فإن له عليه الحجة البالغة ، فإن عذَّبه فبعدله وببعض حقه عليه بل اليسير منه .

الحادي عشر : أن يعامل عباده في إساءتهم إليه وزلاتهم معه بما يحب أن يعامله الله به ، فإن الجزاء من جنس العمل ، فيعمل في ذنوب الخلق معه ما يحب أن يصنعه الله بذنوبه .

الثاني عشر : أن يقيم معاذير الخلائق ، وتتسع رحمته لهم ، مع إقامة أمر الله فيهم ، فيقيم أمره فيهم رحمة لهم، لا قسوة وفظاظة عليهم .

الثالث عشر : أن يخلع صولة الطاعة والإحسان من قلبه ، فتتبدل برقة ورأفة ورحمة .

الرابع عشر : أن يعريه من رداء العجب بعمله ، كما قال النبي - ﷺ - : «لو لم تذنبوا لخفت عليكم ما هو أشد منه، العُجْب »[(١)] أو كما قال .

الخامس عشر : أن يعريه من لباس الإذلال الذي يصلح للملوك ، ويُلْبِسَه لباس الذُّلِّ الذي لا يليق بالعبد سواه .

السادس عشر : أن يستخرج من قلبه عبوديته بالخوف والخشية وتوابعهما من البكاء والإشفاق والندم .

---

(١) رواه البزار ، وإسناده جيد . انظر : (مجمع الزوائد ١٠ / ٢٦٩) ، و (كشف الأستار (٢٤٤/٤) ، (وفيض القدير ٥ / ٣٣١) .

السابع عشر : أن يعرف مقداره مع معافاته وفضله في توفيقه وعصمته ، فإن من تربَّى في العافية لا يعرف ما يقاسيه المبتلي ، ولا يعرف مقدار العافية .

الثامن عشر : أن يستخرج منه محبته وشكره لربه إذا تاب إليه ورجع إليه ، فإن الله يحبه ويوجب له بهذه التوبة مزيد محبة وشكر ورضا لا يحصل بدون التوبة ، وإن كان يحصل إلا بالتوبة .

التاسع عشر : أنه إذا شهد إساءته وظلمه ، واستكثر القليل من نعمة الله ، لعلمه بأن الواصل إليه منها كثير على مسيء مثله ، فاستقل الكثير من عمله ، لعلمه بأن الذي يصلح له أن يغسل به نجاسته وذنوبه أضعاف أضعاف ما يفعله ، فهو دائماً مستقل لعمله كائنا ما كان ، ولو لم يكن في فوائد الذنب وحِكَمِه إلاَّ هذا وحده لكان كافيا .

العشرون : أنه يوجب له التيقظ والحذر من مصائد العدو ومكايده ، ويعرفه من أين يدخل عليه ، وبماذا يحذر منه ، كالطبيب الذي ذاق المرض والدواء .

الحادي والعشرون : أن مثل هذا ينتفع به المرضى ، لمعرفته بأمراضهم وأدوائها .

الثاني والعشرون : أنه يرفع عنه حجاب الدعوى ، ويفتح له طريق الفاقة ، فإنه لا حجاب أغلظ من الدعوى ، ولا طريق أقرب من العبودية ، فإن دوام الفقر إلى الله مع التخليط خير من الصفاء مع العُجْب .

الثالث والعشرون: أن تكون في القلب أمراض مزمنة لا يشعر بها ، فيطلب دواءها فيمنُّ عليه اللطيف الخبير ، ويقضي عليه بذنب ظاهر ، فيجد ألم مرضه ،

فيحتمي ويشرب الدواء النافع ، فتزول تلك الأمراض التي لم يكن يشعر بها ، ومن لم يشعر بهذه اللطيفة فغلظ حجابه كما قيل :

لعل عتبك محمود عواقبه وربما صحت الأجسام بالعلل(١)

الرابع والعشرون : أن يذيقه ألم الحجاب والبعد بارتكاب الذنب ليكمل له نعمته أوفرحه وسروره إذا أقبل بقلبه إليه وجمعه عليه وأقامه في طاعته ، فيكون الْتذاذُه في ذلك ـ بعد أن صدر منه ما صدر ـ بمنزلة التذاذ الظمآن بالماء العذب الزلال ، والشديد الخوف بالأمن ، والمُحِب الطويل الهجر بوصل محبوبه ، وإن لطف الرب وبره وإحسانه ليبلغ بعبده أكثر من هذا ، فيا بؤس من أعرض عن معرفة ربه ومحبته !

الخامس والعشرون : امتحان العبد واختباره هل يصلح لعبوديته وولايته أم لا، فإنه إذا وقع الذنب سلب حلاوة الطاعة والقرب ، ووقع في الوحشة . فإن كان ممن يصلح اشتقات نفسه إلى لذة تلك المعاملة فحنَّت ، وأنَّت ، وتضرَّعت ، واستعانت بربها ليردها إلى ماعوَّدها من برِّه ولطفه ،وإن ركنت عنها واستمر إعراضها ولم تحن إلى تعهدها الأول ومألفها ، ولم تحسّ بضرورتها وفاقتها الشديدة إلى مراجعة قربها من ربها علم أنها لا تصلح لله ، وقد جاء هذا بعينه في أثر إلهي لا أحفظه .

السادس والعشرون : أن الحكمة الإلهية اقتضت تركيب الشهوة والغضب في الإنسان أو بعضها ، ولو لم يخلق فيه هذه الدواعي لم يكن إنسانا بل مَلَكاً ،

---

(١) ذكره ابن القيم ـ رحمه الله ـ في (مدارج السالكين ١ / ٣٠٠)، و (مفتاح دار السعادة ١/٢٩٠) .

فالذنب من موجبات البشرية ، كما أن النسيان من موجباتها ، كما قال النبي - ﷺ - : « كل بني آدم خطَّاء ، وخير الخطَّائين التوابون »[1] ، ولا يتم الابتلاء والاختبار إلا بذلك . والله أعلم .

السابع والعشرون : أن ينسيه رؤية طاعته ويشغله برؤية ذنبه ، فلا يزال نصب عينيه ، فإن الله إذا أراد بعبد خيراً سلب رؤية أعماله الحسنة من قلبه والإخبار بها من لسانه ، وشغله برؤية ذنبه ، فلا يزال نصب عينيه حتى يدخل الجنة ، فإن ما تُقُبِّل من الأعمال رُفِعَ من القلب رؤيته ومن اللسان ذكره .

وقال **بعض السلف** : إن العبد ليعمل الخطيئة فيدخل بها الجنة ، ويعمل الحسنة فيدخل بها النار، قالوا : كيف ؟ قال : يعمل الخطيئة فلاتزال نصب عينيه ، إذ اذكرها ندم واستقال وتضرَّع إلى الله وبادر إلى محوها وانكسر وذلَّ لربه وزال عنه عُجْبُه وكِبْرُه ، ويعمل الحسنة فلا تزال نصب عينيه ، يراها ويمنُّ بها ويعتد بها ويتكبَّر بها حتى يدخل النار[2] .

الثامن والعشرون : أن شهود ذنبه وخطيئته يوجب له ألاَّ يرى له على أحد فضلا ،ولا له على أحد حقا . فإنه إذا شهد عيب نفسه بفاحشة وخطئها وذنوبها لا يظن أنه خير من مسلم يؤمن بالله واليوم الآخر ، وإذا شهد ذلك من نفسه لم ير

---

(١) رواه الترمذي (٢٥٠٠) وقال : حديث غريب ، وابن ماجة (٤٢٥١) ، وأحمد (١٩٨/٣) ، والحاكم (٢٤٤/٤) ، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع (٤٣٩٠) .

(٢) ذكر ابن القيم هذا الخبر بنحوه في (مدارج السالكين ١ /٢٩٩) .

لها على الناس حقوقا من الإكرام يتقاضاهم إياها ، ويذمهم على ترك القيام بها ، فإنها عنده أخس قدراً وأقل قيمة من أن يكون لها على عباد الله حقوق يجب مراعاتها ، أو لها عليهم فضل يستحق أن يلزموه لأجله ، فيرى أن من سلَّم عليه أو لقيه بوجه منبسط قد أحسن إليه وبذل له ما لا يستحقه ، فاستراح في نفسه ، واستراح الناس من عتبه وشكايته ، فما أطيب عيشه وما أنعم باله وما أقرّ عينه ! وأين هذا ممن لا يزال عاتباً على الخلق ، شاكيا ترك قيامهم بحقه ، ساخطاً عليهم وهم عليه أسخط ؟ فسبحان ذي الحكمة الباهرة التي بهرت عقول العالمين .

التاسع والعشرون : أنه يوجب له الإمساك عن عيوب الناس والفكر فيها ، فإنه في شغل بعيبه ونفسه ، وطوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس ، وويل لمن نسي عيبه وتفرَّغ لعيوب الناس ، فالأول علامة السعادة ، والثاني علامة الشقاوة .

الثلاثون : أنه يوجب له الإحسان إلى الناس والاستغفار لإخوانه الخاطئين من المؤمنين ، فيصير هجيراه : رب اغفر لي ولوالدي وللمسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات ، فإنه يشهد أن إخوانه الخاطئين يصابون بمثل ما أُصيب به ، ويحتاجون إلى مثل ما هو محتاج إليه ، فكما يحب أن يستغفر له أخوه المسلم يحب أن يستغفر هو لأخيه المسلم .

وقد قال **بعض السلف** : إن الله لما عتب على الملائكة في قولهم : ﴿ **أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء** ﴾[1] ، وامتحن هاروت وماروت ، جعلت الملائكة بعد ذلك تستغفر لبني آدم ويدعون الله لهم .

---

(١) البقرة (٣٠) .

الحادي والثلاثون : أنه يوجب له سعة إبطائه وحلمه مسيئاً مذنبا ـ مع فرط إحسانه إليه وبرِّه وشدة حاجته إلى ربه ، وعدم استغنائه عنه طرفة عين ، وهذاحاله مع ربه ـ فكيف يطمع أن يستقيم له الخلق ويعاملوه بمحض الإحسان وهو لم يعامل ربه بتلك المعاملة ؟ وكيف يطمع أن يطيعه مملوكه وولده وزوجته في كل ما يريد وهو مع ربه ليس كذلك، وهذا يوجب أن يغفر لهم ويسامحهم ويعفو عنهم، ويغضي عن الاستقصاء في طلب حقه قبلهم ..))[1] .

---

(١) (طريق الهجرتين وباب السعادتين) لابن القيم الجوزية (ص ٣٠٦ : ٣١٢) تحقيق يوسف علي بديوي مع الهامش .

[المطلب الثالث]

أسباب نشوء الصبر عن المعصية وآثار تركها

أولاً : أسباب نشوء الصبر عن المعصية :

إن العبد المؤمن الذي يتعبَّد للعزيز الحكيم - جلَّ في علاه - باسميه الحسنيين [العزيز الحكيم] وصفتيه الحميدتين [العزة والحكمة] لحريٌّ به أن يكون على علم بمدى قدرة الله وعزته على الانتقام والبطش بالعصاة والمذنبين ، وأنه ما تركهم إلاَّ لحكمة يعلمها هو - سبحانه - وأنهم أهون عليه من جناح البعوضة ، وأنهم لا يعجزونه في الأرض ولا في السماء ، ولا يعجزونه هرباً .

إن استشعار العبد المتعبِّد للعزيز الحكيم ، بمدى هذه القوة والقدرة والعزة ، والحكمة والإحكام الإلهي يجعل بين العبد وبين المعصية حجاباً ، ويكون عونا للعبد على الصبر عن المعصية ابتغاء مرضاة الله تعالى ، وقد مدحهم الله قائلاً : ﴿ والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم ﴾[1] .

وإذا كان الصبر عن المعصية نوع من أنواع التعبُّد للعزيز الحكيم ، فحرى بكل متعبِّد أن يعلم أسباب نشوء الصبر عن المعصية .

وللعلامة ابن القيم - رحمه الله - في هذا المقام كلام قيم ومفيد ، ويشفى الصدور ، ويجعل أحدنا يستحي أن يتكلم معه في هذا الموضوع ، ولذلك أسوقه بنصه وكاملاً للإفادة .

---

(١) الرعد (٢٢)

قال العلامة ـ ابن القيم ـ رحمه الله ـ :

((الصبر عن المعصية ينشأ من أسباب عديدة :

أحدهما : علم العبد بقبحها ورذالتها ودناءتها ، وأن الله إنما حرَّمها ونهى عنها صيانة وحماية عن الدنايا والرذائل ، كما يحمي الوالدُ الشفيق ولده عما يضرّه . وهذا السببُ يحملُ العاقل على تركها ولو لم يُعلَّق عليها وعيد بالعذاب .

السبب الثاني : الحياء من الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ، فإنَّ العبدَ متى علم بنظره إليه ومقامه عليه ، وأنه بمرأى منه ومسمع ـ وكان حيِّيًا ـ استحيي من ربه أن يتعرَّض لمساخطه .

السبب الثالث : مراعاةُ نعمه عليك وإحسانه إليك ، فإنَّ الذنوبَ تزيلُ النِّعم ولا بدّ ، فما أذنب عبد ذنباً، إلاَّ زالت عنه نعمة من الله بحسب ذلك الذنب ، فإن تاب وراجع رجعت إليه أومثلها ، وإنْ أصرَّ لم ترجع إليه ، ولا تزال الذنوب تزيل عنه نعمةً حتى تُسلب النعمُ كُلُّها ، قال الله تعالى : ﴿ **إنَّ الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم** ﴾[1] .

وأعظم النِّعم الإيمان ، وذنب الزنى والسرقة وشرب الخمر وانتهاب النهبة يزيلها ويسلبها ، وقال بعضُ السلف : أذنبتُ ذنباً فَحُرِمْتُ قيام الليل سنة . وقال آخر : أذنبت ذنبا فَحُرِمْتُ فَهْم القرآن . وفي هذا قيل :

إذا كنت في نعمة فارعها فإن المعاصي تُزِيلُ النِّعم

---

(١) الرعد (١١) .

وبالجمة فإن المعاصي نار النِّعم تأكلها كماتأكل النار الحطب ، عياذاً بالله من زوال نعمته وتحويل عافيته .

السبب الرابع : خوف الله وخشية عقابه . وهذا إنما يثبت بتصديقه في وعده ووعيده والإيمان به وبكتابه وبرسوله . وهذا السبب يقوى بالعلم واليقين ،ويضعف بضعفهما . قال الله تعالى: ﴿ **إنما يخشى الله من عباده العلماء** ﴾(١)

وقال بعض السلف : كفى بخشية الله علماً ، وبالاغترار بالله جهلا (٢).

السبب الخامس : محبة الله سبحانه ، وهي من أقوى الأسباب في الصبر عن مخالفته ومعاصيه . فإن المحب لمن يحب مطيع ، وكُلَّما قوي سلطان المحبة في القلب كان اقتضاؤه للطاعة وترك المخالفة أقوى . وإنما تصدر المعصية والمخالفة من ضعف المحبة وسلطانها ،وفرق بين من يحمله على ترك معصية سيده خوفه من سوطه وعقوبته، وبين من يحمله على ذلك حبه لسيده ،وفي هذا قال عمر : « نِعْم العبد صهيب ، لو لم يخف الله لم يعصه » ، يعني أنه لو لم يخف من الله لكان في قلبه من محبة الله وإجلاله ما يمنعه من معصيته .

فالمحب الصادق عليه رقيب من محبوبه يرعى قلبه وجوارحه ، وعلامة صدق المحبة شهود هذا الرقيب ودوامه .وها هنا لطيفة يجب التنبه لها ، وهي أن المحبة المجردة لا توجب هذا الأثر ما لم تقترن بإجلال المحبوب وتعظيمه ، فإذا قارنها بالإجلال والتعظيم أوجبت هذا الحياء والطاعة ، وإلاَّ فالمحبة الخالية عنهما إنما توجب نوع أُنْس وانبساط وتَذَكُّر واشتياق، ولهذا يتخلف عنها أثرها وموجبها،

---

(١) فاطر (٢٨) .

(٢) هذا القول لعبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ كما في تفسير القرطبي [١٤ /٣٤٣] .

ويُفتّش العبد قلبه فيرى نوع محبة لله، ولكن لا تحمله على ترك معاصيه. وسبب ذلك تجرّدها عن الإجلال والتعظيم، فما عَمُرَ القلب شيء كالمحبة المقترنة بإجلال الله وتعظيمه، وتلك من أفضل مواهب الله لعبده أو أفضلها، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

السبب السادس : شرف النفس وزكاؤها وفضلها وأَنَفَتُها وحمّيتها أن تختار الأسباب التي تحطها وتضع قدرها، وتخفض منزلتها وتحقّرها، وتسوّي بينها وبين السفلة .

السبب السابع: قوة العلم بسوء عاقبة المعصية ، وقبح أثرها والضرر الناشئ.

منها : من سواد الوجه ، وظلمة القلب ، وضيقه وغمّه ، وحزنه وألمه ، وانحصاره ، وشدة قلقه واضطرابه ، وتمزّق شمله وضعفه عن مقاومة عدوه ، وتعريه من زينته، والحيرة في أمره ، وتخلّي وليه وناصره عنه، وتولّي عدوه المبين له، وتواري العلم الذي كان مستعداً له عنه، ونسيان ما كان حاصلا له أوضعفه ولابدَّ، ومرضه الذي إذا استحكم به فهو الموت ولابد، فإن الذنوب تميت القلوب.

ومنها : ذُلّة بعد عزة[1] .

ومنها: أنه يصير أسيراً في يد أعدائه بعد أن كان مَلِكًا مُتصرّفا يخافه أعداؤه.

ومنها : أنه يضع تأثيره فلا يبقى له نفوذ في رعيته ولا في الخارج ، فلا رعيته تطيعه إذا أمرها ، ولا ينفذ في غيرهم .

---

(١) قال الحسن البصري ـ رحمه الله ـ : « إنهم وإن طفقت بهم البغال ، وهملجت بهم البراذين ، إن ذُلَّ المعصية لا يفارق قلوبهم ، أبى الله إلاَّ أن يُذلَّ من عصاه ». (الحسن البصري لابن الجوزي ص ٨٦) .

ومنها : زوال أمنه وتبدّله به مخافة، فأخوفُ الناس أشدهم إساءة .

ومنها : زوال الأُنْس والاستبدال به وحشة، وكُلَّما ازداد إساءة ازداد وحشة[(١)] .

ومنها : زوال الرضى واستبداله بالسخط .

ومنها : زوال الطمأنينة بالله والسكون إليه ، والإيواء عنده ، واستبدال الطرد والبعد منه .

ومنها : وقوعه في بئر الحسرات ، فلا يزال في حسرةٍ دائمةٍ كُلَّما نال لذَّة نازعته نفسه إلى نظيرها إن لم يقض منها وطرا ، أو إلى غيرها إن قضى وطره منها، وما يعجزُ عنه من ذلك أضعاف أضعاف ما يقدر عليه ، وكُلَّما اشتد نزوعه وعرف عجزه اشتدت حسرته وحزنه ، فيا لها ناراً قد عُذِّبَ بها القلب في هذا الدار قبل نار الله الموقدة التي تطلّع على الأفئدة .

ومنها : فقره بعد غناه ، فإنه كان غنياً بما معه من رأس مال الإيمان وهو يتجر به ، ويربح الأرباح الكثيرة ، فإذا سُلِبَ رأسُ ماله أصبح فقيراً مُعْدماً ، فإمّا أن يسعى بتحصيل رأس مال آخر بالتوبة النصوح والجدِّ والتشمير ، وإلاَّ فقد فاته ربح كثير بما أضاعه من رأس ماله .

ومنها : نقصان رزقه ، فإن العبد يُحْرم الرزق بالذنب يصيبه[(٢)] .

ومنها : ضعف بدنه .

---

(١) قال العلامة ابن القيم ـ رحمه الله ـ : « وسرُّ المسألة : أن الطاعة توجب القرب من الرب سبحانه، فكلَّما اشتدَّ القرب قوى الأنْس ، والمعصية توجب البعد من الربِّ ، وكلَّما ازداد البعد قويت الوحشة » . (الداء والدواء لابن القيم ، ص ١٤٤) .

(٢) قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « إن الرجل ليُحْرم الرزق بالذنب يصيبه » . رواه الإمام أحمد في المسند [٥ / ٢٧٧] ، وابن ماجة (٤٠٢٢) ، والحاكم في المستدرك (١ / ٤٩٣] ، وصححه .

ومنها : زوال المهابة والحلاوة التي لبسها بالطاعة فتبدل بها مهانة وحقارة .

ومنها : حصول البغضة والنفرة منه في قلوب الناس .

ومنها : ضياع أعزّ الأشياء عليه وأنْفسها وأعلاها ، وهو الوقت الذي لاعوض منه ، ولا يعود إليه أبدا .

ومنها : طمع عدوه فيه وظفره به ، فإنه إذارآه منقاداً مستجيباً لما يأمره اشتد طمعه فيه ، وحدّث نفسه بالظفر به وجعله من حزبه حتى يصير هو وليه دون مولاه الحق .

ومنها : الطّبع والرين على قلبه ، فإن العبد إذا أذنب نكت في قلبه نكتة سوداء ، فإن تاب منها صقل قلبه ، وإن أذنب ذنبا آخر نكت فيه نكتة أخرى ولا تزال حتى تعلو قلبه ، فذلك هو الران . قال الله تعالى : ﴿ **كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون** ﴾[(١)، (٢)] .

ومنها : أنه يُحْرم حلاوة الطاعة ، فإذا فعلها لم يجد أثرها في قلبه من الحلاوة والقوة ومزيد الإيمان والعقل والرغبة في الآخرة . فإن الطاعة تثمر هذه الثمرات ولا بد .

ومنها : أن تمنع قلبه من ترحُّله من الدنيا ونزوله بساحة القيامة ، فإن القلب لا يزال مشتتا مضيعا حتى يرحل من الدنيا وينزل في الآخرة ، فإذا نزل فيها أقبلت إليه وفود التوفيق والعناية من كل جهة ، واجتمع على جميع أطرافه وقضاء جهازه

---

(١) المطففين (١٤) .

(٢) قال رسول الله ـ ﷺ ـ « إن المؤمن إذا أذنب ذنباً نكت في قلبه نكته سوداء ، فإذا تاب ونزع واستغفر صُقلَ قلبه ، وإن زاد زادت ، حتى تعلو قلبه ، فذلك الران الذي ذكره الله عزّ وجلّ » . رواه أحمد في المسند (٢/ ٢٩٧)، وابن ماجة (٤٢٤٤) ، والحاكم في المستدرك (٢/٥١٧) ، وصححه ووافقه الذهبي.

وتعبئة زاده ليوم معاده ، وما لم يترحل إلى الآخرة ويحضرها فالتعب والعناء والتشتت والكسل والبطالة لازمة له لا محالة .

ومنها : إعراض الله وملائكته وعباده عنه ، فإن العبد إذا أعرض عن طاعة الله واشتغل بمعاصيه أعرض الله عنه فأعرضت عنه ملائكته وعباده ، كما أنه إذا أقبل على الله أقبل الله عليه وأقبل بقلوب خلقه إليه .

ومنها : أن الذنب يستدعي ذنبا آخر ، ثم يقوى أحدهما بالآخر فيستدعيان ثالثا ، ثم يجتمع الثلاثة فتستدعي رابعا وهلم جرا حتى تغمره ذنوبه وتحيط به خطيئته .

قال بعض السلف : إن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها ، ومن عقوبة السيئة السيئة بعدها .

ومنها : علمه بفوات ما هو أحب إليه وخير له منها من جنسها وغير جنسها، فإنه لا يجمع الله لعبده بين لذَّة المحرَّمات في الدنيا ولذَّة ما في الآخرة . كما قال تعالى : ﴿ **ويوم يعرض الذين كفروا على النار أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها** ﴾[1] فالمؤمن لا يُذْهب طيباته في الدنيا ، بل لا بد أن يترك بعض طيباته للآخرة، وأمَّا الكافر فإنه لا يؤمن بالآخرة فهو حريص على تناول حظوظه كلها وطيباته في الدنيا .

ومنها : علمه بأن أعماله هي زاده ووسيلته إلى دار إقامته ، فإن تزوَّد من معصية الله أوصله ذلك الزاد إلى دارالعصاة والجناة ، وإن تزوَّد من طاعته وصل إلى دار أهل طاعته وولايته .

---

(١) الأحقاف (٢٠) .

ومنها : علمه بأن عمله هو وليُّه في قبره وأنيسه فيه وشفيعه عند ربه والمخاصم والمحاج عنه ، فإن شاء جعله له ، وإن شاء جعله عليه .

ومنها : علمه بأن أعمال البر تنهض بالعبد وتقوم به وتصعد إلى الله به ، فبحسب قوة تعلُّقه بها يكون صعوده مع صعودها ، وأعمال الفجور تهوي به وتجذبه إلي الهاوية وتجرُّه إلى أسفل سافلين ، وبحسب قوة تعلقه بها يكون هبوطه معها ونزوله إلى حيث يستقر به . قال تعالى : ﴿ **إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه** ﴾(١).

وقال تعالى : ﴿ **إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء** ﴾(٢) .

فلمَّا لم تُفَتَّح أبواب السماء لأعمالهم بل أُغْلِقت عنها ، لم تُفَتَّح لأرواحهم عند المفارقة بل أُغْلِقت عنها . وأهل الإيمان والعمل الصالح لـمَّا كانت أبواب السماء مفتوحة لأعمالهم حتى وصلت إلى الله سبحانه ، فتحت لأرواحهم حتى وصلت إليه تعالى وقامت بين يديه ، فرحمها وأمر بكتابة اسمها في علّيين .

ومنها : خروجه من حصن الله الذي لا ضيعة على من دخله ، فيخرج بمعصيته منه إلى حيث يصير نهباً للصوص وقطاع الطريق ، فما الظن بمن خرج من حصن حصين لا تدركه فيه آفة ، إلى خربة موحشة هي مأوي اللصوص وقُطَّاع الطريق ، فهل يتركون معه شيئا من متاعه ؟

---

(١) فاطر (١٠) .
(٢) الأعراف (٤٠) .

ومنها : أنه بالمعصية قد تعرَّض لمحق بركته(١) .

وبالجملة فآثار المعصية القبيحة أكثر من أن يحيط بها العبد علما ، وآثار الطاعة الحسنة أكثرمن أن يحيط بها علما، فخير الدنيا والآخرة بحذافيره في طاعة الله، وشر الدنيا والآخرة بحذافيره في معصيته، وفي بعض الآثار يقول الله سبحانه وتعالى: « من ذا الذي أطاعني فشقي بطاعتي؟ ومن ذا الذي عصاني فسعد بمعصيتي؟ » .

السبب الثامن : قصر الأمل، وعلمه بسرعة انتقاله ،وأنه كمسافر دخل قرية وهو مُزْمع على الخروج منها ، أوكراكب قال(٢) في ظل شجرة ثم سار وتركها . فهو لعلمه بقلة مقامه وسرعة انتقاله ، حريص على ترك ما يثقل حمله ويضره ولاينفعه، حريص على الانتقال بخيرما بحضرته ، فليس للعبد أنفع من قصر الأمل ولا أضر من التسويف وطول الأمل .

السبب التاسع : مجانبة الفضول في مطعمه ومشربه وملبسه ومنامه واجتماعه بالناس ، فإن قوة الداعي إلى المعاصي إنما تنشأ من هذه الفضلات ، فإنها تطلب لها مصرفا فيضيق عليها المباح فتتعداه إلى الحرام . ومن أعظم الأشياء ضرراً على العبد بطالته وفراغه ، فإن النفس لا تقعد فارغة ، بل إن لم يشغلها بما ينفعها شغلته بما يضره ولا بد(٣) .

---

(١) قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « لا يحملن أحدكم استبطاء الرزق أن يطلبه بمعصية . فإن الله لا يُنال ما عنده إلاَّ بطاعته » . رواه أبو نعيم في الحلية . [١٠/ ٢٧] .

(٢) قال : أي نزل واستراح لفترة وجيزة ثم قام وارتحل ، فهي من القيلولة .

(٣) وقال ابن القيم ـ رحمه الله ـ أيضاً : « فضول الطعام داعٍ إلى أنواع كثيرة من الشرِّ ، فإنه يحرك الجوارح إلى المعاصي ، ويثقلها عن الطاعات ... فمن وقى شرَّ بطنه فقد وقى شراً عظيماً » . (تفسير المعوذتين) (ص ١٥٩) .

السبب العاشر : وهو الجامع لهذه الأسباب كلها : ثبات شجرة الإيمان في القلب ، فصبر العبد عن المعاصي إنما هو بحسب قوة إيمانه ، فكلَّما كان إيمانه أقوى كان صبره أتم ، وإذا ضعف الإيمان ضعف الصبر . فإن من باشر قلبه الإيمان بقيام الله عليه ورؤيته له ، وتحريمه لما حرَّم عليه ، وبغضه له ، ومقته لفاعله ، وباشر قلبه الإيمان بالثواب والعقاب والجنة والنار ، وامتنع من ألا يعمل بموجب هذا العلم ، ومن ظن أنه يقوى على ترك المخالفات والمعاصي بدون الإيمان الراسخ الثابت فقد غلط .

فإذا قوي سراج الإيمان في القلب ، وأضاءت جهاته كلها به ، وأشرق نوره في أرجائه ، سرى ذلك النور إلى الأعضاء ، وانبعث إليها ، فأسرعت الإجابة لداعي الإيمان ، وانقادت له طائعة مذلَّلة غير متثاقلة ولا كارهة ، بل تفرح بدعوته حين يدعوها ، كما يفرح الرجل بدعوة حبيبه المحسن إليه إلى محل كرامته ، فهو كل وقت يترقَّب داعيه ، ويتأهب لموافاته . والله يختص برحمته من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم))[١] .

ثانياً : آثار ترك المعاصي وعلاقتها بالتعبُّد للعزيز الحكيم :

إن التعبُّد لله العزيز الحكيم ، ومعرفة مدى عزة وقدرة العزيز ، وحكم وحكمة وإحكام الحكيم ، يجعل العبد المتعبِّد لربه يصبر على المعصية ـ كما أسلفنا ـ تعبداً لصاحب العزة والحكمة ، وخوفاً ورهباً من عذابه وانتقامه ، وبطشه

---

(١) (طريق الهجرتين وباب السعادتين) لابن القيم الجوزية (ص : ٤٨٥ : ٤٩٥) تحقيق يوسف علي بديوي . (وانظر الهوامش) .

وحرمانه من فضله وإحسانه ، وطمعاً ورغبة فيما عند العزيز الحكيم من المنّ والعطاء ، والفضل والإحسان، فيشعر المؤمن المتعبِّد لربه ، والمتذلِّل لعظمته وجلاله، والخاضع لهيمنته وسلطانه ، آثار هذا التعبُّد ، وثمرة البُعد عن الزلل ، والصبر عن المعصية ، فيجد حلاوة في قلبه ، ونوراً في صدره ، وبركة في علمه ورزقه ، وشفافية في بصيرته ، وبسطة في رزقه وعمره ، وقبولاً عند الله وعند خلقه ، وذِكْراً له في الملأ الأعلى ، وسعادة واستبشاراً للكون كله من حوله ، فالكون كله به سعيد ، ويدعو له كل من حوله من الشجر والدواب ، حتى النملة في جحرها ، والحوت في قاع البحار.

وكيف لا وهو العبد المتعبِّد للعزيز الحكيم ، والذي ترك معصية ربه ومولاه، وصبر عنها لمّا علم أن العزيز يعذِّبه عليها ، والحكيم قادرعلى إهلاكه ، كما أنه اعتقد وأيقن أن صاحب العزة قادر على أن يُبْدله خيراً مما ترك في الحرام بخير منه في الحلال ، فهو صاحب العزة والقوة والقدرة ، إذا شاء شيئا قال له كن فيكون ، فبعزة الله وحكمته يبدل الله عبده بصبره عن الحرام والمعاصي خيراً منها في الحلال بعزته وحكمته .

ويعلم أيضا هذا المتعبِّد للعزيز الحكيم أنه وإن حُرِمَ من شيء ما في الدنيا لصبره عن معصية ربه ، أو تورعاً منه ، ولم يُدْركه في الحلال ، فذلك لحكمة أرادها الحكيم ، وليس حرماناً من الله لعبده المؤمن - حاشا لله - وليس عن عجز من إيصالها إليه وامتاعه بها - حاشا لله - بل كل شيء عنده بحكمة وبمقدار، يعطي من يشاء عن عزة وقدرة وحكمة ، ويمنع من يشاء عن عزة وقدرة وحكمة . فالأمر له من قبل ومن بعد ، ولا يُعْجزه شيء في الأرض ولا في السماء . فقد يؤخِّر الله له هذا الأجر والثواب في الآخرة حيث الجنات ، وحيث ما لا عين رأت ، ولا أُذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

قال تعالى : ﴿ قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير ﴾[١].

فيتعبّد العبد لرب السماوات والأرض وهو موقن بعزته وقدرته - ويصبر عن معاصيه ومحارمه ، فإما أن يعوّضه الله عن ذلك في الدنيا ، أو يؤخّرها له في الآخرة ، فهو الفائز في الأولى والآخرة فنعم أجر العابدين لرب العالمين .

وهناك آثار كثيرة يتمتع بها تارك المعاصي والصابر عنها تعبّدا للعزيز الذي يملك التعذيب والتنعيم ، والحكيم الذي بحكمته يعوّض من خافه واتقاه ، وصبر عن معصيته ، وصان الحرمات ، جزاءً وفاقاً ، وما كان الله سبحانه وتعالى ليضيع إيمان المؤمنين ، ولا عبادة المتعبّدين . وذكرالعلامة ابن القيم - رحمه الله - طرفاً منها فقال :

قال العلامة ابن القيم -رحمه الله - :

((سبحان الله رب العالمين لو لم يكن في ترك الذنوب والمعاصي إلاّ :

- إقامة المروءة ، وصون العرض ، وحفظ الجاه ، وصيانة المال الذي جعله الله قواماً لمصالح الدنيا .
- ومحبة الخلق ، وجواز القول بينهم ، وصلاح المعاش .
- وراحة البدن ، وقوة القلب ، وطيب النفس ، ونعيم القلب ، وانشراح الصدر .
- والأمن من مخاوف الفُسّاق والفجّار ، وقلة الهم والغم والحزن .
- وعزّ النفس عن احتمال الذّل ، وصون نور القلب أن تطفئه ظلمة المعصية .

---

(١) آل عمران (٢٦) .

- وحصول المخرج له مما ضاق على الفُسَّاق والفُجَّار .
- وتيسير الرزق عليه من حيث لا يحتسب .
- وتيسير ما عُسِّر على أرباب الفسوق والمعاصي ، وتسهيل الطاعات له .
- وتيسيرالعلم والثناء الحسن في الناس ، وكثرة الدعاء له .
- والحلاوة التي يكتسبها وجهه ، والمهابة التي تُلقى له في قلوب الناس ، وانتصارهم وحميتهم له. إذا أوذى وظُلم ، وذبهم عن عرضه إذا اغتابه مغتاب ، وسرعة إجابة دعائه .
- وزوال الوحشة التي بينه وبين الله، وقرب الملائكة منه ، وبعد شياطين الأنس والجن منه .
- وتنافس الناس على خدمته وقضاء حوائجه ، وغبطتهم لمودته وصُحْبته .
- وعدم خوفه من الموت ، بل يفرح به لقدومه على ربه ولقائه له ومصيره إليه .
- وصِغَر الدنيا في قلبه ، وكِبَر الآخرة عنده ، وحرصه على الملك الكبير ، والفوز العظيم.
- وذوق حلاوة الطاعة ، ووجْد حلاوة الإيمان ، ودعاء حمله العرش ومن حوله من الملائكة له ، وفرح الكاتبين به ودعاؤهم له كل وقت .
- والزيادة في عقله وفهمه وإيمانه ومعرفته ، وحصول محبة الله له وإقباله عليه ، وفرحه بتوبته .

وهكذا يجازيه بفرح وسرور لا نسبة له إلى فرحه وسروره بالمعصية بوجه من الوجوه .

فهذه بعض آثار ترك المعاصي في الدنيا فإذا مات تلقته الملائكة بالبشرى من ربه بالجنة ، وبأنه لا خوف عليه ولا حزن ، وينتقل من سجن الدنيا وضيقها إلى روضة من رياض الجنة ينعم فيها إلى يوم القيامة .

فإذا كان يوم القيامة كان الناس في الحرِّ والعرق ، وهو في ظلِّ العرش . فإذا انصرفوا من بين يدي الله أُخِذَ به ذات اليمين مع أوليائه المتقين وحزبه المفلحين .

و ﴿ **ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم** ﴾[1] ،[2].

---

(١) الجمعة (٤) .

(٢) (الفوائد) لابن القيم الجوزية (ص : ١٧٠ : ١٧١) .



الفصل الرابع

تدبُّر حكمة وقدرة العزيز الحكيم في الخلق والبعث

مدخــل :

« المبحث الأول » :[تدبُّر حكمة وقدرة العزيز الحكيم في الخلق]

المطلب الأول : الله أحسن الخالقين

المطلب الثاني : الله خالق كل شيء .

المطلب الثالث : أصول النعم -(الخلق - الرزق) .

المطلب الرابع : كمال العبودية للعزيز الحكيم .

«المبحث الثاني »: [تدبُّرحكمة وقدرة العزيز الحكيم في البعث].

المطلب الأول : قدرة العزيز الحكيم على البعث .

المطلب الثاني : نبي الله ابراهيم - ﷺ - يسأل عن البعث .

المطلب الثالث : إنكار الكفار للبعث .

المطلب الرابع : حكمة العزيز الحكيم في البعث .

المطلب الخامس : خَلْقُ بعثهم العزيز الحكيم في الدنيا .

« المبحث الثالث » : [كيفية التعبُّد للعزيز الحكيم خالق الخلق وباعث مَنْ في القبور]

المطلب الأول : التعبُّد للعزيز الحكيم بإفراده بالعبودية .

المطلب الثاني : التعبُّد للعزيز الحكيم بطلب الولد .

المطلب الثالث : التعبُّد للعزيز الحكيم بالاستعداد ليوم البعث



[تدبُّر حكمة وقدرة العزيز الحكيم في الخلق والبعث]

[مدخل] :

قال الله تعالى : ﴿ هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء لا إله إلاَّ هو العزيز الحكيم ﴾[١] .

وقال تعالى : ﴿ وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي ، قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ثم ادعهن يأتينك سعياً وأعلم أن الله عزيز حكيم ﴾[٢].

وقال تعالى : ﴿ وهو الذي يبدؤا الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾[٣] .

إن المتعبِّد للعزيز الحكيم بأسمائه الحسنى ، وصفاته العليا ، وخاصة اسميه الحسنيين [العزيز الحكيم] ، وصفتيه الحميدتين [العزة والحكمة] يجد نفسه يقف مُعظِّمًا ومقدِّساً هذا الإله التي هذه أسماؤه ، وتلك صفاته ، خاصة ونحن نرى ونلمس آثار هذه الصفات في أنفسنا ، ومِنْ حولنا ، فكل شيء فينا ، وكل شيء حولنا يُدِّلنا ويرُشدنا إلى هذا الإله ، ويبيِّن ويوضح ويرشد إلى عظمة وقدرة وعزة وحكمة مَنْ هذه أسماؤه ، ومَنْ تلك آثار صفاته .

---

(١) آل عمران (٦) .
(٢) البقرة (٢٦٠) .
(٣) الروم (٢٧) .

قال تعالى : ﴿ وفي أنفسكم أفلا تبصرون ﴾[1] .

وليس الأمر مقتصراً على هذا الإنسان المخلوق العجيب الذي يُبْهر العقول ، ويُحيِّر المتأمل ، ويُذهل المتبصِّر ، بل كل ما في الكون من مخلوقات السماوات والأرض أكبر شاهد على عظمة هذا الإله المتسمَّى بهذه الأسماء الحسنى ، والمتَّصف بهذه الصفات الحميدة .

قال تعالى : ﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ﴾[2].

نعم إن هذه الآيات التي في هذين العالمين العلوي والسفلي (السماوات والأرض) من أكبر آثار هذه الصفات العليا الحميدة .

ومن أعظم هذه الآثار في هذين العالمين الكبيرين :

١ - [خَلْق الخَلْق] .

٢ - [بعث مَنْ في القبور] .

فإن هذا الإله [العزيز الحكيم] صاحب العزَّة المطلقة الكاملة ، وصاحب الحكمة البالغة التامة ، هو الذي خلق كل الخلق بمقتضى قدرته وعزته ، وبموجب حكمته وإحكامه ، فلا عجب فهو سبحانه وتعالى الخالق ، والمتَّصف بصفة (الخلق) فهو سبحانه وتعالى يخلق ما يشاء ، وقتما شاء ، وكيفما شاء ، وعلى الوجه الذي يريد ، هذا الخلق ، وهذا الإيجاد الذي يحتاج إلى قوة ، وإلى عزة ،

---

(١) الذاريات (٢١).

(٢) فصلت (٥٣) .

وإلى إرادة ، وإلى حكمة ، وإلى إحكام ولكنها ليست أي عزة ، ولا أي حكمة ، بل هي عزة كاملة مطلقة ، وحكمة بالغة تامة ، لا يماثلهما ، ولا يشابهما عزة ولا حكمة ، فهما (عزة وحكمة) يليقان بهذا الإله العظيم الذي تلك أسماؤه الحسنى، وصفاته العليا ، فهذا الخلق على اختلافه لا يقدر عليه بهذه الصورة ، وتلك الحكمة والإحكام إلاَّ [العزيز الحكيم] - جلَّ جلاله - .

ونلمح الإشارة من صاحب العزة والحكمة في كتابه العزيز عند التحدُّث عن الخلق وعظمة وقدرة الإله الخالق ، تختم أكثر هذه الآيات باسمي الله الحسنيين [العزيز الحكيم] ، وصفتيه الحميدتين [العزة والحكمة] كما في قوله تعالى :

﴿ هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء لا إله إلاَّ هو العزيز الحكيم ﴾[1] .

وأن هذا الإله [العزيز الحكيم] الذي خلق الخلق بعزته وقدرته ما خلقه عبثا ، وماتركه سدى ، بل خلقه لحكمة أرادها ، وبإحكام أحكمه ، فسبحانه وتعالى المنزَّه عن العبث واللهو واللعب ، المتعالى عن صفات النقص والعيب ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

ومن تمام حكمة وقدرة هذا الإله [العزيز الحكيم] أن يُعِيد ويَبْعث مَنْ في القبور ، وأن يبعث هؤلاء الخلق مرة أخرى ، يبعث الجن والإنس ، بل والوحوش ، والبهائم وغيرهم ... ، لكي تُوَفَّى كل نفس بما كسبت ، لكي يُثَاب المحسن ، ويعاقب المسيء ، ولكي يُنْصف المظلوم ، ويُقْتص من الظالم .

---

(١) آل عمران (٦) .

إن من حكمة وقدرة [العزيز الحكيم] أن يبعث الخلق مرة أخرى من بعد موتهم جميعاً كما حكم عليهم بذلك في محكم التنزيل قائلاً : ﴿ **كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام** ﴾(١) .

وقال أيضاً ـ جلَّ شأنه ـ ﴿ **كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة** ﴾(٢).

نعم إن يوم القيامة ـ الذي هو يوم البعث ـ توفَّى كل نفس أجرها ، ويُعْطى كل ذي حق حقه ، ويقال للمظلوم تقدَّم ، وللظالم لا تتكلم ، فإن الله [الحكيم] صاحب الحكمة هو الذي سيحكم بين العباد ، وإن الله [العزيز] صاحب العزة هو الذي سيجازي عباده ، وسينصف المظلوم ، وينتقم من الظالم .

قال تعالى : ﴿ **ليجزي الله كل نفس بما كسبت إن الله سريع الحساب** ﴾(٣) .

في هذا اليوم ـ يوم البعث ـ الذي يحكم فيه الحكيم ،ويقضي فيه العزيز ، وتؤدي الحقوق لأهلها ، ذلك اليوم لا ظلم فيه ، وكيف يكون هناك ظلم وقد حكم بين العباد [العزيز الحكيم] ـ جلَّ في علاه ـ .

قال تعالى : ﴿ **وتوفَّى كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون** ﴾(٤).

---

(١) الرحمن (٢٦ : ٢٧) .
(٢) آل عمران (١٨٥) .
(٣) إبراهيم (٥١) .
(٤) النحل (١١١) .

وقال تعالى : ﴿ اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب ﴾[١] .

فسبحان [العزيز الحكيم] الذي ترك الظالم يظلم ، والعاصي يعصي ، والكافر يكفر ، والفاجر يفجر ، وأمهل لهم بحكمته في الحياة الدنيا ، ولم يخرجوا عن إرادته وقوته وعزته .

وسبحان الذي سيحاسبهم يوم القيامة بعد بعثهم بعزته وحكمته وحُكْمه ، فهو [العزيز الحكيم] جلَّ شأنه الذي يَقْدِر على البعث ، والذي أراده وشاءه بعزته ولحكمة أرادها ، فلا يَقدر على هذا البعث إلاَّ من قدر على الخلق ، الواحد في صفاته ، وأفعاله ، وأقداره [العزيز الحكيم] .

قال تعالى : ﴿ وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾[٢] .

فإن هذا الإله الذي هذه أسماؤه الحسنى ، وتلك صفاته العليا ، وتلك أفعاله وأقداره الحميدة ، والتي منها [العزيز الحكيم] يستحق أن يُعْبد ولا يُكْفر ، ويُحْمد فلا يُجْحد ، ويُشْكر فلا يُنْكر فضله ، ويوحَّدُ فلا يُشْرك معه أحد ، توحيداً وتعبُّدا يليق بجلاله وعظيم سلطانه ، وقداسة أسمائه ، وحميد صفاته ـ جلَّ في علاه ـ الإله الواحد الأحد الفرد الصمد، الذي لم يلد، ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ، ولا شريك له في ملكه وسلطانه ، ولا في خلقه وعباده [العزيز الحكيم] .

---

(١) غافر (١٧) .

(٢) الروم (٢٧) .

[المبحث الأول]

تدبُّر حكمة وقدرة العزيز الحكيم في الخلق

[المطلب الأول]

الله أحسن الخالقين

قال تعالى :﴿ هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء لا إله إلاَّ هو العزيز الحكيم ﴾[١] .

وقال تعالى : ﴿ وهو الذي يبدؤا الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾[٢] .

وقال تعالى : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾[٣] .

إن المتعبِّد لله تعالى بأسمائه الحسنى ، وصفاته العليا ، ليَعْلم مدى عزة العزيز، وحكمة الحكيم ، في خلْقه للخلق أجمعين ، فما خَلَقَ [العزيز الحكيم] خَلْقَه أجمعين إلاَّ بقوة وعزة ، وما أوجد الخلق أجمعين إلاَّ لحكمة أرادها وشاءها ، فإن هذا الخَلْق على اختلافه وتنوُّعه وتعدد أجناسه وأشكاله ليشهد أن خالقه وموجوده لا شبيه له ، ولا نظير ، ولا مثيل ، وأنه متفرِّد بعزة وقوة وإرادة ، وحكمة وإحكام، لا يشاركه فيهم أحد ، ولا ينازعه فيهم منازع ، فإن عزة العزيز كاملة ومطلقة ، وحكمة الحكيم تامة بالغة ، فهو المتصف بصفات الكمال ،والجمال ، والعظمة ، والجلال ، والإكبار .

---

(١) آل عمران (٦) .

(٢) الروم (٢٧) .

(٣) المؤمنون (١٢ : ١٤) .

وهو مُنزَّهٍ عن كل صفات العيب والنقص والقصور ، بخلاف المخلوقين فهم متصفون بصفات النقص والقصور، ومابهم من صفات متَّصف بهاالله ـ عزَّ وجلَّ ـ فإن البون بينهما شاسع ، ولا يشتركان إلاَّ في مُسمَّى الصفة ، أما حقيقة الصفة وكنهها وكمالها فإن الله ـ سبحانه وتعالى ـ لا يشابهه أحد من خلقه ،ولا يصل أحد مهما كان إلى أن يبلغ بأي صفة من الصفات إلى أن يشابه الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أو أن ينازعه أحد صفاته على الوجه الذي لا يليق إلاَّ بالله تعالى وذلك كما قال الله تعالى في الحديث القدسي فيما يرويه عنه الرسول ـ ﷺ ـ : « **العزُّ إزاره ، والكبرياء رداؤه ، فمن ينازعني عذبته** »[1].

وذلك رغم اتصاف البشر بهذه الصفات ، ولكن على وجه ومقام يليق بالبشر والعبودية ، فلا يُنَازَعُ الإله في صفاته الحميدة ، ولا يُشَابَهُ صاحب العزة والحكمة في عزته وحكمته ، وذلك رغم إثبات الله ـ عزَّ وجلَّ ـ العزة وغيرها من الصفات التي يتَّصف بها الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لبعض خلقه ،ولكن مع عدم المشابهة والمماثلة كما أخبر الله تعالى عن عزيز مصر قائلاً في محكم التنزيل : ﴿ **وقال نسوة في المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حباً** ﴾[2] .

فالاشتراك في مسمَّى الصفة لا في حقيقتها وكمالها ، فرغم وجود عزة لبعض الخلق وحكمة ، ولكن مهما بلغت فلا مشابهة ولا مماثلة بينهما وبين عزة وحكمة وباقي صفات الله تعالى .

---

(١) رواه مسلم كتاب (البر والصلة) باب (تحريم الكبر) .

(٢) يوسف (٣٠) .

وهذا الخلق الذي نراه ، والذي نحن جزء منه لا يقدر على إيجاده ، إلاَّ صاحب العزة المطلقة الكاملة ، وصاحب الحِكمة التامة البالغة [العزيز الحكيم] ، ويؤكِّد الله تعالى على ذلك في كتابه العزيز مبيناً عجز وبطلان أي إدعاء كاذب من أي مخلوق يدَّعى أنه يستطيع أن يخلق كخلق الله .

قال تعالى : ﴿ **هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه** ﴾(١) .

وأنَّى لهم هذا ؟!!

فإن [العزيز الحكيم] هو الخالق والخلاَّق ، صاحب العزة والحكمة الذي خلق الخلق على غير مثال سابق فأبدعه أيَّما إبداع ، وأَحْكَمَهُ بعزته وقوته وحكمته أيَّما إحكام ، يعجز عن مثله أي مخلوق ، فإن المخلوق يعجز عن أن يكون خالقاً ، بل لا يجوز ذلكِ ولا يُعْقل .

قال العلامة ابن القيم ـ رحمه الله ـ :

« تأمل العبرة في موضوع هذا العالم وتأليف أجزائه ونَظْمِها على أحسن نظام، وأدلته على كمال قدرة خالقه [كماله ، وعلمه ، وكمال حكمته ، وكمال لطفه] فإنك إذا تأملت العالم وجدته كالبيت المبني المعدُّ فيه جميع آلاته ومصالحه، وكل ما يحتاج إليه ، فالسماء سقفه المرفوع عليه ، والأرض مهاد وبساط وفراش ومستقر للساكن ، والشمس والقمر سرجان يزهران فيه ، والنجوم مصابيح له وزينة وأدلة للمنتقل في طرق هذه الدار ، والجواهر والمعادن مخزنه فيه كالذخائر والحواصل المعدَّة المهيأة كل شيء منها لشأنه الذي يصلح له ، وضروب النبات

---

(١) لقمان (١١) .

مهيأ لمآربه وصنوف الحيوان مصروفة لمصالحه ، فمنها الركوب ، ومنها الحلوب ، ومنها الغذاء ، ومنها اللباس والأمتعة والآلات ، ومنها الحَرَس الذي وكِّل بحَرْس الإنسان يحرسه وهو نائم وقاعد فماهومستعد لإهلاكه وأذاه ، فلولا ما سُلِّط عليه من ضده لم يقر للإنسان قرار بينهم ، وجعل الإنسان كالملك المخوَّل في ذلك الحكم فيه ، المتصرِّف بفعله وأمره ، ففي هذا أعظم دلالة وأوضحها علي أن العالم مخلوق لخالق حكيم ، قدير عليم ، قدَّره أحسن تقدير ، نظَّمه أحسن نظام . وإن الخالق له يستحيل أن يكون اثنين بل الإله واحد لا إله إلا هو تعالى عما يقول الظالمون والجاحدون علوا كبيراً ، وإنه لو كان في السموات والأرض إله غير الله لفسد أمرهما واختل نظامهما وتعطلَّت مصالحهما »[1].

وقال الإمام الطبري - رحمه الله - :

في قوله تعالى : ﴿ **هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء لا إله إلاَّ هو العزيز الحكيم** ﴾[2] .

((يعني بذلك جلَّ ثناؤه : الله الذي يصوركم فيجعلكم صوراً أشباحاً في أرحام أمهاتكم كيف يشاء وأحبَّ ، فيجعل هذا ذكراً وهذا أنثى ، وهذا أسود وهذا أحمر ، يُعَرِّف عباده بذلك أن جميع من اشتملت عليه أرحام النساء ، فممَّن صَوَّرَهُ وخلقه كيف شاء ،وأن عيسى بن مريم ممن صَوَّره في رحم أمه وخلقه فيها كيف شاء وأحبَّ ، وأنه لو كان إلهاً لم يكن مِمَّنْ اشتملت عليه رحم أمه ،

---

(١) (مفتاح دار السعادة) لابن القيم الجوزية [١ / ٢٤٢] .

(٢) آل عمران (٦) .

لأن خلاَّق ما في الأرحام لا تكون الأرحام عليه مشتملة ، وإنما تشتمل على المخلوقين .

القول في تأويل قوله تعالى : ﴿ لا إله إلاَّ هو العزيز الحكيم ﴾ .

وهذا القول تنزيه من الله تعالى ذِكْره أن يكون له في ربوبيته ندٌّ أو مثيل ، أو أن تجوز الألوهية لغيره ، وتكذيب منه للذين قالوا في عيسى ما قالوا من وفد نجران الذين قدموا على رسول الله - ﷺ - ، وسائر من كان على مثل الذي كانوا عليه من قولهم في عيسى ، ولجميع مَنْ ادَّعى مع الله معبوداً أو أقرَّ بربوبية غيره .

ثم أخبر جلَّ ثناؤه خلقه بصفته ، وعيدًا منه لمن عَبَدَ غَيْرَهُ ، أو أشرك في عبادته أحداً سواه ، فقال .

﴿ هو العزيز ﴾ : الذي لا ينصر من أراد الانتقام منه أحدٌ ، ولا ينجيه منه وألٌ ولا لجأ[1]، وذلك لعزته التي يذلُّ لها كل مخلوق ، ويخضع لها كل موجود . ثم أعلمهم أنه .

﴿ الحكيم ﴾ في تدبيره . وإعذاره إلى خلقه ، ومتابعة حججه عليهم ، ليهلك مَنْ هلك منهم عن بينه ، ويحيا من حي عن بينة))[2] .

وقال الإمام القرطبي - رحمه الله - :

((قوله تعالى : ﴿ كيف يشاء ﴾ : يعني من حُسْن وقُبْح وسواد وبياض وطول وقِصَر وسلامة وعاهة ، إلى غيرذلك من الشقاء والسعادة ، وذُكِرَ عن

---

(١) الوأل : الموئل ، وهو الملجأ الذي يفرُّ إليه الخائف . واللجأ : الملجأ .
(٢) تفسير الطبري لسورة آل عمران آية (٦) [٢ / ٢١١ : ٢١٢] .

(إبراهيم بن أدهم) أن القُرَّاء اجتمعوا إليه ليسمعوا ماعنده من الأحاديث ، فقال لهم : إني مشغول عنكم بأربعة أشياء ، فلا أتفرغ لرواية الحديث . فقيل له : وما ذاك الشغل ؟ قال :

أحدها : أني أتفكَّر في يوم الميثاق حيث قال : (هؤلاء في الجنة ولا أبالي وهؤلاء في النار ولا أبالي) . فلا أدري من أي الفريقين كنت في ذلك الوقت .

والثاني : حيث صورت في الرَّحِم فقال الملك الذي هو مُوكَّل على الأرحام (يارب شقي هو أم سعيد) فلا أدري كيف كان الجواب في ذلك الوقت .

الثالث : حين يقبض ملك الموت روحي فيقول : (يار ب مع الكفر أم مع الإيمان) فلا أدري كيف يخرج الجواب .

الرابع : حيث يقول :

﴿ **وامتازوا اليوم أيها المجرمون** ﴾[1]. فلا أدري في أي الفريقين أكون .

ثم قال تعالى : ﴿ **لا إله إلا هو** ﴾.

أي لا خالق ولا مصوِّر سواه ، وذلك دليل على وحدانيته ، فكيف يكون عيسى إلها مُصوِّراً وهو مُصَوَّرٌ .

﴿ **العزيز** ﴾ الذي لا يغالب .

﴿ **الحكيم** ﴾ ذو الحكمة أو المُحْكِم ، وهذا أخص بما ذكر من التصوير))[2].

---

(١) يس (٥٩) .

(٢) تفسير القرطبي لسورة آل عمران آية (٦) المجلد الثاني [جـ ٤ / ٧] .

وقال الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله ـ :

((أي هو الذي خلق ، وهو المستحق للألوهية وحده لا شريك له ، وله العزة التي لا ترام ، والحكمة والإحكام ، وهذه الآية فيها تعريض ، بل تصريح بأن عيسى ابن مريم ـ ﷺ ـ عبد مخلوق كما خلق الله سائر البشر ، لأن الله صوَّره في الرحم وخلقه كيف يشاء ، فكيف يكون إلاها كما زعمته النصارى ـ عليهم لعائن الله ـ وقد تقلَّب في الأحشاء ، وتنقَّل من حال إلى حال كما قال تعالى : ﴿ **يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق في ظلمات ثلاث** ﴾[1]))[2].

وروى الإمام مسلم ـ رحمه الله ـ في صحيحه :

عن ثوبان ـ رضي الله عنه ـ : أن اليهودي قال للنبي ـ ﷺ ـ : وجئت أسألك عن شيء لا يعلمه أحد من أهل الأرض إلاَّ نبي أو رجل أو رجلان . قال : (ينفعك إن حدثتك) ؟ . قال : أسمع بأذني ، قال : جئتك أسألك عن الولد . فقال النبي ـ ﷺ ـ : « ماء الرجل أبيض وماء المرأة أصفر فإذا اجتمعا فعلا مَنيُّ الرجل مَنيَّ المرأة أذْكَر بإذن الله تعالى وإذا علا مَنيُّ المرأة مَنيَّ الرجل آنثا بإذن الله » قال اليهودي : لقد صدقت وإنك لنبيٌّ ، ثم انصرف فذهب))[3].

---

(١) الزمر (٦) .

(٢) تفسير ابن كثير لسورة آل عمران آية (٦) [١ / ٣٢٥] .

(٣) رواه مسلم في كتاب (الحيض) باب (بيان صفة منيٍّ الرجل والمرأة وأن الولد مخلوق من مائهما) .

[المطلب الثاني]

الله خالق كل شيء

أولاً : ذالكم الله ربكم :

قال تعالى: ﴿ ذالكم الله ربكم لا إله إلاَّ هو خالق كل شيء فاعبدوه ﴾(١).

وقال تعالى : ﴿ الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل ﴾(٢) .

وقال تعالى : ﴿ ذالكم الله ربكم خالق كل شيء لا إله إلاَّ هو فأنى تؤكفون ﴾(٣).

إن المتعبِّد لله [العزيز الحكيم] ـ جلَّ في عليائه ـ يتعبَّد لهذا الإله بأنه هو الإله الخالق ، والرب المعبود ، المتَّصف بصفة [الخلق] فهو سبحانه وتعالى الذي سمَّى نفسه [الخلاّق] ، ووصف نفسه بهذه الصفة .

قال تعالى : ﴿ إن ربك هو الخلاق العليم ﴾(٤) .

وذلك بعد ذكره تعالى في الآية السابقة لهذه الآية خَلْقه للسماوات والأرض وما بينهما ، وأن خلقه لهما ليس باطلاً ، وليس عبثاً ، بل هو بالحق ، ولحكمة أرادها ـ جلَّ في علاه ـ ، ومن الحق الذي أراده ، والحكمة التي اقتضاها قيام الساعة

---

(١) الأنعام (١٠٢) .

(٢) الزمر (٦٢) .

(٣) غافر (٦٢) .

(٤) الحجر (٨٦) .

، وحساب الخلق ، وإثابة الموحِّد ، وعقـاب المشرك ، وإعطاء كل ذي حق حقه ، فقال تعالى : ﴿ **وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلاَّ بالحق وإن الساعة لأتية فاصفح الصفح الجميل** ﴾(١).

وقال تعالى أيضاً : ﴿ **أو ليس الذي خلق السماوات والأرض بقادر علي أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم** ﴾(٢) .

فأثبت الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لنفسه هذا الاسم ، وهذه الصفة ، ولكنه سبحانه وتعالى مع اثباته لنفسه أنه هو [الخلاَّق] الذي خلق خلقه أجمعين عن عزة ، وقدره وحكمة، وإحكام ، فإنه يغار على أسمائه وصفاته ، فلم يُجزْ لأي أحد مهما كان أن يتسمَّى بهذا الاسم ، ولا أن يتصف بهذه الصفة ، فهو سبحانه وتعالى يغار على أسمائه وصفاته ، ويغار على توحيده ، ويغضب ويُعذِّب من نازعه صفة من صفاته ـ جلَّ في علاه ـ .

ولقد قال الله تعالى في الحديث القدسي فيما أخبر به عنه رسول الله ـ ﷺ ـ « **العز إزاره ، والكبرياء رداؤه ، فمن نازعني عذبته** »(٣) .

وقال تعالى مُتوعِّداً ومُهدِّداً هؤلاء الذين يلحدون في أسمائه قائلاً ، عزَّ مِنْ قائل : ﴿ **ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون** ﴾(٤) .

---

(١) الحجر (٨٥) .
(٢) يس (٨١) .
(٣) رواه مسلم في كتاب (البِّر والصلة) باب (تحريم الكبر) .
(٤) الأعراف (١٨٠) .

قال الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله ـ :

((وقال العوفى عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ **وذروا الذين يلحدون في أسمائه** ﴾[١] .

قال : إلحاد الملحدين أن دعوا اللاَّت في أسماء الله .

وقال ابن جريج عن مجاهد : قال اشتقوا اللاَّت من الله ، والعُزَّى من العزيز.

وقال قتادة : يلحدون : يشركون في أسمائه .

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس :

الإلحاد التكذيب ، وأصل الإلحاد في كلام العرب العدول عن القصد ، والميل والجور والانحراف ، ومنه اللحد في القبر لانحرافه إلى جهة القبلة عن سمت القبر))[٢] .

هكذا يغار الله تعالى على أسمائه وصفاته ، ويُعذِّب ويهلك من ألحد فيهما ، ونازعه أحداهما ، ومن ذلك صفة [الخلق] التي لا تكون إلاَّ لهذا الإله [العزيز الحكيم] الذي يخلق عن قوة وعزة ، وحكمة ، وإحكام ، ولا يتصف بها إلاَّ صاحب العزة المطلقة الكاملة ، وصاحب الحكمة التامة البالغة .

ولذلك يؤكِّد سبحانه وتعالى على تفرُّده بخلق الخلق أجمعين ، فهو خالق السماوات والأرض وما فيهما وما بينهما ، بل هو خالق كل شيء ـ جلَّ في علاه ـ فيكرِّر ذلك في كتابه العزيز ـ القرآن الكريم ـ مؤكداً على أنه ليس هناك من يخلق إلاَّ هو ، وأي شيء في الوجود من المخلوقات فهو من خلق الله .

---

(١) الأعراف (١٨٠) .

(٢) تفسير ابن كثير لسورة الأعراف آية (١٨٠) [٢ / ٢٥٩] .

قال تعالى :﴿ ذالكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه ﴾[1] .

وقال تعالى : ﴿ والله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل ﴾[2] .

فيؤكِّد [العزيز الحكيم] أنه هو الإله ، وأنه رب الخلق ، وأنه لا إله إلاَّ هو ، ولذلك هو الذي يستحق العبادة ولذلك قال : ـ جلَّ في عليائه ـ بعد أن أثبت لنفسه هذه الصفات ﴿ فاعبدوه ﴾ فإن المتَّصف بتلك الصفات ، [الرب ـ الإله ـ خالق كل شيء ـ لا إله إلاَّ هو] هو وحده الذي يستحق العبادة .

ونحن في مسيرة التعبُّد [للعزيز الحكيم] باسميه الحسنيين [العزيز الحكيم] وصفتيه الحميدتين [العزة والحكمة] نستضيء بهذه الآيات الكريمة ، وهذه الإشارات الإلهية ، ومع إيماننا واعتقادنا أن الله هو الخالق لكل المخلوقات ، وأنه ليس هناك مع الله من يخلق . فنتعبَّد للعزيز الحكيم بأن نفرده وحده ـ جلَّ في علاه ـ بالخلق ، وننفي عن غيره صفة الخلق ، فلا تُصْرف هذه الصفة إلاَّ (للخلاَّق) العزيز الحكيم ، الذي خلق كل شيء ، وكذلك فلا تُصْرف أي عبادة إلاَّ للذي خلق الخلق ، فهو أحق بها ، بل لا تجوز إلاَّ له جلَّ في علاه ـ .

ومن نَسَبَ أي شيء من الخلق ، أو من أنواع العبادة لغير (الله الخالق العزيز الحكيم) فقد كفر وأشرك ، وأصبح من أظلم الظالمين ، وأجحد الجاحدين ومأواه جهنم وبئس المصير : قال تعالى : ﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾[3] .

---

(١) الأنعام (١٠٢) .

(٢) الزمر (٦٢) .

(٣) لقمان (١٣) .

وقال تعالى : ﴿ هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه بل الظالمون في ضلال مبين ﴾(١).

ثانياً : عجز المخلوق أن يخلق شيئاً :

قال تعالى : ﴿ يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب ﴾(٢) .

وقال الله تعالى : ﴿ هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه ﴾(٣) .

وقال تعالى : ﴿ والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئا وهم يخلقون ﴾(٤) .

وقال تعالى ﴿ واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون ﴾(٥).

إن الله ـ سبحانه وتعالى ـ خلق الخلق بعزته وقوته ، ولحكمة أرادها ، فالله ـ عز وجل ـ أراد من عباده أن يعرفوه ، ويتعرّفوا على قدرته وعظمته ، وأن يعبدوه وحده ، وأن يتعبّدوا إليه بأسمائه الحسنى ، وصفاته العليا ، وأن يحقّقوا كمال العبودية له ـ جلّ في عليائه ـ فخلق الخلق وأوجب عليهم عبادته وحده ، وإفراده

---

(١) لقمان (١١) .
(٢) الحج (٧٣) .
(٣) لقمان (١١) .
(٤) النحل (٢٠) .
(٥) الفرقان (٣) .

بكل مظاهر العبودية ما كَبُرَ منها وما صَغُر ، وما ظَهَرَ منها وما خفى ، وأرشدهم - سبحانه وتعالى - إلى آلائه وآياته وعظيم خلقه كدليل وبرهان واستدلال على أحقيته بالعبادة ، وأنه وحده هو الإله الحق ، صاحب هذه العزة والقوة والهيمنة والحكمة والإحكام ، خالق هذا الوجود وما فيه ، ورازق كل مَنْ فيه ، وأن كل من دونه من الآلهة المزعومة الباطلة لا يستطيعون أن يخلقوا أي شيء ولو صَغُرَ ، حتى ولو كان ذباباً ، فعلى صغر حجم الذباب وحقارته وضعفه يعجز كل الخلق بما فيهم الآلهة المزعومة الباطلة أن يخلقوه ، ولو اجتمعوا جميعاً له وتظافرت جهودهم، وتوحَّدت قوتهم ، ووسع علمهم ، ولو حرصوا كل الحرص ، ولو أخلص بعضهم إلى بعض .

فيُعرِّيهم الله - عزَّ وجلَّ - ويُظْهر كذبهم وبطلان ألوهيتهم المزعومة ، ويُظْهر ذلتهم ، وقلة حكمتهم ، وأنه هو المتفرِّد بكمال العزة المطلقة ، وبتمام الحكمة البالغة ، وأنه هو الخالق الأوحد - فيقول - عزَّ مِنْ قائل - في محكم آياته .

﴿ يا أيها الناس ضرب مثل ما فاستمعوا له إن الذين يدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب ﴾[1] .

نعم وربي ضعف الطالب - العابد المشرك - وضعف المطلوب - الإله الباطل المزعوم - ضعفوا جميعاً ، وأيضاً إذا سلب الذباب الصغير الحقير المهين الضعيف شيئاً من أكل أو طِيب هذه الآلهة المزعومة ، لا تستطيع هذه الآلهة استنقاذه منه

---

(١) الحج (٧٣) .

على ما تدعيه من الألوهية الباطلة ، وعلى ضعف هذا الذباب المخلوق الضعيف المهين ، فكيف تكون لهم الألوهية وهم لايستطيعون خلق أصغر وأحقر المخلوقات، ولا يستطيعون دفع الضر عنهم ، أو حماية أنفسهم والحفاظ على ممتلكاتهم ، فتبّاً وربي لهؤلاء الآلهة الباطلة ، وتباً وربي لهذه العقول التي تُألّه هؤلاء المخلوقات الضعيفة التي لم تخلق شيئا ، بل هم خلق من خلق الله [العزيز الحكيم] الذي خلق كل الخلق بعزته وحكمته وإحكامه .

ولذلك يردُّ الله - جل في علاه - عليهم جميعاً مُذكِّراً إياهم بأنهم خَلْق من خلقه وعبيد من عبيده ،وأنهم أعجز ما يكونون عن الخلق - فقال جلَّ شأنه - .

﴿ والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئا وهم يخلقون ﴾[1] .

ويُسفِّه الله - عزَّ وجلَّ - عقول هؤلاء المشركين الذين ضلوا في عباداتهم ، وتوجَّهوا بالعبودية والانقياد والطاعة لهؤلاء الآلهة الباطلة العاجزة عن الخلق ، وذلك دون تحكيم عقولهم ،وبعيداً عن العدل والإنصاف ، ووقوعاً في الضلال والانتكاس ، فكانوا من المشركين ، وأصبحوا بها كافرين ، ووجبت لهم بها النار خالدين ، - إن هم ماتوا على ذلك - .

قال تعالى: ﴿ واتخذوا من دونه آلهة لايخلقون شيئاً وهم يخلقون ﴾[2].

وزيادة على عدم قدرتهم على الخلق ، وأنهم هم أنفسهم مخلوقون ، وأنهم لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ، ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشوراً .

---

(١) النحل (٢٠) .
(٢) الفرقان (٣) .

فضلاً عن أن يملكوا لغيرهم من عابديهم هذه الأمور ، فأين حيثيات الألوهية من الخلق ، والنفع ، والضر ، والحياة ، والإماتة ، والبعث والنشور ....

قال تعالى معرِّياً هؤلاء الآلهة المزعومة ، ومُسفِّهاً هؤلاء المشركين الذين تجرَّدوا من عقولهم ، وانتكست فطرتهم ـ قائلاً ـ جلَّ في علاه ـ .

﴿ **ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً، ولا يملكون موتاً ولا حياة، ولا نشورا** ﴾(١) .

ثالثاً : أين خَلْقُ الآلهة المزعومة :

إن قضية الخلق مقرونة دائماً بالعزة والقدرة ومبنية على الحكمة والإحكام للخلق ، وعليها فإن العبودية والألوهية والأمر والنهي ، وحق التفرُّد بالطاعة والذُّل والانقياد مرتبط بالخلق ، فإن الذي يخلق ويتفرَّد بالخلق فهو الأعزُّ ، وهو الأحكم ، وهو الأحق بالأمر ، والنهي ، والإفراد بالعبادة ، ويقرِّر هذا الأمر صاحب العزة والحكمة العزيز الحكيم ، في كتابه العزيز قائلاً عزَّ مِنْ قائل ﴿ **ألاله الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين** ﴾(٢) .

فبيَّن ـ سبحانه وتعالى ـ أنه هو صاحب الأمر المستحق للعبادة والطاعة والانقياد وحده ، ودلّل على ذلك واستدل على هذا الحق بأنه هو الخالق ، بل له العظمة والكبرياء وحده فهو رب العالمين ، فالكلُّ له مربوب ، والكل خلق من خلقه ، والوجود كله تحت سلطانه ، ووفق حكمته ، وخُلِقَ بعزته وقدرته فاستحق أن يكون الإله الأوحد في ملكه وسلطانه ، وأن يُفْرد بالعبادة من كل خلقه .

---

(١) الفرقان (٣) .
(٢) الأعراف (٥٤) .

ولذلك طالبهم الله ـ عزَّ وجلَّ ـ تعجيزاً بأن يقدِّموا الأدلة والبراهين على ألوهيتهم الباطلة بأن يأتوا بخلقهم الذي خلقوه ، حتى يستحقوا العبادة من أجله .

وكما ذكرنا أن الخلق من أكبر مناط استحقاق الألوهية ـ فيطالبهم الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أن يُظْهروا مخلوقاتهم التي خلقوها مقابل خلق الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ولكن هيهات لهم أن يأتوا بشيء ، فالخلق كله خَلْقُ الله العزيز الحكيم ، بل إن هذه ألآلهة الباطلة المزعومة هي أيضا من خَلْق الله ، وتُرْزق من رزق الله، ويقع عليها النفع والضر من عند الله .

قال تعالى : ﴿ **هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه بل الظالمون في ضلال مبين** ﴾[1] .

رابعاً : أحقية الخالق بالعبادة :

قال تعالى : ﴿ **أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون** ﴾[2] .

وبعد أن عجَّز الله هؤلاء ألآلهة الباطلة ، وبيَّن زيفها ، وعرَّاها وبيَّن أنها أضعف من أن تخلق ذباباً ، وأنها ليس لديها أي مخلوق تنسبه إلى نفسها ، بيَّن سبحانه وتعالى أنه الخالق لكل شيء ، والواجد لكل شيء ، قال تعالى : ﴿ **ذالكم الله ربكم لا إله إلاَّ هو خالق كل شيء فاعبدوه** ﴾[3] .

وقال تعالى : ﴿ **الحمد لله رب العالمين** ﴾[4] أي خالق كل العالمين ومُوجِدْهم ومُربِّيهم كما في سورة النحل من أول قوله تعالى : ﴿ **خلق السماوات**

---

(١) لقمان (١١) .
(٢) النحل (١٧) .
(٣) الأنعام (١٠٢) .
(٤) الفاتحة (٢) .

والأرض بالحق تعالى عمَّا يشركون ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ وعلامات وبالنجم وهم يهتدون ﴾[(١)] . مُذكِّرا عباده أجمعين إنسهم وجنهم ، مؤمنهم وكافرهم ، بكمال قدرته وعزته وتمام حكمته في خلق السماوات والأرض وما فيهما من المخلوقات الكثيرة والمتعددة ، والتي تشهد بعزة وحكمة الخالق ـ جلَّ في علاه ـ ثم بعد ذلك يُرْسي سبحانه وتعالى هذه الحقيقة ، ويؤكد هذه الأحقية ، ويخاطب العقل والضمير ، ويُعدِّد الأدلة والبراهين ، حتى لا يكون لأحد على الله حجة بعد الموت .

قال تعالى : ﴿ يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون ﴾[(٢)] .

قال الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله ـ :

((ومضمونه أنه الخالق الرزاق مالك الدار[(٣)] وساكنيها ورازقهم فبهذا يستحق أن يُعْبد وحده ولا يُشْرك به غيره ولهذا قال : ﴿ فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون ﴾))[(٤)].

وفي الصحيحين عن ابن مسعود قال : قلت يا رسول الله ـ ﷺ ـ أيُّ الذنب أعظم عند الله ؟

قال : « أن تجعل لله نداً وهو خلقك »[(٥)] .

---

(١) النحل (٣ : ١٦) .
(٢) البقرة (٢١) .
(٣) أي الدار الدنيا .
(٤) البقرة (٢٢) .
(٥) رواه البخاري كتاب (التفسير) باب (قوله تعالى : ﴿ فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون ﴾) .

وهذه الآية دالة على توحيده تعالى بالعبادة وحده لا شريك له .

قال أبو نواس :

تأمَّل في نبات الأرض وانظــر إلى آثار مــا صنــع المليــك

عيـــون من لجين شاخصـــات بأحداث هي الذهب السبيك

على قضب الزبرجد شاهدات بــأن الله ليس لـــه شريـــك

وقال ابن المعتز :

فيا عجباً كيف يُعْصى الإلـــه أم كيف يجحــده الجاحـــــد

وفـــي كـــل شـــيء له آيـــة تدل على أنـــه واحـــد))[1] .

قال العلامة ابن القيم ـ رحمه الله ـ :

((﴿ ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين ﴾[2] .

وهو سبحانه خلق العالم العلوي والسفلي بسبب الحق ، ولأجل الحق ، وضمَّنه الحق ، فبالحق كان ، وللحق كان ، وعلى الحق اشتمل ، والحق هو توحيده وعبادته وحده لا شريك له وموجب ذلك ومقتضاه ، وقام بعدله الذي هو الحق ، وعلى الحق اشتمل ، فما خلق الله شيئاً إلا بالحق وللحق ، ونفس خلقه له حق ، وهو شاهد من شواهد الحق ، فإن أحق الحق هو التوحيد، كما أن أظلم الظلم هو الشرك، ومخلوقات الرب تعالى كلها شاهدة له بأنه الله الذي لا إله إلاَّ هو، وإن

---

(١) انظر : تفسير ابن كثير لسورة البقرة آية (٢١) [١ / ٥٦ : ٥٨] .

(٢) الأعراف (٥٤) .

كل معبود باطل سواه ، وكل مخلوق شاهد بهذا الحق إمَّا شهادة نطق ، وإمَّا شهادة حال ، وإن ظهر بفلعه وقوله خلافها ، كالمشرك الذي يشهد حال خلقه وإبداعه وصنعة خالقه وفاطره أنه الله الذي لا إله إلاَّ هو وإن عَبَدَ غيره وزعم أن له شريكاً ، فشاهد حاله مكذِّب له مبطل لشهادته فعله وقوله))[1] .

وقال تعالى : ﴿ أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون ﴾[2] .

قال الشيخ السعدي ـ رحمه الله ـ :

((ولما ذكر تعالى ما خلقه من المخلوقات العظيمة ، وما أنعم به من النِّعم العظيمة ، ذكر أنه لا يشبهه أحد ولا كُفء ، له ولا ندٌّ له فقال :

﴿ أفمن يخلق ﴾[3] جميع المخلوقات ، وهو الفعَّال لما يريد .

﴿ كمن لا يخلق ﴾[4] شيئاً لا قليلاً ولا كثيراً .

﴿ أفلا تذكرون ﴾[5] فتعرفون أن المتفرِّد بالخلق أحق بالعبادة كلها ، فكما أنه واحد في خلقه ، وتدبيره ، فإنه واحد في إلهيته وتوحيده وعبادته ، وكما أنه ليس له مشارك إذ أنشأكم وأنشأ غيركم ، فلا تجعلوا له أنداداً في عبادته ، بل أخلصوا له الدين))[6] .

---

(١) مفتاح دار السعادة لابن القيم الجوزية [٢ / ٥٥٤] .
(٢) النحل (١٧) .
(٣) النحل (١٧) .
(٤) النحل (١٧) .
(٥) النحل (١٧) .
(٦) تفسير السعدي لسورة النحل آية (١٧) (ص : ٣٩٠) .

فمن أراد أن يتعبَّد لله [العزيز الحكيم] الخالق لكل الوجود ، فعليه أن يُفْرده بكل أنواع العبودية ، وبكل مظاهر الخضوع ، والتذلُّل ، والانقياد والطاعة ، وأن يقدِّم أوامره ونواهيه على كل أمر ونهي ، ويقدِّم رضا إلاهه الذي خلقه بعزته وحكمته على رضا أي أحد ، وأن يفرده سبحانه وتعالى بالتعظم والإجلال ، والتوقير، والتبجيل ، وأن يتبرأ ويكفر بكل الآلهة الباطلة المزعومة والمدَّعية من دونه - جلَّ في علاه - وأن يتبرأ ويعادي كل من عَبَد هذه الآلهة الباطلة ، وأشركها في العبادة مع الله ، وأن يكفر بكل إله ومعبود ومطاع من دون الله ، ويكفر بكل ما تدعوا إليه هذه الآلهة ومبتدعوها من شركيات وكفريات ، وضلالات ، وتشريعات ، ونُظم ، ومناهج ، وقوانين ، ودساتير ، تحقيقاً للتوحيد ، وتعظيماً للعزيز الحكيم ، وإفراداً له بالعبودية ، والطاعة ، والانقياد ، والتذلُّل ، والانكسار له وَحْده في ملكه وسلطانه ، فلا إله غيره ولا معبود سواه . قال تعالى : ﴿ **فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها** ﴾[1].

---

(١) البقرة (٢٥٦) .

[المطلب الثالث]

أصول النّعم : (الخلق والرزق)

[أولا] : الله الخالق الرازق :

قال تعالي : ﴿ الحمد لله فاطر السماوات والأرض جاعل الملائكة رسلا أولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع يزيد في الخلق ما يشاء إن الله على كل شيء قدير ، ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلامرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم ﴾(١) .

وقال تعالى : ﴿ يا أيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض لا إله إلاَّ هو فأنى تؤفكون ﴾(٢) .

وقال تعالى : ﴿ أمن يبدؤا الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض أإله مع الله قل ها توا برهانكم إن كنتم صادقين ﴾(٣) .

إن التعبُّد [للعزيز الحكيم] - جلَّ في علاه - حق لهـذا الإله الخالق الرازق ، الذي خلق كل شيء، وأوجد كل شيء بعزته وقدرته وحكمته وإحكامه ، والذي رزق عباده وأغدق عليهم من نعمه التي لا تُعدُّ ولا تحصى ، قال تعالى : ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ﴾(٤) .

---

(١) فاطر (١ ، ٢) .
(٢) فاطر (٣) .
(٣) النمل (٦٤) .
(٤) النحل (١٨) .

فإن أصول النِّعم على العباد كلهم - إنسهم وجنهم - هي [الخلق ، والرزق] ، فأفضل مِنَّة على العباد هي إيجادهم في هذا الوجود ، وكذلك رزقهم ، فالعبد مَدِينٌ بالعبودية التامة لخالقه ورازقه ، فإن الذي خلق وأوجد ، والذي رزق وأنعم هو الأحق بأن يُعْبَد ، وأحق أن يُفْرد بالطاعة والانقياد ، ويوحَّد بجميع أنواع العبادات ، فهذا هو حق الله الخالق الرازق على العباد كما جاء ذلك في الحديث الشريف أن النبي - ﷺ - قال لمعاذ بن جبل - رضي الله عنه - : ((**هل تدري ما حق الله على العباد ؟ قلت : الله ورسوله أعلم . قال حق الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً ثم سار ساعة ، ثم قال : يا معاذ بن جبل . قلت : لبيك رسول الله وسعديك . فقال : هل تدري ما حق العباد على الله إذا فعلوه ؟ قلت : الله ورسوله أعلم . قال : حق العباد على الله : أن لا يعذبهم**))(١) .

فبيَّن الرسول - ﷺ - أن عبادة الله وحده وعدم الإشراك به حق لله - تعالى - وكيف لا وهو الخالق الرزاق ، فمن خلق ورزق أحق بالعبادة ممن لا يخلق ولا يرزق وهم مخلوقون وعبيد لله الواحد القهار العزيز الحكيم .

قال تعالى : ﴿ **ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين** ﴾(٢) . فالذي خلق هو الذي يأمر وينهي ، وهو المعبود الحق ، لأنه رب العالمين ، وخالق كل من في الوجود بعزته وقدرته ، ولحكمة أرادها - جلَّ في علاه - فهذا الخلق ما جاء إلاَّ

---

(١) رواه البخاري في كتاب (اللباس) باب (إرداف الرجل خلف الرجل) واللفظ له ورواه مسلم في كتاب (الإيمان) باب (الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة) .

(٢) الأعراف (٥٤) .

من إله يتّصف بالعـزة والقوة والقدرة ، وما خـلق هذا الإله هؤلاء الخلق إلاّ بحكمة ولحكمة يريدها ـ جلّ في علاه ـ وهي إفراده وحده بالعبادة والانقياد والطاعة .

فإن هذا الإله [العـزيز الحكيم] الذي خلق هذا الخلق بعزته وقوته وحكمـته وإحكامـه قادر على إثابة مَنْ عَـبَدَهَ وحـده ، وأفرده بالعـبادة ولم يشـرك به شيـئاً ، وأذعن لعـزته وعظمتـه ، وآمن بحكمـته وإحكامـه ، قادر على أن يُعـزَّ مَنْ تعبَّـد له وخضع لعزته ، وصار وفق حكمته ، ولم يخالف شرعه ودينه ، فيكسوه العزيز من عزته ، وينصـره بقوته ، ويؤيده بتأييـده ، ويكتب له العزة في الدنيـا ، والكرامة في الآخرة ، ويحظي بشرف الانتـساب للمؤمنين الذين آمنوا بالله وتعبَّـدوا له بأسمائه الحسنى ، وصفاته العليا .

قـال تعـالى : ﴿ ولله العــزة ولـرســوله ولـلمــؤمنين ولـكنَّ المنافــقين لا يعلمون ﴾[1].

وهكذا اقـتـضت حكمـة الحكيم أن يثـيب ، ويُنَعِّم ، ويعـزّ ، كل من أذعن وخـضع ، وأطاع وانقـاد ، وتعـبَّـد لخـالق الأرض والسـمـاوات بأسـمـائه الحـسنى وصفـاته العليـا ، وكان من المتـعبِّديـن للخالق الرازق [العـزيز الحكيم] الذي خلق وأوجـد ، ورزق وأنعم ، فنعم العـبـد الذي يتـعـبَّـد لخالـقه ورازقـه صـاحب العـزة والحكمة ، والفضل والمِنَّة ـ جلَّ في علاه ـ .

---

(١) المنافقون (٨) .

[ثانياً] : الترابط والتلازم بين الخلق والرزق والعبودية :

يلاحظ المتأمل في آيات القرآن الكريم مدى الترابط بين الخلق والرزق وبين العبودية لله تعالى [العزيز الحكيم] الذي خلق ورزق .

فإن الكثير من آيات القرآن الكريم يُذْكر فيها الخلق ثم يتبعها ذكر الرزق والنِّعم ، وإنزال المطر من السماء والإنبات من الأرض ، ويُبَرْهن بذلك على مدى قدرة وعزة وحكمة هذا الإله الخالق الرازق ، وأحقيته بعد هذا الخلق والإيجاد ، وهذا الرزق والعطاء أن يُعْبد في ملكه ، وأن يوحَّد بين خلقه ، وأن يُفْرد بجميع أنواع العبادات ، وأن يتفرَّد بالأمر والنهي بين خلقه .

فإن الخلق والايجاد ، والرزق والإنعام أصل النِّعم ، وعمود المَنِّ ، وصلب التفضَّل ، ولَمَّا كانا بيدي الله وحده ، وهما من خصائص الإله [العزيز الحكيم] الذي يخلق ويرزق عن عزة وقوة وبحكمة وبإحكام ، كان هو الأحق بالعبادة والتذلُّل والإذعان ، والتعبُّد والخضوع ، وأن صرف جميع أنواع العبادة ، والتوجُّه له بالتعبُّد والخضوع حق له ـ جلَّ في علاه ـ وعَدْلٌ وإنصاف ، وكذلك العدول عن هذا التعبُّد لهذا الإله الخالق الرازق يُعَدُّ ظلم وجور وانتكاسه في الفطرة ، وعدول عن الصراط المستقيم ، وانزلاق في هاوية الشرك ، والضلال المبين .
والآيات الدالة على هذا الترابط بين الخلق والرزق ، والتعبُّد لله العزيز الحكيم الذي خلق ورزق كثيرة جداً في كتاب الله العظيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من عزيز حكيم .

ونذكر منها ما يلي :

قال تعالى : ﴿ يا أيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض لا إله إلاَّ هو فأنى تؤفكون ﴾(١) .

وقال تعالى : ﴿ أمنَّ يبدؤا الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض أإله مع الله قل هاتو برهانكم إن كنتم صادقين ﴾(٢) .

وقال تعالى : ﴿ أمَّن خلق السماوات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أإله مع الله بل هم قوم يعدلون ﴾(٣) .

فذكر الله ـ عزَّ وجلَّ ـ الخلق كبرهان على الألوهية الحقة ، ثم أردف ذلك بذكر الرزق المتمثِّل في إنزل الماء من السماء الذي هو (شراب) وإرواء وبه يخرج النبات من الأرض الذي هو (طعام) وقوت للعباد والبهائم والدواب وغيرها من المخلوقات ، وذلك بعزة وقدرة وحكمة وإحكام العزيز الحكيم .

وقال تعالى : ﴿ الله الذي خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم هل من شركائكم من يفعل من ذا لكم من شيء سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾(٤).

أما سورة (فاطر) فنرى هذا الترابط والتلازم والتدرُّج واضحاً وملموساً ، في تسلسل رائع ، وترابط مُحْكم ، وتلازم ضروري ، يسلم بعضه لبعض ،

---

(١) فاطر (٣) .

(٢) النمل (٦٤) .

(٣) النمل (٦٠) .

(٤) الروم (٤٠) .

ويفضي إلى الإذعان والخضوع والتسليم والتعبُّد حق التعبُّد لهذا الإله العزيز الحكيم الذي خلق ويخلق ، ورزق ويرزق ، عن عزة وقوة وحكمة وإحكام .

[وهذا التدرج كما يلي] :

١ - [الخلق] :

قال تعالى : ﴿ **الحمد لله فاطر السماوات والأرض جاعل الملائكة رسلاً أولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع يزيد في الخلق ما يشاء إن الله على كل شيء قدير** ﴾[1] .

فحمد الله - عزَّ وجلَّ - نفسه بنفسه ويرشد عباده لتعبُّده بأن يحمدوه ، فهو سبحانه وتعالى أهل الحمد والثناء ، فهو فاطر السماوات والأرض ، أي خالقهم ومُوجِدْهم ومُوجد كل من في الوجود .

قال الإمام الطبري - رحمه الله - :

((يقول تعالى ذِكْره : الشكر الكامل للمعبود الذي لا تصلح العبادة إلاَّ له ، ولا ينبغي أن تكون لغيره خالق السماوات السبع والأرض))[2] .

وقال الإمام القرطبي - رحمه الله - :

((والمراد بذكر السماوات والأرض العالم كله ، ونبَّه بهذا على أن من قدر على الابتداء قادر على الإعادة))[3] .

---

(١) فاطر (١) .

(٢) تفسير الطبري لسورة فاطر آية (٢) [٦ / ٢٣٧] .

(٣) تفسير القرطبي لسورة فاطر آية (١) المجلد السابع [جـ ١٤ / ٢٠٤] .

فيحمد الله ـ عزَّ وجلَّ ـ نفسه ويثنى على نفسه لأنه الخالق لكل ما في الوجود بعزته وقوته وحكمته وإحكامه ، فلا يقدر على ذلك إلاَّ هو ـ عزَّ شأنه ـ فأهل هو للحمد والثناء ، وأهل أن يُعْبد ويوحَّد . وهو كما أثنى على نفسه فلا يستطيع أحد أن يوفيه حقه في الثناء . وكما جاء في الحديث الشريف عن الرسول ـ ﷺ ـ أنه كان يقول في حق ربه ـ جلَّ في علاه ـ ((لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك))(١) .

٢ - [الرزق] :

وبعد أن حمد الله نفسه ـ جلَّ في علاه ـ وذكَّر خلقه بأنه هو الخالق لكل شيء في السماوات والأرض ، يُذكِّرهم أيضاً بأنه هو رازقهم .

قال تعالى : ﴿ **ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده** ﴾(٢) .

يُذكِّر الله ـ عزَّ وجلَّ ـ عباده بأنه هو الرزاق بعد أن ذكَّرهم بأنه هو الخالق ، فهو الذي يرزق عباده جميعاً إنسهم وجنهم ، ذَكَرَهَم وأُنْثاهم ، مؤمنهم ، وكافرهم ، فهو الخالق وهو الرب الرازق ، فبرحمته وربوبيته وعزته وقدرته ولحكمة أرادها يرزق جميع خلقه ، فما بهم من نعمة فمن الله تعالى ، وهو الذي يتفضَّل عليهم برزقه وفضله ، فهو المعطي والمانع ، والباسط والقابض ، بيده الخير ، وهو على كل شيء قدير .

---

(١) رواه مسلم في كتاب (الصلاة) باب (ما يقال في الركوع والسجود) .

(٢) فاطر (٢) .

قال الإمام الطبري ـ رحمه الله ـ :

((يقول تعالى ذكره : مفاتيح الخير ومغالقه كلها بيده ، فما يفتح الله للناس من خير فلا مغلق له ، ولا ممسك عنهم ، لأن ذلك أمره لا يستطيع أمره أحد ، وكذلك ما يغلق من خير عنهم فلا يبسطه عليهم ، ولا يفتحه لهم ، فلا فاتح له سواه ، لأن الأمور كلها إليه وله))(١) .

وقال الإمام القرطبي ـ رحمه الله ـ :

((وقيل : ما يأتيهم به الله من مطر أو رزق فلا يقدر أحد أن يمسكه ، وما يمسك ذلك فلا يقدر أحد على أن يرسله))(٢) .

وقال الإمام مالك ـ رحمه الله ـ :

((كان أبو هريرة رضي الله عنه إذا مطروا يقول مطرنا بنوء الفتح ثم يقرأ هذه الآية ﴿ **ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم** ﴾(٣) ،))(٤) .

ومعلوم أن المطر هو أصل الرزق ، وعمود الحياة ، ففيه (الشراب والإرواء) أو يقع على الأرض فتُنْبِتُ باذن ربها فيخرج (الطعام) . فالشراب والطعام هما عمود الحياة ، ومناط المنَّة والتفضُّل من الخالق على عباده .

---

(١) تفسير الطبري لسورة فاطر آية (٢) [٦ / ٢٣٨] .

(٢) تفسير القرطبي لسورة فاطر آية (٢) المجلد السابع [جـ ١٤ / ٢٠٥] .

(٣) فاطر (٢) .

(٤) تفسير ابن كثير لسورة فاطر آية (٢) [٣ / ٥١٢] .

٣ ـ التعبُّد للعزيز الحكيم الخالق الرازق :

قال تعالى : ﴿ وهو العزيز الحكيم ﴾[(١)] .

فما زلنا مع التدرُّج الإلهي في بيان وتوضيح واثبات أحقية هذا الإله العزيز الحكيم أن يُفْرد بالعبودية ، وأن يوحَّد في مُلْكه ، وذلك لأنه هو الخالق المتفرِّد بالخلق ، وهو الرازق المُتفرِّد بالرزق ، فيجب أن يُفْرد أيضا بالعبودية ولا تصرف لأحد غيره ، فليس هناك مِنْ إله له مِنَ العزة والقدرة على الخلق مثل الله ـ جلَّ في علاه ـ وليس هناك مِنْ إله متصف بكمال الحكمة وتمامها يستطيع أن يخلق مثل خلق الله ، ولا يدبِّر الكون مثله ، ولا يحكم الخلق والرزق كإحكام الله وحكمته العزيز الحكيم ـ جلَّ في علاه ـ .

فبعد أن :

ـ حَمِدَ الله نفسه وأثنى على ذاته .

ـ وقرَّر أنه هو الخالق للسماوات والأرض ومن فيهم [للوجود كله] .

ـ وأكَّد أنه هو الرزاق المُنْعم على خلقه أجمعين .

ـ يوجِّه سبحانه وتعالى عباده إلى أن يتعبَّدوا لهذا الإله [العزيز الحكيم] .

صاحب العزة الكاملة المطلقة ، وصاحب الحكمة التامة البالغة ، الذي خلق وأوجد ، ورزق ، وأنعم بعزته وحكمته ، فوجب على هؤلاء الخلق الذين هم خلقٌ مِنْ خلقه ، والمتفضِّل عليهم برزقه أن يتعبَّدوا له بأسمائه الحسنى ، وصفاته العليا، وخاصة اسميه الحسنيين [العزيز الحكيم] وصفتيه الحميدتين [العزة والحكمة] .

---

(١) فاطر (٢) .

فلقد خلقهم بعزته ، وأوجدهم لحكمة أرادها وهي عبادته وحده وعدم الإشراك به . قال تعالى : ﴿ **وما خلقت الجن والإنس إلاَّ ليعبدون** ﴾[(١)] . فوجب على هؤلاء الخلق شكراً لله تعالى على أن تفضَّل عليهم بخلقهم وإيجادهم وأسبغ عليهم نعمه وآلائه ، أن يتعبَّدوا له وحده ، وأن يُفْردوه بجميع أنواع عباداتهم ، وأن ينزِّهوه عن الشريك ، والنِّد والنظير فهو المتفرد بالخلق والرزق ، والأحق بأن يُفْرد بالعبادة سبحانه وتعالى [العزيز الحكيم] .

قال الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله ـ :

((ينبِّه تعالى عباده ويرشدهم الى الاستدلال على توحيده في العبادة له ، كما أنه المستقل بالخلق ، والرزق فكذلك فليُفْرد بالعبادة ولا يُشْرك به غيره من الأصنام والأنداد والأوثان ولهذا قال تعالى : ﴿ **لا إله إلاَّ هو فأنى تؤفكون** ﴾ . أي فكيف تؤفكون بعد هذا البيان ، ووضوح هذا البرهان ، وأنتم بعد هذا تعبدون الأنداد والأوثان والله أعلم))[(٢)] .

[ثالثاً] : نبي الله ابراهيم ـ ﷺ ـ يتعبَّد للخالق الرازق :

قال تعالى على لسان نبيه إبراهيم ـ ﷺ ـ يُسَفِّه الآلهة الباطلة ويتعبَّد لله الخالق الرازق : ﴿ **فإنهم عدو لي إلا رب العالمين الذي خلقني فهو يهدين والذي هو يطعمني ويسقين** ﴾[(٣)] .

---

(١) الذاريات (٥٦) .

(٢) تفسير ابن كثير لسورة فاطر آية (٧) [٣ / ٥١٢] .

(٣) الشعراء (٧٧ : ٧٩) .

فها هو نبي الله إبراهيم - ﷺ - إمام الموحِّدين يُلخِّص لنا القضية ويُحدِّد لنا المعالم ، ويُرْسي قواعد التوحيد ، وحيثيات العبودية ، فإنه يتبرأ من كل معبود من دون الله من هذه الآلهة المزعومة الباطلة ، العاجزة الطائشة ، التي لا تتمتع بالعزة والقوة المطلقة ، والتي لا تتصف بالحكمة ، والتي لا تملك من الأمر شيئاً ، فهو يتبرأ منهم جميعاً ، ويعلن عبوديته لرب العالمين ، لخالقه الذي خلقه وربَّاه ، والذي أطعمه وسقاه ، والذي يملك نفعه وضرَّه - جلَّ في علاه ، فهذه صفات الإله الحق، والمعبود المطاع .

قال الإمام الطبري - رحمه الله - :

((ومعنى الكلام : أفرأيتم كل معبود لكم ولآبائكم ، فإني منه بريءٌ لا أعبده ، إلاَّ رب العالمين ...

فربي هذا الذي بيده نفعي وضرِّي ، وله القدرة والسلطان ، وله الدنيا والآخرة ، لا الذي لا يسمع إذا دُعِيَ ، ولا ينفع ولا يضر .

وإنما كان هذا الكلام من إبرهيم - ﷺ - احتجاجاً على قومه ، في أنه لا تصلح الألوهية ، ولا ينبغي أن تكون العُبودة إلاَّ لمن يفعل هذه الأفعال ، لا لمن لا يطيق نفعاً ولا ضراً))[(١)] .

نعم إن الله [العزيز الحكيم] هو الذي خلق الخلق بعزته وقوته ، وسيَّر الكون حسب حكمته وإحكامه ، وهو الذي يرزق عباده ، ويُنْعم عليهم بنعمه ، ويغدق عليهم من فضله ، فلامانع لما أعطي ، ولا مُعْطي لما منع بيده الخير ، وهو على كل

---

(١) تفسير الطبري لسورة الشعراء آية (٧٧ : ٨٢) [٥ / ٥١٣ : ٥١٤] .

شيء قدير ، وهو المستحق العبادة وحده ـ جلَّ في علاه ـ صاحب العزة الكاملة المطلقة ، وصاحب الحكمة البالغة التامة [العزيز الحكيم] .

وكما جاء في الحديث عن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ قال : إن رسول الله ـ ﷺ ـ كان إذا رفع رأسه من الركوع يقول : « **سمع الله لمن حمده ، اللهم ربنا لك الحمد ملء السماء والأرض ، وملء ما شئت من شيء بعد ، اللهم أهل الثناء والمجد ، أحق ما قال العبد وكلنا لك عبد : اللهم لا مانع لما أعطيت ، ولا معْطِيَ لما منعت ، ولا ينفع ذا الجدِّ منك الجَدُّ** »[1] .

قال الإمام النووي ـ رحمه الله ـ :

((وفي هذا الكلام دليل ظاهر على فضيلة هذا اللفظ ، فقد أخبر النبي ـ ﷺ ـ الذي لا ينطق عن الهوى أن هذا أحق ما قاله العبد ، فينبغي أن يحافظ عليه لأن كلنا عبد ولا نهمله .

وإنما كان أحق ما قاله العبد لما فيه من التفويض إلى الله تعالى ، والإذعان له ، والاعتراف بوحدانيته ، والتصريح بأنه لا حول ولا قوة إلاَّ به ، وأن الخير والشر منه . والحث على الزهادة في الدنيا ، والإقبال على الأعمال الصالحة .

وقوله (ذو الجد) ... والصحيح المشهور (الجَد) بالفتح ، وهو الحظ ، والغنى ، والعظمة ، والسلطان ، أي لا ينفع ذا الحظ في الدنيا بالمال والولد ، والعظمة ، والسلطان منك حظه ، أي لا ينجيه حظه منك ، وإنما ينفعه وينجيه

---

(١) رواه مسلم في كتاب (الصلاة) باب (ما يقول إذارفع رأسه من الركوع) .

العمل الصالح ، كقوله تعالى : ﴿ المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملاً ﴾[١] ، والله تعالى أعلم))[٢].

فليحرص كل عبد أراد التعبُّد [للعزيز الحكيم] الخالق الرازق أن يدعوا بهذا الدعاء ويواظب عليه في الصلاة وفي غيرها اعترافاً بألوهية العزيز الحكيم ، وإفراده بالعبادة ، وأنه هو الخالق والرازق ، والذي بيده الخير كله ويرجع إليه الأمر كله فهذا الدعاء طريق وسبيل من طرق وسُبل التعبُّد لصاحب العزة والحكمة الخالق الرازق والْمُنْعِم المتفضِّل على عباده بالرزق والخيرات ـ جلَّ في علاه ـ بعزةٍ، ووفق حكمةٍ .

---

(١) الكهف (٤٦) .

(٢) شرح النووي لصحيح مسلم في كتاب (الصلاة) باب (ما يقول إذا رفع رأسه من الركوع) [٤ / ٤١٨] .

[المطلب الرابع]

كمال العبودية للعزيز الحكيم

أولاً : [الحكمة من خلق الخلق] :

قال تعالى : ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلاَّ ليعبدون ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون ﴾[(١)] .

وقال تعالى : ﴿ وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين ﴾[(٢)] .

وقال تعالى : ﴿ وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلاَّ بالحق وإن الساعة لأتية فاصفح الصفح الجميل ﴾[(٣)] .

إن المتعبِّد [للعزيز الحكيم] - جلَّ في علاه - يعلم الحكمة التي خلقه الله من أجلها ، فهو على بصيرة من أمره ، ويتعبَّد الله تعالى على نور ، ويتعبَّد للعزيز الحكيم صاحب العزة والحكمة علي هدى ومعرفة لما يجب عليه تجاه هذا الإله ، فيحقق الغاية التي من أجلها وُجِدَ في هذا الكون ، ألا وهي معرفة الله تعالى بأسمائه الحسنى ، وصفاته العليا ، وإخلاص العبادة له وحده ،وإفراده بها ، وتخليص الأقوال والأعمال والأفعال من الشرك ، وتنزيه العزيز الحكيم عن الندِّ والشريك ، والمثيل والشبيه ، فلا يُعْبد غير الله تعالى في مُلْكه وسلطانه ، ولا يُوَحَّد

---

(١) الذاريات (٥٦) .

(٢) الأنبياء (١٦) .

(٣) الحجر (٨٥) .

إلاَّ هو في عليائه ، ولا تُصْرف عبادات الخلق وإذعانهم وتذلُّلهم إلاَّ لصاحب العزَّة الكاملة المطلقة ، وصاحب الحكمة التامة البالغـة ، فلا إله غيره ، ولا معبود سواه ، ولا يُعْبد إلاَّ هـو ، فالخلق خلـقه ، والكون مِلْـكه ، والسلطان سلطانه ، والأمـر له وحده ، والألـوهية حقـه ، والقداسـة لأسمـائه ، والكمال لصـفاته ، والحكمـة في أفعاله ، والأمـر وفق مشيئتـه ، والعدل في أقداره ، والسعيـد مَنْ عبده ، والمفلح مَنْ وحَّده ، والفـائز من أطاعه ، والخاسر من كَـفَره، والجاهل مَنْ عـصاه ، والظالم مَنْ أشرك معه غيره ، والجاحد مَنْ عَـبَدَ سواه ، والجنة والنعيم لمن عبده ووحَّده ، والنار والعذاب لمن كَفَرَه وعـصاه، والعاقبة للمتقين، والخـسران للكافرين، ولا عدوان إلاَّ على الظالمين ، والحمد لله رب العالمين .

والآيات التي بين أيدينا الآنفـة الذِّكْر دلـيل صريح على أن الحكمـة من خلق الخلق هي عبادة الله تعالى وتوحيده ـ جلَّ في علاه ـ .

فما كان لله ـ تعـالى ـ أن يخلق الخلق عبـثاً ، أو أن يتـركهم سـدى ، بل هو الحكيم في أقواله وأفعاله وفي خلقه .

فيجب على العبد المتعبِّـد [للعزيز الحكيم] الذي خَلَقَ الخَلْق بعزته وحكمته أن يحقق العـبودية لله تعـالى ، ولا يصرفـهـا إلاَّ له ، ويبـتعـد عن الشـرك وأسبـابه ودواعيـه وشوائبه ، ويكـفر بكل معـبود دون الله تعـالى ، ويوالي كل من عبـد الله ووحَّده ، ويعادي كل من أشرك مع الله غيره ، ويقاتل ويفتك بكل من أشرك بالله تعالى حتى تكون كلمة الله هي العليا ، وكلمة الذين كفروا وأشركوا هي السفلى .

وهذه بعض أقوال بعض السلف الصالح ـ رحمهم الله ـ في الغاية من خَلْق الخَلْقِ .

قال الإمام الطبري ـ رحمه الله ـ :

((اختلف أهل التأويل[١] في تأويل قوله : ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلاَّ ليعبدون ﴾[٢] .

فقال بعضهم : معنى ذلك : وما خلقت السعداء من الجن والإنس إلاَّ لعبادتي ، والأشقياء منهم لمعصيتي .

وقال آخرون : بل معنى ذلك : وما خلقت الجن والإنس إلاَّ ليذعنوا لي بالعبودية .

وأولى القولين في ذلك بالصواب قول من قال هو : ما خلقت الجن والإنس إلاَّ لعبادتنا ، والتذلُّل لأمرنا))[٣] .

وقال الإمام القرطبي ـ رحمه الله ـ :

((قال علي ـ رضي الله عنه ـ : أي وما خلقت الجن والإنس إلاَّ لآمرهم بالعبادة .

وقيل : أي إلاَّ ليقرُّوا لي بالعبادة طوعاً أو كرهاً .

وعن مجاهد ـ رحمه الله ـ : إلاَّ لآمرهم وأنهاهم .

وعن الكلبي ـ رحمه الله ـ : إلاَّ ليوحدون ، فأما المؤمن فيوحِّده في الشدة والرخاء ، وأما الكافر فيوحِّده في الشدة والبلاء دون النعمة والرخاء .

---

(١) والمقصود هنا بأهل التأويل : أهل التفسير ، وليس المقصود الذين يأولون أسماء الله وصفاته عن معانيها الظاهرة .

(٢) الذاريات (٥٦) .

(٣) تفسير الطبري لسورة الذاريات آية (٥٦) [٧ / ١٢٤ : ١٢٥] .

وقال عكرمة ـ رحمه الله ـ : إلاَّ ليعبدون ويطيعون ، فأثيب العابد، وأعاقب الجاحد))[١].

وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله ـ :

((ومعنى الآية: تبارك وتعالى خلق العباد ليعبدوه وحده لا شريك له ، فمن أطاعه جازاه أتمَّ الجزاء ، ومن عصاه عذَّبه أشدَّ العذاب ، وأخبر أنه غير محتاج إليهم ، بل هم الفقراء إليه في جميع أحوالهم ، فهو خالقهم ورازقهم))[٢] .

وقال الشيخ السعدي ـ رحمه الله ـ :

((هذه الغاية التي خلق الله الجن والإنس لها ، وبعث جميع الرسل يدعون إليها ، وهي عبادته المتضمنة لمعرفته ، ومحبته ، والإنابة إليه ، والإقبال عليه ، والإعراض عما سواه .

وذلك متوقف على معرفة الله تعالى ، فإن تمام العبادة متوقفة على المعرفة بالله ، بل كلما ازداد العبد معرفة بربه كانت عبادته أكمل ، فهذا الذي خلق الله المكلفين لأجله ، فما خلقهم لحاجة منه إليهم))[٣] .

ثانياً : [وجوب عبادة الخالق] :

قال تعالى : ﴿ ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين ﴾[٤] .

---

(١) تفسير القرطبي لسورة الذاريات آية (٥٦) المجلد التاسع [جـ ١٧ / ٣٨] .

(٢) تفسيرابن كثير لسورة الذاريات آية (٥٦) [٤ / ٢٣٠] .

(٣) تفسير السعدي لسورة الذاريات آية (٥٦) (ص : ٧٥٥) .

(٤) الأعراف (٥٤) .

وقال تعالى : ﴿ ومالي لا أعبد الذي فطرني وإليه ترجعون ﴾(١) .

إن التعبُّد لله تعالى ـ العزيز الحكيم ـ حق لهذا الإله العظيم الذي خلق الخلق جميعاً ، والذي أَوْجَدَهم من العدم ، والذي رزقهم وربَّاهم برزقه ورعايته وفضله ، فكان الأحق بالعبادة ، ومن الإنصاف وضع الأمور في نصابها ، ومن موافقة الفِطَر السليمة ، والعقول المستنيرة أن يُعْبد هذا الإله الخالق ، صاحب العزة والحكمة ، الذي أوجد هذا الخلق بعزته التي لا ترام ، وحكمته التي لا تماثل ، وعلمه الذي لا يخفى معه ولا عليه أي شيء في الأرض ولا في السماء ، ولا في أي مكان في الوجود ، فهو سبحانه وتعالى الذي أوجد ، والذي خلق ، والذي رزق ، والذي ربَّى ، والذي أوى وحفظ ، والذي دبَّر وقدَّر ، والذي سيَّر وهدى ، والذي قبض وبسط ، والذي أعطى ومنع ، والذي أمهل وستر ، والذي نظَّم وأحكم ، والذي أحي وأمات ، والقادر على البعث ، والمالك ليوم الدين ، والذي يُعذِّب وينعِّم ، والذي بيده مقاليد كل شيء ، فإن الذي هذه هي صفاته ، وهذه أفعاله ، وتلك مقاديره وأقداره أحق بالعبادة ، ولا يُتعبَّد بأسمائه وصفاته إلا هو ولا يُذْعَن لعزته ويُسَلَّم بحكمته إلا هو ـ جلَّ في عليائه ـ فهو العزيز الحكيم صاحب العزة الكاملة المطلقة التي لا ترام ، وصاحب الحكمة البالغة التامة التي لا تماثل ، العزيز الحكيم في كل أقواله وأفعاله وأقداره .

فهو الأحق بالعبادة ، وأَهْلٌ أن يُعْبَدَ ، والألوهية حقه ، ولا تُصرْف العبادة إلاَّ له ولا يُسبَّح إلا بحمده ، ولا يُذَلُّ إلاَّ لعزته ، ولا يُخْضَع إلاَّ لحُكْمه وأحكامه ، والكون كله وفق حكمته ، فتبارك الإله المعبود [العزيز الحكيم] .

---

(١) يس (٢٢) .

قال العلامة ابن القيم ـ رحمه الله ـ :

(ومما يدل أيضاً أنه سبحانه يحتجُّ على فساد مذهب من عَبَدَ غيره بالأدلة العقلية التي تقبلها الفِطَر والعقول ويجعل ما ركَّبه في العقول من حُسْن عبادة الخالق وحده وقُبْح عبادة غيره من أعظم الأدلة على ذلك وهذا في القرآن أكثرمن أن يُذْكَر هنا ، ولولا أنه مُسْتقِرٌّ في العقول والفِطَر حُسْن عبادته وشكره وقُبْح عبادة غيره وترك شكره لما احتج عليهم أصلا وإنما كانت الحجة في مجرد الأمر وطريقة القرآن صريحة في هذا كقوله تعالى :

﴿ يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناءً وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون ﴾[1] .

فذكر سبحانه أمرهم بعبادته ، وذكراسم الرب مضافاً إليهم لمقتضى عبوديتهم لربهم ومالكهم ، ثم ذكر ضروب أنعامه عليهم بإيجادهم وإيجاد مَنْ قبلهم ، وجعل الأرض فراشا لهم يمكنهم الاستقرار عليها والبناء والسكنى ، وجعل السماء بناء وسقفا فذكر أرض العالم وسقفه، ثم ذكر إنزال مادة أقواتهم ولباسهم وثمارهم منبِّهاً بهذا على استقرار حسن عبادة من هذا شأنه ، وتشكره الفِطَر والعقول ، وقُبْح الإشراك به وعبادة غيره، ومن هذا قوله تعالى حاكيا عن صاحب ياسين أنه قال لقومه محتجاً عليهم بما تقرُّه فطرهم وعقولهم : **﴿ ومالي لا أعبد الذي فطرني وإليه ترجعون ﴾**[2] .

---

(١) البقرة (٢١ : ٢٢) .
(٢) يس (٢٢) .

فتأمل هذا الخطاب كيف نجد تحته أشرف معنى وأجلّه وهو أن كونه سبحانه فاطر العباد يقتضي عبادتهم له ، وأن مَنْ كان مفطورا مخلوقاً فحقيق به أن يعبد فاطره وخالقه، ولاسيما إذا كان مردَّه إليه ، فمبدأه منه ومصيره إليه ، وهذا يوجب عليه التفرُّغ لعبادته ثم احتج عليهم بما تقربه عقولهم وفطرهم من قبح عبادة غيره وإنها أقبح شيء في العقل وأنكره فقال: ﴿ **أأتخذ من دونه آلهة إن يردن الرحمن بضر لا تغن عني شفاعتهم شيئا ولا ينقذون إني إذا لفي ضلال مبين** ﴾(١) .

أفلا تراه كيف لم يحتج عليهم بمجرد الأمر بل احتج عليهم بالعقل الصحيح ومقتضى الفطرة ومن هذا قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب ما قدروا الله حق قدره إن الله لقوي عزيز** ﴾(٢) .

فضرب لهم سبحانه مثلاً من عقولهم يدلُّهم على قُبْح عبادتهم لغيره وإن هذا أمر مستقر قُبْحه وهَجَنَته في كل عقل وإن لم يَرِدْ به الشرع ، وهل في العقل أنكر وأقبح من عبادة من لو اجتمعوا كلهم لم يخلقوا ذباباً واحداً وإن يسلبهم الذباب شيئا لم يقدروا على الانتصار منه واستنقاذ ما سلبهم إياه ، وترك عبادة الخلاَّق العليم القادر على كل شيء الذي ليس كمثله شيء ، أفلا تراه كيف احتج عليهم بما ركَّبه في العقول من حسن عبادته وحده وقُبْح عبادة غيره قال تعالى :

---

(١) يس (٢٣ : ٢٤) .

(٢) الحج (٧٣ : ٧٤) .

﴿ ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون ورجلاً سلما لرجل هل يستويان مثلا ﴾[(١)].

هذا مَثَلٌ ضربه الله لمن عَبَدَه وحده فسلَّم له ، ولمن عَبَدَ من دونه آلهة فهم شركاء فيه متشاكسون عسرون ، فهل يستوي في العقول هذا وهذا ؟ وقد أكثر تعالى من هذه الأمثال ونوَّعها مستدلاً بها على حُسْن شكره وعبادته ، وقُبْح عبادة غيره ، ولم يحتج عليهم بنفس الأمر بل بما ركَّبه في عقولهم من الإقرار بذلك . وهذا كثير في القرآن فمن تتبعه وجده))[(٢)] .

ويُلخِّص العلامة ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ في مكان آخر أحقية الله سبحانه وتعالى [العزيز الحكيم] الذي خلق الخلق أجمعين ـ للعبادة في أمرين ، كل منهما يستحق أن يكون دافعاً للعبد أن يعبد هذا الإله الخالق الذي أوجد هذا الإنسان بعزته وقوته ووفق حكمته ، وذلك إذا كان هناك أي نوع من أنواع العدل والإنصاف ، وتوقير لهذا الإله الخالق صاحب العزة والحكمة ، فالذي خلق هذا الإنسان يستحق التوقير ، ومن صور هذا التوقير عبادته وحده ، وصرف العبادة له دون سواه ، وأشار القرآن الكريم لهذه العلاقة بين [التوقير والخلق] علي لسان نوح عليه السلام ﴿ مالكم لا ترجون الله وقاراً وقد خلقكم أطواراً ، ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقاً وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجًا والله أنبتكم من الأرض نباتاً ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجاً ﴾[(٣)] .

---

(١) الزمر (٢٩) .

(٢) مفتاح دار السعادة لابن القيم الجوزية [٢ / ٣٥٩ : ٣٦٠] .

(٣) نوح (١٣ : ١٨) .

فمن خلق وأوْجد ورزق وأنْعم هو الأحق بالعبادة ، وهي من حقوقه ـ جلَّ في علاه ـ فذاته المقدَّسة ، وأوصافه الكاملة ، ونعَمه المتتابعة والمتتالية تستوجب على كل الخلق أن يذعنوا بالعبودية لهذا الخالق العزيز الحكيم ، ولا يُصْرَف أي نوع من العبودية إلاَّ له ، وأن يُتَبَرَّأ من كل معبود دون الله .

يقول العلامة ابن القيم ـ رحمه الله ـ في هذا المقام :

((فهذان مسلكان آخران في حسن التكليف والأمر والنهي ...

أحدهما : يتعلّق : [بذاته وصفاته] وأنه أَهْلٌ لذلك ، وأن جماله تعالى وكماله وأسماءه وصفاته تقتضي من عباده غاية الحبّ والذُّل والطاعة له ...

والثاني :

متعلِّق [بإحسانه وإنعامه] ولا سيما مع غناه عن عباده وأنه إنما يحسن إليهم رحمة منه وجوداً وكرماً ، لا لمعاوضة ولا لاستجلاب منفعة ، ولا لدفع مضرة .

وأي المسلكين سلكه العبد أوقفه على محبته ، وبَذَلَ الجهد في مرضاته..))[1] .

ثالثاً : [الشرائع طريق العبادة] :

قال تعالى: **﴿ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن﴾**[2]. إن الله [العزيز الحكيم] خلق الخلق، وعرَّفهم بخالقهم، وعلَّمهم من أسمائه وصفاته، وأمرهم بعبادته، والتعبُّد له بأسمائه الحسنى، وصفاته العليا، ولكن سبحانه وتعالى رحيم بعباده، رؤوف بهم، ولم يكلِّفهم ما لا يطيقون، بل

---

(١) (مفتاح دار السعادة) لابن القيم الجوزية [٢/ ٤٤٤].

(٢) المؤمنون (٧١).

يسَّر لهم أمورهم وأحوالهم ، وخفف عنهم ما يعنتهم ، ورفع عنهم الحرج - قال تعالى : ﴿ وما جعل عليكم في الدين من حرج ﴾(١) .

ولذلك لمَّا فرض الله تعالى على عباده وخلقه عبادته أرسل لهم الرسل ، وأنزل لهم الكتب، وشرَّع لهم الشرائع ، وبيَّن لهم كيفية عبادته ، رغم أنه [العزيز] الغني عن عباده وعن عبادتهم ، ولكنه رحمهم بهذه العزة ، فهو لا يظلم عباده شيئاً ، فلا تزيده عزته إلاَّ رحمة وشفقة على عباده ، وبحكمته سبحانه وتعالى فصَّل ووضَّح لعباده كيفية عبادته ، رغم عدم زيادة عبادة عباده في ملكه شيئاً ، ولا نقصان معصيتهم في ملكه شيئاً ، إلاَّ أنه سبحانه وتعالى بمقتضى حكمته وعزته رفع العنت عن عباده وأنزل إليهم الكتب بواسطة رسله ليعلِّموا الناس شرائع الله وأحكام دينه لكي يعبدوا الله على علم ، وعلى وعي ، وعلى هدى ، عبادة صحيحة سليمة ، خالية من الشرك والشوائب والنقصان .

فكانت الشرائع التي أرادها الله لعباده على اختلاف أزمانهم وظروف حياتهم رحمة للعباد ، ورفعا للحرج عنهم ، ودفعاً للعنت ، وتسهيلاً للتعبُّد لله تعالى حق العبادة ، والتعبُّد له حق العبودية ، فماكان ذلك إلاَّ بعزة الله وقدرته علي إنزال الكتب ، وإرسال الرسل ، وتشريع الشرائع وحكمته في تيسير أمور العبادة وتفصيلها لعباده ، حتى لا يكون لهم حجة على الله تعالى ولذلك قال تعالى : ﴿ وماكنا معذبين حتى نبعث رسولا ﴾(٢) وحتى يحيا من حيَّ عن بينه ، ويهلك من هلك عن بينه ، ويعذِّب الله الجاحد ويُنَعِّم العابد، ولكي يثق المتعبِّدون للعزيز الحكيم في وعد الله وثوابه لعبادة المؤمنين .

---

(١) الحج (٧٨) .
(٢) الإسراء (١٥) .

قال العلامة ابن القيم ـ رحمه الله ـ :

((الشرائع كلها في أصولها وإن تباينت متفقة ، مركوز حسنها في العقول، ولو وقعت على غير ما هي عليه لخرجت عن الحكمة والمصلحة والرحمة بل من المحال أن تأتي بحلاف ما أتت به .

﴿ **ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن** ﴾[1] .

وكيف يجوِّز ذو العقل أن ترد شريعة أحكم الحاكمين بضد ما وردت به فالصلاة قد وضعت علي أكمل الوجوب وأحسنها التي تَعَبَّد بها الخالق تبارك وتعالى عباده من تضمُّنها للتعظيم له بأنواع الجوارح من [نطق اللسان ، عمل اليدين، والرجلين، والرأس وحواسه، وسائر أجزاء البدن] ، كلٌ يأخذ لحظه من الحكمة في هذه العبادة العظيمة المقدار ، مع أخذ الحواس الباطنة بحظها منها وقيام القلب بواجب عبوديته فيها ، فهي مشتملة على [الثناء والحمد ، والتمجيد ، والتسبيح ، والتكبير، وشهادة الحق ، والقيام بين يدي الرب مقام العبد الذليل الخاضع المدبَّر المربوب، ثم التذلُّل له في هذا المقام ، والتضرُّع والتقرُّب إليه بكلامه، ثم انحناء الظهر ذُلاً له وخشوعا واستكانة ، ثم استواؤه قائما ليستعد لخضوع أكمل له من الخضوع الأول وهو السجود من قيام فيضع أشرف شيء فيه وهو وجهه على التراب خشوعا لربه واستكانة وخضوعا لعظمته وذلاً لعزته ، قد انكسر له قلبه وذلَّ له جسمه ، وخشعت له جوارحه ، ثم يستوي قاعدا يتضرَّع له ويتذلَّل بين يديه ويسأله من فضله ، ثم يعود إلى حاله من الذُّلِّ والخشوع والاستكانة فلا يزال هذا دأبه حتى يقضي صلاته ، فيجلس عند إرادة الانصراف منها مثنيا على

(١) المؤمنون (٧١) .

ربه ، مُسلِّماً على نبيه ـ ﷺ ـ وعلى عباده ثم يصلي على رسوله ثم يسأل ربه من خيره وبرِّه وفضله]. فأي شيء بعد هذه العبادة من الحُسْن ، وأي كمال وراء هذا الكمال ،وأي عبودية أشرف من هذه العبودية ، فمَنْ جوَّز عقله أن تَرِدَ الشريعة بضدِّها من كل وجه في القول والعمل ، وأنه لا فرق في نفس الأمر بين هذه العبادة وبين ضدها من السخرية والسب والبطر وكشف العورة والبول على الساقين والضحك والصفير وأنواع المجون وأمثال ذلك فَلْيُعَز عقله وليسأل الله أن يهبه عقلا سواه))[1].

رابعاً : [كيفية تحقيق كمال العبودية] :

قال تعالى : ﴿ قل إني أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين ﴾[2] .

وقال تعالى : ﴿ قل الله أعبد مخلصاً له ديني ﴾[3] .

إن كمال العبودية [للعزيز الحكيم] الذي خلق الخلق ، وأمرهم بعبادته لن تتأتى لأحد من العباد ، إلاَّ إذا انفتح قلبه ، وانشغل ذهنه ،وأمعن فكره ، في أسماء الله الحسنى ، وصفاته العليا ، فبقدر ما يعيش مع هذه الأسماء والصفات ، وبقدر معرفته ويقينه بأسماء الله الحسنى ، وصفاته العليا ، وما يدل عليه كل اسم ، وما تقتضي كل صفة ، وما يلزم من معرفة هذه الأسماء والصفات من عبادات بقدر ما يكون العبد على درجات الكمال في عبوديته لله ـ تعالى ـ جلَّ في عليائه .

---

(١) (مفتاح دار السعادة) لابن القيم الجوزية [٢ / ٣٥٣ : ٣٥٤] .

(٢) الزمر (١١) .

(٣) الزمر (١٤) .

فكلَّما كان العبد أعلم وأعرف بأسماء الله الحسنى ، وصفاته العليا ، وما تقتضيه هذه الأسماء والصفات ، وما يستلزم من معرفتها كلَّما أخلص دينه لله - تعالى - وعَبَدَه وحده ، وتبرأ من عبادة غيره ، وارتقى في مقامات ودرجات العبادة حتى أنه ليصل إلى مرحلة عبادة الله - تعالى - بعين المشاهدة ، فيعبد الله تعالى كأنه يراه وإن لم يكن يراه فهو يعتقد أن الله يراه ، فيبلغ بذلك مرحلة الإحسان في العبادة التي هي درجة من درجات الكمال في العبادة [للعزيز الحكيم] الذي خلق الخلق وأمرهم بإخلاص العبادة له كما قال الرسول - ﷺ - عن الإحسان « **أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك** »[1] .

فإذا آمن العبد بأسماء الله الحسنى ، وصفاته العليا وتعبَّد لله تعالى بها ، واستحضرها دائماً نُصْبَ أعينه ، وفي سويداء قلبه ، وفي تعامله في جميع شؤون حياته فسوف يصل إلى مرحلة الإحسان في العبادة لأنه اعتقد أن الله تعالى سميع يسمعه ، وبصير يُبْصره ، وعليم يعلم كل شؤونه ، وعزيز يقدرعليه ، وحكيم ما خلقه عثبا ، ولن يتركه سدى ، وجبار لا يُفْلَتُ منه ، ورحيم يرحم عباده ، وغفور يغفر الذنوب ، وستير يستر العيوب ، وحليم يحلم بعباده ، .... كل ذلك يجعل العبد يراقب ربه حق المراقبة ، ويعبده حق العبودية، ويعبده في الظاهر والباطن ، ويراقبه في السرِّ والعلن .

فعل قدرعلمه ومعرفته وإيمانه بأسماء الله الحسنى ، وصفاته العليا ، يكون العبد على درجات الكمال في العبودية ، وصلاحه وتقواه ، وكما قيل [**مَنْ كان لله أعرف كان له أتقي**] .

---

(١) رواه البخاري في كتاب (الإيمان) باب (سؤال جبريل للنبي - ﷺ - عن الإيمان ، الإسلام ، الإحسان) ، ورواه مسلم في كتاب (الإيمان) باب (بيان الإيمان والإسلام والاحسان) .

قال الشيخ السعدي ـ رحمه الله ـ :

في قوله تعالى : ﴿ فاعبد الله مخلصاً له الدين ألا له الدين الخالص ﴾[١] .

((أي : أخلص لله تعالى جميع دينك من الشرائع الظاهرة ، والشرائع الباطنة: الإسلام ، والإيمان ، والإحسان ـ بأن تُفْرد الله وحده بها ، وتقصد به وجهه لا غير ذلك من المفاسد .

﴿ **ألا لله الدين الخالص** ﴾ : هذا تقرير للأمر بالإخلاص ، وبيان أنه تعالى كما أنه له الكمال كله ، وله التفضُّل على عباده من جميع الوجوه ، فكذلك له الدين الخالص ، الصافي من جميع الشوائب .

فهو الدين الذي ارتضاه لنفسه ، وارتضاه لصفوة خلقه ، وأمرهم به لأنه متضمِّن للتأله لله في حبه ، وخوفه ، ورجائه ، والإنابة إليه في تحصيل مطالب عباده))[٢] .

وقال العلامة ابن القيم ـ رحمه الله ـ :

((وجماع الأمر في ذلك إنما هو بتكميل عبودية الله ـ عزَّ وجلَّ ـ في الظاهر والباطن فتكون حركات نفسه وجسمه كلها في محبوبات الله ، وكمال عبودية العبد موافقته لربه في محبته ما أحبه ، وبذل الجهد في فعله ، وموافقته في كراهة ما كرهه ، وبذل الجهد في تركه ، وهذا إنما يكون للنفس المطمئنة ، لا للأمَّار ولا للوَّامة ، فهذا كمال من جهة الإرادة والعمل ، وأمامن جهة العلم والمعرفة فأن تكون بصيرته منفتحة في معرفة الأسماء والصفات والأفعال له شهود خاص فيها

(١) الزمر (٢ : ٣) .

(٢) تفسيرالسعدي لسورة الزمر آية (٢ : ٣) (ص : ٦٦٤) .

مطابق لما جاء به الرسول - ﷺ - ، لا مخالف له ، فإن بحسب مخالفته له في ذلك يقع الانحراف ويكون ذلك قائما بأحكام العبودية الخاصة التي تقتضيها كل صفة بخصوصها ، وهذا سلوك الأكياس الذين هم خلاصة العالم ، والسالكون على هذاالدرب أفراد من العالم ، طريق سهل قريب موصل ، طريق آمن أكثر السالكين في غفلة عنه ، ولكن يستدعي رسوخاً في العلم ومعرفة تامة به وإقداماً على ردِّ الباطل المخالف له ولو قاله من قاله ، وليس عند أكثر الناس سوى رسوم تلقوها عن قوم معظَّمين عندهم ، ثم لإحسان ظنهم بهم قد وقفوا عند أقوالهم ولم يتجاوزوها فصارت حجاباً لهم وأي حجاب . فمن فتح الله عليه بصيرة قلبه وإيمانه حتى خرَقَها وجاوزها إلى مقتضى الوحي والفطرة والعقل فقد أوتي خيرا كثيرا ، ولا يخاف عليه إلا من ضعف همته ، فإذا انضاف إلى ذلك الفتح همة عالية فذاك السابق حقاً ، واحد الناس في زمانه ، لا يلحق شأوه غباره ، فشتان ما بين من يتلقَّى أحواله وارداته عن الأسماء والصفات وبين من يتلقَّاها عن الأوضاع الإصطلاحية والرسوم أوعن مجرد ذوقه وَوَجْده ، إذا استحسن شيئا قال : هذا هو الحق .

فالسير إلى الله من طريق الأسماء والصفات شأنه عجب ، وفتحه عجب ، صاحبه قد سيقت له السعادة وهو مستلقٍ على فراشه غير تعب ولا مكدود ولا مُشتَّت عن وطنه ولا مُشرَّد عن سكنه .

﴿ وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مرَّ السحاب ﴾[1] ، [2] .

---

(١) النمل (٨٨) .

(٢) (طريق الهجرتين وباب السعادتين) لابن القيم الجوزية (ص : ٣٩٣ : ٣٩٤] .



[المبحث الثانـــــــي]

تدبُّر حكمة وقدرة العزيز الحكيم في البعث

مدخــل :

المطلب الأول : قدرة العزيز الحكيم على البعث

المطلب الثاني : نبي الله إبراهيم - ﷺ - يسأل عن البعث

المطلب الثالث : إنكــار الكفــار للبعث

المطلب الرابع : حكمة العزيز الحكيم في البعث

المطلب الخامس : خَلْق بعثهم العزيز الحكيم في الدنيــا





[تدبُّر حكمة وقدرة العزيز الحكيم في البعث]

مدخـل :

قال الله تعالى : ﴿ وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ثم ادعهن يأتينك سعياً واعلم أن الله عزيز حكيم ﴾(١).

وقال تعالى : ﴿ وهو الذي يبدؤا الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾(٢) .

إن المتأمل في هذا الوجود وفي جميع الخلق ليلحظ العَجَبَ العُجَاب ، ويجد نفسه أمام أشياء عِظَام ، يحتار فيها العقل المجرد ، ويتعجَّب لها كل ناظر ومتأمل، فهذه السماوات وكيف رُفِعْت ، وهذه الأرض وكيف سُطِحت ، وهذه الجبال التي نُصِبَت ، وهذه البحار كيف أُجْرِيت ، وهذه المخلوقات من الإنس والجن والبهائم ، والطيور والحشرات وغيرها كيف خُلِقَت ، والأعجب من ذلك بعد موتها وفنائها أين تذهب ، ويأتي غيرها بعدها .

فهل خُلِقَتْ هذه المخلوقات على عِظَمِها عبثاً وبدون حكمة ؟!!

وهل تُتْرك سُدَى ؟!!

وهل يكون فناؤها نهاية مطافها ، وآخر أمرها ؟

---

(١) البقرة (٢٦٠) .

(٢) الروم (٢٧) .

وهل يتفق عِظَم خلق هذه المخلوقات مع تركها سُدَى ، ونهايتها بمجرد موتها ؟!!

وهل هذا العقل ـ الذي هو من أعظم ما مُنِح الإنسان ـ يستوعب أن الموت والفناء هو نهاية الأمر ؟!!

إن الدين الحنيف، والشرع القويم ليجيب السائل ، ويهدي الضال ، ويوجِّه الحائر ، ويُنيرُ العقول ، ويُرْشد كل السالكين إلى طريق الحق ، وسُبُل الهدى ، وبرِّ الأمان ، وشاطئ النجاة ، فيقول الحق ـ جلَّ في علاه ـ : ﴿ **ذالكم الله ربكم فاعبدوه أفلا تذكرون إليه مرجعكم جميعاً وعد الله حقاً إنه يبدؤا الخلق ثم يعيده ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط والذين كفروا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون** ﴾[1] .

فأوضح ـ جلَّ في عليائه ـ الأمر كله من أوله إلى آخره في هذه الكلمات المعدودات وضوحاً جلياً لا لَبْسَ فيه ، ولا مجال فيه للمغالطات ، والفلسفات والتأويلات فبيَّن ـ سبحانه وتعالى ـ :

١ ـ أنه هو الإله لكل العالمين .

٢ ـ أنه رب وخالق كل الموجودات .

٣ ـ أنه سبحانه وتعالى المستحق للعبادة وحده دون غيره .

٤ ـ أن المرجع والمآب له وحده .

٥ ـ أنه هو الخالق وحده .

---

(١) يونس (٣ : ٤) .

٦ ـ أنه سيعيد خلق هؤلاء الخلق مرة أخرى يوم القيامة ـ وهو يوم البعث ـ .

٧ ـ يبعث الذين آمنوا لكي يجزل لهم العطاء ويثيبهم على إيمانهم .

٨ ـ يبعث الذين كفروا ليذيقهم سوء العذاب ويعاقبهم على كفرهم .

٩ ـ أن الله لم يخلق الخلق عبثاً ، ولم يتركهم سُدَى .

١٠ ـ أن الله أرسل الرسل ، وأنزل الكتب ليبيِّن للناس الحق ويحذِّرهم من الباطل ، مبشِّرين ومُنْذِرين لئلا يكون لأحد على الله حجة بعد الرسل ، وليحيا من حيٍّ عن بينة ويهلك من هلك عن بينه، ويكون يوم القيامة ـ يوم البعث ـ هو يوم الحساب والجزاء على الأعمال والأفعال وما ربك بظلام للعبيد .

[المطلب الأول]
قدرة العزيز الحكيم على البعث

قال تعالى : ﴿ وهو الذي يبدؤا الخلق ثم يعيده ، وهو أهون عليه وله المثل الأعلى في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾(١) .

إن قضيتا الخلق والبعث من أهم وأعظم القضايا ، ومن أكبر آيات وعلامات قدرة وعظمة وعزَّة وحكمة العزيز الحكيم - جلَّ في عليائه - .

فإن خلق الخلق على هذه الصورة التي يراها الجميع أكبر دليل على مدى عزَّة، وقدرة وإرادة ، ومشيئة ، وحكمة ، وإحكام [العزيز الحكيم] الذي أتقن كل شيء خَلَقَهُ وأحكم خَلْق جميع المخلوقات فهذا الخلق ما كان ليكون على صورته هذه ، وبهذا الإتقان ، وهذا الإحكام إلاَّ أن يكون خالقه ومُوجِدْه إلاهاً عزيزاً قوياً حكيماً ، خلقه بعزته وقوته ، وأوجده لحكمة أرادها .

ومن تمام حكمة خلق الخلق أن يبعث الله هذا الخلق مرة أخرى بعد موتهم وفنائهم ليجازيهم على أعمالهم ، فيثيب ويُنَعِّم المؤمنين ، ويعاقب ويُعذِّب الكافرين، ولا يقدر على هذا الخلق وهذا البعث إلاَّ صاحب العزَّة والحكمة الذي له العزَّة الكاملة المطلقة ، والذي له الحكمة البالغة التامة .

[وجوب الإيمان بالبعث] :

فإن بعث الخلق بعد موتهم ، وبعد أن أصبحوا رفاتاً وعظاماً ، بل وعادوا تراباً إنه شيء عظيم لا يقوى عليه ، ولا يستطيعه إلاَّ الإله العزيز الحكيم ولعظمة هذا الأمر ، وعزَّة وقوة وحكمة فاعله استغربه الكفار واستبعدوه بل وضربوا به المثل

---

(١) الروم (٢٧) .

على استبعاد وإنكار البعث فقالوا كما حكى عنهم القرآن الكريم : ﴿ وقالوا أإذا كناعظاماً ورفاتا أءنا لمبعوثون خلقاً جديداً ﴾[1] .

فما ضربوا هذا المثل ، وما قالوا ذلك القول إلاَّ لعظمة هذا الأمر ، واستلزامه لعزة وقوة خارجة عن قوة وعزة وهيمنة البشر ، بل وكل المخلوقين .

نعم ، إن الذي أمات كل هؤلاء الخلق ، ويعلم أسماءهم ، ويعلم مكانهم ، ويحصى أعدادهم ، ويجمع رفاتهم وعظامهم ، ويبعثهم بأرواحهم وأجسادهم على اختلاف ألوانهم ، وتعدُّد أجناسهم ،وتباعد أمكانهم ، وتناثر أعضائهم وتباين أشلائهم ، واختلاف أزمانهم ، وتعدد دياناتهم ، واختلاف عقائدهم ، وتباين طبائعهم ... إن الذي أمات هؤلاء والقادر على بعثهم انه بحق إله عزيز قوي لا يُعْجزه شيء أراده ، إله حكيم في كل أفعاله وفي كل ما أراده ، ولا يكون ذلك إلاَّ لإله واحد يتفرَّد بالألوهية الحقة ، وبالعزة الكاملة المطلقة ، والحكمة البالغة التامة جلَّ في عليائه [العزيز الحكيم] .

ولذلك فإن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ يؤكد على هذا الأمر في كتابه العزيز في كثير من الآيات الكريمة بأنه هو الذي يبدأ الخلق ، وهو الذي يعيده مرة ثانية فهو الخالق الباعث لجميع الخلق كما قال تعالى : ﴿ وهو الذي يبدؤا الخلق ثم يعيده ﴾[2].

فيقرِّر سبحانه وتعالى على أنه هو الخالق لكل الخلق ، وأنه سوف يبعثهم مرة أخرى بعد الموت ، ويبرهن على ذلك ويدلِّل بأنه هو العزيز الحكيم الذي يستطيع ذلك بعزته وحكمته فيذكر في آخر الآية هذين الاسمين الحسنيين [العزيز الحكيم]

---

(١) الإسراء (٤٩) .

(٢) الروم (٢٧) .

وهاتين الصفتين الحميدتين [العزة والحكمة] فيقول سبحانه وتعالى ﴿ وهو العزيز الحكيم ﴾[١].

قال الإمام الطبري ـ رحمه الله ـ :

((يقول تعالى ذِكْرُه : والذي له هذه الصفات تبارك وتعالى ، هو الذي يبدأ الخلق من غير أصل فينشئه ويوجده ، بعد أن لم يكن شيئاً ، ثم يفنيه بعد ذلك ، ثم يعيده ، كما بدأه بعد فنائه))[٢] .

وقال الإمام القرطبي ـ رحمه الله ـ :

((أما بدء خلقه فبعلوقه في الرحم قبل ولادته ، وأما إعادته فإحياؤه بعد الموت بالنفخة الثانية للبعث ، فجعل ما عُلِمَ من ابتداء خلقه دليلاً على ما يخفى من إعادته ، استدلالاً بالشاهد على الغائب))[٣] .

الخلق والبعث كلاهما هيِّنٌ على العزيز الحكيم :

قال تعالى : ﴿ وهو أهون عليه ﴾[٤] .

يخبر العزيز الحكيم عن نفسه أنه هو الذي خلق الخلق جميعه ، وأنه هو الذي سيعيده مرة ثانية ويبعث مَنْ في القبور ، وكل ذلك هين على الله تعالى فما الخلق عليه بصعب ، والبعث لا يعجزه ، فالكل على العزيز صاحب العزة ، والحكيم صاحب الحكمة هينٌ ولا يعجزه من ذلك شيء .

---

(١) الروم (٢٧) .

(٢) تفسير الطبري لسورة الروم آية (٢٧) [٦ / ١٠١] .

(٣) تفسير القرطبي لسورة الروم آية (٢٧) المجلد السابع [جـ ١٤ / ١٥] .

(٤) الروم (٢٧) .

وأمَّا قوله سبحانه وتعالى أنه أهون عليه فهو مَثَلٌ ضربه الله للخلق بما يناسبهم، وبما اعتادوا عليه ، وبما يوافق عقولهم بأن الإعادة أهون ، ولكن الإله العزيز الحكيم الأمر عنده سواء ، والكل عليه هين ، فإن من تمام العزة الكاملة المطلقة أن يكون كل شيء يريده الله هيناً ، فكل شيء أمام عزة العزيز ، وحكمة الحكيم سهل وقريب ويقول له سبحانه وتعالى كن فيكون .

قال تعالى : ﴿ **إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون** ﴾[1] .

وقال تعالى : ﴿ **إذا قَضي أمراً فإنما يقول له كن فيكون** ﴾[2].

وقد يكون المقصود [بأهون] هنا [هين] وهذا كثير ومستعمل في لغة العرب فيكون المعنى أن الله سبحانه وتعالى هو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو هين عليه ـ أي البعث ـ كما أن الخلق هين أيضاً .

قال الإمام الطبري ـ رحمه الله ـ :

((فقال بعضهم : معناه : وهو هين عليه .

وهو أن يكون معناه : وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده ، وهو أهون على الخلق أي إعادة الشيء أهون على الخلق من ابتدائه))[3] .

وقال الإمام القرطبي ـ رحمه الله ـ :

((وأهون بمعنى : هين ، أي الإعادة هين عليه ، قاله الربيع بن خيثم والحسن فأهون يعني هين ، لأنه ليس شيء أهون على الله من شيء .

---

(١) يس (٨٢) .

(٢) مريم (٣٥) .

(٣) تفسير الطبري لسورة الروم آية (٢٧) [٦ / ١٠١ : ١٠٢] .

قال أبو عبيدة :

ومن جعل أهون يُعبِّر عن تفضيل شيء على شيء فقوله مردود بقوله تعالى : ﴿ وكان ذلك على الله يسيراً ﴾[١] .

وقوله : ﴿ ولا يؤده حفظهما ﴾[٢] .

والعرب تحمل أفعل على فاعل ومنه قول الفرزدق :

إن الذي سَمَكَ السماء بنى لنا بيتاً دعائمه أعز وأطـول

(أي دعائمه عزيزة طويلة) .

وقال آخـــر :

لعمرك مـا أدري وإني لأوْجَـل على أينا تعدد المنيِّـة أوَّل

(أي إني لوجل) .

ومنه قولهم : الله أكبر ، إنما معناه الله الكبير ....

هذا مَثَلٌ ضربه الله لعباده ، يقول : إعادة الشيء على الخلائق أهون من ابتدائه، فينبغي أن يكون البعث لمن قدر على البداية عندكم وفيما بينكم أهون عليه من الإنشاء .

وقيل :

الضمير في « عليه » للمخلوقين ، أي وهو أهون عليه ، أي على الخلق ، يصاح بهم صيحة واحدة فيقومون ويقال لهم : كونوا فيكونون ، فذلك أهون

---

(١) النساء (١٦٩) .
(٢) البقرة (٢٥٥) .

عليهم من أن يكونوا نطفاً ثم علقاً ثم مضغاً ثم أجنة ثم أطفالاً ثم غلماناً ثم شباباً ثم رجالاً أو نساءً . وقاله ابن عباس وقُطْرُب .

وقال الربيع بن خيثم ـ رحمه الله ـ :

في قوله تعالى : ﴿ وهو أهون عليه ﴾ قال : ما شيء على الله بعزيز))[1] .

وروى الإمام البخاري ـ رحمه الله ـ في صحيحه : عن ابن عباس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : ((قال الله تعالى كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك ، وشتمني ولم يكن له ذلك ، فأمَّا تكذيبه إياي : فزعم أني لا أقدر أن أعيده كما كان .

وأما شتمه إياي : فقوله : لي ولدٌ ، فسبحاني أن أتخذ صاحبة أو ولداً))[2] .

---

(١) تفسير القرطبي لسورة الروم آية (٢٧) المجلد السابع [جـ ١٤ / ١٥ : ١٦] .

(٢) رواه البخاري كتاب (تفسير القرآن) تفسير سورة البقرة باب (وقالوا اتخذ الله ولدا سبحانه) .

[المطلب الثاني]

نبي الله إبراهيم ـ صلى الله عليه وسلم ـ يسأل عن البعث

قال تعالى : ﴿ وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى قال أو لم تومن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي قال فخذ أربعة من الطير فصرهن اليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ثم ادعهن يأتينك سعياً واعلم أن الله عزيز حكيم ﴾[١] .

إن رسل الله وأنبيائه ـ ﷺ ـ هم أفضل خلق الله تعالى ، وهم أفضل مَنْ عبدوه ، وخير مَنْ تعبَّدوا لله تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العليا ، وأكمل الخلق إيماناً ، وأعْرف الخلق بالله ، وأعلمهم بأمور العقيدة ، ومسائل التوحيد ، فكان توحيدهم أكمل توحيد، وعقيدتهم أصحُّ وأسْلَم العقائد .

فوجب على الخلق أجمعين أن يقتدوا بهؤلاء الأنبياء والمرسلين في أمور العقيدة ، ومسائل التوحيد ، وأن يتبعوهم فيما جاءوا به من شرع الله ، ويقتفوا آثارهم ، بل قد أمر الله ـ سبحانه وتعالى ـ نبيه محمد ـ ﷺ ـ أن يقتدى بإخوانه من الأنبياء والمرسلين الذين سبقوه في قافلة التوحيد ، وخندق العقيدة ، وطريق الإيمان ، ومسيرة التعبُّد لله تعالى بأسمائه الحسنى ، وصفاته العليا .

قال تعالى : ﴿ أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده ﴾[٢] .

---

(١) البقرة (٢٦٠) .

(٢) الأنعام (٩٠) .

[نبي الله إبراهيم - ﷺ - إمام في التوحيد] :

- ونبي الله إبراهيم - ﷺ - الذي هو إمام في التوحيد ، وأمة يُقْتدى به في العقيدة يسأل ربه عن البعث ، ويطلب منه - سبحانه وتعالى - أن يُريه صورة حية ، ومثال يُرى لإحياء الموتى ، لا عن شك وريب ، ولكن عن يقين وثقة في قدرة الله تعالى وعزته ، ومن أجل أن يطمئن قلبه ، ويزداد إيمانا مع إيمانه ، وليجمع مع يقين القلب بقدرة الله على البعث - رؤية العين - .

قال تعالى : ﴿ **إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفاً ولم يك من المشركين شاكراً لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم** ﴾[1] .

ولعلم الله بإيمان إبراهيم الراسخ بقدرة العزيز الحكيم على البعث ، وعقيدته الصحيحة السليمة الراسخة بعزة العزيز ، وحكمة الحكيم ، فلم يوبِّخ الله نبيه إبراهيم - ﷺ - ولم يُنْكر عليه فأعطاه هذا المثال الحي لإحياء الموتى وبعثهم بعد موتهم وذلك رأي العين في الحياة الدنيا قبل الآخرة ، ليكون ذلك استجابة من الله - تعالى - لنبيه إبراهيم - ﷺ - وآية له ولكل مؤمن ، بل ولكل الناس في عصره وفي كل زمان ومكان إلى يوم البعث ، تأكيداً وتقريراً وحجة بالغة لقدرة العزيز صاحب العزة ، ولحكمة الحكيم صاحب الحكمة في البعث وإحياء الموتى يوم ينفخ في الصور .

---

(١) النحل (١٢٠ : ١٢١)

قال الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله ـ :

((وقوله ﴿ **قال خذ أربعة من الطير** ﴾[١] فروى عن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ أنه قال : هي [الغرنوق والطاووس والديك والحمامة] .

﴿ **فصرهن إليك** ﴾[٢] أي وقطّعهن ، وقال العوفي عن ابن عباس أوثقهن ، فلمَّا أوثقهن ذبحهن ثم جعل على كل جبل منهن جزءاً ، فذكروا أنه عمد إلى أربعة من الطير فذبحهن ثم قطَّعن ، ونتف ريشهن ومزَّقهن وخلط بعضهن ببعض ثم جزَّأهن أجزاء، وجعل على كل جبل منهن جزءاً ، قيل أربعة أجبل وقيل سبعة .

قال ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ : وأخذ رؤسهن بيده ثم أمره الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أن يدعهن ، فدعاهن كما أمر الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فجعل ينظر إلى الريش يطير إلى الريش والدم ، واللحم إلى اللحم ، والأجزاء من كل طائر يجيء ليأخذ رأسه الذي في يد إبراهيم ـ عليه السلام ـ . فإذا قدَّم له غير رأسه يأباه ، فإذا قدَّم إليه رأسه تركب مع بقية جسده بحول الله وقوته ولهذا قال : ﴿ **واعلم أن الله عزيز حكيم** ﴾[٣] .

أي : (عزيز) لا يغلبه شيء ، ولا يمتنع من شيء ، وما شاء كان بلا ممانع ، لأنه القاهر لكل شيء ، (حكيم) في أقواله وأفعاله ، وشرعه وقدره))[٤] .

---

(١) البقرة (٢٦٠) .

(٢) البقرة (٢٦٠) .

(٣) البقرة (٢٦٠) .

(٤) تفسير ابن كثير لسورة البقرة (٢٦٠) [١ / ٢٩٨] .

إزالة شبهة :

وتوجد هنا في هذا الموضوع شبهة قد تقع في صدور البعض وذلك للحديث الذي رواه الشيخان ـ البخاري ومسلم :

فعن أبي هريره رضي الله عنه أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : « نحن أحق بالشَّك من إبراهيم إذ قال ﴿ رب أرني كيف تحيي الموتى قال أو لم تؤمن ؟ قال : بلى ولكن ليطمئن قلبي ﴾[1] ، ويرحم الله لوطاً كان يأوي إلى ركن شديد ، ولو لَبِثْتُ في السجن طول ما لبث يوسف لأجبت الداعي))[2] ،[3] .

فقد يظن البعض للوهلة الأولى أن المقصود من هذا الحديث الشريف إثبات الشَّك في البعث في حق نبي الله إبراهيم ـ ﷺ ـ وكذلك في حق رسولنا الكريم ـ محمد ـ ﷺ ـ وسيد الخلق أجمعين محمد ـ ﷺ ـ فما كان لهؤلاء ، الأخيار الأطهار أن يَشُكُّوا في البعث ، ولا أن يَشُكُّوا في قدرة العزيز الحكيم في البعث والنشور ، وكيف يكون من هؤلاء الأخيار ذلك وقد اصطفاهم الله من خلقه ؟!!

فهم خير خلق الله تعالى ، اصطفاهم واجتباهم وفضَّلهم على خلقه أجمعين بل لقد أرسلهم الله ـ سبحانه وتعالى ـ لكي يُخْرِجوا الناس من الظلمات إلى النور ،

---

(١) البقرة (٢٦٠) .

(٢) وذلك حينما طلب الملك أن يأتوا بيوسف ـ ﷺ ـ من السجن بعدما فسَّر رؤية الملك ولكن يوسف ـ ﷺ ـ رفض الخروج من السجن ولم يجب الداعي حتى تثبت براءته مما نسب إليه فطلب من الملك أن يسأل النسوة عما حدث بينه وبينهن ولمَّا ثبتت براءته وطُهْره خرج من السجن وهومرفوع الرأس معزز مكرَّم .

(٣) رواه البخاري في كتاب (أحادث الأنبياء) باب (قول الله تعالى : ﴿ ونبِّئهم عن ضيف إبراهيم﴾ ، ورواه مسلم في كتاب (الفضائل) باب (من فضائل إبراهيم الخليل ـ ﷺ ـ) .

ويرشدونهم إلى توحيد الله تعالى ، ويحثونهم على طاعته ـ جلَّ وعلا ـ ويَعدُونهم بالجنة يوم القيامة يوم يبعثون من قبورهم ، وينذرون كافرهم وعاصيهم بأن لهم النار يوم القيامة يوم يبعثون من قبورهم ، وهذا هو صميم وعمود دعوة الرسل ـ ﷺ ـ الأساس فكيف يليق بهم أن يَشُكُّوا هم في البعث ، وفي قدرة العزيز الحكيم ـ صاحب العزة الكاملة المطلقة ، وصاحب الحكمة البالغة التامة ـ على بعث مَنْ في القبور ؟!!

فليس المراد هنا بالشك ما يتبادر إلى الذهن كما قال كثير من علماء المسلمين رحمهم الله .

قال الحافظ بن كثير ـ رحمه الله ـ :

((فليس المراد ههنا بالشَّك ما قد يفهمه مَنْ لا علم عنده بلا خلاف...))(١).

ولقد أجيب عن هذا الحديث الشريف بأجوبة كثيرة تنفي نسبة هذا الشك إلى هذين النبيين ـ صلى الله عليهما وسلم ـ ومِنْ أشمل وأوْجَه هذه الأجوبة أن مقصود رسولنا الكريم محمد ـ ﷺ ـ أن ينفي الشك عن نبي الله ورسوله إبراهيم ـ ﷺ ـ بل وينفي هذا الشك بشدة ، فهو يُثْنِي على إبراهيم ـ ﷺ ـ بأنه إمامنا في العقيدة والتوحيد ومعرفة الله تعالى بأسمائه وصفاته ، والتي منها [العزة والقوة] التي بهما يبعث مَنْ في القبور ، ولا يتسرَّب الشَّك إلى قلبه وصدره ، فإذا كان أحد أحق بالشَّك في البعث فنحن أحق بالشك في البعث من إبراهيم ـ ﷺ ـ لأن الله أثنى على نبيه ورسوله إبراهيم ـ ﷺ ـ قائلاً : ﴿ **إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله**

---

(١) تفسيرابن كثير لسورة البقرة آية (٢٦٠] ١ / ٢٩٨] .

حنيفاً ولم يكن من المشركين شاكرا لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم ﴾[١] .

فإذا كنا نحن لم نشك في البعث ونحن أقل منه منزلة[٢] فنفى الشك عن إبراهيم - ﷺ - أولى وأحق لأنه قدوتنا وإمامنا في العقيدة والتوحيد .

وأيضا كيف يتسرَّب الشك في البعث إلى صدر نبي الله ورسوله إبراهيم - ﷺ - وقد أخبر الله عنه أنه :

١ - أمة وقدوة

٢ - قانتا لله

٣ - حنيفاً

٤ - لم يكن من المشركين

٥ - شاكراً لأنعم الله

٦ - هداه الله إلى صراط مستقيم

وبعد ذلك يرشد الله - تعالى - نبيه وحبيبه خير الخلق أجمعين محمد - ﷺ - أن يتَّبع ملة نبيه ورسوله - إبراهيم - ﷺ - والسير على دربه واتباعه في مسيرة العقيدة والتوحيد .

قال تعالى : ﴿ **ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين** ﴾[٣].

---

(١) النحل (١٢٠ : ١٢١) .

(٢) ربما يكون تفضيل الرسول - ﷺ - إبراهيم - ﷺ - على نفسه من باب التواضع ، أو قيل أن ذلك قبل أن يُعْلمه ربه بأنه أفضل الخلق أجمعين والله أعلم .

(٣) النحل (١٢٣) .

قال الإمام البغوي - رحمه الله - :

((عن أبي إبراهيم اسماعيل بن يحيى المزني - رحمه الله - أنه قال على هذا الحديث : لم يشك النبي - ﷺ - ولا إبراهيم - ﷺ - في أن الله قادر على أن يحيي الموتى ، وإنما شكًا في أنه هل يجيبهما إلى ما سألا .

وقال أبو سليمان الخطابي - رحمه الله - :

((ليس في قوله نحن أحق بالشك من إبراهيم اعتراف بالشك على نفسه ، ولا على إبراهيم - ﷺ - ولكن فيه نفي الشك عنهما ، يقول : إذا لم أشك أنا في قدرة الله تعالى على إحياء الموتى فإبراهيم - ﷺ - أولى بأن لا يشك .

وقال ذلك على سبيل التواضع والهضم من النفس . وكذلك قوله لو لَبِثْتُ في السجن طول ما لبث يوسف - ﷺ - لأجبت الداعي .

وفيه الإعلام أن المسألة من إبراهيم عليه السلام لم تعرض من جهة الشك ولكن من قبل زيادة العلم بالعيان ، فإن العيان يفيد من المعرفة والطمأنينة ما لا يفيده الاستدلال))[(١)] .

قال الحافظ ابن حجر - رحمه الله - :

((معنى قوله - ﷺ - « نحن أحق بالشك » فقال بعضهم : معناه نحن أشد اشتياقاً إلى رؤية ذلك من إبراهيم ، وقيل :معناه إذا لم نشك نحن فإبراهيم أولى أن لا يشك ، أي لو كان الشك متطرقاً إلى الأنبياء لكنت أنا أحق به منهم ، وقد علمتم أني لم أشك فاعلموا أنه لم يشك . وإنما قال ذلك تواضعاً منه ، أو من قبل أن يُعْلمه الله بأنه أفضل من إبراهيم - ﷺ -))[(٢)] .

---

(١) تفسير ابن كثير لسورة البقرة آية (٢٦٠) [١ / ٢٩٨] انظر الهامش - طبعة المكتبة القيمة .

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني كتاب (أحاديث الأنبياء) باب (قول الله تعالى : ﴿ ونبئهم عن ضيف إبراهيم ﴾ [٦ / ٤٧٥] .

[المطلب الثالث]

إنكار الكفار للبعث

قال تعالى : ﴿ وقالوا أإذا ضللنا في الأرض أإنا لفي خلق جديد بل هم بلقاء ربهم كافرون ﴾(١).

وقال تعالى : ﴿ زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربي لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير ﴾(٢).

وقال تعالى : ﴿ مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيراً ذلك جزاؤهم بأنهم كفروا بآياتنا وقالوا أإذا كنا عظاماً ورفاتا أإنا لمبعوثون خلقاً جديداً ﴾(٣).

لقد كذَّب الكفار بالبعث ، وأنكروا وقوع يوم القيامة ، واستبعدوا ذلك على [العزيز الحكيم] - جلَّ في عليائه - وما ذلك منهم إلاَّ لجهلهم بمدى قدرة وقوة وعزة العزيز ، وجهلهم بحكمة وإحكام الحكيم ، فهم أبعد الخلق عن معرفة الخالق ، وأجهل الخلق بالله وبأسمائه وصفاته ، فكيف يُعظِّمونه ،ويصفونه بما يستحق وهم أجهل الخلق به ، فكان أكبر سبب في كفرهم وتكذيبهم بيوم القيامة، وإنكارهم ليوم البعث جهلهم بهذا الإله العظيم ، وعدم معرفتهم به حق المعرفة ، فعلى قدر جهل العبد بصفات خالقه وكماله وعظمته يكون بُعْده عنه ، وعدم تقديره حق قدره ، ولذلك كان أعلم الناس بالله وبأسمائه وصفاته هم أكثرهم له خشية وتقوى ، وأكملهم إيماناً ، وأتمهم عبادة ، وأقربهم منه منزلة .

---

(١) السجدة (١٠) .

(٢) التغابن (٧) .

(٣) الإسراء (٩٧ : ٩٨) .

قال تعالى: ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور ﴾[١] .

قال الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله ـ :

((أي إنما يخشاه حق خشيته العلماء العارفون به ، لأنه كُلَّما كانت المعرفة للعظيم القدير العليم الموصوف بصفات الكمال المنعوت بالأسماء الحسنى كُلَّما كانت المعرفة به أتم ، والعلم به أكمل كانت الخشية له أعظم وأكثر .

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنه :

العالم بالرحمن من عباده من لم يشرك به شيئاً ، وأحلَّ حلاله ، وحرَّم حرامه، وحفظ وصيته ، وأيقن أنه ملاقيه ومحاسب بعمله))[٢] .

استبعاد الكفار جمع الرفات والعظام :

﴿ وقالوا أإذا كنا عظاماً ورفاتاً أإنا المبعوثون خلقاً جديداً ﴾[٣] .

لقد استبعد الكفار ـ عليهم لعنة الله ـ أن يجمع الله العظام والرفات بعد أن أصبحت بالية ، كفراً منهم بقدرة وعزة العزيز ـ جلَّ في عليائه ـ لأنهم لم يؤمنوا بهذا الإله حق الإيمان، ولم يَقْدروه حق قدره ، فتجرأوا على الذات الإلهية ، وألحدوا في أسمائه وصفاته ، ولم يعظِّموه حق التعظيم ، وقاسوا قدرة وعزة العزيز على قدرة وعزة المخلوق الضعيف الذي لا يملك حولاً ولا قوة ، ولا يستطيع خلقاً ولا بعثاً ، وهو مخلوق ويموت ويُبعث ، فاستبعدوا جمع هذه العظام البالية ، وهذا

---

(١) فاطر (٢٨) .

(٢) تفسير ابن كثير لسورة فاطر آية (٢٨) . [٣ / ٥١٨] .

(٣) الإسراء (٩٨) .

الرفات المتناثر ، الذي أصبح تراباً وقد يُداس بالأقدام ، وتذروه الرياح ، ولكن سبحان العزيز الحكيم ، الذي يجمعه بعلمه ، ويعيده مرة أخرى بقدرته وعزته ، ويُحْيِه مرة ثانية بحكمته وإحكامه فهو [العزيز الحكيم] الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء ولا يخرج عن حكمته وحكمه وإحكامه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء وهو المتصف بصفات الكمال والعظمة والإجلال والإكبار، لا إله إلا هو ، ولا معبود سواه .

قال الإمام الطبري ـ رحمه الله ـ :

((وبقولهم إذا أمروا بالإيمان بالمعاد ، وبثواب الله وعقابه في الآخرة .

﴿ **أئذا كنا عظاماً** ﴾ بالية .

﴿ **ورفاتا** ﴾ قد صرنا تراباً .

﴿ **أئنا لمبعوثون خلقاً جديداً** ﴾ يقول : نُبْعث بعد ذلك خلقاً جديداً . كما ابتدأناه أول مرة في الدنيا استنكاراً منهم لذلك ، واستعظاماً من أن يكون ذلك))[1] .

ويتعجَّب هؤلاء الكفار من تجميع أجزائهم إذا مُزِّقوا وتبعثروا ، وتناثرت أشلاؤهم ، وما ذلك منهم إلا لجهلم وعدم معرفتهم الله بأسمائه الحسنى ، وصفاته العليا وجهلهم بمدى عزة وقدرة الله سبحانه وتعالى ، الذي أنشأ وأوْجد هذا الخلق أول مرة من العدم ، والذي يقول لما يشاء كن فيكون ، ولا يخرج عن عزته وقدرته وحكمته وحُكْمه وإحكامه أحد من خلقه ، فما البعث والنشور بأصعب

---

(١) تفسير الطبري لسورة الإسراء آية (٩٨) [٥ / ٧١] .

عليه من بدء الخلق ،وما بدء الخلق عليه بعزيز ، والكلُّ عليه هين ، وهو خالق الخلق أجمعين ، وهو الذي يبعث مَنْ في القبور ، ولو تعجَّب الكافرون ، ولو أنكر الجاحدون ، ولو استبعد ذلك المبطلون ، كما أخبر الله تعالى عن إنكارهم وتعجُّبهم قائلا - جلَّ من قائل - : ﴿ **وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفي خلق جديد** ﴾[1] .

قال الحافظ ابن كثير - رحمه الله - :

((هذا إخبار من الله - عزَّ وجلَّ - عن استبعاد الكفرة الملحدين قيام الساعة ، واستهزائهم بالرسول - ﷺ - في إخباره بذلك :

﴿ **وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق** ﴾[2] .

أي تفرَّقت أجسادكم في الأرض وذهبت فيها كل مذهب وتمزَّقت كل ممزق .

﴿ **إنكم** ﴾ أي بعد الحال .

﴿ **لفي خلق جديد** ﴾ أي تعودون أحياء ترزقون بعد ذلك وهو في هذا الإخبار لا يخلو أمره من قسمين : إما أن يكون قد تعمَّد الافتراء على الله أنه قد أوحى إليه ذلك ، أو أنه لم يتعمَّد لكن لَبِسَ عليه كما يَلْبَس على المعتوه والمجنون))[3] .

---

(١) سبأ (٧) .

(٢) سبأ (٧) .

(٣) تفسير ابن كثير لسورة سبأ آية (٧) [٣ / ٤٩٣] .

بل لقد وصل بهؤلاء الكفار المنكرين للبعث أنهم يتهكَّموا على رسولنا الكريم محمد - ﷺ - ويسخروا منه ومن قوله بالبعث والنشور حتى أن بعضهم أتى النبي - ﷺ - ساخرا ، ومتحدِّياً ، ومُنْكراً للبعث ، محتجاً على ذلك بفناء الأجسام، وتفتت العظام ، واختفاء الأثر ، ولكن الرسول - ﷺ - صاحب العقيدة الصحيحة الصافية ، الثابت الراسخ ، العارف بالله تعالى والعالم بأسماء الله الحسنى ، وصفاته العليا ، والمتعبِّد للعزيز الحكيم ، صاحب العزة الكاملة المطلقة ، وصاحب الحكمة التامة البالغة يُلقِّنا درساً في العقيدة ، والغَيْرة على الدين ، وذلك في ثبات وعزة ، وثقة في عزة الله وقدرته ، وحكمته وإحكامه، وهذه القصة وردت في سبب نزول هذه الآيات الكريمة وهي قوله تعالى : ﴿ وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم قل يُحْيِها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ﴾(١) .

سبب نزول الآيات :

قال الحافظ بن كثير - رحمه الله - :

((عن سعيد بن جبير عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال : إن العاص بن بن وائل أخذ عظماً من البطحاء ففته بيده ثم قال لرسول - ﷺ - أيُحْيي الله هذا بعد ما أرى ؟ فقال رسول الله - ﷺ - : « نعم يميتك الله ثم يحييك ثم يُدْخلك جهنم » قال نزلت الآيات من آخر يس))(٢) .

---

(١) يس (٧٨ : ٧٩) .

(٢) تفسير ابن كثير لسورة يس آية (٧٨ : ٧٩) ، [٣ / ٥٤٣] .

جهنم جزاء من كذَّب بالبعث :

قال الله تعالى : ﴿ ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكماً وصماً مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيراً ذلك جزاؤهم بأنهم كفروا بآياتنا وقالوا أ إذا كنا عظاماً ورفاتاً أئنا لمبعوثون خلقا جديدا ﴾[(١)] .

وقال تعالى : ﴿ واعتدنا لمن كذب بالساعة سعيراً ﴾[(٢)] .

لقد حكم الله ـ عزَّ وجلَّ ـ على من أنكر البعث بالكفر ، وأعدَّ له عذاب جهنم خالداً فيها جزاء كفره وإنكاره البعث ، وإلحاده وشَكِّه في قدرة العزيز ، وحكمة الحكيم ، بل وإنكارهم قدرة الله على ذلك ، وقياسهم قدرة الخالق على قدرة المخلوق ، وعدم تعظيم الله تعالى ، وعدم معرفته حق المعرفة بأسمائه الحسنى ، وصفاته العليا ، وعدم وصفه بالكمال والعظمة والإجلال ، وعدم الإيمان بأسمائه الحسنى وصفاته العليا على ما يليق بجلاله وعظيم سلطانه ـ جلَّ في عليائه ـ فكان جزاؤهم جهنم وبئس المصير خالدين فيها أبداً ، وسخط الله عليهم ولعنهم ، واستحقوا العذاب الأليم ، فيحشرهم يوم القيامة على وجوهم عمياً وبكماً وصماً، وجعل مأواهم ومسكنهم جهنم ـ والعياذ بالله ـ .

وأوضح سبحانه ، وتعالى أن هذا المصير المخزي ، وهذا العذاب الأليم إنما كان جزاء كفرهم وتكذيبهم بالبعث، وتنقُّصهم من قدرة العزيز الحكيم على بعث مَنْ في القبور ، وإحياء الموتى مرة أخرى للحساب يوم القيامة، فقال تعالى موضِّحاً حيثيات تعذيبهم وخلودهم في جهنم وبئس القرار :

---

(١) الإسراء (٩٧ : ٩٨) .

(٢) الفرقان (١١) .

﴿ مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيراً ذلك جزاؤهم بأنهم كفروا بأياتنا وقالوا أإذا كنا عظاماً ورفاتا أئنا لمبعوثون خلقاً جديدا ﴾(١) .

ويؤكد الله ـ عزَّ وجلَّ ـ على ذلك كثيراً في كتابه العزيز تحذيراً وتهديداً لمن تُسوِّل له نفسه أن يتجرأ على التنقُّص من أسماء الله الحسنى وصفاته العليا ، أو يلحد فيهما ، ومن ذلك التكذيب بالبعث ، واستبعاد استطاعة الله أن يجمع العظام والرفات ، وأن يبعث مَنْ في القبول فيغار الله تعالى على أسمائه وصفاته ، ويُنْذر من يتجرأ عليهما أو يلحد فيهما بأن السعير والعذاب الأليم هو مصيره ، وأن الهلاك للمكذبين الضالين ، وأن الله هو [العزيز الحكيم] ولو كره الكافرون ، ولو أنكر الجاحدون ، ولو كذَّب الضالون .

قال تعالى : ﴿ بل كذبوا بالساعة واعتدنا لمن كذب بالساعة سعيراً إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظاً وزفيرا ﴾(٢).

قال الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله ـ :

((﴿ واعتدنا ﴾ أي أرصدنا .

﴿ لمن كذب بالساعة سعيراً ﴾ : أي عذاباً أليماً حاراً لا يطاق في نار جهنم.

قال الثوري عن سلمة بن كهيل عن سعيد بن جبير « السعير » وادي من قيح جهنم .

---

(١) الإسراء (٩٧ : ٩٨) .

(٢) الفرقان (١١ : ١٢) .

وعن مجاهد عن عبيد بن عمير - رحمهم الله - في قوله تعالى :

﴿ سمعوا لها تغيظاً وزفيراً ﴾ قال : إن جهنم لتزفر زفرة لا يبقى ملك مُقرَّب، ولا نبي مرسل إلاَّ خرَّ لوجهه ترتعد فرائصه حتي إن إبراهيم - عليه السلام - ليجثوا على ركبتيه ويقول : رب لا أسألك إلاَّ نفسي))(١) .

وقال الإمام الطبري - رحمه الله - :

((... ولكن من أجل أنهم لا يوقنون بالمعاد ، ولا يصدقون بالثواب والعقاب، تكذيباً منهم بالقيامة ، وبعث الله الأموات أحياء لحشر القيامة .

﴿ وأعتدنا ﴾ يقول : وأعددنا لمن كذَّب ببعث الله الأموات أحياء بعد فنائهم لقيام الساعة ، ناراً تُسعَّر عليهم ، وتتَّقد إذا رأتهم من مكان بعيد ، يقول : إذا رأت هذه النار التي أعددناها لهؤلاء المكذبين أشخاصهم من مكان بعيد ، تغيَّظت عليهم ، وذلك أن تغلي وتفور))(٢) .

وكما ورد أيضاً في سبب نزول آخر سورة يس أن النبي - ﷺ - قال لمن جاءه منكراً للبعث ومتهكِّماً ، ومستبعداً ذلك على قدرة العزيز الحكيم . قال له : « **نعم يميتك الله ثم يُحْييك ثم يُدْخلك جهنم** »(٣) .

فَحَكَمَ النبي - ﷺ - عليه بأنه من أهل النار وأن مأواه جهنم وبئس القرار جزاء كفره وإنكاره للبعث وإلحاده في أسماء الله وصفاته ، وتنقُّصه من قدرة وعزة وحكمة [العزيز الحكيم] - جلَّ في علاه - فَحُقَّ له أن يكون مصيره جهنم خالداً فيها أبداً جزاء وفاقاً .

---

(١) تفسير ابن كثير لسورة الفرقان آية (١١ : ١٢) [٣ / ٢٩٥ : ٢٩٦] .
(٢) تفسير الطبري لسورة الفرقان آية (١١ ، ١٢) [٥ / ٤٦١] .
(٣) انظر : تفسير ابن كثير لسورة يس آية (٧٨ : ٧٩) [٣ / ٥٤١] .

[المطلب الرابـــع]

حكمة العزيــز الحكيــم في البعث

قال تعالى : ﴿ زعم الذين كفـروا أن لن يبـعثـوا قل بـلى وربي لتبـعثن ثـم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير ﴾[1].

إن المتعبِّد لله [العزيز الحكيم] صاحب الحكمة المطلقة التـامة البالغة ، ليوقن ويعتقـد في سويداء قلبه أن صاحب العزة والحكمـة قد خلق الخلق لحكمة أرادها ، وكـان منهم المؤمن والكافـر لحكمـة يريدها ، وحَكَمَ علـى كل الخلق بالفناء بعـزته وحكمته،وأخبر بالبعث لكل المخلوقـات يوم القيامة لحكمة أرادها ـ جلَّ في عليائه ـ [فخلقـه ورزقه وإحيـاؤه وإماتتـه وبعثه لخلقـه وحسابه لهم ، وتـنعيمـه لمن أطاعه ، وتعـذيبه لمن عـصـاه] كل ذلك بعزته وحـكمتـه ، ووفق إرادته ، ولا يعـزّ عليه أمـر اقتضته حكمته ، والمُنزَّه في أقـواله وأفعاله وقضائه وحكمه عن العبث ، فكل شيء عنده بحكمة أعدَّه ، ولحكمـة أراده ، وبإحكام أوجده ، فما خلق شيئاً عـبثاً ، وما ترك شيئاً سُدَى ، ومِنْ ذلك البعث الذي حكم به على كل خلقه إنسهم وجنهم ، حتى الحيوانات والبهائم والطيـور ... وذلك في يـوم القيامة ، اليوم الذي أعدَّه الله ـ عزَّ جلَّ ـ لحساب خلقه والقضاء بينهم .

البعث هو يوم الجزاء :

قال تعالى : ﴿ زعم الذين كفـروا أن لن يبـعثـوا قل بـلى وربي لتبـعثن ثـم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير ﴾[2] .

---

(١) التغابن (٧) .

(٢) التغابن (٧) .

وقال تعالى : ﴿ **إليه مرجعكم جميعاً وعد الله حقاً إنه يبدؤا الخلق ثم يعيده ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط والذين كفروا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون** ﴾(١) .

إن المتعبِّد [للعزيز الحكيم] ـ جلَّ في علاه ـ يعلم علم اليقين حكمة الحكيم في بعث الخلق مرة أخرى ، فسبحان الله الحكيم الذي قضى بحكمته أن يبعث الخلق مرة أخرى لتُجْزَى كل نفس بما كسبت ، ويُنَعِّم عباده المؤمنين ويثيبهم على إيمانهم وطاعتهم، ويعذِّب الكافرين جزاء كفرهم وإعراضهم عن طاعة ربهم، ولإنكارهم البعث ، وتنقُّصهم للعزيز الحكيم ، واستبعادهم على عزة الله وقدرته وحكمته إعادة الخلق مرة أخرى ، [وغير ذلك من الكفريات] ، فكان يوم القيامة، يوم البعث والنشور هو يوم الجزاء لكي تُوفَّى كل نفس بما عملت في الحياة الدنيا ، فمن آمن وأطاع ، وعبد الله وحده ، وعرف الله بأسمائه الحسنى وصفاته العليا ، وتعبَّده بها ، فقد فاز وربح ، وكان من سعداء الدارين ، وأعدَّ الله له جنات عرضها كعرض السماوات والأرض .

وأما من كفر وألحد في أسماء الله وصفاته ، وأنكر البعث ، ولم يعمل ليوم القيامة فقد خاب وخسر ، ومأواه جهنم خالداً فيها وبئس القرار ، جزاءً وفاقاً .

كما قال تعالى : ﴿ **قل بلى وربي لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم** ﴾(٢) .

أي أن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ليبعثن هؤلاء المكذبين كما سيبعث خلقه أجمعين ، ليوم الحساب والجزاء ، ثم يتبع هذا البعث الحساب والجزاء ، فيُنَبَّأ كل إنسان بما

---

(١) يونس (٤) .

(٢) التغابن (٧) .

عمل من صغيرة وكبيرة ، فقد أحصى الله أعمال كل العباد ، فهذا يوم الدين ، يوم لا تُظلم أي نفس شيئاً ، فلا ظلم في ذلك اليوم الذي أعدَّه ـ عزَّ وجلَّ ـ للفصل والقضاء بين عباده ، ويجزى كل نفس بما عملت .

وقد يتسرَّب إلى النفوس الضعيفة التي لم تعرف أسماء الله وصفاته حق المعرفة بعض الشك أو التعجُّب والاستغراب ، فيردُّ عليهم علاَّم الغيوب ويُعرِّفهم بأنه العزيز الذي لا يُعْجزه شيء ، وأنه الحكيم الذي أحكم كل شيء ، وأن أمر البعث والحساب ، وإحصاء الأعمال ، وإثابة المؤمن، وعقاب الكافر ، كل ذلك وغيره مما أراده ـ بعزته وحكمته ـ يَسِيرٌ عليه وهين ، ولذلك قال تعالى ﴿ وذلك على الله يسير ﴾[1].

[البعث تكريم للمؤمنين وحسرة للكافرين] :

ويذكر الله ـ عزَّ وجلَّ ـ في كثير من آيات القرآن الكريم التي تتحدَّث عن البعث ، عن يوم القيامة ، أن من حكمته سبحانه وتعالى في البعث لتجزى كل نفس بما سَعَت في هذه الحياة الدنيا ، فلقد قضى الله بحكمته أن يُنعِّم المؤمن ، ويُعذِّب الكافر ، وأعدَّ الجنة لمن أطاعه ، وخلق النار لمن عصاه ، فسبحانه وتعالى الحكيم مُنزَّه أن يخلق الخلق عبثاً أو يتركهم سُدَى ، أو أن يكون موت الخلق هو نهايتهم وفنائهم للأبد بلا بعث ولا حساب ولا نشور والآيات في هذا المعنى كثيرة جداً نذكر منها ما يلي :

---

(١) التغابن (٧) .

قال تعالى : ﴿ زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربي لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير ﴾[١].

وقوله تعالى : ﴿ إليه مرجعكم جميعاً وعد الله حقاً إنه يبدؤا الخلق ثم يعيده ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط والذين كفروا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون ﴾[٢] .

وقوله تعالى : ﴿ وقال الذين كفروا لاتأتينا الساعة قل بلى وربي لتأتينكم عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلاَّ في كتاب مبين ﴾[٣] .

وكان هذا للتأكيد على البعث وإحصاء الأعمال كبيرها وصغيرها ، ويأتي بعد ذلك بيان حكمة الحكيم من هذا البعث وهذا النشور قائلا ـ جلَّ في علاه ـ ﴿ ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة ورزق كريم والذين سعو في آياتنا معاجزين أولئك لهم عذاب من رجز أليم ﴾[٤] .

قال الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله ـ :

هذه إحدى الآيات الثلاث التي لا رابع لهن مما أمر الله تعالى رسوله ـ ﷺ ـ أن يُقْسم بربه العظيم على وقوع المعاد ، لما أنكره مَنْ أنكره مِنْ أهل الكفر والعناد ، **فإحداهن** : في سورة يونس عليه السلام وهي قوله تعالى :

---

(١) التغابني (٧) .
(٢) يونس (٤) .
(٣) سبأ (٣) .
(٤) سبأ (٤ : ٥) .

﴿ ويستنبئونك أحق هو قل أي وربي إنه لحق وما أنتم بمعجزين ﴾[(١)] .

والثانية : هذه :

﴿ وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربي لتأتينكم ﴾[(٢)].

والثالثة : في سورة التغابن وهي قوله تعالى :

﴿ زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربي لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير ﴾[(٣)] .

فقال تعالى : ﴿ قل بلى وربي لتأتينكم ﴾[(٤)] ثم وصفه بما يؤكِّد ذلك ويقرِّره فقال : ﴿ عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين ﴾[(٥)].

قال مجاهد وقتادة لا يعزب عنه لا يغيب عنه أي الجميع مندرج تحت علمه فلا يخفى عليه شيء ، فالعظام وإن تلاشت وتفرَّقت وتمزَّقت فهو عالم أين ذهبت وأين تفرَّقت ثم يعيدها كما بدأها أول مرة فإنه بكل شيء عليم ، ثم بيَّن حكمته في إعادة الأبدان وقيام الساعة بقوله تعالى :

---

(١) يونس (٥٣) .

(٢) سبأ (٣) .

(٣) التغابن (٧) .

(٤) سبأ (٣) .

(٥) سبأ (٣) .

﴿ ويجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة ورزق كريم والذين سعو في آياتنا معاجزين ﴾[(١)].

أي سعو في الصدِّ عن سبيل الله تعالى وتكذيب رسله .

﴿ أولئك لهم عذاب من رجز أليم ﴾[(٢)] أي ليُنعِّم السعداء من المؤمنين ويُعذِّب الأشقياء من الكافرين كما قال ـ عزَّ وجلَّ ـ :

﴿ لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون ﴾[(٣)] .

وقال تعالى : ﴿ أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار ﴾[(٤)] .

وقوله تعالى : ﴿ ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل إليك من ربك هو الحق ﴾[(٥)].

هذه حكمة أخرى معطوفة على التي قبلها وهي أن المؤمنين بما أنزل على الرسل إذا شاهدوا قيام الساعة ومجازاة الأبرار والفُجَّار بالذي كانوا قد علموه من كتب الله تعالى في الدنيا رأوه حينئذ عين اليقين))[(٦)] .

---

(١) سبأ (٤ : ٥) .
(٢) سبأ (٥) .
(٣) الحشر (٢٠) .
(٤) ص (٢٨) .
(٥) سبأ (٦) .
(٦) تفسير ابن كثير لسورة سبأ آية (٣ : ٥) [٣ / ٤٩٢] .

[المطلب الخامس]

خَلْقٌ بعثهم العزيز الحكيم في الحياة الدنيا

إن الله - عزَّ وجلَّ - [عزيز حكيم] يفعل ما يشاء بعزته ، ويُنْفِذ ما أراد بحكمته ، لا معقِّب لحكمه ، ولا رادَّ لقضائه ، ولا شريك له في الملك ، ولا منازع له في سلطانه ، ولا ممانع له في حُكْمه وقضائه ، تعبَّد عباده بأن يسلموا له زمامهم ، وأن يُفوِّضوا له أمورهم ، وأن يؤمنوا بأسمائه وصفاته ، ويتعبَّدوه بها ، وأن يصفوه بكل صفات الكمال والجمال والإجلال والتعظيم والإكرام ، وأن يوقنوا أنه على كل شيء قدير ، وأن كل إخبار الله - عزَّ وجلَّ - حق وصدق وواقع لا محال لأنه على ما يشاء قدير لأنه هو [العزيز الحكيم] . ومن ذلك [البعث] .

مع ذلك فهو سبحانه وتعالى رحيم بعباده ، يُطمئن قلوبهم ، ويعينَهم على طاعته وعبادته ، ويُثبِّت إيمانهم ، ويُرسِّخ عقيدتهم ، ويهدى عقولهم ، فيُجْرى بعض المعجزات على يد بعض عباده ممن اصطفى من الأنبياء والمرسلين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم ، ولتطمئن قلوبهم ، وقلوب من اتبعهم من المؤمنين كما قال تعالى في محكم التنزيل : ﴿ ويزداد الذين آمنوا إيماناً ﴾[1] .

ومن ذلك إحياء بعض الموتى في الحياة الدنيا قبل الآخرة ، ويراهم كثير من الناس بأعينهم ليكون ذلك آية من آيات الله تعالى ، ومعجزة لرسله - صلى الله عليهم وسلم - وتثبيتاً للمؤمنين على إيمانهم ، ورجماً للكافرين المنكرين لقدرة ربهم ،

---

(١) المدثر (٣١) .

ولئلا يكون للناس على الله حجة بعد الموت . ومن هؤلاء الخلق الذين بعثهم - الله - بقدرته وعزته وحكمته في الحياة الدنيا قبل الآخرة ما يلي :

١ - السبعون الذين اختارهم موسى - ﷺ - لميقات ربه :

قال تعالى : ﴿ وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون ﴾[1] .

لقد دأب بنو إسرائيل مع نبيهم - موسى - ﷺ - على النقاش والجدال وكثرة السؤال ، بل والتجرؤ عليه ، حتى وصل الأمر بهم أن تجرؤا على الله تعالى وطلبوا من رسول الله - ﷺ - أن يريهم الله جهرة ، حتى ينظروا إليه بأعينهم، بل علّقوا إيمانهم به على تلك الرؤية المزعومة ، التي تُنْبئُ عن عدم توقيرهم لله - جلّ في علاه - .

فلمّا تجرأ هؤلاء الجمع من بني اسرائيل وطلبوا من نبي الله موسى - ﷺ - أن يروا الله جهرة بأعينهم غضب الله عليهم ، وأنزل عليهم صاعقة من السماء فأحرقتهم حتى ماتوا ، وكان بعضهم ينظر إلى بعض وهم يُهْلَكُون ، حتى ماتوا جميعاً ليكونوا عِبْرة لكل من سوّلت له نفسه أن يتجرأ على الذات الإلهية ، ولم يوقّر [العزيز الحكيم] حق التوقير ، ولم يُعظّم الله تعالى بأسمائه الحسنى ، وصفاته العليا ، ولم يفرّق بين صفات المخلوق الضعيف القاصر الفاني وبين صفات [العزيز الحكيم] المُتّصف بصفات الكمال والجمال والإجلال والإكبار .

---

(١) البقرة (٥٥ : ٥٦) .

قال الإمام القرطبي ـ رحمه الله ـ :

((قوله تعالى : ﴿ وإذ قلتم ﴾ معطوف

﴿ يا موسى ﴾ نداء مفرد

﴿ لن نؤمن لك ﴾ أي نصدقك

﴿ حتى نرى الله جهرة ﴾ قيل هم السبعون الذين اختارهم موسى ـ ﷺ ـ . وذلك أنهم لمَّا سمعوا كلام الله ـ تعالى ـ قالوا له بعد ذلك : لن نؤمن لك . والإيمان بالأنبياء واجب بعد ظهور معجزاتهم . فأرسل الله عليهم ناراً من السماء فأحرقهم، ثم دعا موسى ـ ﷺ ـ ربه فأحياهم))[١] .

وهكذا أشفق نبي الله موسى ـ ﷺ ـ على قومه ، فدعا الله تعالى فأحياهم بعد موتهم ، بعثاً يكون معجزة لهذا النبي وإكراماً له ـ ﷺ ـ وليكونوا آية للخلق ، وبياناً لمدى قدرة الله ـ تعالى ـ على البعث ، وبإحياء الخلق بعد موتهم بعزته وقدرته ، ولحكمة أرادها من هذا الخلق والإحياء ، وذلك الموت والبعث ، فهو [العزيز الحكيم] عَظُم شأنه ، وجَلَّت قدرته .

قال الإمام القرطبي ـ رحمه الله ـ :

((قوله تعالى : ﴿ ثم بعثناكم من بعد موتكم ﴾ : أي أحييناكم .

قال قتادة ـ رحمه الله ـ : ماتوا وذهبت أرواحهم ثم ردوا لاستفاء آجالهم .

قال النحاس : وهذا احتجاج على من لم يؤمن بالبعث من قريش . واحتجاج على أهل الكتاب إذ خُبِّروا بهذا .

والمعنى: ﴿ لعلكم تشكرون ﴾ ما فُعِل بكم من البعث بعد الموت))[٢] .

---

(١) تفسير القرطبي لسورة البقرة آية (٥٥) المجلد الأول [جـ ١ / ٢٧٤] .

(٢) تفسير القرطبي لسورة البقرة آية (٥٦) المجلد الأول [جـ ١ / ٢٧٥] .

فحريٌّ بالعبد المتعبِّد للعزيز الحكيم باسميه [العزيز الحكيم] وبصفتي [العزة والحكمة] والذي يؤمن بقدرة العزيز على الخلق والبعث ، وبحكمة الحكيم في تنعيم المؤمن ، وتعذيب الكافر ، حريٌّ بهذا العبد أن يتقي هذا الإله ويعمل ليوم البعث ، ويخشى قدرة وعزة العزيز أن يعذِّبه في النار ، أو أن تقتضي حكمته أن يكون من أصحاب السعير ، فيعمل لهذا اليوم الذي لا يغنى فيه أحد عن أحد شيئاً والأمر يومئذ كله بيدي العزيز الحكيم ، فالكلُّ خاضع لعزته ، ووفق حكمته ـ جلَّ في علاه ـ .

٢ - قتيل بني إسرائيل :

قال تعالى : ﴿ وإذ قتلتم نفساً فادرأتم فيها والله مخرج ما كنتم تكتمون فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيى الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون ﴾[(١)] .

إن من الخلق الذين أماتهم الله ثم بعثهم في الدنيا قبل الآخرة ليكونوا عبرة للناس ، وليبيِّن لهم الله كيف يحيي الموتى ، وأنه على كل شيء ، قدير ، وأنه بقوته وعزته يحيي الموتى مرة أخرى يوم القيامة ، فهو الذي خلقهم ، وهو القادر على بعثهم مرة أخرى .

إن من هؤلاء الخلق [قتيل بني إسرائيل] فلقد قُتِل لهم قتيل ولم يعلموا مَنْ الذي قتله ، بل اختلفوا فيه ، واتَّهم بعضهم بعضاً ، فاحتكموا إلى نبي الله ورسوله موسى ـ ﷺ ـ فأمرهم أن يذبحوا بقرة ثم يضربوه ببعضها ، فسوف يحييه الله بإذنه وقدرته بعد موته لينطق لهم باسم قاتله ، وليكون دليلاً وحجة عليهم للإيمان

---

(١) البقرة (٧٢ : ٧٣) .

بالبعث وأن الله يبعث مَنْ في القبور ، ويُحْيي الموتى بعزته وقوته ، ولحكمة أرادها فهو [العزيز الحكيم] القادر على كل شيء ، والمحكم لكل شيء - جلَّ في علاه -.

قال الإمام القرطبي - رحمه الله - :

((قوله تعالى : ﴿ **فقلنا اضربوه ببعضها** ﴾ قيل : باللسان لأنه آلة الكلام .

وقيل : بعَجْب الذَّنب ، إذ فيه يُركَّب خلق الإنسان .

وقيل : بالفخذ .

وقيل : بعظم من عظامها . والمقطوع به عضو من أعضائها ، فلمَّا ضُرِب به حيي وأخبر بقاتله ثم عاد ميتاً كما كان .

وقوله تعالى : ﴿ **كذلك يحيي الله الموتى** ﴾ أي كما أحيا هذا بعد موته كذلك يحيي الله كل مَنْ مات .

﴿ **ويريكم آياته** ﴾ أي علاماته وقدرته .

﴿ **لعلكم تعقلون** ﴾ كي تعقلوا . أي تمتنعون من عصيانه .

وعقلْتُ نفسي عن كذا أي منعتها منه والمعاقل : الحصون))(١) ،

وهكذا يفسرُ الإمام القرطبي - رحمه الله - قوله تعالى ﴿ **لعلكم تعقلون** ﴾ أي تمنعون أنفسكم من عصيان ربكم ، وفي هذا إشارة واضحة لكيفية التعبُّد لهذا الإله [**العزيز الحكيم**] الذي يملك إحياء الموتى مرة أخرى ، بأن يمنع العبد نفسه من الوقوع في معصية هذا الإله ، العزيز الحكيم ، الذي يقدر على بعث الأموات مرة أخرى ،والذي يقدر على البعث قادر على الحساب ، ومن قدر علي البعث

---

(١) تفسير القرطبي لسورة البقرة آية (٧٣) المجلد الأول [جـ ١ / ٣١٠ : ٣١٤] .

والحساب فهو يملك التنعيم والعقاب ويقدر عليه ، ممَّا يستوجب على العبد مَنْع نفسه من الوقوع في معصية هذا الإله حتى لا يتعرَّض لغضبه وعقابه وأليم عذابه ، يوم يبعث عباده ، ويُحرم من نعيم جناته وهكذا تكون ثمرة الإيمان بعزة وقدرة العزيز الحكيم في البعث ، فإنها تدفع العبد لمراقبة ربه وخشيته في السر والعلن ، وتمنعه من عصيان صاحب العزة والحكمة ـ جلَّ شأنه ـ .

٣ ـ القوم الذين فرُّوا من الطاعون :

قال تعالى : ﴿ **ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون** ﴾[١] .

لقد كتب الله بعزته وحكمته الفناء على كل الخلق ، وقضى بالموت على كل حي ، وأوجب الهلاك على كل مخلوق ، فالكلُّ يفنى ، والكل يهلك ويموت ، ولا يبقى إلاَّ الحي القيوم صاحب العزة والحكمة . قال تعالى : ﴿ **كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام** ﴾[٢] .

وقال تعالى : ﴿ **كل شيء هالك إلاَّ وجهه** ﴾[٣] .ولن يمتنع أحد عن الفناء ، ولن يفرَّ أحد من الموت، ولن يُعْجز أحدٌ صاحب العزة والقوة ، بل الكلُّ تحت قوته، وخاضع لعزته، ووفق حكمته ، ولن يعجزه أحد في الأرض ولا في السماء .

قال تعالى : ﴿ **أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة** ﴾[٤] .

---

(١) البقرة (٢٤٣) .
(٢) الرحمن (٢٦ : ٢٧) .
(٣) القصص (٨٨) .
(٤) النساء (٧٨) .

فإن هؤلاء القوم قد خرجوا من ديارهم بأعداد كبيرة تصل إلى الألوف وذلك هرباً من مرض الطاعون الذي انتشر في بلادهم ، فراراً من الموت ، وحرصاً على الحياة ، فأراد الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وهو أعلم بمراده ـ أن يعاقبهم على فعلهم، وسوء ظنهم ، وشدة حرصهم على الحياة ، وليكونوا آية وعِبْرة لكل من جَبُنَ عن الموت واشترى الحياة ، وخاصة من ترك الجهاد في سبيل الله تعالى خوفا من الموت وتمسُّكاً بالحياة الفانية ، ولذلك ورد ذِكْر القتال في الآية التي بعدها تأكيداً على أن الحرص على الحياة لا يكون سبباً في طول العمر ، ولا القتال والجهاد سبباً في تعجيل الأجل ، بل الأمر كله وفق عزة الله وقدرته ، فيقبض روح من شاء من عباده بقوته وعزته ، ويوخِّر من شاء إلى أجل مسمى بحكمته .

قال تعالى بعد ذِكْر قصة هؤلاء القوم الذين أماتهم الله بعد فرارهم من بلدتهم وموتهم : ﴿ وقاتلوا في سبيل الله واعلموا أن الله سميع عليم ﴾[1] .

ثم يشاء الله بحكمته أن يبعث هؤلاء القوم بعد موتهم أحياء وذلك في الحياة الدنيا ـ وقبل الآخرة ـ فأحياهم الله بعزته وقوته ، فهو سبحانه وتعالى إذا شاء شيئاً أن يقول له كن فيكون ، وذلك معجزة على يد أحد أنبيائه حينما دعا الله بعزته وحكمته أن يبعثهم مرة أخرى ويُحْيهم معجزة له ، فكان له ما طلب ، واستجيبت دعوته، فأحياهم الله بعزته، وأخَّرهم لأجل أجَّله بحكمته ، وحتى يوقن الناس بالبعث ، ويدركوا أن الله على كل شيء قدير ، وأن قضية البعث هذه تحت عزة الله وقدرته وحكمته ومشيئته ، وأن الخلق والإماتة والبعث كغيرهم من الأمور الكلٌّ هينٌ على الله تعالى، ووفق عزة وحكمة العزيز الحكيم ـ جلَّ في علاه ـ .

---

(١) البقرة (٢٤٤) .

قال الإمام القرطبي ـ رحمه الله ـ :

((وقصة هؤلاء أنهم قوم من بني إسرائيل وقع فيهم الوباء ، وكانوا بقرية يقال لها « داوردان » فخرجوا منها هاربين فنزلوا وادياً فأماتهم الله ـ تعالى ـ .

قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ :

كانوا أربعة آلاف خرجوا فراراً من الطاعون ، وقالوا : نأتي أرضًا ليس بها موت ، فأماتهم الله ـ تعالى ـ فمرَّ بهم نبي فدعا الله تعالى فأحياهم .

قال الحسن ـ رحمه الله ـ :

أماتهم الله قبل آجلهم عقوبة لهم ، ثم بعثهم إلى بقية آجالهم .

وقيل : إنما فعل ذلك بهم معجزة لنبي من أنبيائهم ، وقيل اسمه شمعون .

وقيل : إنهم فروا من الجهاد فخرجوا من ديارهم فراراً من ذلك ، فأماتهم الله ليعرِّفهم أنه لا يُنْجيهم من الموت شيء ، ثم أحياهم وأمرهم بالجهاد بقوله تعالى : ﴿ وقاتلوا في سبيل الله ﴾[1].

قال ابن العربي ـ رحمه الله ـ :

((أماتهم الله ـ تعالى ـ مدةً عقوبةً لهم ثم أحياهم ، وميتة العقوبة بعدها حياة ،وميتة الأجل لا حياة بعدها »[2] .

---

(١) البقرة (١٩٠) .

(٢) تفسير القرطبي لسورة البقرة آية (٢٤٣) المجلد الثاني [جـ ٣ / ١٥١] .

قال الإمام الطبري ـ رحمه الله ـ :

((يعني تعالى ذِكْره بذلك : إن الله لذو فضل ومَنّ على خلقه ، بتبصيره إياهم سبيل الهدى ، وتحذيره لهم طريق الردى ، وغير ذلك من نعمه التي يُنْعمها عليهم في دنياهم ودينهم ، وأنفسهم وأموالهم ـ كما أحيا الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت بعد إماتته إياهم ، وجعلهم لخلفه مثلاً وعظة يتَّعظون بهم ، وعِبْرة يعتبرون بهم ، وليعلموا أن الأمور كلها بيده ، فيستسلموا لقضائه ويصرفوا الرغبة كلها والرهبة إليه))[1] .

٤ ـ الرجل الذي مرَّ على القرية الخاوية :

قال تعالى : ﴿ **أو كالذي مرَّ على قرية وهي خاوية على عروشها قال أنَّى يحيي هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوماً أو بعض يوم قال بل لبثت مائة عام فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه وانظر إلى حمارك ولنجعلك آية للناس وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحماً فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شيء قدير** ﴾[2] .

إن المتعبِّد لله ـ تعالى ـ [العزيز الحكيم] لابد له أن يؤمن بقدرة وعزة العزيز ، وحكمة وإحكام وحكم الحكيم ، وأنه على كل شيء قدير ، وأنه لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء ، وأن أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ، ومن ذلك إحياء الموتى ، وبعثهم بعد موتهم .

---

(١) تفسير الطبري لسورة البقرة آية (٢٤٣) [٢/ ٣٢] .

(٢) البقرة (٢٥٩) .

ويذكر لنا الله - عزَّ وجلَّ - في كتابه العزيز قصة ذلك الرجل الذي مرَّ علي قرية وهي خاوية على عروشها ، وقيل أن هذا الرجل هو نبي الله (عُزَيْر) ، وأن القرية هي (بيت المقدس) فَهَالَهُ ، وأدهشه ما رأى منها من الخراب والدمار والوحشة فتعجَّب لذلك ، مما دعاه أن يقول قولته التي أثبتها القرآن الكريم على لسانه ﴿ أنَّى يحيي هذه الله بعد موتها ﴾[1] تعجُّباً وليس انكاراً لقدرة الله على ذلك إذ أن كثيراً من المفسرين ذكروا أنه نبي الله عزير ، فكيف لنبي الله أن يقع منه الشك في قدرة الله ، ولكن الموقف أخذه وشدَّه فوقف متفكِّراً فيما آل أمرها إليه بعد عمرانها ، وبُعْدها عن العودة مرة أخرى بعد دثورها إلى ما كانت عليه .

فأراد الله تعالى أن يُعْلمه ويعلم من حوله ، بل ليكون الأمر آية لكل الناس في عصره ومَنْ بعده إلى يوم البعث ، ليعلم الجميع أن الله قادر على بعث الموتى ، وإحياء كل شيء بعد إماتته وهلاكه ، فأمات هذا النبي مائة عام وكان معه طعامه وشرابه وحماره ، ثم بعثه الله تعالى ، وبعث حماره ، وأراه بعيني رأسه كيف يُحْيي الله الموتى ، فلقد وَرَدَ أن الله أوَّل ما أحيا ، أحيا رأسه فأخذ ينظر بعينيه إلى باقي جسمه والروح تنتشر فيه حتى دبَّت الروح في جسده كله فقام على رجليه مُتَّعظاً ومتعلماً كيف يحيي الله الموتى ، وكيف أن الله قد أحيا تلك القرية التي كانت خاوية على عروشها وقد عُمِّرت وازدهرت بالعمران ، وتجمَّع فيها السكان .

بل من قدرة الله - تعالى - أنه أحيا حماره أمامه ، وتجمَّع عظامه وكُسِيَتْ لحماً ودبَّ فيه الحياة أمام عينيه ، بل من قدرة الله تعالى أن طعامه وشرابه الذي كان

---

(١) البقرة (٢٥٩) .

معه لم يتغيَّر ولم يفني ، ولم يَفْسَد ، وذلك بعد مرور مائة عام عليه ، بل من قدرة الله تعالى وحكمته ـ أيضا ـ أنه أعمى أبصار قومه عن أن يروه ويروا حماره وطعامه خلال تلك الفترة ، رغم افتقادهم له .

قال الإمام القرطبي ـ رحمه الله ـ :

((وقال وهب بن مُنبِّه وقتادة والضحاك والربيع وعكرمه : القرية بيت المقدس لمَّا خربَّها بُخْتَنَصَّر البابلي . وفي الحديث الطويل حين أحدثت بنو اسرائيل الأحداث وقف إرمياء أو عزير على القرية وهي كالتَّل العظيم وسط بيت القدس ، لأن بُخْتَنصَّر أمر جنده بنقل التراب إليه حتى جعله كالجبل ، ورأى إرمياء البيوت قد سقطت حيطانها على سقفها فقال : أنى يحيي هذه الله بعد موتها .

وقوله تعالى : ﴿ **أنى يحيي هذه الله بعد موتها** ﴾[1] معناه من أي طريق وبأي سبب ، وظاهر اللفظ السؤال عن إحياء القرية بعمارة وسكان ، كما يقال الآن في المدن الخربة التي يبعد أن تعمر وتسكن : أنى تعمر هذه بعد خرابها . فكأن هذا تلهُّف من الواقف المُعْتبِر على مدينته التي عهد فيها أهله وأحبته .

وضرب له المثل في نفسه بما هو أعظم مما سأل عنه ، والمثال الذي ضرب له في نفسه يحتمل أن يكون على أن سؤاله إنما كان على إحياء الموتى من بني آدم ، أي أنَّى يحيى الله موتاها .

وقوله تعالى : ﴿ **وانظر إلى حمارك** ﴾[2] قال وهب بن مُنيِّه وغيره وانظر إلى اتصال عظامه وإحيائه جزءاً جزءاً ، ويُروى أنه أحياه الله كذلك حتى صار

(١) البقرة (٢٥٩) .
(٢) البقرة (٢٥٩) .

عظاماً ملتئمة ، ثم كساه لحماً حتى كَمُلَ حماراً ثم جاءه مَلَكٌ فنفخ فيه الروح فقام الحمار ينهق ، على هذا أكثر المفسرين ، ورُوى عن الضحاك ووهب بن مُنِّبه أيضا أنهما قالا : بل قيل له : وانظر إلى حمارك قائماً في مربطه لم يصيبه شيءٌ مائة عام ، وإنما العظام التي نظر إليها عظام نفسه بعد أن أحيا الله منه عينيه ورأسه، وسائر جسده ميِّت قالا : وأعمى الله العيون عن إرمياء وحماره طول هذه المدة .

وقوله تعالى : ﴿ **ولنجعلك آية للناس** ﴾[1] دلالة على البعث بعد الموت جعلنا ذلك ، وقيل : جاء وقد هلك كل مَنْ يَعْرف ، فكان آية لمن كان حيَّاً من قومه إذ كانوا موقنين بحاله سماعاً .قال ابن عطية : وفي إماتته هذه المدة ثم إحيائه بعدها أعظم آية ، وأمره كله آية غابر الدهر ، ولا يحتاج إلى تخصيص بعض ذلك دون بعض))[2] .

هكذا يجب أن يتعبَّد العبد المسلم لربه [العزيز الحكيم] بأن يعتقد في قلبه وبيقين جازم أن الله صاحب العزة والحكمة قادر على كل شيء ، ومن ذلك أنه يبعث الموتى مرة أخرى ليحاسبهم ويجازيهم على أعمالهم في الحياة الدنيا ، وأن الحياة الدنيا ليست هي نهاية المطاف ، وأنه سيعذِّب الكافر ، ويُنعِّم المؤمن ، يعتقد ذلك بقلبه ، ويوقنه يقين المشاهدة وكأنه يرى أهل الجنة وهم ينعمَّون في الجنة ، وكأنه يرى أهل النار وهم يعذِّبون في النار ، فيصل بذلك إلى يقين الاعتقاد

---

(١) البقرة (٢٥٩) .

(٢) تفسير القرطبي لسورة البقرة آية (٢٥٩) المجلد الثاني [جـ ٣ / ١٨٧ : ١٩٢] وذلك باختصار.

والمشاهدة ، ويرتقي إلى مرتبة الإحسان التي هي الغاية من التعبُّد لله تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العليا .

قال تعالى : ﴿ **فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شيء قدير** ﴾[(١)] .

قال الإمام القرطبي ـ رحمه الله ـ :

((قال مَكِّيّ ـ رحمه الله ـ : إنه أخبر عن نفسه عندما عاين من قدرة الله في إحيائه الموتى ، فتيقَّن ذلك بالمشاهدة ، فأقرَّ أنه يعلم أن الله على كل شيء قدير ، أي أعلم أنا هذا الضرب من العلم الذي لم أكن أعلمه على معاينة))[(٢)] .

٥ ـ إبراهيم ـ صلى الله عليه وسلم ـ وإحياء الطيور :

قال تعالى : ﴿ **وإذ قال إبراهيم ربي أرني كيف تحيي الموتى قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ثم ادعهن يأتينك سعياً واعلم أن الله على كل شيء قدير** ﴾[(٣)] .

إن إبراهيم ـ ﷺ ـ إمام في التوحيد ، وقدوة في العقيدة ، فهو أُمةٌ لحاله ، يُؤْخذ منه أمور العقيدة ، وكيفية التعبُّد لله العزيز الحكيم فهو يؤمن إيماناً جازماً بقدرة العزيز وحكمة الحكيم على البعث والنشور ولكنه أحب أن يرى ذلك بعيني رأسه في الحياة الدنيا ليرى الكيفية ، مع إيمانه الجازم ، واعتقاده الذي لا يتسرَّب

---

(١) البقرة (٢٥٩) .

(٢) تفسير القرطبي لسورة البقرة آية (٢٥٩) المجلد الثاني [جـ ٣ / ١٩٣] .

(٣) البقرة (٢٦٠) .

إليه الشك بأن الله يبعث من يموت ، وأنه على كل شيء قدير ، فاستجاب الله لطلبه ، وأجابه لما تطلَّعت نفسه إليه ، ليطمئن قلبه، وليكون ذلك عِبْرة وعظة لمن بعده ليوم القيامة، وحجة على كل الخلق ، ودحضاً لكل من سوّلت له نفسه إنكار البعث .

قال الإمام القرطبي ـ رحمه الله ـ :

((قلت : ولا يجوز على الأنبياء ـ صلوات الله عليهم ـ مثل هذا الشك فإنه كفر ، والأنبياء متفقون على الإيمان بالبعث . وقد أخبر الله تعالى أن أنبياءه وأولياءه ليس للشيطان عليهم سبيل فقال : ﴿ **إن عبادي ليس لك عليهم سلطان** ﴾[1] .

وقال إبليس اللعين كما جاء في القرآن الكريم : ﴿ **إلا عبادك منهم المخلصين** ﴾[2] ، وإذا لم يكن له عليهم سلطان فكيف يُشكّكهم ، وإنما سأل أن يشاهد كيفية جمع أجزاء الموتى بعد تفريقها ، وإيصال الأعصاب والجلود بعد تمزيقها ، فأراد أن يرتقي من علم اليقين إلى علم اليقين فقوله : ﴿ **أرني كيف** ﴾ طلب مشاهدة الكيفية))[3] .

فأرشده الله تعالى إلى أن يأخذ أربعة من الطير فيذبحهن ويقطِّعهن ويخلطهن ببعض ، ويضع على كل جبل جزءاً منهن ، ثم أمره أن يدعهن فأحياهن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ بعزته وقوته وحكمته وإحكامه حتى قام كل طير منهم على رجليه يسعى

---

(١) الحجر (٤٢) .

(٢) الحجر (٤٠) .

(٣) تفسير القرطبي لسورة البقرة آية (٢٦٠) المجلد الثاني [جـ ٣ / ١٩٤ : ١٩٥] .

بين يدى نبي الله إبراهيم - ﷺ - ليريه كيف يحيي الموتى . وليكون هذا الإحياء دلالة له ولغيره ممن تحدِّثه نفسه لمعرفة كيفية الإحياء ، ليزداد الذين آمنوا إيماناً مع إيمانهم . [**ويرتقوا من مرحلة اليقين القلبي إلى يقين المشاهدة**] .

وقيل أن الطيور الاربعة هي[1] : [الديك ، والطاووس ، والحمام والغراب] وقيل مكان (الغراب الكُرْكِيّ) وقيل مكان (الحمام النسر) .

[وقد سبق الإشارة لهذا الموضوع في بداية الفصل] .

وهكذا فإن الله - عزَّ وجلَّ - بعزته وحكمته لا يعجزه شيء من خلقه مهما كان ، فهو الذي خلق الخلق أجمعين ، وهو القادر على بعثهم وإحيائهم جميعاً إنْسَهم وجِنّهم ، حتى البهائم وفق مشيئته ، ولا يخرجون عن قضائه وقَدَرِه ، وهو المتصرِّف فيهم بعزته وحكمته ، فالمؤمن الحق ، والعبد الطائع لمولاه هو الذي يتعبَّد لصاحب العزَّة والحكمة ، ويوقن بعزَّته وقدرته وحكمته وإحكامه ويعمل لما بعد الموت ، ليكون عند البعث من الذين رضى عنهم العزيز الحكيم ، وممن يدخلهم الله الجنة بعزته وقوته ، ويصرف عنهم النار بحكمته وحكمه جلَّ في علاه - .

---

(١) انظر تفسير القرطبي لسورة البقرة آية (٢٦٠) المجلد الثاني [جـ ٣ / ١٩٥] ، وتفسير الطبري لسورة البقرة [٢ / ١٤٧] . وتفسير ابن كثير لسورة البقرة [١ / ٢٩٨] .



[المبحث الثالث]

كيفية التعبُّد للعزيز الحكيم خالق الخلق وباعث من في القبور

المطلب الأول : التعبُّد للعزيز الحكيم بإفراده بالعبودية

المطلب الثاني : التعبُّد للعزيز الحكيم بطلب الولد

المطلب الثالث : التعبُّد للعزيز الحكيم بالاستعداد ليوم البعث



[المطلب الأول]

التعبُّد للعزيز الحكيم بإفراده بالعبودية

قال تعالى : ﴿ وهو الذي يبدؤا الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾[١] .

وقال تعالى: ﴿ ذالكم الله ربكم لا إله إلاَّ هو خالق كل شيء فاعبدوه ﴾[٢] .

قال الإمام القرطبي ـ رحمه الله ـ :

((وقال الخليل ـ رحمه الله ـ : المثل : الصفة ، أي له الوصف الأعلى .

وعن مجاهد ـ رحمه الله ـ :

﴿ المثل الأعلى ﴾ قول لا إله إلا الله ، ومعناه : أي الذي له الوصف الأعلى ، أي الأرفع الذي هو الوصف بالوحدانية))[٣] .

إن العبد المؤمن المتعبِّد لله [العزيز الحكيم] بأسمائه الحسنى ، وصفاته العليا ، والُمقرّ لله بالعزة المطلقة الكاملة ، وبالحكمة التامة البالغة ، وأنه هو الخالق الذي خلق كل الخلق ، وأنه لا خالق سواه ، وأنه خلق الخلق جميعاً بعزته وقوته ، وأوجدهم بحكمته ولحكمة أرادها ، وهي عبادته وحده ـ جلَّ في علاه ـ .

إذا أراد أن يتعبَّد لهذا الإله [العزيز الحكيم] ـ صاحب العزة والحكمة الذي خلقه وأوجده من العدم فعليه أن يستحضر عظمة وعزة وحكمة هذا الإله الخالق، ويجاهد نفسه لكي يحقق العبودية الحقة لهذا الإله التي خلقه من أجلها .

---

(١) الروم (٢٧) .

(٢) الأنعام (١٠٢) .

(٣) تفسير القرطبي لسورة الروم آية (٢٧) المجلد السابع [جـ ١٤ / ١٦] .

ومن صور التعبُّد للعزيز الحكيم خالق كل شيء ما يلي :

١ - شكر الله تعالى على نعمة الخلق والإيجاد ، فإنها نعمة تحتاج إلى شكر ، فيجب على العبد أن يشكر هذا الإله العزيز الحكيم الذي أوجده في هذا الوجود بعزته وحكمته .

٢ - شكر صاحب العزة والحكمة على نعمة البدن ، فكل عضو في جسد هذا العبد يحتاج إلى شكر من العبد لمولاه وموجده ، مع الاعتقاد أن العبد مهما حرص على شكر الله على هذه النِّعم فلن يؤدي شكرها على ما يجب أن يكون ، ولكن الله يقبل من عباده القليل من الشكر ويبارك فيه بحكمته ، ويجزيهم عليه الثواب العظيم بعزته وقدرته .

٣ - تسخير هذا الجسد ، وهذه الأعضاء في طاعة الخالق الذي أوجد هذا الجسد بعزته وحكمته ، وهو القادر علي سلب هذه النِّعم أيضاً بعزته وحكمته ، فيسخِّرها لطاعة ربه وخالقه .

٤ - الحرص على حفظ هذا الجسد من الوقوع في معصية الله ، أو أن تستعمل هذه الأعضاء في معصية خالقها وموجدها .

٥ - طلب الرزق من الخالق الذي يرزق من يشاء بغيرحساب ، فهو الذي يُنزِّل الماء من السماء ، وينبت الزرع من الأرض بعزته وقوته ووفق حكمته ، فيصيب به من يشاء ، ويمنعه ممن يشاء ، فهو العزيز الحكيم ، فيتعبَّد العبد لهذا الإله الخالق الرازق الذي يملك الرزق بعزته ويُغْدقه على من شاء بحكمته ، وذلك بأن يطلب منه الرزق وحده دون سواه .

٦ - استعمال رزق الله تعالى من المشرب والمأكل في طاعة الله ، وفي التقوِّي على فعل ما يُرْضى هذا الإله العزيز الحكيم .

٧ - الحذر من أن ينزع صاحب العزة والحكمة بعزته وحكمته الرزق من يدي العبد بسبب معصيته ، فهو الذي خلق هذا الرزق وساقه إلى العبد بعزته وحكمته ، وهو القادر على سلبه أيضا بعزته ووفق حكمته .

٨ - استعمال كل المخلوقات التي سخَّرها الله لعبده بعزته وحكمته في طاعة الله ، وشكرا للخالق على جوده ، وإظهاراً للعبودية الحقة لله تعالى، وطلباً للزيادة ، وخوفاً من زوال تلك النعم التي لا تُعدُّ ولا تُحْصى .

٩ - التوجُّه بالعبادة الخالصة للخالق - جلَّ في علاه - الذي خلق هؤلاء العبيد بعزته ولحكمة ، وهي عبادته وحده ، فما خلق الله هذا الخلق ، وما أوجد الإنس والجن إلا لعبادته وحده .

١٠ - تنقية العبادة وصيانتها عن الشرك ، فكما أن صاحب العزة والحكمة هو وحده الذي خلق هذا العبد وحده (بعزته وحكمته) فلا تُصرف أي عبادة إلاّ له وحده .

١١ - الكفر بكل الآلهة والمعبودات التي تُعْبد من دون الله ، مهما كان اسمها ، ووصفها ، وتحت أي مُسَمَّى .

١٢ - بغض وكراهية وعداوة كل من عَبَدَ غير خالقه - جلَّ في علاه - واستمرار هذه العداوة حتى يعود لعبادة خالقه وحده .

١٣ - تعبيد كل العباد للخالق - جلَّ في علاه - الذي أوجدهم بعزته وحكمته ، حتى يكون الدين كله لله ، وتكون كلمة الله هي العليا ، وكلمة الذين كفروا هي السفلى .

[المطلب الثاني]

[التعبُّد للعزيز الحكيم بطلب الولد]

قال الله تعالى : ﴿ هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء لا إله إلاَّ هو العزيز الحكيم ﴾(١) .

وقال تعالى : ﴿ لله ملك السماوات والأرض يخلق ما يشاء يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور أو يزوجهم ذكراناً وإناثاً ويجعل من يشاء عقيماً إنه عليم قدير ﴾(٢) .

إن من التعبُّد للعزيز الحكيم ، صاحب العزة والحكمة ، الذي خلق الخلق كله بعزته ووفق حكمته ، أن يطلب العبد الولد منه وحده ـ جلَّ في علاه ـ وذلك لأن العبد المؤمن حق الإيمان هو الذي يعتقد أن قضية الخلق ، وايجاد هذا الإنسان الحي الذي تتجلَّى فيه قدرة الله تعالى بيدي العزيز الحكيم وحده ، وأن أمر الخلق يحتاج ويفتقر إلى قدرة متفرِّدة لا يُشَابِهُها أي قوة ، وتحتاج إلى حكمة بالغة ينفرد بهما الخلاَّق ـ جلَّ في علاه ـ صاحب العزة والحكمة .

فهو بعزته وقوته ـ جلَّ في علاه ـ إذا أراد خلق الإنسان فإنما يقول له كن فيكون ، وبحكمته ـ تعالى ـ يجعله ذكراً أو أنثى ، ويهب لهذا الذكران ، ويهب لهذا الإناث ، ويهب لآخر الذكور والإناث ، وتقتضي حكمته أن يمنعهما عمَّن شاء ، ويجعل من يشاء عقيماً ، فلا يخرج أحد عن قدرته وعزته ، ولا يستطيع

---

(١) آل عمران (٦) .

(٢) الشورى ((٤٩ : ٥٠) .

أحد أن يطّلع على حكمته ، فهو المتصرّف في كل الكون ومن فيه ، فالكل خاضع لعزته ، ومُسيَّر بحكمته ، فلا رادَّ لقضائه ولا معقِّب لحكمه ، وهو العزيز الحكيم .

وهذه هي عقيدة العبد المؤمن المتعبِّد للعزيز الحكيم بأسمائه الحسنى وصفاته العليا ، ولذلك يتوجَّه لصاحب العزة والحكمة ، القادر على الخلق والإيجاد فيطلب منه أن يرزقه ويَمُنَّ عليه بالولد ، والذرية الصالحة ، فإن شاء بحكمته أن يرزقه ، فالله ذو الفضل العظيم ، وعلى ما يشاء قدير ، وإذا اقتضت حكمته أن يمنعه الولد فلا مُكْرِه له - جلَّ في علاه - .

فتتجلَّى عقيدة العبد المومن في تعبُّده للعزيز الحكيم بطلب الولد منه - سبحانه وتعالى - لأنه هو الذي يملك بعزته وقدرته الخلق ، وهو وحده صاحب الحكمة التامة البالغة في إعطائه الولد لمن شاء من عباده ، وفي منعه ممن شاء ، فتتجلَّى الألوهية ، والقدرة الحقيقية ، والعزة المطلقة الكاملة في قضية الخلق ، وايجاد المخلوقات ، وافتقار العبد لربه ، وتضرُّعه له لكي يهب له الولد تفضُّلا وامتناناً من الإله الخالق صاحب العزة والحكمة ، فيحقق العبد كمال العبودية لله في توجهُّه بالدعاء والتضرُّع لمن بيده الخلق والأمر ، ويُعْبَد الله في ملكه ، فيكون هو المسؤول وحده ، ويُتَوجَّه إليه بالدعاء والطلب والعبادة دون سواه ، فيتحقق التوحيد ، الذي هو في حقيقته إفراد الإله - الخالق العزيز الحكيم - بالعبادة دون سواه .

قال الإمام الطبري - رحمه الله - :

((﴿ هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء ﴾[1] .

---

(١) آل عمران (٦) .

يعني بذلك جلَّ ثناؤه : الله الذي يصوركم فيجعلكم صوراً أشباحاً في أرحام أمهاتكم كيف شاء وأحبَّ ، فيجعل هذا ذكراً وهذا أنثى ، وهذا أسود وهذا أحمر ، يُعَرِّف عبادَهُ بذلك أن جميع مَنِ اشتملت عليه أرحام النساء ، فَمِمَّن صوَّره وخلقه كيف شاء ، وأن عيسى بن مريم ممن صوَّره في رحم أمه ، وخلقه فيها كيف شاء وأحبَّ ، وأنه لو كان إلها لم يكن ممن اشتملت عليه رحم أمه ، لأن خلاَّق ما في الأرحام . لا تكون الأرحام عليه مشتملة ، وإنما تشتمل على المخلوقين ﴿ لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴾[1] .

وهذا القول تنزيه من الله تعالى ذِكْره نفسه أن يكون له في ربوبيته ندٌّ أو مِثْلٌ أو أن تجوز الألوهة لغيره ، وتكذيب منه للذين قالوا في عيسى ما قالوا ، من وفد نجران الذين قدموا على رسول الله - ﷺ - وسائر من كان على مثل الذي كانوا عليه من قولهم في عيسى ، ولجميع من ادعى مع الله معبوداً أو أقرَّ بربوبية غيره ، ثم أخبر جلَّ ثناؤه خلقه بصفته ، وعيداً منه لمن عبد غيره ، أو أشرك في عبادته أحدًا سواه ، فقال : ﴿ هو العزيز ﴾ الذي لا ينصر من أراد الانتقام منه أحدٌ ، ولا ينجيه منه وألٌ ولا لَجأ ، وذلك لعزته التي يذلُّ لها كل مخلوق ، ويخضع لها كل موجود ثم أعلمهم أنه « الحكيم » في تدبيره وإعذاره إلى خلفه ، ومتابعة حججه عليهم ، ليهلك من هلك منهم عن بينة ويحيا من حَيَّ عن بينة))[2] .

---

(١) آل عمران (٦) .

(٢) تفسير الطبري لسورة آل عمران آية (٦) [٢ / ٢١١ : ٢١٢] .

وقال الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله ـ :

((أي يخلقكم في الأرحام كما يشاء من ذكر وأنثى وحُسْن وقُبْح وشقي وسعيد .

﴿ لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴾ أي هو الذي خلق وهو المستحق للإلهية وحده لا شريك له وله العزة التي لا تُرام ، والحكمة والإحكام))(١) .

الولد هبة من العزيز الحكيم :

إن الولد هبة من العزيز الحكيم يهبه لمن شاء من عباده بقوته وعزته وحكمته، ويمنعه عَمَّن يشاء من عباده بعزته ووفق حكمته ، فسبحانه وتعالى جمع بين العزة المطلقة ، والحكمة التامة البالغة ، فأفعاله ـ سبحانه وتعالى ـ كلها مُنزَّهة عن الضعف والسطحية ، ومُبرَّأ من الظلم والعشوائية ، فهو الإله الحق ، وما عداه فمخلوق ضعيف ، يصيب ويُخطئ ، يُؤْخذ منه ويُردُّ عليه ، ويفنى ويبلى ، فسبحان العزيز الحكيم الذي تتجلَّى عزته وحكمته فيما يهب لعباده من الأولاد ، وحرمانه من شاء بعدله وحكمته .

وتجلَّت حكمة وعزة العزيز الحكيم في هبته الولد في أنبيائه ـ صلى الله عليهم وسلم ـ وهم صفوة خلقه أجمعين ، وخير من تعبَّد له ،وخير من عرفه بأسمائه وصفاته ، فهم القادة والقدوة ، والأسوة والسلوى ، فتجلَّت فيهم جميع أنواع الهبات كما وصفها الله ـ عزَّ وجلَّ ـ في كتابه العزيز حيث قال ـ جلَّ في علاه

---

(١) تفسير ابن كثير لسورة آل عمران آية (٦) [١ / ٣٢٥] .

- ﴿ ولله ملك السماوات والأرض يخلق ما يشاء يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور أو يزوجهم ذكراناً وإناثاً ويجعل من يشاء عقيماً ﴾[1] .

- فوَهَبَ الله الإناث فقط لنبيه لوط - ﷺ - .

- ووَهَبَ الذكور فقط لنبيه إبراهيم - ﷺ - .

- ووَهَبَ الذكور والإناث لإسماعيل واسحاق ومحمد - ﷺ - .

- وجَعَلَ يحيى - ﷺ - عقيماً .

قال الإمام القرطبي - رحمه الله - :

((قال إسحاق - رحمه الله - : نزلت في الأنبياء ، ثم عمَّت .

﴿ يهب لمن يشاء إناثاً ﴾ يعني لوطا - عليه السلام - لم يولد له له ذكر وانما وُلِدَ له ابنتان .

﴿ ويهب لمن يشاء الذكور ﴾ يعني إبراهيم عليه السلام ، لم يولد له أنثى وله ثمانية ذكور .

﴿ أو يزوجهم ذكراناً وإناثاً ﴾ يعني رسول الله - ﷺ - وُلِدَ له أربع بنين وأربع بنات .

﴿ ويجعل من يشاء عقيماً ﴾ يعني يحيى بن زكريا عليهما السلام))[2] .

---

(١) الشورى (٤٩ : ٥٠) .

(٢) تفسير القرطبي لسورة الشورى آية (٤٩ : ٥٠) المجلد الثامن [جـ ١٦ / ٣٣] .

أنبياء تعبَّدوا للعزيز الحكيم بطلب الولد(١) :

إن طلب الولد عبادة ، فلا يجوز التوجُّه بهذه العبادة لغير الخالق الذي يملك الخلق والإحياء بعزته ووفق حكمته وإحكامه ، ولذلك نجد خير خلق الله وصفوه عباده ، وهم الأنبياء يتوجَّهون بهذه العبادة لله وحده ـ العزيز الحكيم ـ الذي يملك إعطاء الولد ، والذي يمنُّ على عباده ، ويهبهم من فضله بما شاء من الذكور ومن الإناث ، ومنهما معاً ، بعزته وقوته ، وحسب ما تقتضيه حكمته ـ جلَّ في علاه ـ .

ومن هؤلاء الأنبياء الذين تعبَّدوا للعزيز الحكيم بطلب الولد اعترافاً منهم بألوهية الله وربوبيته ، وأنهم عبيد لهذا الإله المتصرِّف في هذا الكون وفق عزة وحكمة ، من هؤلاء الأنبياء [إبراهيم ـ ﷺ ـ] ، [وزكريا ـ ﷺ ـ] .

أولاً : نبي الله إبراهيم ـ ﷺ ـ :

إن نبي لله إبراهيم ـ ﷺ ـ هو أبو الأنبياء ـ ﷺ ـ وهو إمام في التوحيد ، وأمة لحاله ـ ﷺ ـ وهو قدوتنا وإمام الحنفاء ، نراه يتعبَّد لله صاحب العزة والحكمة بطلب بطلب الولد ، رغم كِبَر سنِّه ، وعُقْم زوجه ، وبلوغها سن اليأس ، ولكن نبي الله إبراهيم ـ ﷺ ـ يُلق]نا العقيدة ، ويُعلِّمنا كيفية التعبُّد لله تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العليا ، وكيف أن العزيز صاحب العزة لا يُعْجزه شيء ، وأن الحكيم صاحب الحكمة والإحكام يُحْكم كل شيء فدعا ربه وإلاهه لعلمه بعزته وقدرته على الخلق ، وحكمته في أفعاله ، فطلب منه الولد والذرية الصالحة ، تعبُّداً للعزيز الحكيم ، وطمعاً في كرم وفضل من لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء .

---

(١) والمقصود بالولد الأبناء من ذكر وأنثى قال تعالى : ﴿ يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين ﴾ (النساء (١١) .

قال الله تعالى على لسان نبيه إبراهيم - ﷺ - ﴿ **رب هب لي من الصالحين** ﴾[١].

فلما توجَّه إلى ربه ومولاه ، وقصد خالقه وإلاهه ، وطلب ممن يملك الإجابة، واستعان بالعزيز ، وتوكَّل على الحكيم ، جاءه فرج مولاه ، وتداركته حكمة الحكيم ، ومَنَّ العزيز القدير فجاءت البشرى ، قال تعالى :﴿ **فبشرناه بغلام حليم** ﴾[٢] .

ويؤكِّد الله - عزَّ وجلَّ - في آية أخرى على أن الولد هبة منه - سبحانه وتعالى - يهبه لمن شاء من عباده ، ومن هؤلاء نبيه [إبراهيم - ﷺ -] لما توجَّه له بالدعاء وطلب منه الولد ، فقال - جلَّ شأنه - .

﴿ **ووهبنا له إسحاق ويعقوب نافلة وكلاً جعلنا صالحين** ﴾[٣] .

ويصوِّر لنا القرآن الكريم هذا المشهد العجيب ، ومدى تعجب امرأته من هذه البشارة التي جاءتهم على كِبرَ وعُقْم ولكن ما هي إلاَّ قدرة العزيز وحكمة الحكيم .

قال تعالى : ﴿ **فأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف وبشروه بغلام عليم ، فأقبلت امرأته في صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم ، قالوا كذلك قال ربك إنه هو الحكيم العليم** ﴾[٤].

---

(١) الصافات (١٠٠) .

(٢) الصافات (١٠١) .

(٣) الأنبياء (٧٢) .

(٤) الذاريات (٢٨ : ٣٠) .

ثانياً : نبي الله زكريا - ﷺ - :

إن التعبُّد لله تعالى بأسمائه الحسنى ، وصفاته العلا منهج نبوي انتهجه جميع الأنبياء والمرسلين ، وأرشدوا إليه أُممهم ، فما فتأنا نفرغ من قصة نبي الله إبراهيم - ﷺ - وتعبُّده لربه بأسمائه الحسنى ، وصفاته العليا ، ودعائه للعزيز الحكيم أن يهب له الولد ، وإذ بنا أمام نبي آخر من أنبياء الله - تعالى - يتعبَّد أيضاً لصاحب العزة والحكمة - العزيز الحكيم - بطلب الولد بيقين ثابت ، وثقة في قدرة العزيز ، وحكمة وإحكام الحكيم ، في قصة كلها عِبْرة وعظة ، تنير الطريق أمام كل المتعبِّدين الطامعين في رحمة أرحم الراحمين ، الواثقين أن الله هو العزيز الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء ، وأنه أحكم الحاكمين الذي أحكم كل شيء أراده وقدَّره - جلَّ في علاه - .

وتبدأ القصة الكريمة في بيت [نبي الله زكريا - ﷺ -] حينما وقع عليه اختيار الله - تعالى - بأن يكفل الصدِّيقة الطاهرة السيدة مريم - عليها السلام - أُم نبي الله ورسوله عيسى - ﷺ - وكان زوج خالتها ، وقيل زوج أختها ، وكان ذلك من حظ السيدة مريم - عليها السلام - .

فلقد تعلَّمت من نبي الله - زكريا - ﷺ - العلم وأخذت عنه التقوى والورع ، والزُّهد ، والتعبُّد لله تعالى حتى وصلت إلى مرحلة عظيمة من الإيمان والتُّقى ، إلى درجة أنها كان يأتيها رزقها وهي جالسة في محرابها تصلي ، حتى جاءت بعض الروايات(١) في بعض التفاسير أن نبي الله زكريا - ﷺ - كان كُلَّما دخل عليها في محرابها وجد عندها رزقاً كثيراً من الطعام والشراب لم يأت به لها ، ولا يوجد

---

(١) تفسير ابن كثير لسورة آل عمران آية (٣٧) [١ / ٣٤٠] .

غيره يكفلها ، حتى أنه كان يجد عندها فاكهة الشتاء في الصيف ، وفاكهة الصيف في الشتاء ، فتعجَّب لذلك ، وكلَّما سألها من أين لها هذا قالت له هو من عند الله وأخبرته أن الله يرزق من يشاء بغير حساب .

ويقص علينا القرآن الكريم القصة من خلال آيات بينات تجسِّد لنا الموقف ، وتظهر عزة وقدرة العزيز وحكمة وإحكام الحكيم - جلَّ في علاه - .

قال تعالى : ﴿ **وكفَّلها زكريا كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً قال يا مريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب** ﴾[1] .

هنالك لَمَّا ذكَّرت السيدة مريم - عليها السلام - نبي الله زكريا - ﷺ - بقدرة العزيز الذي يرزق من يشاء بغير حساب وأن كل شيء وفق أمره وحكمته ، وأنه لا يُعْجزه شيء في الأرض ولا في السماء ، وهو على كل شيء قدير ، وأن كل شيء وفق حكمته وحُكْمه وإحكامه ، هنالك رفع يده لخالقه صاحب العزة والحكمة يدعوه بأن يهب له الولد ، فطلب منه الذرية الصالحة التي ترث منه العلم والنبوة ، رغم كِبَر سنِّه ، وفقدان أسباب الإنجاب ، ولكن هذه هي عقيدة الأنبياء والمرسلين، وعقيدة الأتقياء المؤمنين ، الذين يتعبَّدون لله بأسمائه الحسنى ، وصفاته العليا ، الموقنون أن الله إذا أراد شيئاً فإنما يقول له كن فيكون ، وهذا الذي دفع هذا النبي الكريم - ﷺ - أن يطمع في كرم الله - تعالى - ويثق في قدرة وعزة ، وحكمة وإحكام العزيز الحكيم فدعا ربه وخالقه وخالق كل شيء أن يهب له الذرية الصالحة.

---

(١) آل عمران (٣٧) .

قال تعالى: ﴿ هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة ﴾[١] .

قال الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله ـ :

((لَمّا رأي زكريا ـ عليه السلام ـ أن الله يرزق مريم عليها السلام فاكهة الشتاء في الصيف ، وفاكهة الصيف في الشتاء طمع حينئذ في الولد وإن كان شيخاً كبيراً قد وهن العظم واشتعل الرأس شيباً ، وكانت امرأته مع ذلك كبيرة وعاقراً ، ولكنه مع هذا كله سأل ربه وناداه نداءً خفياً ﴿ رب هب لي من لدنك ﴾ أي من عندك ﴿ ذرية طيبة ﴾ ، أي ولداً صالحا إنك سميع الدعاء))[٢] .

وجاءت البشرى :

وبعد هذا التعبُّد لله تعالى الخالق ، العزيز الحكيم ، وبعد التذلُّل من العبد للخالق ، وإظهار العبودية لله تعالى بكل ماتحمله من أنواع الخضوع والخشوع والتذلُّل والإذعان والتضرُّع ، جاءت البشرى ، واستجاب الله الدعاء ، وَوَهَبَ له الولد ، وتتابعت الذرية ، بعدما تحققت العبودية ، وتُعبِّد لله تعالى بأسمائه الحسنى ، وصفاته العليا ، لتكون هذه القصة عِبْرةً للمعتبرين ، ونبراساً للمهتدين ، وطريقاً للسالكين ، وذكرى للذاكرين ، ومنهجاً للمتعبِّدين لرب السماوات والأراضين .

قال تعالى : ﴿ فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب أن الله يبشرك بيحيى مصدقاً بكلمة من الله وسيداً وحصوراً ونبياً من الصالحين ﴾[٣] .

---

(١) آل عمران (٣٨) .

(٢) تفسير ابن كثير لسورة آل عمران آية (٣٨) [١ / ٣٤٠] .

(٣) ال عمران (٣٩) .

كيفية التعبُّد للعزيز الحكيم بطلب الولد

ينبغي على العبد المسلم أن يجعل حياته كلها تعبُّداً لله تعالى حتى تتحوَّل العادات عنده بالنيَّة الصالحة إلى عبادات وذلك مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ **قل إن صلاتي ونسكي ومحيايي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين** ﴾[1] .

ومن هذه العادات بل الأشياء التي فُطِرَ عليها الإنسان طلب الولد وحُبُّ الذرية والتكثُّر منها. فترى العبد المسلم الصالح يتعبَّد لربِّه وخالقه بطلب الولد والذرية الصالحة. ولكن ينبغي لهذا العبد أن يستحضر في نيَّته هذه، وعبادته تلك أشياء حتى يؤجر عليها ويكتب له الأجر ويفو ز بخيري الدنيا والآخرة، ومن ذلك :

١ - أن يتوجَّه العبد بطلب الولد من الله العزيز الحكيم وحده دون سواه اعتقاداً منه أن الولد هبة ممن يملك الأمر وحده ـ جلَّ في علاه ـ .

٢ - أن يكفر العبُد المسلم بكل من يُدْعي من دون الله من الشركاء الذين يُدْعون من دون الله ويُطْلب منهم الولد، لاعتقاد العبد المسلم الموحِّد أنه لا إله إلاَّ الله، ولا عزة مطلقة ، ولا حكمة بالغة في هذا الكون إلاَّ للعزيز الحكيم .

٣ - أن ينوي العبد المسلم عند تعبُّده للعزيز الحكيم بطلب الولد أن يُذْكر الله تعالى في مُلْكه ، ويُوحَّد في سلطانه ،ويكون هذا العبد سبباً بما ينحدر منه من ذرية لذِكْر الله وتوحيده في مُلْكه .

---

(١) الأنعام (١٦٢ : ١٦٣) .

٤ ـ أن ينوي العبد المسلم المتعبِّد لصاحب العزة والحكمة بطلب الولد أن يُكَثِّر عدد المسلمين في الأرض حتى يباهى بنا رسول الله ـ ﷺ ـ الأمم يوم القيامة.

٥ ـ أن ينوي بهذا الولد نُصْرة الإسلام والمسلمين في مشارق الأرض ومغاربها ، ورفع راية الإسلام عالية خفَّاقة في أنحاء المعمورة .

٦ ـ أن ينوي بطلب هذا الولد حماية أعراض المسلمين ، وتطهير المقدسات من دَنَس المعتدين ، وحقن دماء المسلمين ، وتخليص أراضي المسلمين من المعتدين المغتصبين .

٧ ـ أن ينوي العبد المتعبِّد لله تعالى بطلب الولد أن يكون هذا الولد ، وهذه الذرية عونا له على كل أمور الدنيا والدين .

٨ ـ أن يطلب العبد المؤمن المتعبِّد للعزيز الحكيم بطلب الولد أن تكون ذريته ذرية صالحة ، كما طلب ذلك وتعبَّد به نبي الله زكريا حيث قال : ﴿ **قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء** ﴾[1] .

٩ ـ أن يتعبَّد العبد (بدعائه لله تعالى) بطلب الولد إذ أن الدعاء من أعظم العبادات لله تعالى ، ومن أسمى وأرفع مقامات التعبُّد ، بل هو العبادة في حقيقتها كما قال رسول الله ـ ﷺ ـ : ﴿ **الدعاء هو العبادة** ﴾[2] .

---

(١) آل عمران (٣٨) .

(٢) رواه الترمذي كتاب (أحاديث الأنبياء) باب (ونبئهم عن ضيف إبراهيم) .
وأبو داود كتاب (الصلاة) باب (الدعاء).
وابن ماجه كتاب (الدعاء) باب (فضل الدعاء) .

[المطلب الثالث]

التعبُّد للعزيز الحكيم بالاستعداد ليوم البعث

قال تعالى : ﴿ وهو الذي يبدؤا الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾(١) .

وقال تعالى:﴿ تُرِيدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم ﴾(٢) .

إن العبد المسلم المتعبِّد لله تعالى بأسمائه الحسنى ، وصفاته العليا ، ليؤمن ويوقن بعزة وقدرة وحكمة الله في بعث الخلق مرة أخرى بعد موتهم ، فيخرجون من قبورهم مسرعين إلى الموقف العظيم ليُحَاسَبُوا على أعمالهم ، وعلى ما قدَّموا في حياتهم الدنيا كما قال تعالى : ﴿ يوم يخرجون من الأجداث سراعاً كأنهم إلى نصب يوفضون ﴾(٣) .

فإن الذي خلقهم أول مرة بعزته وقدرته وحكمته قادر على بعثهم وإعادتهم مرة أخرى للحساب ولتوفَّى كل نفس ماعملت وهم لا يُظْلمون .

فإن الله بعزته وقوته وحكمته قضى وحكم على عباده ، بل وخلقه أجمعين بالفناء والهلاك ، كما قال تعالى : ﴿ لا إله إلاَّ هو كل شيء هالك إلاَّ وجهه ﴾(٤) .

وقال تعالى:﴿ وكل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام ﴾(٥).

---

(١) الروم (٢٧) .
(٢) الأنفال (٦٧) .
(٣) المعارج (٤٣) .
(٤) القصص (٨٨) .
(٥) الرحمن (٢٦ : ٢٧) .

وقضى وحكم بالبعث والنشور لعباده لكي يحكم بينهم فيما كانوا فيه يختلفون كما أخبر تعالى : ﴿ وإن ربك ليحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ﴾(١) .

فيتعبَّد العبد المسلم لله العزيز الحكيم بأن يوقن بأن الله قادر على بعث عباده وخَلْقه ، وأن البعث حق ، وأن الله يبعث مَنْ في القبور ، ويدفعه هذا الإيمان ، وذلك الاعتقاد إلى العمل لهذا اليوم الذي وعد الله به ، وذلك تعبُّداً لهذا الإله العزيز الحكيم القادر على الخلق والبعث تصديقاً لقوله تعالى : ﴿ وهو الذي يبدؤا الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ﴾(٢) .

وإن الاستعداد لهذا البعث ، وذلك النشور ليأخذ أشكالاً عدة ، وصوراً شتى، وأعمالاً وأقوالاً تُظْهر مدى يقين هذا العبد بما بعد الموت من البعث والحساب ، والجنة والنار ، فيظهر هذا المعتقد ، ويتضح هذا التعبُّد في جميع عبادات المسلم ، بل وفي كل معاملاته وسلوكياته ، فيضع المسلم نصب عينيه هذا المعتقد فيكون دافعاً له لمراقبة ربه ومولاه ، وخشية إلاهه وخالقه العزيز الحكيم، المطَّلع على جميع أعماله ،القادر بعزته وحكمته على بعثه وحسابه، وتنعيم المؤمن المطيع ، وتعذيب الكافر العاصي ، فلا يكون من هذا العبد إلاَّ أن يحقق العبودية الحقة لهذا الإله العزيز الحكيم ـ جلَّ في علاه ـ فلا يصدر منه إلاَّ مايرضى ربه ومولاه ، ويبتعد عن كل ما يغضب هذا الإله ، ويحرص على كل ما يقرِّبه من ربه ويوجب له الرحمة والمغفرة، ويفرُّ من كل شيء يكون سبباً في هلاكه وعذابه.

---

(١) النحل (١٢٤) .

(٢) الروم (٢٧) .

ويتلخَّص هذا الاستعداد في مظهرين وعملين واضحين يظهر أثرهما على العبد المسلم في كل حياته وعلاقته مع ربه ومع كل مَنْ حوله وهما :

١ ـ الأعمال الصالحة .

٢ ـ تجنب المعاصي .

أولاً : الاستعداد ليوم البعث بالأعمال الصالحة :

إن العبد المسلم المتعبِّد لربه وخالقه بأسمائه الحسنى ، وصفاته العليا ، الموقن بعزة الله وحكمته في خلق الخلق ،وبعثهم بعد موتهم ، المصدِّق بما بعد الموت من بعث ، وحساب ، وتنعيم ، وعذاب ، الموقن بعزة الله وقدرته وحكمته وإحكامه في إثابة العبد المطيع وتنعيمه ، وعقاب العبد العاصي وتعذيبه ، ليدفعه هذا التعبُّد ، وذلك المعتقد إلى الأعمال الصالحة ، التي تحقق عبوديته لله ، وتجعله يستَدِرُّ رحمة ربه وكرمه فيكون بعد البعث من المنعَّمين وليس من المعذَّبين ، ويكون من الفائزين وليس من الخاسرين ، ويكون من أصحاب جنات النعيم وليس من أصحاب السعير ـ أعاذنا الله والمسلمين من حرها وعذابها ـ .

قال تعالى : ﴿ **إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلاً خالدين فيها لا يبغون عنها حولا** ﴾[1].

قال الإمام الطبري ـ رحمه الله ـ :

((يقول تعالى ذِكْره : إن الذين صدَّقوا بالله ورسوله ، وأقرُّوا بتوحيد الله وما أنزل من كتبه وعملوا بطاعته ، كانت لهم بساتين الفردوس ، والفردوس : معظم الجنة))[2] .

---

(١) الكهف (١٠٧ : ١٠٨) .

(٢) تفسير الطبري لسورة الكهف آية (١٠٧) [٥/ ١٣٨] .

قال الشيخ السعدي ـ رحمه الله ـ :

((أي : إن الذين آمنوا بقلوبهم ، وعملوا الصالحات بجوارحهم وشمل هذا الوصف جميع الدين عقائده وأعماله ، أصوله ، وفروعه الظاهرة والباطنة ، فهؤلاء على إختلاف طبقاتهم من الإيمان، والعمل الصالح ـ لهم جنات الفردوس))[١] .

قال الإمام القرطبي ـ رحمه الله ـ :

قال قتادة : « الفردوس ربوة الجنة وأوسطها وأعلاها وأفضلها وأرفعها » .

قال أبو أمامة الباهلي : الفردوس سُرَّة الجنة .

قال كعب : ليس في الجنان جنة أعلى من جنة الفردوس ، فيها الآمرون بالمعرون ، والناهون عن المنكر ، وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : **« من آمن بالله، وبرسوله، وأقام الصلاة، وصام رمضان،ان كان حقاً على الله أن يدخله الجنة، جاهد في سبيل الله أو جلس في أرضه التي وُلِدَ فيها، قالوا : يا رسول الله أفلا نُبَشِّر الناسَ ؟ قال : « إن الجنة مائة درجة أعدَّها الله للمجاهدين في سبيل الله، مابين الدرجتين كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم الله تعالى فاسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة ـ أراه قال ـ وفوقه عرش الرحمن ومنه تُفَجَّر أنهار الجنة» وقال محمد بن فُلَيْح عن أبيه « وفوقه عرش الرحمن »))**[٢]، [٣] .

---

(١) تفسير السعدي لسورة الكهف آية (١٠٧) ص (٤٣٧) .

(٢) رواه البخاري في كتاب (الجهاد والسِّير) باب (درجات المجاهدين في سبيل الله) .

(٣) تفسير القرطبي لسورة الكهف آية (١٠٧) المجلد السادس [جـ ١١ / ٤٦] .

فإن إيمان هؤلاء المؤمنين بالبعث ، وأنهم سوف يُبْعثون بعد موتهم ، وسوف يحاسبون على أعمالهم ، دفعهم ذلك الإيمان إلى التعبُّد لله العزيز الحكيم بالاستعداد لهذا اليوم ، وذلك الموقف بالأعمال الصالحة التي تنجيهم من عذاب الجحيم ، وتكون سبباً في الفوز بجنات النعيم مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وحسن أولئك رفيقاً ، فلقد تعبَّدوا إلاهاً عزيزاً قوياً قادراً على تنعيم عباده ، ولا يعجزه من شاء عذابه من خلقه ، فهو صاحب العزة المطلقة والحكمة البالغة .

ويُعبِّر أصحاب الجنة عن فرحتهم يوم القيامة بهذا الفوز ، وبهذا النعيم حينما بُشِّروا بالجنة ، لأنهم تعبَّدوا للعزيز الحكيم في الدنيا باستعدادهم ليوم البعث والعمل ليوم النشور ، فاشتغلوا بالأعمال الصالحة التي قرَّبتهم من ربهم ، ونالوا رحمة الحكيم ، الذي يرحم من يشاء بحكمته ، ويعذِّب من يشاء بعزته وعدله .

قال الله تعالى : ﴿ **فأما من أوتي كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرءوا كتابيه إني ظننت أني ملاق حسابيه ، فهو في عيشة راضية في جنة عالية قطوفها دانية** ﴾[1] .

قال الشيخ السعدي ـ رحمه الله ـ :

((وهؤلاء هم أهل السعادة يُعْطون كُتُبهم التي فيها أعمالهم الصالحة بأيمانهم ،تمييزاً لهم ، وتنويهاً بشأنهم ، ورفعاً لمقدارهم .

ويقول أحدهم عند ذلك من الفرح والسرور ، ومحبة أن يطَّلع الخلق على ما منَّ الله عليه به من الكرامة .

---

(١) الحاقة (١٩ : ٢٣) .

﴿ هاؤم اقرؤوا كتابيه ﴾ أي : دونكم كتابي ، فاقرؤوه ، فإنه يُبَشِّر بالجنات ، وأنواع الكرامات ، ومغفرة الذنوب وستر العيوب .

والذي أوصلني إلى هذه الحال ما منَّ الله به عليَّ من الإيمان بالبعث والحساب والاستعداد له ، بالممكن من العمل ، ولهذا قال : ﴿ **إني ظننت أني ملاق حسابيه** ﴾ أي : أيقنت ، فالظن ـ هنا ـ بمعنى اليقين))(١) .

ثانياً : الاستعداد ليوم البعث بتجنُّب المعاصي :

إن من مظاهر التعبُّد لله تعالى ـ العزيز الحكيم ـ الذي خلق الخلق ، والذي يبعث عباده يوم القيامة ، أن يتجنَّب العبد المسلم المعاصي وكل ما يغضب العزيز الحكيم ـ جلَّ في علاه ـ حتى لا يقع تحت عزة الله وبطشه ، وحتى لا يُعرِّض نفسه لانتقام وعذاب صاحب الحكم والحكمة ، فهو سبحانه وتعالى أعزُّ من بطش ،وأحكم من عذَّب ، فلا رادَّ لحكمه ، ولا معقِّب لقضائه ، ولايمنعه مانع ، ولا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء وهو أحكم الحاكمين .

قال تعالى : ﴿ **يخافون ربهم من فوقهم** ﴾(٢) .

وقال تعالى : ﴿ **والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش** ﴾(٣) .

النبي ـ ﷺ ـ يتبرأ من معصية الله :

وها هو النبي ـ ﷺ ـ يتبرأ إلى الله من أن يعصيه ،ويخشى عاقبة المعصية في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ، وذلك حينما راوده الكفار على كتاب الله

---

(١) تفسير السعدي لسورة الحاقة آية (١٩: ٢٠) ص (٨١٨) .
(٢) النحل (٥٠) .
(٣) الشورى (٣٧) .

وكلامه - جلَّ في علاه - فطلبوا منه أن يأتي بقرآن غير هذا القرآن أو يُبدِّله ، فلم يكن جوابه - ﷺ - إلاَّ أنه لقَّنهم درساً في العبودية ، وفي كيفية التعبُّد للعزيز الحكيم بترك المعصية والفرار منها، خشية الوقوف بين يدي الله يوم البعث للحساب والمُسائلة ، فأعلنها فيهم أنه يخاف أن يتجرأ على معصية صاحب العزة والحكمة أن يعذِّبه بعزته وبمقتضى حكمه وحكمته يوم يبعث عباده .

قال تعالى : ﴿ **وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غيرهذا أو بدله قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي إن اتبع إلاَّ ما يوحى إليَّ إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم** ﴾[1].

فإيمان النبي - ﷺ - بالبعث بعد الموت ، والحساب ، والوقوف بين يدي الله تعالى ، وقدرته على تعذيب من عصاه ، جعل النبي - ﷺ - يتعبَّد لخالقه ومولاه بتجنب معصيته والافتراء عليه .

وقال تعالى عن نبيه - ﷺ - أيضاً في موضع آخر .

﴿ **قل إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم** ﴾[2].

قال الشيخ السعدي - رحمه الله - :

((فإن المعصية في الشرك توجب الخلود في النار وسخط الجبار ، وذلك اليوم هواليوم الذي يُخَاف عذابُه ، ويُحْذر عقابه ، لأنه من صُرِفَ عنه العذاب يومئذ فهو المرحوم ، ومَنْ نجا فيه فهو الفائز حقاً ، كما أن مَنْ لم ينج منه فهو الهالك الشقي))[3] .

---

(١) يونس (١٥) .
(٢) الأنعام (١٥) .
(٣) تفسير السعدي لسورة الأنعام آية (١٥) ص (٢١٤) .

عاقبة عصيان العزيز الحكيم :

إن مَنْ يتجرأ على عصيان صاحب العزة والحكمة فقد عرَّض نفسه للهلاك ، والخسران ، فقد خسر الدنيا ، والآخرة ، وحكم على نفسه بسوء العاقبة ، وسوء المنقلب . وسَخِطَ الله عليه ، وأعدَّ له عذاباً أليماً .

ولقد بيَّن لنا الله تعالى في كتابه العزيز عاقبة هؤلاء العصاة في الدنيا والآخرة في مواضع كثيرة، ومن أبرز عاقبة هؤلاء العصاة في الدنيا والآخرة مايلي:

١ ـ الضلال :

قال الله تعالى : ﴿ **ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالاً مبيناً** ﴾[١] فقد حكم الله ـ عزَّ وجل ـ بحُكْمه ، ووفق حكمته بضلال كل مَنْ عصاه ، وخالف أمره ـ جلَّ في علاه ـ واتبع هواه ، وتمَّرد على خالقه ومولاه ، فحَرَمَه الله منْ هُدَاه ، وفي الضلال أرْداه ، لأنه عصاه ، وأطاع سواه ، والله الذي سوَّاه ، وللخير هداه ، ولكنه غَلَبه هواه ، فعصى مولاه ، واستسلم لشيطانه فأغواه ، وهذا حكم الله في كل من عصاه .

٢ ـ الأخذ الشديد :

قال تعالى : ﴿ **فعصى فرعون الرسول فأخذناه أخذاً وبيلاً** ﴾[٢] .

إن عصيان العبدُ للعزيز الحكيم يستوجب غضب صاحب العزة والحكمة ويُعجِّل بهلاك صاحبها ، وانتقام الله منه ، وأخذه أخذ عزيز منتقم ، فإن صاحب

---

(١) الأحزاب (٣٦) .

(٢) المزمل (١٦) .

العزة والحكمة قد يمهل ذلك العاصي بحكمته ، ولحكمة أرادها ولكنه لايهمله ، حتى إذا أخذه لم يفلته ، بل يأخذه أخذ عزيز مقتدر ، كما ورد في الحديث الشريف قال رسول الله - ﷺ - « إن الله لَيُمْلي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ».
قال : ثم قرأ ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾[1] [2] .

وذلك كما فعل الله تعالى مع فرعون - عليه لعنة الله - بعدما أمهله الله - تعالى - وأرسل له رسوله - موسى صلى الله عليه وسلم - بالبينات والحجج الواضحة، والبينات الساطعة ، ولكنه أبى واستكبر، وأصرَّ على عصيان ربه ومولاه، وعرَّض نفسه لانتقام صاحب العزة والحكمة منه، فإنه سبحانه وتعالى لا رادَّ لحكمه ، ولا معقب لقضائه - فأغرقه الله - تعالى - ليكون عِبْرة لكل عاص ، ولكل من يُعرِّض نفسه لبطش وانتقام صاحب العزة والحكمة .

ويبيِّن الله - تعالى - لنا ولكل خلقه أن سبب إهلاكه لفرعون - عليه لعنة الله - وأخذه له أخذاً شديداً هو عصيانه - جلَّ في علاه - فقال تعالى لفرعون حينما حضره الموت ، وأدركه الغرق ، وبعدما نطق أنه آمن بما آمن به بنو اسرائيل وبَّخه الله تعالى قائلاً له ﴿ آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين ﴾[3] .

فهذا هو مصير فرعون ومَنْ على شاكلته ممن تجرأ على معصية العزيز الحكيم.

---

(١) هود (١٠٢) .

(٢) رواه البخاري كتاب (التفسير) سورة هود باب (وكذلك أخذ ربك) .
ورواه مسلم كتاب (البر والصلة) باب (تحريم الظلم) .

(٣) يونس (٩١) .

٣ ـ نار جهنم ـ والعياذ بالله ـ :

قال تعالى :﴿ ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبدا ﴾(١).
وقال تعالى : ﴿ ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالدا فيهاوله عذاب مهين ﴾(٢) .

ويتوعَّد الله تعالى كل من يعصيه ، وكل من أبي أن يتعبَّد له بأسمائه الحسنى وصفاته العليا ، ولم يعمل لما بعد الموت ، ولم يستعد ليوم البعث ، ولم يخش انتقام وبطش العزيز الحكيم ، يتوعَّد الله مَنْ كانت هذه صفاته بأن النار موعده ، وأن جهنم ـ والعياذ بالله ـ مقرُّه ومستقره ، جزاء له على إقدامه على معصية الله ، وإعلان التمرُّد على خالقه ، ولم يعْبأ بعزة الله وقدرته عليه في الدنيا وفي الآخرة ، فإن العزيز الحكيم قادر بعزته وحكمته على إهلاكه في الدنيا ، وتعذيبه بالنار في الآخرة ، فلقد أعدَّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ هذه النار لمن عصاه ، واستهان بعزته وقدرته ، فكانت النار هي الجزاء الأوفى لكل العصاة ، وبئس القرار لكل من تمرَّد على مولاه ـ جلَّ في علاه ـ .

٤ ـ الحسرة والندامة :

قال الله تعالى : ﴿ يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض ولا يكتمون الله حديثا ﴾(٣) .

---

(١) الجن (٢٣) .
(٢) النساء (١٤) .
(٣) النساء (٤٢) .

إن أكبر خسارة يخسرها العصاة هي يوم القيامة ، حينما يروا مصيرهم ، ويطَّلعوا على مقرِّهم ، ويتأكَّدوا من خسرانهم ، ويوقنوا بأن جهنم مآلهم ، حينئذ تعلوهم الحسرة ، ويغشاهم الندم ، ويمتلكهم اليأس ، ويعلوهم الإحباط ،ولا يتمالكون قواهم ، ولا يتحكمون في أنفسهم ، حينئذ يودون لو تسوَّى بهم الأرض ، ويتمنون أن لم يأتوا إلى هذا الكون ، ولم تلدهم أمهاتهم .

ويتمنون على الله أن تُسوَّى بهم الأرض ، وأن يُنْثروا مع الريح ، وذلك من الخزي والعار الذي لحق بهم يوم البعث ، ومن المصير البئيس الذي ينتظرهم بسبب معصيتهم لله تعالى .

قال الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله ـ :

((﴿ يومئذ يود الذين كفروا لو تسوى بهم الأرض ﴾[1] .

أي انشقت وبلعتهم مما يرون من أهوال الموقف وما يحلُّ بهم من الخزي والفضيحة والتوبيخ .

﴿ ولا يكتمون الله حديثاً ﴾[2] .

إخبار عنهم بأنهم يعترفون بجميع ما فعلوه ولا يكتمون منه شيئا)) [3].

---

(١) النساء (٤٢) .

(٢) النساء (٤٢) .

(٣) تفسير ابن كثير لسورة النساء آية (٤٢) [١/ ٤٧٣] .

الفصل الخامس

التعبُّد للعزيز الحكيم بطلب الهداية والرحمة والمغفرة

« **المبحث الأول** » : [طلب الهداية من العزيز الحكيم]

المطلب الأول : [التعبُّد للعزيز الحكيم بطلب الهداية للحق] .

المطلب الثاني : [التعبُّد للعزيز الحكيم بطلب الهداية لسنن الأولين من الأنبياء والمرسلين] .

المطلب الثالث : [التعبُّد للعزيز الحكيم بطلب الهداية للصراط المستقيم]

« **المبحث الثاني** »: [طلب الرحمة من العزيز الحكيم].

المطلب الأول :[المؤمنون يتعبَّدون للعزيز الحكيم بطلب الرحمة].

المطلب الثاني : [الملائكة يتعبَّدون للعزيز الحكيم بطلب الرحمة للمؤمنين] .

المطلب الثالث : [إقتران الرحمة بصفة العزَّة في القرآن الكريم].

« **المبحث الثالث** » : [طلب المغفرة من العزيز الحكيم] .

المطلب الأول : [المؤمنون يتعبَّدون للعزيز الحكيم بطلب المغفرة].

المطلب الثاني : [الملائكة يتعبَّدون للعزيز الحكيم بطلب المغفرة للمؤمنين].

المطلب الثالث : [اقتران المغفرة بصفة العزَّة في القرآن الكريم].

المطلب الثالث : التعبُّد للعزيز الحكيم بالاستعداد ليوم البعث



[المبحث الأول]

[طلب الهداية من العزيز الحكيم]

المطلب الأول : [التعبُّد للعزيز الحكيم بطلب الهداية للحق]

المطلب الثاني :[التعبُّد للعزيز الحكيم بطلب الهداية لسنن الأولين من الأنبياء والصالحين] .

المطلب الثالث : [التعبُّد للعزيز الحكيم بطلب الهداية للصراط المستقيم]





[المطلب الأول]

[التعبُّد للعزيز الحكيم بطلب الهداية إلى الحق]

قال تعالى :﴿ فيضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وهو العزيز الحكيم ﴾(١) .

وقال تعالى : ﴿ فهدى الله الذين آمنوا لما اختلف فيه من الحق بإذنه ﴾(٢).

إن التعبُّدلله تعالى بأسمائه الحسنى ، وصفاته العليا من أعظم العبادات ، ومن أجلِّ القربات لله ـ جلَّ في عليائه ـ ومن التعبُّد لله تعالى باسميه الحسنيين [العزيز الحكيم]، وصفتيه الحميدتين [العزة والحكمة] بأن يطلب العبد من ربه وخالقه ومولاه ، صاحب العزة والحكمة ، [الهداية عامة] ، فيطلب منه الهداية بكل أنواعها، ويتلمّس الهداية بكل صورها من صاحب العزّة والحكمة ، ومن ذلك طلب [الهداية إلى الحق] .

ـ فإن العبد المسلم يتلمَّس الهداية إلى الحق دائماً، فهو يعلم أنه يتعبَّد لإله حق ، ويتعبَّد له بدينٍ حق ، عن طريق كتاب ينطق بالحق ، أنزله على رسولٍ يقرِّر ويحث على الحق، فكان الحق ضالة العبد المسلم، يتلمّسه في كل مكان ، ويطلبه في كل مكان، ويعين طالبه، وينصر أتباعه ، ويحارب ويجاهد أعداءه ، فالمسلم دائماً يتحرَّى الحق ، ويبحث عنه ، ويلتزمه، وينصره ، ويؤيد أتباعه .

ـ ولمَّا كانت الهداية بيدي الله تعالى [العزيز الحكيم] الذي يملك كل شيء، والقادر على كل شيءٍ فيتوجَّه العبد المسلم المتعبِّد لصاحب العزّة والحكمة

---

(١) إبراهيم (٤) .

(٢) البقرة (٢١٣) .

بأن يطلب منه الهداية إلى الحق ، الهداية لما يختلف فيه الناس، يطلب منه أن يشرح صدره ، ويهدي قلبه ، ويسدِّد رأيه ، ويُلْهم عقله للحق ، ويثبِّت قدمه على الحق ، ويحفظه من الباطل ، وأتباعه ، وطرُقه ، وأن يجعله من أهل الحق، وأن يُنوِّر بصره وبصيرته دائماً لقبول الحق، وخاصة ما يتعلَّق بالعبودية لصاحب العزة والحكمة ، وما يتعلَّق بأمر الألوهية ، وما يخصُّ الإيمان بأسماء الله تعالى وصفاته ، وكيفية التعبُّد لله تعالى بهذه الأسماء الحسنى، وتلك الصفات الحميدة .

قال تعالى : ﴿ **من يهدي الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً** ﴾(١).

- فإن صاحب العزة والحكمة [العزيز الحكيم] هو الذي يملك الهداية وحده - جَّل في علاه - ولا يشاركه في ذلك أحد من خلقه ، لا نبي مُرْسل ، ولا مَلَكٌ مقرَّب، بل الأمر كله لله وبيده ، والكل وفق مشيئته ، وتبعاً لعزته وقوته، ووفق حُكْمه وحكمته .

فهو سبحانه وتعالى يضل من يشاء بعزته وحكمته ، ويهدي إلى الحق من يشاء بعزته وحكمته ، فله الأمر من قبل ومن بعد ، والعباد كلهم وفق ما أراده، وتبعاً لحكمته ، ولا يخرج عن إرادته ومشيئته وعزته وحكمته أحد من خلقه ، قال تعالى : ﴿ **ولله الأمر من قبل ومن بعد** ﴾(٢) .

يفعل ما يشاء وهو على كل شيء قدير ، بيده الأمر كله - جلَّ في علاه - .

---

(١) الكهف (١٧) .
(٢) الروم (٤) .

ـ ولذلك فإن من التعبُّد لله [العزيز الحكيم] صاحب العزة المطلقة الكاملة، وصاحب الحكمة التامة البالغة ، أن يُتوجَّه إليه [بطلب الهداية إلى الحق] التي هي بُغْية كل مسلم ، يطلب منه الهداية إلى الحق بكل ما تحمله هذه الكلمة من طرق وأنواع وصور الحق . قال تعالى : ﴿ **فيضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وهو العزيز الحكيم** ﴾[1].

ـ [ومن صور طلب الهداية للحق من العزيز الحكيم ما يلي] :

١ ـ طلب الهداية إلى الحق من العزيز الحكيم فيما يخصُّ الألوهية ، فيسأل الله العزيز بقدرته على كل شيء أن يهديه إلى التعبُّد لله الحق حق التعبُّد بأن يتعرَّف على خالقه حق التعرُّف حتى يعبده حق العبادة .

٢ ـ طلب الهداية من العزيز الحكيم إلى الحق في التعرُّف على أسماء الله تعالى وصفاته ، فإنها أشرف الأسماء ، وأكمل الصفات ، لأنها تتعلق بذات الإله المنزَّه عن كل عيب ونقص .

٣ ـ طلب الهداية إلى الحق من العزيز الحكيم في كيفية الإيمان بالله تعالى وبأسمائه الحسنى، وصفاته العليا ، وكيفية التعبُّد له بهذه الأسماء ، وتلك الصفات ، عبادة ترضى الإله في علاه .

٤ ـ طلب الهداية من العزيز الحكيم إلى الحق ، بأن يهديه صراطه المستقيم ، ودينه القويم، دين الإسلام الحنيف ، وأن يُثبِّته عليه ، وأن يجعله في سويداء قلبه، وأن يحيا عليه ، ويتوفى على ملته ، ويحشر مع أتباعه ، وفي زمرة حزبه .

---

(١) إبراهيم (٤) .

٥ ـ طلب الهداية إلى الحق من العزيز الحكيم باتباع سنة النبي ـ ﷺ ـ والسير على دربه، والاقتداء به ، وتطبيق سننه ـ ﷺ ـ كما يرضى الله ـ سبحانه وتعالى ـ وكما أراد الرسول ـ ﷺ ـ وبما يكون فيه إحياء للسنة ، وطمس للبدعة، ورفعٌ لراية التوحيد، وإعزاز للمسلمين، وخفض لراية الكفر، وإذلال للكفر والكافرين .

٦ ـ طلب الهداية إلى الحق من العزيز الحكيم فيما يختلف فيه الناس من أمور الدين والدنيا ، وهداية المسلم لكل ما يرضي الله ـ تعالى ـ في كل ما يخصُّ المسلم في حياته وآخرته ، فإن الأمر لصاحب العزة والحكمة من قبل ومن بعد.

قال تعالى : ﴿ فهدى الله الذين آمنوا لما اختلف فيه من الحق بإذنه ﴾(١).

ـ وهكذا يكون العبد المتعبِّد للعزيز الحكيم الذي يعلم بعقيدته هذه أن صاحب العزة والحكمة هو وحده الذي يملك بهذه العزة والقدرة على الخلق وعلى كل شي، وبهذه الحكمة التي حوت كل شيء وأحاطت بكل شيء، يجعله ذلك كله يتوجَّه [للعزيز الحكيم] ـ جلَّ في علاه ـ متعبِّداً لله باسميه الحسنيين [العزيز الحكيم] وبصفتيه الحميدتين [العزة والحكمة] فيطلب منه أن يهديه للحق، وأن يجنبه الباطل، وأن يُنير بصيرته دائماً للحق، ويهدي قلبه لكل حق، والله هو الهادي إلى سواء السبيل ـ جلَّ في علاه ـ .

قال الإمام الطبري ـ رحمه الله ـ :

في قوله تعالى : ﴿ فيضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وهو العزيز الحكيم ﴾(٢) .

---

(١) البقرة (٢١٣) .

(٢) إبراهيم (٤) .

((« ثم التوفيق والخذلان بيد الله » ، فيخذل عن قبول ما أتاه به رسوله من عنده مَنْ شاء منهم ، ويوفق لقبوله من شاء .

« وهو العزيز »: الذي لايمتنع مما أراده من ضلال أو هداية مَنْ أراد ذلك به.

« الحكيم » : في توفيقه للإيمان مَنْ وفقه له ، وهدايته له مَنْ هداه إليه ، وفي إضلاله مَنْ أضلَّ عنه ، وفي غير ذلك من تدبيره »[١].

وقال الحافظ ابن كثير - رحمه الله - في نفس الآية :

((« أي بعد البيان وإقامة الحجة عليهم » يضل الله من يشاء عن وجْه الهدى ، ويهدي من يشاء إلى الحق .

« العزيز » الذي ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن .

« الحكيم » في أفعاله فيضل من يستحق الإضلال ، ويهدي من هو أهل لذلك))[٢] .

- وقال أيضاً الشيخ السعدي - رحمه الله - في نفس الآية :

« فيضل الله من يشاء »[٣] ممن لم ينقد للهدى ، ويهدي من يشاء ممن اختصه برحمته .

« وهو العزيز الحكيم » الذي من عزته أنه انفرد بالهداية والإضلال، وتقليب القلوب إلى ما شاء . ومن حكمته أنه لا يضع هدايته ولا إضلاله إلا بالمحل اللائق به))[٤] .

---

(١) تفسير الطبري لسورة إبراهيم ، آية (٤) ، [٤ / ٤٣٩] .
(٢) تفسير ابن كثير لسورة إبراهيم ، آية (٤) [٣ / ٥٠٥] .
(٣) إبراهيم (٤) .
(٤) تفسير السعدي لسورة إبراهيم آية (٤) ص (٣٧٥ : ٣٧٦) .

[المطلب الثاني]

[التعبُّد للعزيز الحكيم بطلب الهداية لسنن الأولين من الأنبياء والصالحين]

قال تعالى : ﴿ فيضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وهو العزيز الحكيم ﴾(١).

وقال تعالى : ﴿ ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم ﴾(٢).

وقال تعالى : ﴿ ومن يهد الله فما له من مضل أليس الله بعزيز ذي انتقام ﴾(٣).

إن المتعبِّد لله تعالى بأسمائه الحسنى، وصفاته العليا ، دائم التطلُّع لكل ما يُرْضِي إلاهه وخالقه، فهو يتبع أئمة الهدى ، ويقتفي سُنن الأولين من الأنبياء والمرسلين ، ويتَّبع عباد الله الصالحين ، ويسلك سبيل المؤمنين ، حتى يكون في قافلة عباد الله الموحدين ، المنيبين إلى ربهم ، والمتعبِّدين له بأسمائه الحسنى، وصفاته العليا ، فيحيا على سنتهم، ويُقْبض على ملَّتهم، رجاء أن يُحْشر يوم القيامة في زمرتهم ، فيدفعه هذا الهدف، وتشجِّعه هذه الغاية، ويزيد من حرصه هذا التطلُّع ، أن يتعبَّد لله تعالى باسميه الحسنيين [العزيز الحكيم] ، وصفتيه الحميدتين

---

(١) إبراهيم (٤) .

(٢) النساء (٢٦) .

(٣) الزمر (٣٧) .

[العزة والحكمة] لاعتقاده أن الهداية لهذا الإتباع لا يكون إلاَّ بعزة صاحب العزة المطلقة الكاملة ، وبحكمة صاحب الحكمة التامة البالغة ، فهو الذي يملك الهداية ، وهو الذي يتصرف في أمور عباده بعزته وحكمته ، ويُصرِّف قلوب عباده إلى ما يحب ـ جلَّ في علاه ـ .

قال تعالى : ﴿ **ذلك هدى الله يهدي به من يشاء من عباده** ﴾(١) . فيتعبَّد العبد المسلم لصاحب العزة والحكمة ، الذي يملك القلوب بعزته وقدرته ، والذي يُصرِّف الأمور بحكمته وحُكْمه، أن يهدي قلبه لاتباع من قبله من الأنبياء والمرسلين ، وعباد الله الصالحين ، الذين سلكوا الطريق الحق ، والذين اتبعوا ما أنزل الله في كُتُبِه ، وما أوحى به لأنبيائه ورسله ، وأن يوفقه الله إلى أن يسير على سُنَن هؤلاء الصفوة من خلق الله الذين منَّ الله عليهم بالهدى والاهتداء إلى ما يُرْضي الله تعالى ، فيتضرَّع إلى الله تعالى أن يهديه أيضا إلى الاهتداء لما هداهم إليه من الحق ، فالله سبحانه صاحب العزة لا يعجزه شيء ، وصاحب الحكمة لا يخرج عن حكمته أحد ، فهو سبحانه وتعالى الذي يهدي عباده لما يحبه ويرضاه ، ويهدي عباده إلى اتباع سُنن من سبقهم من إخوانهم المؤمنين ، وعباده الموحِّدين ، فهم جميعاً في قافلة التوحيد ، وفي مسيرة التعبُّد لله تعالى ، بأسمائه الحسنى ، وصفاته العليا ، وبما أنزله على أنبيائه ورسله ، فيكونوا نعم الخلف لخير سلف ، فرضي الله عن عباده المؤمنين ، وهَدَى بفضله وعزته وحكمته عباده الموحِّدين ، وتاب على من أناب من خلقه أجمعين . قال تعالى : ﴿ **ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم** ﴾(٢) .

---

(١) الأنعام (٨٨) .

(٢) النساء (٢٦) .

قال الإمام الطبري ـ رحمه الله ـ :

((«ويهديكم سنن الذين من قبلكم » يقول : وليسددكم .

((« سنن الذين من قبلكم » يعني : سبل مَنْ قبلكم من أهل الإيمان بالله وأنبيائه ، ومناهجهم فيما حرَّم عليكم من نكاح الأمهات، والبنات ، والأخوات وسائر ما حرَّم عليكم في الآيتين اللتين بيَّن فيهما ما حرَّم من النساء .

« والله عليم » يقول : « والله ذو علْم بما يُصْلح عباده في أدْيانهم ودنياهم وغير ذلك من أمورهم ، وبما يأتون ويَذَرُون مما أحلَّ أو حرَّم عليهم ، حافظ ذلك كله عليهم .

« حكيم » بتدبيره فيهم ، في تصريفهم فيما صرَّفهم فيه))[١] .

وقال الإمام القرطبي ـ رحمه الله ـ :

« ويهديكم سنن الذين من قبلكم » أي من أهل الحق »[٢].

وقال الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله ـ :

« ويهديكم سنن الذين من قبلكم » يعني طرائقهم الحميدة ، واتباع شرائعه التي يحبها ويرضاها .

« ويتوب عليكم » أي من الإثم والمحارم .

« والله عليم حكيم » : أي في شرعه وقدره وأفعاله وأقواله))[٣] .

---

(١) تفسير الطبري لسورة النساء آية (٢٦) [٢/ ٤٤٣] .

(٢) تفسير القرطبي لسورة النساء آية (٢٦) [٥ / ٩٨] .

(٣) تفسير ابن كثير لسورة النساء آية (٢٦) [١ / ٤٥٤] .

وقال الشيخ السعدي ـ رحمه الله ـ أيضاً في نفس الآية :

((« ويهديكم سنن الأولين » أي : الذين أنعم الله عليهم من النبيين وأتباعهم، في سيرهم الحميدة ، وأفعالهم السديدة ، وشمائلهم الكاملة ، وتوفيقهم التام . فلذلك نفَّذ ما أراده ، ووضَّح لكم، وبيَّن بياناً ، كما بيَّن لمن قبلكم ، وهداكم هداية عظيمة في العلم والعمل .

« والله عليم حكيم » أي : كامل الحكمة ، فمن علمه أن علَّمكم ما لم تكونوا تعلمون . ومنها هذه الأشياء والحدود . ومن حكمته أنه يتوب على مَنْ اقتضت حكمته ورحمته التوبة عليه. ويخذل من اقتضت حكمته وعدله مَنْ لا يصلح للتوبة))[1] .

النبي ـ ﷺ ـ يهتدي بِهَدْي الأنبياء والمرسلين :

قال تعالى : ﴿ أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده ﴾[2]

لقد أمر الله ـ تعالى ـ نبيه محمداً ـ ﷺ ـ أن يهتدي بهدي إخوانه من الأنبياء والمرسلين ـ ﷺ ـ الذين سبقوه في قافلة التوحيد، وفي مسيرة الدعوة إلى الله تعالى، وفي الإلتزام بشرع الله والائتمار بأوامره ، والإنتهاء عن نواهيه ، وتحليل ما أحلَّه الله، وتحريم ما حرَّمه الله ، وإقامة شعائر الله ، وتعظيم حرمات الله ، ونشر التوحيد ، ومحاربة الشرك، وإقامة العدل، وتحريم الظلم، والأمر بمكارم الأخلاق، وتحريم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، وتعظيم حقوق الوالدين ، والحث على صلة الأرحام ، والعطف على الفقراء والمساكين، وفعل كل ممدوح، وترك كل مذموم، وإجمالاً إخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد .

---

(١) تفسير السعدي لسورة النساء آية (٢٦) (ص ١٤٠) .

(٢) الأنعام (٩٠) .

ـ ولا عجب فكلهم أنبياء الله ورسله ـ ﷺ ـ وكلهم أوحى إليهم الله عزَّ وجلَّ بالتوحيد وبمكارم الأخلاق، ونهاهم عن الفحشاء وكل سوء ، فإن المعين واحد ، والوحي واحد ، والدين واحد ، والعقيدة واحدة، والهدف واحد ، والغاية واحدة، والكلُّ يدعو إلى الله تعالى على بصيرة وهدى، والكل قد هداهم الله تعالى لما يحبه ويرضاه، وهداهم إلى الطيب من القول، والصالح من العمل ، وشرح صدورهم لكل ما فيه صلاح وإصلاح . ولذلك يرشد الله ـ تعالى ـ نبيه محمداً ـ ﷺ ـ أن يقتدى بهم، ويهتدي بهداهم ، فإنهم إخوانه في الله ، ورفقاؤه على الدرب ، وقدوته في ميسرة التعبُّد للعزيز الحكيم الذي يهدي من شاء من عباده المؤمنين إلى طريق الحق والهدى والرشاد .

قال الإمام الطبري ـ رحمه الله ـ :

في قوله تعالى : « **أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده** »[1] .

((يقول تعالى ذكره « **أولئك** » هؤلاء القوم الذين وكّلنا بآياتنا وليسوا بها بكافرين ، هم الذين هداهم الله لدينه الحق ، وحفظ ما وكِّلوا بحفظه من آيات كتابه، والقيام بحدوده ، واتباع حلاله وحرامه ، والعمل بما فيه من أمر الله ، والانتهاء عمَّا فيه من نهيه ، فوفقهم جلَّ ثناؤه لذلك .

« **فبهداهم اقتده** » يقول تعالى ذِكْره : فبالعمل الذي عملوا والمنهاج الذي سلكوا ، وبالهدى الذي هديناه ، والتوفيق الذي وفقناهم .

« **اقتده** » يا محمد أي : فاعلم ، وخُذْ به واسلكه ، فإنه عمل لله فيه رضىً ، ومنهاج مَنْ سلكه اهتدى))[2] .

---

(١) الأنعام (٩٠) .

(٢) تفسير الطبري لسورة الأنعام آية (٩٠) [٣ / ٣٠٠] .

وقال الإمام القرطبي ـ رحمه الله ـ في نفس الآية :

((« فبهداهم اقتده » الاقتداء طلب موافقة الغير في فعله .

فقيل : المعنى اصبر كما صبروا

وقيل : معنى « **فبهداهم اقتده** » التوحيد والشرائع مختلفة .

ـ وقد احتج بعض العلماء بهذه الآية على وجوب اتباع شرائع الأنبياء فيما عُدِمَ فيه النص »[(١)].

النبي ـ ﷺ ـ أفضل الأنبياء والمرسلين :

ليس معنى توجيه الله ـ سبحانه وتعالى ـ لنبيه محمد ـ ﷺ ـ أن يقتدى ويهتدي بهدي إخوانه الذين سبقوه من الأنبياء والمرسلين أنهم أفضل منه ، أو أنه أقل منهم شأناً ، بل هو سيد ولد آدم ـ ﷺ ـ كما أخبر عن نفسه ، وهو خير البرية على الإطلاق ، إلاَّ أنهم سبقوه في مسيرة التوحيد ، وفي قافلة الإيمان ، والدعوة إلى الله ـ تعالى ـ فلقد جمع ـ ﷺ ـ كل خصال وفضائل هؤلاء النبيين والمرسلين وفاقهم ـ ﷺ ـ .

قال الشيخ السعدي ـ رحمه الله ـ :

في قوله تعالى : ﴿ **أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده** ﴾[(٢)].

((« **أولئك** » المذكورون .

« **الذين هدى الله فبهداهم اقتده** » أي : امش ـ أيها الرسول الكريم ـ خلف هؤلاء الأنبياء الأخيار ، واتبع ملتهم .

---

(١) تفسير القرطبي لسورة الأنعام آية (٩٠) [٧ / ٢٤] .

(٢) الأنعام (٩٠) .

- وقد امتثل - ﷺ - فاهتدى بهدي الرسل قبله ، وجمع كل كمال فيهم فاجتمعت لديه فضائل وخصائص ، فاق بها جميع العالمين ، وكان سيد المرسلين ، وإمام المتقين ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين))(١) .

روى الإمام البخاري - رحمه الله - في صحيحه :

- عن العوَّام قال : « سألت مجاهداً عن سجدة - (ص) - فقال : سألت عنها ابن عباس أين سجدت ؟ فقال : أو ما تقرأ « ومن ذريته داود وسليمان أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده » فكان داود ممن أُمِرَ نبيكم - ﷺ - أن يقتدى به ، فسجدها داود ، فسجدها رسول الله ﷺ - »(٢) .

التعبُّد للعزيز الحكيم باتباع هَدْي الأنبياء والمرسلين :

إذا كان الله - سبحانه وتعالى - قد خاطب نبيه محمداً - ﷺ - أن يهتدي بهدي من سبقه من إخوانه من الأنبياء والمرسلين ، فإن الأمر أيضاً ينسحب علينا ، ويجب في حقنا نحن أيضا - أعني أمة نبي الله محمد - ﷺ - أن نتعبَّد لله تعالى باتباع هدى هؤلاء الصفوة من الأنبياء والمرسلين - ﷺ - فنحن أحوج ما نكون إلى اتباع هؤلاء الصفوة الذين اختارهم الله - جلَّ في علاه - لحمل رسالاته ، وتبليغ دينه لخلقه ، وأئتمنهم على وحيه ، ودينه ، وحمَّلهم أمانة تبليغ هذه العقيدة لعباده ، فإن الخير كل الخير في اتباعهم والسير على دربهم ، والاهتداء بهديهم ، واعتقاد عقيدتهم، وعدم مخالفتهم عسى الله - سبحانه وتعالى - الذي هدانا بعزته وحكمته إلى الإهتداء بهديهم ، أن يحشرنا في زمرتهم ، ويجمعنا بهم في مستقر

---

(١) تفسير السعدي لسورة الأنعام آية (٩٠) ص (٢٢٥ : ٢٢٦) .

(٢) رواه البخاري كتاب (التفسير) [تفسير سورة (ص)] .

رحمته ، في جنات ونهر، عند مليك مقتدر ، صاحب العزة والحكمة ـ جلَّ في عليائه ـ .

قال الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله ـ :

في قوله تعالى : ﴿ **أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده** ﴾[1] .

((« **أولئك** » يعني : الأنبياء مع مَنْ أضيف إليهم من الآباء والذرية والإخوان، وهم الأشباه .

« **الذين هدى الله** » أي : هم أهل الهدى لا غيرهم .

« **فبهداهم اقتده** » أي : اقتد واتبع ، وإذا كان هذا أمراً للرسول ـ ﷺ ـ فأمته تبعٌ له فيما يُشرِّعه ويأمرهم به))[2] .

---

(١) الأنعام (٩٠) .

(٢) تفسير ابن كثير لسورة الأنعام ، آية (٩٠) [٢ / ١٤٩] .

[المطلب الثالث]

[التعبُّد للعزيز الحكيم بطلب الهداية للصراط المستقيم]

قال تعالى : ﴿ فيضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وهو العزيز الحكيم ﴾[١] .

وقال تعالى : ﴿ وهو الحق ويهدي إلى صراط العزيز الحميد ﴾[٢].

إن العبد المؤمن المتعبِّد لله ـ تعالى ـ بأسمائه الحسنى ، وصفاته العليا ، وخاصة اسمي [العزيز الحكيم] ، وصفتي [العزة والحكمة] ، يعلم أن العزيز صاحب العزة المطلقة الكاملة ، والحكمة التامة البالغة ، هو الذي يملك الهداية ، وأن قلوب العباد تحت عزته وقدرته يهدي منها ما شاء بعزته ، ووفق حكمته ، تفضُّلا منه سبحانه وتعالى على عباده ، ويضل منها ما شاء بعزته ، ووفق حكمته ، عدْلاً منه ، ولحكمة أرادها ، وما الله بظلاَّم للعبيد ، ولكنه يعلم مَنْ يستحق الهداية ، ومن حقت عليه الضلالة ، فهو الخلاق العليم ، الذي خلق الخلق ، ويعلم ما توسوس به أنفسهم ، وهو أقرب إليهم من حبل الوريد ، فيهدي ـ سبحانه وتعالى ـ عباده المؤمنين المخلصين إلى طراصه المستقيم، وإلى دينه الحنيف وإلى سبيله القويم ، وإلى الرشاد والفلاح ، وإلى التعبُّد لله تعالى حق التعبُّد، فهو الذي يملك الأمور ، ويُصرِّف القلوب، وينير البصائر ، ويشرح الصدور ، ويثبِّت الأقدام ، ويُرسِّخ الإيمان ، ويهدي إلى سواء السبيل ، ويهدي إلى الصراط المستقيم ، الذي يوصل عباده إلى مرضاته ، ويدخلهم جناته بفضله وامتنانه ، فهو ـ سبحانه وتعالى ـ

---

(١) إبراهيم (٤) .

(٢) سبأ (٦) .

صاحب العزة والحكمة اللتان شملتا كل شيء ، وهو القائل - جلَّ في علاه - ﴿ وهو الحق ويهدي إلى صراط العزيز الحميد ﴾[١] .

- ولذلك لمَّا تعبَّد العبد [للعزيز الحكيم] ، وأيقن أن قلوب العباد تحت عزته وقدرته ، ووفق مشيئته ، فيتوجَّه بالتعبُّد لصاحب العزَّة والحكمة ، المطَّلع على قلبه ، والذي يملك فؤاده ، أن يهدي قلبه ، وأن يرشد قلبه ، وأن يوجّه قلبه لصراط العزيز الحميد، وأن يوفقه لما يرضى صاحب العزة والحكمة ، فيتضرَّع لهذا الإله العزيز الحكيم أن يمنَّ بعزته ، وأن يشاء بحكمته لقلبه الهداية لصراط الله المستقيم ، للإسلام الحنيف ، وللدين القويم ، ولما يحبه الله ويرضاه ، حتى يكون من عباد الله المؤمنين ، والمتعبِّدين له حق التعبُّد ، فتكون له السعادة في الدنيا ، والفوز في الآخرة، بجنات عرضها كعرض السماء والأرض أُعدِّت لمن هداه الله لصراطه المستقيم .

قال تعالى : ﴿ والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾[٢] .

وقال تعالى : ﴿ قل لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾[٣].

قال الإمام الطبري - رحمه الله - :

في قوله تعالى : ﴿ والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾[٤].

---

(١) سبأ (٦) .
(٢) البقرة (٢١٣) .
(٣) البقرة (١٤٢) .
(٤) البقرة (٢١٣) .

((فإنه يعني به : والله يسدِّد من يشاء من خلقه ويرشده إلى الطريق القويم على الحق الذي لا اعوجاج فيه ، كما هدى الذين آمنوا بمحمد ـ ﷺ ـ لما اختلف الذين أتوا الكتاب فيه بغيا بينهم ، فسددهم لإصابة الحق والصواب فيه .

وفي هذه الآية البيان الواضح على صحة ما قاله أهل الحق : من أن كل نعمة على العباد في دينهم أو دنياهم فمن الله جلَّ وعزَّ))(١) .

وقال الشيخ السعدي ـ رحمه الله ـ :

في قوله تعالى : ﴿ والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾(٢) .

« فعمَّ الخلق تعالى بالدعوة إلى الصراط المستقيم ، عدْلاً منه تعالى، وإقامة حجة على الخلق، لئلاً يقولوا : **﴿ ما جاءنا من بشير ولا نذير ﴾**(٣) وهدى ـ بفضله ورحمته ، وإعانته ولطفه ـ من شاء من عباده ، فهذا فضله وإحسانه، وذاك عدْله وحكمته ، تبارك وتعالى »(٤) .

النبي ـ ﷺ ـ هُدِيَ إلى الصراط المستقيم :

قال تعالى : ﴿ قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم دينا قيماً ﴾(٥).

إن العبد المسلم المتعبِّد للعزيز الحكيم بطلب الهداية إلى صراطه المستقيم، هو في تعبُّده هذا يعلن عن عبوديته لله تعالى ، وخضوعه له ، والتذلُّل بين يديه ،ويعلن

---

(١) تفسير الطبري لسورة البقرة آية (٢١٣) ([١ / ٥٧٧] .
(٢) البقرة (٢١٣) .
(٣) المائدة (١٩) .
(٤) تفسير السعدي لسورة البقرة آية (٢١٣) ص (٧٩) .
(٥) الأنعام (١٦١) .

عن فقره إليه ، وحاجته لرحمة الله تعالى ، وعطفه وكرمه ، وأن تتداركه حكمة الله - عزَّ وجلَّ - أن يهدي قلبه بحكمته ، وعزته وقدرته على الخلق ، وهو في نفس الوقت مقتدى برسوله محمد بن عبد الله - ﷺ - خير من هداه الله تعالى إلى صراطه المستقيم ، فالله يمتنُّ على رسوله - ﷺ - بأنه قد هداه إلى صراطه المستقيم ، ووفقه للدين القيم، وللملَّة الحنيفية، فيتعبَّد العبد المؤمن لصاحب العزة والحكمة بطلب الهداية لصراطه المستقيم ، واقتفاءً لأثر الرسول، واقتداءً بسيد المرسلين - محمد بن عبد الله - ﷺ - .

قال الشيخ السعدي - رحمه الله - :

« يأمر تعالى نبيه - ﷺ - : أن يقول ويعلن ، بما هو عليه من الهداية إلى الصراط المستقيم ، الدين المعتدل المتضمِّن للعقائد النافعة ، والأعمال الصالحة ، والأمر بكل حسن ، والنهي عن كل قبيح ، الذي عليه الأنبياء والمرسلون ، خصوصاً إمام الحنفاء ، ووالد مَنْ بُعِثَ مِنْ بعد موته ، من الأنبياء ، خليل الرحمن، إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، وهو الدين الحنيف، المائل عن كل دين غير مستقيم، من أديان أهل الانحراف ، كاليهود والنصارى والمشركين »[(١)] .

- النبي - ﷺ - يهدي إلى الصراط المستقيم :

قال تعالى : ﴿ **وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض** ﴾[(٢)].

لقد بعث الله رسوله وحبيبه محمداً - ﷺ - ليهدي الخلق إلى صراط العزيز الحكيم ، صراط الله المستقيم ، يهدي لدين الله القويم ، وليُخْرج الناس من

---

(١) تفسير السعدي لسورة الأنعام آية (٦١) ص (٢٤٥) .

(٢) الشورى (٥٢ : ٥٣) .

الظلمات إلى النور ، ومن الكفر إلى الإيمان ، ومن الشرك إلى التوحيد ، ومن الغي والضلال إلى الهدى والرشاد ، ومن عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة، ومن الطرق المعوجة إلى صراط الله المستقيم . فهو - ﷺ - رحمة رحم الله به عباده ، وجعله سببًا في هداية الخلق إلى الحق ، وعرَّفهم بربهم ، وفقَّهم في دينهم ، وأرشدهم إلى ما فيه صلاح دينهم ودنياهم ، وأخذ بأيديهم إلى برِّ الإيمان ، وشاطئ الإسلام .

قال تعالى : **﴿هو الذي أرسل رسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله﴾**[1] .

فهذا النبي الخاتم الذي أرسله الله تعالى لهداية خلقه أجمعين قال عنه - جلَّ في علاه - **﴿وانك لتهدي إلى صراط مستقيم صراط الله﴾** [2] .

أوجب الله - تعالى - اتباعه ، والسير على هداه ، واقتفاء أثره ، وأن يجعله العبد المؤمن ، أسوته ، وقدوته ، ونبراسه، فالهُدَى كل الهُدَى في اتباع هذا النبي الكريم - ﷺ - .

فحريٌّ بكل متعبِّد لله تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العليا ، وبكل متعبِّد [للعزيز الحكيم] اتباع هَدْى سيد المرسلين محمد بن عبد الله - ﷺ - الذي هداه الله للحق وللصراط المستقيم ، وأخبر أنه يدعو لهذا الصراط ، ويرشد إليه ، والله - عزَّ وجلَّ - يعلم صدق عبده ، ومدى إخلاصه في تعبُّده بطلب الهداية ، وفي

---

(١) الصف (٩) .

(٢) الشورى (٥٢) .

اتباع هَدْي النبي ـ ﷺ ـ فيمنُّ عليه بالهداية ويوفِّقه إلى صراطه المستقيم ، صراط الله العزيز الحكيم .

قال الشيخ السعدي ـ رحمه الله ـ :

في قوله تعالى: ﴿ وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم ﴾(١)

أي : نبيّنه لهم وتوضِّحه ، وترغِّبهم فيه ، وتنهاهم عن ضده ، وترهبهم منه ، ثم فسَّر الصراط المستقيم فقال :﴿ صراط الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض ﴾(٢).

أي : الصراط الذي نصبه الله لعباده ، وأخبرهم أنه مُوصِل إليه وإلى دار كرامته »(٣).

أنبياء الله أئمة الهدى :

قال تعالى : ﴿ ومن آبائهم وذرياتهم وإخوانهم واجتبيناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم ﴾(٤) .

ـ وقال تعالى : ﴿ أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده ﴾(٥) .

إن الله ـ سبحانه وتعالى ـ خلق الخلق وعرَّفهم على نفسه ، وأراد منهم أن يعبدوه ، بل ويُفْردوه وحده بالعبادة ، ورضي منهم أن يتعبَّدوا له بأسمائه الحسنى

---

(١) الشورى (٥٢) .
(٢) الشورى (٥٣) .
(٣) تفسير السعدي لسورة الشورى ، آية (٥٢ : ٥٣) ص (٧٠٨) .
(٤) الأنعام (٨٧) .
(٥) الأنعام (٩٠) .

وصفاته العليا ، فهداهم ـ سبحانه وتعالى بهداه ، ووفق من شاء منهم أن يحقق هذا التوحيد، ويتقن هذه العبادة ، ويتعبَّد للإله الخالق بأسمائه الحسنى، وصفاته العليا .

ـ وخير مَنْ هداه الله ، وخير مَنْ اتبع هُدَى الله ، وخير مَنْ وحَّد الله ، وخيرمن عَبَد الله ، وخيرمن تعبَّد إليه بأسمائه الحسنى، وصفاته العليا حق التعبُّد، ألا [إنهم أنبياء الله ورسله ـ صلى الله عليهم جميعاً وسلم ـ] فهم خير خلق الله ، وصفوته من خلقه ، وخير من اهتدى بهدى الله ، وجعلهم اللهم قناديل هدى ، يهدي بهم الخلق إلى هُدَى الله ، ويُخْرجونهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان ، ومن ضلالات الشرك إلى هداية الإسلام ، ومن عبودية الأوثان إلى شرف وسمو التوحيد ، وفرض الله على عباده المؤمنين أن يتبعوا هؤلاء الأنبياء والمرسلين وأن يهتدوا بهديهم ، لأن في هديهم كل خير وسلامة ، ونجاة من المهالك ، ووصول إلى التوحيد الحق ، والعبادة التي أرادها الله ، وإلى رضى الله تعالى ، وتحقيق كمال العبودية للخالق ـ جلَّ في علاه ـ .

ـ وكيف لا وهم الذين هداهم الله بهداه ، فسبحانه يهدي من يشاء من عباده إلى صراطه المستقيم ، وطريقه القويم ، ودينه الحنيف ، ويوفِّق من شاء بعزته وحكمته إلى أن يلتزم هداه ، ويسلك سبيله القويم ، ويثبت على صراطه المستقيم ، عبادة لله تعالى ، واتباعاً لهَدْي صفوة خلق الله من الأنبياء والمرسلين .

قال تعالى عن هدايته لهؤلاء الصفوة في كتابه العزيز : ﴿ **ووهبنا له إسحاق ويعقوب كلا هدينا ونوحاً هدينا من قبل ومن ذريته داود وسليمان وأيوب**

ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزي المحسنين ، وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كل من الصالحين * وإسماعيل واليسع ويونس ولوطاً وكلاً فضلنا على العالمين * ومن آبائهم وذرياتهم وإخوانهم واجتبيناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم * ذلك هدى الله يهدي به من يشاء من عباده ﴾(١) .

ـ وقد بلغت مكانة هؤلاء الأنبياء والمرسلين ، وعِظَم هدايتهم ، ومدى التزامهم الصراط المستقيم ، أن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ يوجِّه خير الأنبياء والمرسلين محمد بن عبد الله ـ ﷺ ـ أن يهتدي بهديهم ، وأن يقتدي بهداهم . فقال ـ عزَّ مِنْ قائل ـ في محكم التنزيل .

﴿ أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده ﴾(٢) .

ـ فحريٌّ أيضاً بكل مسلم وبكل متعبِّد لله تعالى ، ولصاحب العزة والحكمة أن يتبع هدى هؤلاء الصفوة من الأنبياء والمرسلين ، وأن يدعو الله أن يوفقه إلى الاقتداء بهم ، والسير علي دربهم ، والاهتداء بهديهم .

الاعتصام بالله طريق الهداية :

قال تعالى : ﴿ ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم ﴾(٣) .

إذا كان من التعبُّد [للعزيز الحكيم] صاحب العزة والحكمة ، والذي يملك الهداية ، أن يطلب العبد من صاحب العزة والحكمة أن يهديه إلى الصراط

---

(١) الأنعام (٨٤ : ٨٨) .

(٢) الأنعام (٩٠) .

(٣) آل عمران (١٠١) .

المستقيم، وأن يوفقه لاتباع هدى الأنبياء والمرسلين ، والسير على دربهم ، واقتفاء آثارهم ، كان لازماً عليه أن يعرف الطريق ، ويتلمَّس الأسباب التي توصله إلى هذا الطريق ، والتي توقفه على هدي الأولين ، والتي تقرِّبه من رب العالمين ، والتي تجعله في زمرة عباده المهتدين .

- [**إنه الاعتصام بالله**] فمن أراد أن يهديه الله تعالى إلى صراطه المستقيم ، وأن يوفقه إلى هدي الأنبياء والمرسلين ، وأن يكون من المتعبِّدين لرب السماوات والآراضين ، فعليه بالاعتصام برب العالمين ، والعمل بكتابه العزيز ، الذي هو حبل الله المتين ، ، وفيه حياة العالمين ، وكله فلاح ونجاح لمن أراد الطريق المنير ، وصراط الله المستقيم كما قال وأخبر رب العالمين في كتابه العزيز ، موجِّهاً لكل العالمين ، إلى الاعتصام به للفوز برضا رب العالمين ، والاهتداء للصراط المستقيم فقال ـ عزَّ من قائل ـ : ﴿ **ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم** ﴾[1] .

قال الإمام القرطبي ـ رحمه الله ـ :

في قوله تعالى : ﴿ **ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم** ﴾[2]

((« **ومن يعتصم بالله** » أي : يمتنع ويتمسك بدينه وطاعته .

« **فقد هدى** » وفِّق وأُرشد إلى صراط مستقيم .

قال ابن جريج : « **يعتصم بالله** » : يؤمن به .

---

(١) آل عمران (١٠١) .

(٢) آل عمران (١٠١) .

وقيل : المعنى ومن يعتصم بالله أي يتمسَّك بحبل الله ، وهو القرآن .

يقال : أعصم به واعتصم ، وتمسَّك واستمسك إذا امتنع به من غيره .

واعتصمت فلاناً : هيأت له ما يعتصم به .

- وكل متمسك بشيء مُعصِم ومُعْتصِم .

- وكل مانع شيئاً فهو عاصم .

قال الفرزدق :

أنا ابن العاصمين بني تميم

إذا ما أعظم الحدَثان نَابا)) [1]

وقال الشيخ السعدي - رحمه الله - : في نفس الآية :

((« فقد هدى إلى صراط مستقيم » وهذا فيه الحث على الاعتصام به ، وأنه السبيل إلى السلامة والهداية))[2] .

---

(١) تفسير القرطبي لسورة آل عمران آية (١٠١) [٤ / ١٠١] .

(٢) تفسير السعدي لسورة آل عمران آية (١٠١) ص (١١٢) .



[المبحث الثاني]

[طلب الرحمـــة من العزيز الحكيم]

المطلب الأول: [المؤمنون يتعبَّدون للعزيز الحكيم بطلب الرحمة]

المطلب الثاني :[الملائكة يتعبَّدون للعزيز الحكيم بطلب الرحمة للمؤمنين] .

المطلب الثالث: [اقتران الرحمة بصفة العزة في القرآن الكريم]





[المطلب الأول]

[المؤمنون يتعبَّدون للعزيز الحكيم بطلب الرحمـــة]

قـال الله تـعـالى : ﴿ والمؤمنـون والمؤمنات بعـضـهم أوليـاء بعض يأمـرون بالمعـروف وينهـون عن المنـكر ويقيـمـون الصـلاة ويؤتـون الزكـاة ويطيـعـون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم ﴾[1].

إن العبد المؤمن يتـعبَّد لله ـ تعالى ـ بأسـمائه وصفاته ، وهو يعـتقد بأن الله له الأسماء الحسنى ، والصفات العليا ، ويوقن أنه يتـعيَّن عليه أن يتعبَّد لله تعالى بهذه الأسماء ، وتلك الصـفات ، وذلك امتثـالاً لقوله ـ تعالى ـ ﴿ ولله الأسمـاء الحسنى فادعوه بها ﴾[2] .

فالعبد المؤمن حينما يتعبَّد لله تعالى بأسمائه الحسنى ، وصفاته العليا ، هو في حقيـقة الأمر ممتثلاً لأمـر الله ، ومحققـا لكمال العبودية لهذا الإله العـظيم المتسمَّى بالأسمـاء الحسنى ، والمتَّصف بـكل صفات الكمـال والجمال والإجـلال والعظمة والإكبار .

ـ ومن هذا المنطلق ، وتحـقـيقـا للعـبودية الحـقة، وتـعبُّـدا لله تعـالى بأسمـائه الحسنى ، وصـفاته العليـا ، نجد كل مؤمن ، وكل مـؤمنة ، يتعبَّـد الجميـع لله تعالى ضمن مـسيرة التعبُّد بالأسماء والصـفات ، نجدهم يتعـبَّدون لله باسميـه الحسنيين [العزيز الحكيم] ، وصفتيه الحميدتين [العزة والحكمة] .

---

(١) التوبة (٧١) .

(٢) الأعراف (١٨٠) .

ـ فإن العبد المؤمن يعلم مدى عزة الله المطلقة الكاملة ، وحكمته التامة البالغة ، فهو ـ سبحانه وتعالى ـ صاحب العزة التي لا تُرام ، وصاحب الحكمة والحُكْم والإحكام ـ جلَّ في علاه ـ يقول للشيء كن فيكون .

ـ فيتعبَّد لله بهذين الاسمين الحسنيين ، وما يحملاه من صفتين حميدتين ، وما يقتضياه من عبودية خاصة بهذين الاسمين ، وهاتين الصفتين .

ومن هذا التعبُّد بهذين الاسمين ، وهاتين الصفتين ، أن يطلب العبد المؤمن من صاحب العزة والحكمة [أن يرحمه] ، فهو القائل عن نفسه سبحانه وتعالى في محكم التنزيل على عباده الصالحين من المؤمنين والمؤمنات : ﴿ **أولئك سيرحهم الله إن الله عزيز حكيم** ﴾[1] .

ولاعتقاد العبد المؤمن أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ صاحب عزة وقدرة لا يُردُّ معها أمره، ولا يُعقَّب معها على حُكْمه . وصاحب حكمة يصيب بها ما أراده ، ويُصرِّف بها شؤون خلقه ، بعزة لا تُقْهر ، وحكمة لا تُخْطئ ، فمن ذا الذي يخرج عن إرادته وعزته وقهره ، ومن ذا الذي يعترض على حُكْمه وإحكامه ، فهو الإله العظيم ، العزيز الحكيم ، كما أخبر عن نفسه ـ جلَّ في علاه ـ ﴿ **لا يسأل عما يفعل وهم يسألون** ﴾[2] ، وقال ـ جلَّ شأنه ـ في محكم التنزيل : ﴿ **ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم** ﴾[3] .

---

(١) التوبة (٧١) .
(٢) الأنبياء (٢٣) .
(٣) فاطر (٢) .

ـ فإن العبـد المسلم يعلم ويعتقد أن الـله ـ سبحانه وتعالى ـ عـزيز وقادر على كل شيء ، فإذا أراد أن يـرحم أحداً من عبـاده فلن يمانعه أحـد ، ولن يردَّ مشـيئته مخلوق ، ولن يعارض حكمته معترض ، فهو ـ سبحانه وتعالى ـ لا مُكْره له ، فمِنْ كمال عزته ، وتمام حكمـته أنه يرحم من يشاء رحمته ، ويعـذِّب من شاء تعذيبه ، فالكلُّ تحت عـزته وقدرته ، ووفق حكمتـه ، لا رادَّ لحُكْمه ، ولا مُعقِّب لقـضائه ، فيدفع هذا الاعتقاد العبد المسلم أن يطمع في رحمة العزيز الذي يملك بعزته وقدرته رحمة من شـاء من عباده ، وكذلك يتطلَّع إلى رحمـة الحكيم الذي يرحم من شاء وفق حكمتـه ، ولا يَردُّ رحمته أحـد من خلقه ، فسـبحان صاحب العـزة والحكمة الذي يرحم من شاء من عباده عن عزة وقوة ، ووفق حكمة وإحكام .

قال تعالى : ﴿ **قل من ذا الذي يعصـمكم من الله إن أراد بـكم سـوءً أو أراد بكم رحمة ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً** ﴾[1] .

[من أسباب نزول الرحمـــة]

قال تعالى : ﴿ **والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهـون عن المنكر ويقـيمـون الصـلاة ويؤتون الزكـاة ويطيـعـون الله ورسـوله أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم** ﴾[2] .

إن أسباب نزول رحمة الله تعالى إلى عباده ، ووعده لهم برحمتهم ، وإثبات تلك الرحمة لبعض عباده ، له بعض الأسباب ، ويوجد حيثيات تترتب عليها تلك

(١) الأحزاب (١٧) .
(٢) التوبة (٧١) .

الرحمة ، وتكون سبباً لوعد الله لهم بأنه سيرحمهم، وتلك الرحمة رحمة واسعة ، تشمل الدنيا والآخرة ، فتنالهم رحمة الله في الدنيا ، ويفوزون برحمة الله أيضا في الآخرة ، فإن الله عزيز ، قوي ، قدير ، يرحم من شاء من عباده برحمته التي وسعت كل شيء ، وعنده من العزة والقدرة على انفاذ رحمته وايصالها لمن شاء من عباده في الدنيا والآخرة ، لا يمانعه أحد ، ولا يردُّ رحمته أحد ، ولا يمسك رحمته أيُّ مخلوق ، فيوصل سبحانه وتعالى رحمته لمن شاء من عباده بهذه العزة ، وبتلك القدرة ، وتبعاً لهيمنته ـ جلَّ في علاه ـ .

قال تعالى : ﴿ أو أرادني برحمة هل هن ممسكات رحمته ﴾[1] .

وإن الحكيم ـ جلَّت حكمته ـ عنده من تمام الحكمة ، وكمال الإحكام ما يرحم به مَنْ شاء أن يرحمه من عباده المؤمنين ، فسبحانه يرحم من يستحق الرحمة ـ بفضله ومنِّته ـ ويحرم من شاء ممن لا يستحق الرحمة من خلقه ـ بحكمته وحكمه ـ ممن سبق في علمه أنه لا يستحق الرحمة ، فسبحانه وتعالى يرحم من شاء بحكمته وفضله ، ويعذّب من شاء بحكمته وعدله .

قال تعالى : ﴿ وماربك بظلام للعبيد ﴾[2] .

ـ ولكن هذا العبد المؤمن المتعبِّد للعزيز الحكيم صاحب العزة والحكمة ، يتعبَّد له بطلب هذه الرحمة ، ويتلمَّس أسبابها ـ فهو يحاول أن يسْتدرَّ بهذه الأسباب رحمة العزيز الحكيم ، فينظر له صاحب العزة والكبرياء بعين الرحمة والشفقة ، ويرى تعبُّده له ، وتذلُّله بين يديه ، فتتنزَّل الرحمات ، ويُعْفَى عن الزَّلات ، وتُغْفر الذنوب ، وتُكَفَّر السيئات ، برحمة وعزة وقدرة العزيز الحكيم رب

---

(١) الزمر (٣٨) .

(٢) فصلت (٤٦) .

الأرض والسماوات . القائل - جلَّ في علاه - : ﴿لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون﴾[1] .

وقال تعالى : ﴿ ورحمة ربك خير مما يجمعون ﴾[2] .

- ومن هذه الأسباب التي هي مما يُستدُّر بها رحمة العزيز الحكيم وذلك كما وردت في نفس الآية التي معنا في هذا المقام، والتي وعد الله بها أنه سيرحم مَنْ هؤلاء صفاتهم ما يلي:

١ - تحقيق الإيمان .

٢ - الأمر بالمعروف .

٣ - النهي عن المنكر .

٤ - إقامة الصلاة .

٥ - إيتاء الزكاة .

٦ - طاعة الله - تعالى - .

٧ - طاعة الرسول - ﷺ - .

فهذه شروط ، وصفات ، وأسباب ، مَنْ فعلها ، ومَنْ اتصف بها فإن الله تعالى - بعزته وحكمته - وعده بأنه سيرحمه ، والمؤمن والمؤمنة في ذلك سواء ، كما نصَّت على ذلك الآية الكريمة ، والله سبحانه وتعالى لا يُخْلف الميعاد فهو القائل تكرُّما وتفضُّلاً ﴿أولئك سيرحمهم الله﴾[3].

---

(١) آل عمران (١٥٧) .

(٢) الزخرف (٣٢) .

(٣) التوبة (٧١) .

قال الشيخ السعدي ـ رحمه الله ـ :

في قوله تعالى ﴿المؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله﴾[1].

((« والمؤمنون والمؤمنات » أي ذكورهم وإناثهم .

« بعضهم أولياء بعض » في المحبة والموالاة ، والانتماء والنُّصرة .

« يأمرون بالمعروف » وهو اسم جامع لكل ما عرف حسنه من العقائد الحسنة ، والأعمال الصالحة ، والأخلاق الفاضلة ، وأول من يدخل في أمرهم أنفسهم .

« وينهون عن المنكر » وهو : كل ما خالف المعروف وناقضه من العقائد الباطلة ، والأعمال الخبيثة ، والأخلاق الرذيلة .

« ويطيعون الله ورسوله » أي لا يزالون ملازمين لطاعة الله ورسوله على الدوام .

« أولئك سيرحمهم الله » أي : يدخلهم في رحمته ويشملهم بإحسانه .

« إن الله عزيز حكيم » أي : قوي قاهر ، ومع قوته ، فهو حكيم ، يضع كل شيء في موضعه اللائق به الذي يُحْمد على ما خلقه وأمر به))[2] .

---

(١) التوبة (٧١) .

(٢) تفسير السعدي لسورة التوبة آية (٧١) ص (٣٠٣) .

وقال الإمام الطبري ـ رحمه الله ـ :

((« أولئك سيرحمهم الله » يقول : هؤلاء الذين هذه صفتهم ، الذين سيرحمهم الله ، فينقذهم من عذابه ، ويدخلهم جنته ، لا أهل النفاق والتكذيب بالله ورسوله ، الناهون عن المعروف ، الآمرون بالمنكر القابضون أيديهم عن أداء حق الله من أموالهم .

« إن الله عزيز حكيم » يقول : إن الله ذوعزة في انتقامه ممن انتقم من خلقه على معصيته وكفره به ، لا يمنعه من الانتقام منه مانع، ولا ينصره منه ناصر .

« حكيم » في انتقامه منهم ، وفي جميع أفعاله))(١) .

وقال الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله ـ :

((« أولئك سيرحمهم الله » أي سيرحمهم الله من اتصف بهذه الصفات .

« إن الله عزيز » أي يعزّ من أطاعه فإن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين .

« حكيم » في قسمته هذه الصفات لهؤلاء وتخصيصه المنافقين بصفاتهم المتقدمة فإنه له الحكمة في جميع ما يفعله تبارك وتعالى »(٢) .

ـ فعلى كل عبد وعلى كل أَمَة ، على كل مسلم وعلى كل مسلمة ، على كل مَنْ أراد أن يرحمه الله ، وكل من تعبَّد للعزيز الحكيم بطلب الرحمة، أن يسلك هذا الطريق ، وأن يتصف بهذه الصفات ، وأن يعمل بهذه الأسباب ـ السابقة ـ الذِّكْر ـ ويتذلّل لصاحب العزة والحكمة بأن يمنَّ عليه برحمته ، فبعد

---

(١) تفسير الطبري لسورة التوبة آية (٧١) [٤ / ١٣٥] .

(٢) تفسير ابن كثير لسورة التوبة آية (٧١) [٢ / ٣٧٠] .

الأخذ بالأسباب ، وسلك الطريق ، والاتصاف بهذه الصفات يطمع في كرم الله وجوده وتفضُّله، فما تلك الأسباب التي سلكها العبد، وما تلك الصفات التي اتصف بها إلاَّ من باب استدرار رحمة الله تعالى ، وإظهار مدى فقر وعَوَذ واحتياج العبد لرحمة صاحب العزة والحكمة ، لعلَّ الله ينظر إلى عبده بعين الرحمة فيرحمه، ويفيض عليه من رحماته وكرمه وفضله، وليست هذه الأسباب والصفات التي يفعلها العبد ويتصف بها تجعله مستحقاً لرحمة ربه ، وتجعل له الحق في هذه الرحمة ، بل الأمر تفضّلاً من الله تعالى وفتح من صاحب العزة والحكمة كما قال تعالى : ﴿ **ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم** ﴾[1] .

فمهما فعل العبد، ومهما اتصف من صفات، ومهما تعبَّد لله تعالى بأسمائه الحسنى، وصفاته العليا ، لايجعله ذلك كله مستحقاً لفضل الله ورحمته ، ولا لجنته ونعيمه ، بل يعمل العبد الأعمال الصالحة، ويتّصف بصفات المؤمنين ، ويسلك طريق المتعبِّدين لرب العالمين ، بأسمائه الحسنى وصفاته العليا ، ويعترف مع ذلك بتقصيره ، وأنه غير مستحق لما عند الله من الرحمات والفضل والإحسان ، ويُقرُّ بأن ما يأتيه من الله من فضل وإحسان ، ونعيم ودخول الجنان ، هو بفضل الله ومنَّته ورحمته، فهو من باب الفضل من الله، وليس من باب الاستحقاق . بل إن توفيق العبد للعمل الصالح ، والاتصاف بصفات المؤمنين ، إن ذلك نفسه من رحمة الله بالعبد ، ونعمة من الله تحتاج هي نفسها إلى شكر لله ـ تعالى ـ وذلك

---

(١) فاطر (٢) .

مصداقا لقول الرسول ـ ﷺ ـ حينما قال : « لن يُدْخل الجنة أحداً عملُه ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ، قال : ولا أنا إلاَّ أن يتغمدني الله برحمة منه »[1] .

فهذا هو السبيل ، وهذا هو الطريق ، وهذا هو درب الصالحين ونهج الأنبياء والمرسلين ، ودأب المتعبِّدين للعزيز الحكيم ـ جلَّ في علاه ـ فأين المشمرون؟!!!

---

(١) رواه مسلم كتاب (صفات المنافقين وأحكامهم) باب (لن يدخل أحد الجنة بعمله بل برحمة الله) .

[المطلب الثاني]

[الملائكة يتعبَّدون للعزيز الحكيم بطلب الرحمة للمؤمنين]

قال تعالى : ﴿ الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم ﴾(١) .

إن الله ـ سبحانه وتعالى ـ هو الذي خلق الخلق ، وهو الذي أوجد الوجود كله ، خلق الإنس ، وخلق الجن ، وخلق الملائكة ، وخلق كل شيء في الوجود ، فالكلُّ خلقه ، والكلُّ عبيده ، والكل تحت سيطرته ، وخاضع لعزته وقدرته ، ووفق حكمته ، وتابع لحكمه ، وتبعاً لإحكامه ـ جلَّ في علاه ـ فهو الذي أوجد الوجود بعزته وقدرته ، وأحكم الكون بحُكْمه وحكمته وإحكامه .

ومن هؤلاء الخلق [الملائكة] . هؤلاء الخلق الذين خلقهم الله ـ أيضا ـ بعزته وقدرته ، وبحكمته، ولحكمة أرادها ، هذا الخلق العجيب الذي يطيع الله ويعبده ، ويُنفِّذ أوامره ، ولا يخرج عن طاعة ربه ، ولا تقع منه المعصية ، فهم مجبلون على الطاعة ، ومعصمون من المعصية ، كما أخبر الله تعالى عنهم في محكم التنزيل حيث قال ـ جلَّ في علاه : ﴿ يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ﴾(٢) .

---

(١) غافر (٧ : ٨) .

(٢) التحريم (٦) .

فهم يتعبَّدون لله تعالى بأسمائه الحسنى ، وصفاته العليا ، فهم من أعلم خلق الله بالله ، ومن خير من تعبَّد لله تعالى ، ومن أصفياء خلق الله ، وهم من أقرب الخلق لله تعالى ، وهم من أكرم خلق الله على الله ـ جلَّ في علاه ـ .

فهم يعلمون أسماء الله تعالى ـ إلاَّ ما استأثر الله بعلمه ـ ويعلمون ما تتضمَّنه هذه الأسماء الحسنى من الصفات العليا ، وما تقتضيه من عبادات ، ومن هذه الأسماء الحسنى اسمي [العزيز الحكيم] ، وصفتي [العزة والحكمة] فهم يتعبَّدون لصاحب العزة والحكمة بهذين الاسمين الحسنيين ، وهاتين الصفتين الحميدتين ، كما هو حاصل في آيات سورة (غافر) وهي قوله تعالى : ﴿ **الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم وقهم السيئات ومن يق السيئات يومئذ فقد رحمته وذلك هو الفوز العظيم** ﴾(١) .

[الملائكة تتعبَّد للعزيز الحكيم بصفتي العزة والحكمة] :

ونرى هنا في هذه الآيات تعبُّد الملائكة للعزيز الحكيم بعبادات متعددة ثم تُخْتم الآيات باسمي [العزيز الحكيم] ، وصفتي [العزة والحكمة] . دلالة على تعبُّدهم لله تعالى بهذين الاسمين الحسنيين ، وهاتين الصفتين الحميدتين ، ومن هذه العبادات التي تعبَّدت بها الملائكة لصاحب العزة والحكمة ما يلي :

---

(١) غافر (٧ : ٩) .

١ ـ التسبيح بحمد الله :

قال تعالى : ﴿ **الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم** ﴾[١]، أي تنزيه صاحب العزة والحكمة عن النقص والعيب والقصور وكل الصفات التي لا تليق بذات الإله ـ جلَّ في علاه ـ فله سبحانه وتعالى كل صفات الكمال والجمال ، والعظمة والإجلال والإكبار .

٢ ـ الإيمان بالله :

قال تعالى : ﴿ **ويؤمنون به** ﴾[٢] فالملائكة من أقرب وأكرم العباد إلى الله تعالى كما أخبر الله تعالى عنهم بقوله ـ جلَّ شأنه ـ ﴿ **بأيدي سفرة كرام بررة** ﴾[٣] وبيَّن ـ سبحانه ـ منزلتهم ، وتكريمه لهم ، وما خصهم به من الفضل ، قائلاً عنهم وعن أدبهم : ﴿ **بل عباد مكرمون لا يسبقونه القول وهم بأمره يعملون** ﴾[٤].

قال الشيخ السعدي ـ رحمه الله ـ :

((وأخبر عن وصف الملائكة : بأنهم عبيد مربوبون مدبَّرون ، ليس لهم من الأمر شيء، وإنما هم مكرمون عند الله ، قد ألزمهم الله ، وصيرهم من عبيد كرامته ورحمته ، وذلك لما خصهم به من الفضائل والتطهير عن الرذائل ، وأنهم في غاية الأدب مع الله ، والامتثال لأوامره))[٥] .

---

(١) غافر (٧) .
(٢) غافر (٧) .
(٣) عبس (١٥ : ١٦)
(٤) الأنبياء (٢٦ : ٢٧) .
(٥) تفسير السعدي ، لسورة الأنبياء آية (٢٦) ص (٤٧٠ : ٤٧١) .

فهم من أعْرف الخلق بالله ـ تعالى ـ ومن أكمل المؤمنين إيماناً ، ومن أكمل المؤمنين عبادة لله ـ جلّ شأنه ـ .

٣ ـ الاستغفار للذين آمنوا :

قال تعالى : ﴿ ويستغفرون للذين آمنوا ﴾(١) فهؤلاء الملائكة المقربون يتعبَّدون للعزيز الحكيم باستغفارهم للذين آمنوا من إخوانهم المؤمنين الذين يقع منهم الزَّلل ، ويرتكبون المعاصي ، ويغويهم الشيطان وذلك حباً منهم لإخوانهم في الدين ،وموالاة منهم لكل الموحِّدين ، فالكلُّ تعمهم بوتقة الإيمان ، ويؤلف بينهم هذا الدين، ويشتركون في التعبُّد لصاحب العزة والحكمة ـ جلَّ في علاه ـ .

٤ ـ الثناء على الله والدعاء للمؤمنين بالرحمة :

قال تعالى : ﴿ ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً ﴾(٢) ثم بعد هذا الاستغفار للذين آمنوا ، يثنون على الله ـ تعالى ـ حتى يستدروا عطفه ورحمته وإحسانه ، فيصفون رحمة الله بأن الله قد وسع برحمته كل شيء ، واتسع علمه لكل شيء فالكلُّ محتاج لرحمته ، والكلُّ تحت علمه ، ووفق حكمته ، ومشيئته ، وكأن الملائكة ـ عليهم السلام ـ بعد استغفارهم للمؤمنين يطلبون من الله الرحمة لهؤلاء المؤمنين الذين تقع منهم الذنوب والسيئات ، ولأن رحمة الله تسعهم وتسع كل شيء ، كما أن علمه ـ سبحانه ـ وسع كل شيء ، فيطلبون من العليم الذي اطَّلع على ذنوب عباده وسيئاتهم بعلمه الذي وسع كل شيء ، أن يرحمهم

---

(١) غافر (٧) .

(٢) غافر (٧) .

برحمته التي وسعت كل شيء فهو - جلّ في علاه - كريم جواد ، له الأسماء الحسنى، والصفات العليا، رحيم بعباده ، وهو أرحم بعباده من أنفسهم ووالديهم.

قال تعالى : ﴿ لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون ﴾[(١)].

٥ - الدعاء للمؤمنين بالمغفرة :

قال تعالى : ﴿ فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك ﴾[(٢)]. وبعد هذا التعبُّد وهذا التسبيح والثناء على الله من الملائكة ، واستدرار رحمته لعباده المؤمنين ، يؤكدون دعاءهم للمؤمنين بالرحمة بأن يغفر الله لهم ذنوبهم ، وخاصة من تاب منهم وأناب ، وعَلِمَ أن ربه عزيز ذو انتقام ينتقم ممن عصاه ، وخرج عن طاعته وحاد عن الصراط ، وعلم أن إمهال العزيز الحكيم له لحكمة يعلمها وفرصة لمن أراد الرجوع والإنابة ، وإمداد لمن غضب عليه وأراد أن يأخذه أخذ عزيز مقتدر ، فلمَّا عَلِمَ ذلك العبد الموحِّد رجع وأناب، واستغفر وتاب، وطلب الرحمة والغفران، من رب الأرض والسماوات ، وسلك سبيل الإيمان ، واتبع سبيل الرحمة ، طمعاً في عفو الرحمن، ومغفرة الذنوب ، والعفو عن الزلات، وتكفير السيئات. ومن هنا وحباً في هؤلاء المؤمنين التائبين تطلب الملائكة من الله وتدعوه أن يغفر لهؤلاء المؤمنين التائبين والسالكين لسبيل الرحمن .

قال تعالى : ﴿ إن ربك واسع المغفرة ﴾[(٣)] .

---

(١) آل عمران (١٥٧) .

(٢) غافر (٧) .

(٣) النجم (٧٢) .

٦ ـ الدعاء للمؤمنين بالنجاة من الجحيم :

قال تعالى : ﴿ وقهم عذاب الجحيم ﴾[١] وبعد هذا الدعاء ، وبعد طلب المغفرة من الله تعالى للمؤمنين التائبين ، وبعد رجاء رحمة الله لهم ، نرى هؤلاء الملائكة الكرام ـ عليهم السلام ـ يتضرعون لله تعالى بأن يقي هؤلاء المؤمنين ، المستغفرين ، التائبين ، العائدين إلى الله ، أن يقيهم عذاب الجحيم ، الذي لا يقون عليه ، ولايعرفون مدى شدته ، ويجهلون حقيقة آلامه ، وشدة عذابه ، فحباً منهم لإخوانهم في الله ، وموالاة منهم لإخوانهم المؤمنين ، فإنهم يتضرّعون إلى الله أن يغفر لهؤلاء المؤمنين ، وأن يرحمهم ، وأن يقيهم عذاب الجحيم ، تكرُّماً ورحمة وفضلاً من العزيز الحكيم الذي يملك كل شيء بعزته وقوته ، والذي أحكم كل شيء بحكمه وحكمته ، والذي يملك تعذيب من شاء من عباده بعزته ، ووفق حكمته ، والذي يرحم من شاء بعزته ، وحُكْمه وحكمته ـ جلّ في علاه ـ .

٧ ـ الدعاء للمؤمنين بدخول الجنة :

قال تعالى : ﴿ ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ﴾[٢] وبعد ما جاء التسبيح من الملائكة للعزيز الحكيم ، وبعد ما أثنوا على الله تعالى وبعد طلبهم ودعائهم لله بأن يغفر للمؤمنين وأن يقيهم الله برحمته من عذاب الجحيم ، يأتي هذا الدعاء ليتم الفرحة للمؤمنين ، وليتم عليهم نعمة رب العالمين ، بأن يُكلِّل عملهم الصالح ، واستغفارهم وإنابتهم لله تعالى بأن يُدْخلهم الجنة التي هي أغلى ، وأسمى ، وأمنية كل مؤمن ، فيدعون الله برحمته، وعزته، وحكمته، وقدرته على

---

(١) غافر (٧) .

(٢) غافر (٨) .

كل شيء ، أن يُدْخل هؤلاء المؤمنين الجنة، وذلك بعدما غفر لهم، ورحمهم، وأجارهم ووقاهم من عذاب الجحيم ، أن يتفضَّل عليهم بجنات النعيم ، جنات ونهر ، عند مليك مقتدر .

٨ ـ الدعاء لآباء وأزواج وذرية المؤمنين بالجنة :

قال تعالى : ﴿ **ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم** ﴾[١] وبعد هذا الحب ، وهذه الموالاة من الملائكة لإخوانهم في الله من المؤمنين بأن طلبوا لهم الرحمة ، والمغفرة ، والنجاة من النار ، وأخيراً دخول الجنة ، يستمر الدعاء من الملائكة ، وتستمر الموالاة منهم لإخوانهم المؤمنين حتى بعد دخولهم الجنة ، فهم يريدون لهم تمام النعيم ، وكمال المتعة ، وعِظَم الجزاء ، في الجنة ، ومن تمام هذه النعم ، ومن تمام سعادة المؤمنين في الجنة أن يجمع الله بينهم وبين آبائهم وأزواجهم، وذرياتهم ـ من مات منهم على التوحيد ـ حتى تكمل السعادة ، وتَعْظُم الفرحة ، ويتم لهم النعيم ، ويكون الفوز العظيم ، فتدعو لهم الملائكة ـ عليهم السلام ـ أن يتم الله عليهم هذه النعمة ، وأن يمنحهم هذا الفضل ، وأن يختم لهم بهذه السعادة ، فإنه ـ سبحانه ـ جواد كريم ، رؤوف رحيم بعباده ـ ذو عزة وحكمة ، يفعل ما يشاء عن عزة وقوة ، ووفق حكمة وإحكام ـ جلَّ في علاه ـ .

٩ ـ التعبُّد للعزيز الحكيم :

قال تعالى : ﴿ **إنك أنت العزيز الحكيم** ﴾[٢] وبعد هذا الولاء من الملائكة للمؤمنين ، وبعد هذا الحب العظيم ، وبعد هذا الدعاء المستفيض ، تختم الملائكة

---

(١) غافر (٨) .

(٢) غافر (٨) .

هذا التعبُّد ، وهذا الرجاء والدعاء لله تعالى ، بهذين الاسمين العظيمين [العزيز الحكيم] ، وهاتين الصفتين الحميدتين [العزة والحكمة] بقولهم : ﴿ **إنك أنت العزيز الحكيم** ﴾[1] .

إشعاراً منهم لمدى عظمة هذين الاسمين ، ورفعة هاتين الصفتين ، ـ فلله الأسماء الحسنى ، والصفات العليا ـ وإنارة منهم للطريق لكل المتعبِّدين لله تعالى ، المسبِّحين منهم ، والمستغفرين ، وطالبي الرحمة ، والفارين من النار ، والمتطلِّعين إلى الجنة ، والمشتاقين للاجتماع بالآباء والأزواج والذرية في الجنة ، إلى كل هؤلاء ـ وغيرهم ـ عليهم أن يتعبَّدوا [للعزيز الحكيم] صاحب العزة المطلقة التامة ، وصاحب الحكمة التامة البالغة ، فليتعبَّد الجميع لهذا الإله العزيز الحكيم ، الذي يقدر على كل شيء ، ولا يُعْجزه شيء في الأرض ولا في السماء ، ويقول للشيء كن فيكون ، الذي يملك بعزته رحمة من شاء من عباده ، وتعذيب من أراد ، والذي يغفر لمن شاء من عباده بعزته وقدرته وحكمته ، وهو القادر على نجاة من شاء منهم من النار ، وأن يقيه عذاب الجحيم ، والقادر على تنعيم من شاء من عباده وإدخاله الجنة ، وهو الذي يتم الفرحة والسرور على عباده في الجنة ، ويُدْخل عليهم البهجة بأن يجمع بينهم وبين آبائهم وأزواجهم وذرياتهم ، فيرفع الأدنى منهم درجة إلى الأعلى درجة تكرُّماً وفضلاً منه ـ جلَّ في علاه ـ .

فعلى كل متعبِّد لصاحب العزة والحكمة أن يسلك مسلك إخوانه في الدين من الملائكة وليتعبَّد لله ـ تعالى ـ بهذين الاسمين الحسنيين ، وهاتين الصفتين الحميدتين وأن يطلب منه وحده الرحمة ، ويطمع في مغفرته سبحانه ، وأن يستعيد

---

(١) غافر (٨) .

منه من عذاب الجحيم ، وأن يسأله الجنة ، ... فإن هذا الإله ذو عزة وحكمة يفعل ما يشاء عن عزة ، ووفق حكمة ، ولا يُعْجزه شيء في الأرض ولا في السماء سبحانه وتعالى .

[الملائكة يتوسَّلون إلى الله بأسمائه الحسنى وصفاته العليا]

قال الشيخ السعدي ـ رحمه الله ـ :

« وقد تضمن هذا الدعاء من الملائكة كمال معرفتهم بربهم ، والتوسُّل إلى الله بأسمائه الحسنى ، التي يحب من عباده التوسل بها إليه ، والدعاء بما يناسب ما دعوا الله فيه .

فلمَّا كان دعاؤهم بحصول الرحمة ، وإزالة أثر ما اقتضته النفوس البشرية التي علم الله نقصها ، واقتضاءها لما اقتضته من المعاصي ونحو ذلك من المبادئ والأسباب ، التي قد أحاط الله بها علماً توسَّلوا بالرحيم العليم »[1] .

وقال الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله ـ :

((﴿ ربنا وسعت كل شيء رحمةً وعلماً ﴾[2] .

أي رحمتك تسع ذنوبهم وخطايهم ، وعلمك محيط بجميع أعمالهم وأقوالهم وحركاتهم وسكناتهم))[3] .

---

(١) تفسير السعدي لسورة غافر آية (٩) ص (٦٧٨ : ٦٧٩) .

(٢) غافر (٨) .

(٣) تفسير ابن كثير لسورة غافر آية (٨) [٤ / ٧٠] .

[كيفية تدبُّر الملائكة لكتاب الله]

قال الشيخ السعدي ـ رحمه الله ـ :

((وتضمَّن ما شرحه الله وفصَّله من دعائهم بعد قوله ﴿ **ويستغفرون للذين آمنوا** ﴾(١) التنبيه اللطيف على كيفية تدبُّر كتابه ، وأن لا يكون المتدبِّر مقتصراً على مجرد معنى اللفظ بمفرده . بل ينبغي له أن يتدبَّر معنى اللفظ ، فإذا فهمه فهماً صحيحاً على وجهة نظر بعقله إلى ذلك الأمر ،والطرق الموصلة إليه ، وما لا يتم إلاَّ به ، وما يتوقَّف عليه ، وجزم بأن الله أراده ، كما يجزم أنه أراد المعنى الخاص ، الدال عليه اللفظ .

والذي يوجب الجزم له بأن الله أراده أمران :

أحدهما : معرفته وجزمه بأنه من توابع المعنى ، والمتوقف عليه .

والثاني : علمه بأن الله بكل شيء عليم ، وأن الله أمر عباده بالتدبُّر والتفكر في كتابه »(٢) .

فعلى كل متعبِّد للعزيز الحكيم باسميه الحسنيين [العزيز الحكيم] ، وصفتيه الحميدتين [العزة والحكمة] بطلب الرحمة من صاحب العزة والحكمة أن يقتدى بعباد الله المؤمنين ، من الأنبياء والمرسلين ، ومن الملائكة المقربين ، ومن كل عباد الله الصالحين، ويكون على الدرب من السائرين، وعن ساعد الجد من المشمرين ، ودائماً من عباد الله المتعبِّدين، وللأسماء الحسنى والصفات العليا من المُعظِّمين ،

---

(١) غافر (٧) .

(٢) تفسير السعدي لسورة غافر آية (٩) ص (٦٧٩) .

حتى يكون في الدنيا من المؤمنين ، وفي الآخرة من الرابحين الفائزين ، فنعم الأجر للمتعبِّدين لله ـ تعالى ـ بأسمائه الحسنى، وصفاته العليا، والمخلصين له الدين، البعيدين عن الإلحاد في أسمائه وصفاته ، والمتطِّلعين لرحمته ومغفرته ، والفوز بجنات النعيم ، فهو ـ سبحانه وتعالى ـ قريب مجيب دعاء عباده الموحِّدين ، والعاقبة للمتقين ، والحمد لله رب العالين .

[المطلب الثالث]

[اقتران الرحمة بصفة العزة في القرآن الكريم]

قال تعالى : ﴿ وتوكل على العزيز الرحيم ﴾(١) .

وقال تعالى : ﴿ وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴾(٢) .

وقال تعالى : ﴿ إلاَّ من رحم الله إنه هو العزيز الرحيم ﴾(٣) .

إن المتأمل في كتاب الله ـ تعالى ـ يجد كثيراً من الآيات القرآنية يقترن فيها ذكر الرحمة بصفة العزة ، وذلك في أكثر من آية في القرآن الكريم ، مما يلفت الأنظار ، ويجعل العبد المؤمن المتعبِّد بأسماء الله ـ تعالى ـ الحسنى ، وصفاته العليا ، يقف مع هذه الآيات الكريمة لكي يستقى الحكمة والعبرة من هذا الاقتران والتلازم بين ذكر الرحمة واسم [العزيز] ، وصفة [العزة] .

فإن المتأمِّل في هذا الأمر يظهر له مدى احتياج الراحم إلى عزة وقوة يرحم بهامن يريد رحمته ، يحتاج إلى قوة كاملة ، وقدرة مطلقة تجعله يستطيع أن يشمل من شاء برحمته ، وكذلك يكون عنده من العزة والقوة أن يهلك ويبطش بكل من أراد أن يعترض على رحمة الراحم برحمائه ، فالراحم يحتاج إلى هذه العزة والقوة والقدرة حتى تصل رحمته لمن شاء ، وحتى يحمي من رحمه من أن يزيل أحد هذه الرحمة عنه ، أو يمنع وصولها .

ولذلك نجد هذا الاقتران بين الرحمة واسم [العزيز]، وصفة [العزة] في القرآن الكريم في حق الله تعالى ، وذلك لأن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ له العزة جميعاً ، وهو

---

(١) الشعراء (٢١٧) .

(٢) الشعراء (٩) ، (٦٨) ، (١٠٤)، (١٢٢) ، (١٤٠) ، (١٥٩) ، (١٧٥) ، (١٩١) .

(٣) الدخان (٤٢) .

صاحب العزة الكاملة المطلقة ، فلا يشاركه فيها أحد ، ولا ينازعه فيها مخلوق ، ومَنْ سوَّلت له نفسه أن ينازع الله في صفاته عذَّه الله ولا يبالي به، وهو أيضًا رحيم بعباده ، يرحم من شاء من عباده برحمته التي وسعت كل شيء ، ولكن هذه الرحمة تحتاج لصاحب عزة وقوة وقدرة ، حتي يوصل رحمته لمن شاء من عباده ، وكذلك يحتاج الأمر إلى عزة لكي يمنع كل طاغية ، وكل حاقد ، وكل ظالم ، من منع وصول رحمته لمن شاء من خلقه ، فإن الله سبحانه وتعالى هو [العزيز] صاحب العزة والقوة والقدرة يرحم عباده بعزته وقدرته، ويُهْلك أعداءهم ممن يريدون بهم السوء، وممن يريدون منع وصول هذه الرحمة بمن أراد الله رحمته، بل ويريدون تعذيب وإهلاك من أراد الله رحمته ، فتتجلَّى عزة الله تعالى وقدرته في إهلاك أعدائه وأعداء عباده المؤمنين ، وكذلك تظهر عزة وقدرة العزيز في رحمة عباده المؤمنين ، وإيصال رحمته لكل من شاء بحكمته أن يرحمه . قال تعالى : ﴿ قال عذابي أصيب به من أشاء ورحمتي وسعت كل شيء ﴾[(١)].

ولذلك نجد مُعْظم الآيات التي تقترن فيها الرحمة لعبادة الله في الدنيا بصفة العزَّة يُثبِّت فيها الله ـ سبحانه وتعالى ـ إهلاكه للكافرين ، والبطش بالمجرمين ، ورحمة عباده المؤمنين ، ونصر الموحِّدين ، وتشمل هذه الرحمة لعباد الله في الدنيا بحفظهم من بطش الكافرين ، وبنصرهم على أعدائهم ، وبرفع البلاء عنهم ، وبتنعيمهم في الحياة الدنيا بكل أنواع النعيم ، وصور الرحمة كثيرة ـ ولكن ايضا فإن رحمة الله بعباده المؤمنين تشمل رحمتهم أيضا في الآخرة ، فيجمع الله لهم رحمته في الدنيا والآخرة ، وذلك عن عزة وقوة وقدرة مطلقة وكاملة لا يمانعها

---

(١) الأعراف (١٥٦) .

أحد ، ولا يردُّها مخلوق ، ولا يستطيع الاعتراض عليها أي كائن في الأرض ولا في السماوات .

كما قال تعالى : **﴿ قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادني ا لله بضر هل هن كاشفات ضره ، أو أرادني برحمة هل هن ممسكات رحمته قل حسبي الله عليه يتوكل المتوكلون ﴾**(٢) .

ـ ونتعرَّض هنا ومن خلال السطور القادمة ـ بمشيئة الله ـ لبعض الآيات والمواقف التي اقترنت فيها الرحمة بصفة العزَّة في القرآن الكريم ، ومن هذه الآيات والمواقف ما يلي :

---

(٢) الزمر (٣٨) .

أولاً [العزيز يرحم الأنبياء والمؤمنين ويهلك أعداءهم]

قال تعالى : ﴿ وإن ربك لهو العزيز الحكيم ﴾[١].

إن المتأمِّل في سورة (الشعراء) يجد فيها عددًا كثيراً من الآيات القرآنية ، تقص علينا كثيراً من قصص الأنبياء والمرسلين مع أقوامهم والصراع الذي دار بينهم، وتكبُّر أعداء الله في الأرض ، وإفسادهم وطغيانهم ، ومحاولتهم الفتك والبطش بهؤلاء الأنبياء والمرسلين ، وكيف أن الله سبحانه وتعالى بعزته يبطش بأعداء الأنبياء والمرسلين ، وبأعداء أتباعهم من المؤمنين وينتقم منهم ، وتتنزَّل الرحمات على أنبيائه ورسله ، وعباده المؤمنين ، فسبحان الذي يرحم عباده برحمته ويهلك أعداءه بعزته .

قال الشيخ السعدي ـ رحمه الله ـ :

((﴿ **وإن ربك لهو العزيز** ﴾ الذي قهر كل مخلوق ،ودان له العالم العلوي والسفي .

« **الرحيم** » الذي وسعت رحمته كل شيء ، ووصل جوده إلى كل حي ، العزيز الذي أهلك الأشقياء بأنواع العقوبات ، الرحيم بالسعداء ، حيث أنجاهم من كل شر وبلاء))[٢] .

ـ [ومن هذه القصص ما يلي] :

١ ـ [العزيز ينتقم من قريش ويرحم النبي ـ ﷺ ـ والمؤمنين] :

قال تعالى :﴿ **إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين ، وإن ربك لهو العزيز الرحيم** ﴾[٣] فإن الله ـ سبحانه وتعالى ـ صاحب العزة الكاملة المطلقة يؤيد

---

(١) الشعراء (٩) .

(٢) تفسير السعدي لسورة الشعراء آية (٩) ص (٥٣٧) .

(٣) الشعراء (٨ : ٩) .

عباده المؤمنين ، ويخذل أعداءهم أعداء الدين ، فيبطش بهم ويهلكهم، انتقاماً منهم ، ونصراً لعباده المؤمنين ، وتأييداً للأنبياء والمرسلين ، ورحمة بعباده الموحدين، بأن ينجيهم من هؤلاء الكفار المعاندين .

ـ ومن ذلك ما حدث مع نبي الله ورسوله محمد بن عبد الله ـ ﷺ ـ حينما تكبّر كفار قريش وغيرهم من اليهود والمنافقين ، وعاندوا ، وأرادوا الفتك بالرسول ـ ﷺ ـ ومن معه من المؤمنين ، وآذوهم بشتى أنواع الأذى ، وتظاهروا عليهم ، وتآمروا وتحزّبوا ، وكادوا وكاد الله ، والله عزيز ذو انتقام .

قال تعالى : في ﴿ **ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قوياً عزيز ، وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف في قلوبهم الرعب فريقاً تقتلون وتأسرون فريقاً** ﴾[1] .

فإن العزيز ذو عزة لا تُرام ، وصاحب عزة لا تُهْزم ، يقول للشيء كن فيكون، وينصر عباده المؤمنين ، وإن قلَّ عددهم ، وإن ضَعُفت قوتهم وإن هانوا على الناس ، فالله يُعزُّ من شاء من عباده ، وينصر من شاء بعزته ، ويُهْلك من شاء من خلقه ، ولا يُعْجزه شيء في الأرض ولا في السماء ، فالنصر من عنده يهبه من شاء من عباده المؤمنين ، كما قال تعالى : في ﴿ **وما النصر إلاَّ من عند الله العزيز الحكيم** ﴾[2] فبعزة العزيز انتقم الله من هؤلاء الكفار أجمعين من قريش ، واليهود ، والمنافقين، ومن تحزَّب معهم ، وبعزته أيضا نظر إلى عباده المؤمنين برحمة

---

(١) الأحزاب (٢٥ ، ٢٦) .

(٢) آل عمران (٢٦) .

فرحمهم، ونصرهم ، ومكّن لهم في الأرض بعدما كانوا مستضعفين ، وجعلهم الوارثين .

قال الإمام الطبري ـ رحمه الله ـ :

((وقوله ﴿ وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴾ [(١)] يقول : وإن ربك يا محمد لهو العزيز في نقمته ، لا يمتنع عليه أحد أراد الانتقام منه .

يقول تعالى ذِكْره : وإني إن أحللت بهؤلاء المكذبين بك يا محمد ، المعرضين عمّا يأتيهم من ذِكْرٍ من عندي ، عقوبتي بتكذيبهم إياك ، فلن يمنعهم مني مانع ، لأني أنا العزيز الرحيم ، يعني أنه ذو الرحمة بمن تاب من خلقه مِنْ كفره ومعصيته أن يعاقبه على ما سلف من جُرْمه بعد توبته))[(٢)] .

٢ - [العزيز يُغْرق فرعون وجنده ويرحم موسى - ﷺ - وقومه] :

قال تعالى : ﴿ وإذ نادى ربك موسى أن أئت القوم الظالمين ﴾[(٣)] إلى قوله تعالى : ﴿ وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴾[(٤)] .

فكما انتقم العزيز من كفار قريش الذين حاربوا رسوله محمداً ـ ﷺ ـ ورحم الله برحمته نبيه ـ ﷺ ـ هو ومن معه من المؤمنين وحفظهم من هؤلاء الطغاة الجبابرة، والمتكبرين ، فكذلك انتقم الله سبحانه وتعالى ـ من قبل ذلك ـ من فرعون وجنوده الذين طغوا في الأرض وأكثروا فيها الفساد ، فلقد طغوا وبغوا ، وأظهروا

(١) الشعراء (٩) .
(٢) تفسير الطبري لسورة الشعراء آية (٩) [٥ / ٤٩٨] .
(٣) الشعراء (١٠) .
(٤) الشعراء (٦٨) .

في الأرض الفساد ، فصب الله عليهم سوط عذاب ، حقاً إن ربك لبالمرصاد ، فهو القادر على إهلاك من أراد إهلاكه بعزته وقدرته على الخلق .

قال تعالى : ﴿ **وفرعون ذي الأوتاد الذين طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد فصب عليهم ربك سوط عذاب إن ربك لبالمرصاد** ﴾(1) .

فإن الله ـ سبحانه وتعالى ـ صاحب العزة والقوة أمر نبيه ورسوله موسى ـ ﷺ ـ أن يذهب إلى فرعون وقومه ، لكي يدعوهم لعبادة الله ـ تعالى ـ والإقرار له بالربوبية والألوهية ، ولكن فرعون وجنده أبَو إلاَّ الكفر والعناد ، وأخذتهم العزة بالإثم ، وآثروا الكفر على الإيمان ، والجحود على الانقياد لأمر الله ، والاعتراف بربوبية الله وألوهيته ، رغم دعوة نبي الله موسى لهم وإقامة الحجج والبراهين على صدق ما جاء به ، ورغم المعجزات الكثيرة التي أظهرها الله على يديه ، ورغم حرصه الشديد على هدايتهم ، ومحاولة إقناعهم ، وتوضيح الأمر ، ومخاطبة عقولهم ، وتحذيرهم من مغبة عملهم ، ومآل كفرهم ، إلاَّ أنهم ختم الله على قلوبهم ، وغضب عليهم ، وانتقم منهم ، وأغرقهم أجمعين ، إلاَّ من آمن منهم ، وانضم إلى المؤمنين فرضي الله عنهم ، وأعد لهم جنات النعيم ، ومن هؤلاء الذين آمنوا بموسى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لمّا رأوا آيات ربهم ، هؤلاء السحرة الذين أعلنوها عالية مدوية ، دون خوف من بطش وجبروت الطاغية فرعون لمَّا علموا الحق ، ولمَّا أنار الله قلوبهم بنور الإيمان فقال الله عنهم : ﴿ **فألقى السحرة ساجدين ، قالوا آمنا برب العالمين ، رب موسى وهارون** ﴾(2) .

---

(١) الفجر (١٠ : ١٤) .
(٢) الشعراء (٤٦ : ٤٨) .

فمـا كان من هذا الطاغـية إلاَّ أن توعَّـدهم ، وهدَّدهم ، وخوَّفـهم ، بالبطش والتقطيع والتعـذيب والتقتيل ، شأنه شـأن كل طاغية يتمرَّد عـلى خالقه وعلى دينه وعلى شرعه ، ويتوعَّـد عباد الله المؤمنين ، ولكن كيف يخاف من كـان معه العزيز صاحب العزة والقوة والقدرة ، الذي بيده ملكوت السماوات والأرض فقال لهم . ﴿ **لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم أجمعين** ﴾[1] .

ولكن هيهات له هيهات أن تَزِلَّ قـدم بعد ثبوتها ، أو أن يثنى مؤمن عن إيمانه بعدمـا دخل الإيمان في قلبه ،واختلط الإيمان بلحـمه وعظمه ، بل قـد يهـون عليه جسـده ، ولا يفـرِّط في دينه ، قـد يختـار إراقـة دمـه ، وتقطيع أعـضـائه ، وتناثر أشلاؤه، ولا يتنازل عن دينه ، ولا يفرِّط في عقيدته ، فليسقط الجسد على الأرض، ولترتفع الروح إلى بارئهـا في حويصلات طيـر خُضْر تسبح تحت عـرش الرحمن ، فما كان من هؤلاء المؤمنين إلاَّ أن قالوا في ثبات ويقين ، وثقة في عزة العزيز الذي يملك أن يُنْجيـهم من هؤلاء الطواغيت ، أو يمنَّ عليـهم بالشهادة فـيدخلهم جنات عرضها كعرض السماوات والأرض فقالوا: ﴿ **قالوا لا ضير إنا إلى ربنا منقلبون ، إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا أن كنا أول المؤمنين** ﴾[2] .

وجـاء قـولهـم في الآية الأخـرى: ﴿ **قـالوا لن نـؤثرك على مـا جـاءنـا من البينات والذي فطرنا فاقضي ما أنت قاض إنما تقضي هذه الحياة الدنيا** ﴾[3] .

---

(١) الشعراء (٤٩) .

(٢) الشعراء (٥٠ : ٥١) .

(٣) طه (٧٢) .

أما نبي الله موسى وأخوه هارون ـ صلى الله عليهما وسلم ـ فانطلقا بمن معهم من بني إسرائيل ومن آمن معهم ، فراراً من هذا الطاغية ـ فرعون وجنده ـ فاتبعوهم يريدون الفتك بهم ، ولكن كيف يُهْزم جند معهم [العزيز] ـ جلَّ في علاه ـ الذي ينتقم من أعدائه بعزته ، والذي بعزته يستطيع رحمة عباده الصالحين وأولياءه المتقين ، فينزِّل عليهم رحماته ، ويرحمهم وينجيهم من أعدائهم برحمته ـ جلَّ في عليائه ـ فأغرق العزيز بعزته وقوته فرعون وجنده ، ونجَّى موسى والذين آمنوا معه برحمته . قال تعالى : ﴿ **وأنجينا موسى ومن معه أجمعين ثم أغرقنا الآخرين** ﴾(١) .

قال الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله ـ :

((عن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ أن موسى ـ ﷺ ـ حين أسرى بني إسرائيل بلغ فرعون ذلك فأمر بشاة فذُبِحَتْ ، وقال لا والله لا يُفْرغ من سلخها حتى يجتمع إليَّ ستمائة ألف من القبط ، فانطلق موسى ـ ﷺ ـ حتى انتهى إلى البحر ... فأوحى الله إلى موسى ـ ﷺ ـ أن اضرب ، فضربه موسى بعصاة فانفلق فكان فيه اثنا عشر سبطاً لكل سبط طريق يتراءون ، فلمَّا خرج أصحاب موسى ، وتتامّ أصحاب فرعون التقى البحر عليهم فأغرقهم .

« **إن في ذلك لآية** » أي في هذه القصة وما فيها من العجائب والنصر والتأييد لعباد الله المؤمنين لدلالة وحجة قاطعة وحكمة بالغة))(٢) .

---

(١) الشعراء : ٦٥ : ٦٦) .

(٢) تفسير ابن كثير لسورة الشعراء آية (٦٥ : ٦٦) [٣ / ٣٢٠] .

وقال الشيخ السعدي ـ رحمه الله ـ :

((بعزته أهلك الكافرين من المكذبين ، وبرحمته نجّى موسى ومن معه أجمعين)) [١].

٣ ـ [العزيز ينتقم من المشركين ويرحم نبيه إبراهيم ـ ﷺ ـ]

قال تعالى : ﴿ واتل عليهم نبأ إبراهيم ﴾ [٢] .

إلى قوله تعالى: ﴿ وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴾ [٣] .

إن الله هو [العزيز] صاحب العزة المطلقة الكاملة الذي خلق الخلق بعزته ، ورزقهم ، بقوته وفضله ، وينصرهم بعزته وحكمته ، فلا يستحق العبادة إلاَّ هو ـ جلَّ في علاه ـ .

ولقد بعث الله نبيه ورسوله إبرهيم ـ ﷺ ـ إلى أبيه وقومه الذين أشركوا بالله تعالى ، وعبدوا من دونه الأصنام والأوثان، وكانوا يعتكفون عليها ، يتقرَّبون إليها، ويطلبون منها دفع الضر ، ويؤمِّلون فيها النفع ، ويعتقدون فيها أنها تنفع وتضر من دون الله ـ تعالى ـ .

فأخذ نبي الله ورسوله إبراهيم ـ ﷺ ـ يدعو أباه وقومه إلى ترك هذه الأصنام والأوثان ، وتوحيد الله بالعبادة ، وعدم صرف أي نوع من أنواع العبادة لغيره ، فهو سبحانه وحده الذي يستحق العبادة لأنه هو الخالق ،وهو الرازق ، وهو المحي ،

---

(١) تفسير السعدي لسورة الشعراء آية (٦٨) ص (٥٤١) .

(٢) الشعراء (٦٩) .

(٣) الشعراء (١٠٤) .

وهو المميت ، وهو الذي يشفي عباده ، وهو الذي يملك أمر الخلق أجمعين . كما أخبر الله عن قول نبيه إبراهيم لقومه ﴿ **قال هل يسمعونكم إذ تدعون ، أو ينفعونكم أو يضرون** ﴾[١] .

ولكن ما كان من أبيه وقومه إلاَّ الكِبْر والتكبُّر ، والإصرار على الشرك ، بل أرادوا به بطشاً كما قال له أبوه حينما دعاه لترك عبادة الأصنام التي لا تنفع ولا تضر ﴿ **إذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئا** ﴾[٢] ولكن ما كان من هذا الأب المشرك إلاَّ التهديد والتوعُّد لهذا النبي الذي يدعوه للتوحيد وينهاه عن الشرك فقال : ﴿ **قال أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم لئن لم تنته لأرجمنك واهجرني ملياً** ﴾[٣] .

ولمَّا توجَّه أيضاً إلى قومه يدعوهم للتوحيد ، وينهاهم عن الشرك ، ويسفِّه آلهتهم التي لا تنفع ولا تضر ، وحينما تبرأ من هذه المعبودات التي تُعْبد من دون الله وقال لهم : ﴿ **قال أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم ، أفٍ لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون** ﴾[٤] .

ولكن أسلوب الكفر ، ومنهج الطغاة، وسبيل الطواغيب على العصور ، ومع اختلاف الأزمان، وتَغيُّر الأشخاص كله واحد ومتشابه ، وهو التهديد ،

---

(١) الشعراء (٧٢ : ٧٣) .

(٢) مريم (٤٢) .

(٣) مريم (٤٦) .

(٤) الأنبياء (٦٦ : ٦٧) .

والتخويف والتجويع ، والتصليب ، والتقتيل ، والتشريد ، والإحراق ، والفتك بعباد الله الموحِّدين ، وبالآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، وما فرعون وجنوده عنا ببعيد، قال قوم إبراهيم - ﷺ - حرِّقوا هذا الفتى الذي يُسفِّه الآلهة ، والذي خرج عن دين الآباء والأجداد ، وانتصروا لهذا الآلهة - الأصنام والأوثان - : ﴿ **قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين** ﴾[1] .

ولكن هيهات لهم هيهات أن ينالوا من نبي الله ورسوله إبراهيم - ﷺ - ومعه العزيز الذي ينصر من يشاء بعزته ، ويؤيد من شاء بقدرته ، ويفتك بمن أراد من أعدائه وأعداء أوليائه بعزته وقوته ، وينجي عباده المؤمنين من الكفار والمشركين القائل في محكم التنزيل : ﴿ **وإن ربك لهو العزيز الرحيم** ﴾[2].

فجاء النصر والحفظ ، وجاءت النجاة من العزيز صاحب العزة والقوة لنبيه ورسوله إبراهيم - ﷺ - وصدر الأمر الإلهي من صاحب العزَّة والقوة للنار - التي هي من مخلوقات الله - أن تفقد خاصيتها والتي هي الإحراق ، بل أمرها أن تغير خصائصها وأن تكون برداً وليس برداً يهلك ، بل برداً وسلاماً على نبيه ورسوله إبراهيم - ﷺ - الذي غار على دين الله ، وغار على توحيد الله ، ونهى عن الشرك، وأمر بالتوحيد ، فهو من الآمرين بالمعروف ، ومن الناهين عن المنكر . فقال العزيز - جلَّ في علاه - ﴿ **قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم** ﴾[3] .

---

(١) الأنبياء (٦٨) .

(٢) الشعراء (١٠٤) .

(٣) الأنبياء (٦٩) .

ويؤكِّد الله ـ سبحانه وتعالى ـ تأييده لنبيه ورسوله إبراهيم ـ ﷺ ـ ونصره وحفظه له ، ورحمته له ، وإهلاك الكافرين ، وخذلان المشركين وذلك بعزته وقوته وحكمته ، قائلاً ـ عزَّ مِنْ قائل : ﴿ وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين ، ونجيناه ولوطاً إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين ﴾(١) .

قال الحافظ بن كثير ـ رحمه الله ـ :

((هذا إخبار من الله تعالى عن عبده ورسوله وخليله إبراهيم ـ عليه السلام ـ إمام الحنفاء ، أمر الله تعالى رسوله محمداً ـ ﷺ ـ أن يتلوه على أمته ليقتدوا به في الإخلاص ، والتوكُّل ، وعبادة الله وحده لا شريك له ، والتبري من الشرك وأهله، فإن الله تعالى آتى إبراهيم رشده من قبل ، أي من صغره إلى كِبَره ، فإنه من وقت نشأ وشبَّ أنكر على قومه عبادة الأصنام مع الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فقال لأبيه وقومه ماذا تعبدون ؟!!! أي ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون ؟!!!))(٢) .

٤ ـ [العزيز يُغْرق المشركين ويرحم نبيه نوحاً ـ ﷺ ـ ومن معه] :

قال تعالى : ﴿ **كذبت قوم نوح المرسلين** ﴾(٣) .

إلى قوله تعالى : ﴿ **وإن ربك لهو العزيز الرحيم** ﴾(٤) .

لقد كان الناس أمة واحدة ، يعبدون الله وحده ، ويُخلصون له العبادة ، ولا يشركون معه أحداً ، وعزَّ ذلك على الشيطان ـ عليه لعنة الله ـ فاستدرج الشيطان

---

(١) الأنبياء (٧٠ : ٧١) .

(٢) تفسير ابن كثير لسورة الشعراء آية (٦٩) [٢ / ٣٢١] .

(٣) الشعراء (١٠٥) .

(٤) الشعراء (١٢٢) .

الناس ، وزين لهم الأمور حتى أوقعهم في الشرك ـ والعياذ بالله ـ فعُبِدَت الأصنام والأوثان ، واتُّخذت شركاء من دون الله ، تُعْبد ، ويُسْجَد لها ويُرْكع ، ويُطْلب منها دفع الضرّ ، ويُؤمَّل فيها النفع من دون الله ـ تعالى ـ .

فأرسل الله ـ تعالى ـ نبيه ورسوله نوحاً ـ ﷺ ـ لكي ينصح هؤلاء المشركين ، ولكي ينهاهم عن شركهم ، ويُرْشدهم إلى التوحيد ، ويُخْرجهم من عبادة الأصنام والأوثان إلى عبادة الواحد الديان ـ جلّ في علاه ـ فقال لهم ﴿ **قال يا قوم إني لكم نذير مبين ،أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون** ﴾[1] فأخذ هذا الرسول ـ ﷺ ـ يدعو قومه ، ويسلك كل طريق في سبيل هداية قومه ، وإخراجهم من شركهم ، والأخذ بأيديهم إلى طريق التوحيد، وإلى برّ الإيمان والنجاة ، وأثبت الله إخلاص هذا الرسول في دعوته ، وسلوكه كل السُّبل ، واستعمال كل الوسائل في سبيل القضاء على الشرك ، ونشر التوحيد .

﴿ **قال رب إني دعوت قومي ليلاً ونهاراً ، فلم يزدهم دعائي إلاَّ فراراً** ﴾[2] ، ويثبت تنويعه في طريقة الدعوة ، واختلاف أوقات إرشادهم فقال تعالى على لسان نبيه نوح ـ ﷺ ـ ﴿ **ثم إني دعوتهم جهاراً ، ثم إني أعلنت لهم وأسررت لهم إسراراً** ﴾[3] .

---

(١) نوح (٢ : ٣) .

(٢) نوح (٥ : ٦) .

(٣) نوح (٨ : ٩) .

فما كان من هؤلاء المشركين إلاَّ أنهم أصرُّوا ، واستكبروا ، ومكروا ، وتواصوا بالثبات على الضلال ،والمدافعة عن الآلهة الباطلة التي لا تنفع ولا تضر كما أخبر الله تعالى عنهم ﴿ **ومكروا مكراً كباراً ، وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن وداً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً** ﴾(١) .

فلمَّا أصرَّ نبي الله ورسوله نوح - ﷺ - على دعوتهم وإخراجهم من شركهم إلى توحيد [العزيز الحكيم] كان منهم ما كان من كل الطغاة والطواغيت ، والجبابرة المتكبِّرين ، وكل الظالمين المفسدين ، فلقد دندنوا بتلك الدَّنْدنة التي هي سبيل كل الكفار والمشركين والطغاة والمفسدين وهي [الرجم، القتل ، الصلب، التمشيط، تقطيع الأعضاء، تناثر الأشلاء، الإحراق بالنار، الصعق بالكهرباء، انتهاك الأعراض، ....]﴿ **قالوا لئن لم تنته يانوح لتكونن من المرجومين** ﴾(٢).

ولكن كيف يخاف من يدعو إلى سبيل الله ، كيف يتراجع من يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر ، كيف ينتكس من دعا إلى توحيد الله تعالى ، وكيف يندم من دعا إلى إفراد الله تعالى بجميع أنواع العبادة ، فأي الفريقين أولى بالأمن ؟!!!

- أهل الإيمان والتوحيد أم أهل الكفر والشرك ؟!!
- أهل الطاعة والاستقامة أم أهل الفسق والعصيان ؟!!
- أهل الصلاح والإصلاح أم أهل الفساد والإفساد ؟!!!

---

(١) نوح (٢٢ : ٢٣) .

(٢) الشعراء (١١٦) .

- أتباع الرسل أم أتباع الشياطين ؟!!
- المؤمنون المتقون أم الفجّار المجرمون ؟!!
- حزب الرحمن أم حزب الشيطان ؟!!

فأعلنها فيهم نبي الله ورسوله نوح - ﷺ - متحدياً لهم ، ومعتصماً بالله ، ومُسْتنصراً [العزيز الحكيم] فقال لهم : ﴿ **فعلى الله توكلت فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غُمَّة ثم اقضوا إليّ ولا تنظرون** ﴾[(١)].

فهكذا خاطبهم بقلب المؤمن الثابت الآمن الواثق في نصر وتأييد [العزيز الحكيم] الذي ينصر ويحفظ عباده المؤمنين ، ولا عجب فها هو أيضاً نبي الله (هود - ﷺ -) حينما دخل الأمن قلبه ، واطمأن فؤاده لنصر وحفظ صاحب العزة والحكمة لعباده المؤمنين فقال للكفار والمشركين : ﴿ **إني أشهد الله واشهدوا أني برئ مما تشركون من دونه فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون إني توكلت على الله ربي وربكم ما من دابة إلاَّ هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم** ﴾[(٢)].

وها [هو أيضاً إمام الحنفاء نبي الله إبراهيم - ﷺ -] يُعْلنها في الكفار والمشركين أنه هو الآمن ، وأن الله هو الذي يستحق أن يخاف منه كل الخلق ، أمَّا هذه الآلهة الباطلة ، وهؤلاء الطواغيت والطغاة الذين يهددون عباد الله المؤمنين بكل أنواع الأذى لا يخاف منهم العبد المؤمن ولو قطَّعوا جسده ، ولو تناثرت

(١) يونس (٧١) .
(٢) هود (٥٤ : ٥٦) .

أشلاؤه ، ولو فصلوا لحمه عن عظمه ، ولو قطَّعوا أعضاءه تقطيعاً ولو صلبوه في جذوع النخل ، ولو مثلّوا به تمثيلاً ، فهم قد يملكون الجسد ، ويتمكّنوا من البدن ، ولكنهم لا يستطيعون الوصول إلى القلب ، ولا يمكن لهم أن يمسُّوا إيمان العبد، أو يخدشوا توحيده، أو يذبذبوا عقيدته، فإن قلبه معلق بالله، ومتوكل على مولاه ، وواثق في نصر [العزيز الحكيم] إمَّا بنجاته من القوم المشركين والطغاة والظالمين ، وإمَّا أن ينصره بتكريمه له بالشهادة في سبيل الله ، ولذلك فإن قلب كل نبي وكل رسول، وكل داعية إلى الله مطمئن [لنصر العزيز الحكيم] ولذلك لا يخاف ولا يهاب إلاَّ من صاحب العزة والحكمة ، وها هو قدوتنا وأسوتنا أبو الأنبياء ، وإمام الحنفاء نبي الله إبراهيم - ﷺ - يعلنها في وسط المشركين ، ويُلقِّن الدرس لكل الموحِّدين ، ولكل الأجيال من عباد الله المؤمنين : ﴿ **وحاجه قومه قال أتحاجوني في الله وقد هدان ولا أخاف ما تشركون به إلاَّ أن يشاء ربي شيئاً وسع ربي كل شيء علماً أفلا تتذكرون** ﴾[1] .

وفجرَّها فيهم نبي الله إبراهيم - ﷺ - ورسم بها الطريق لكل مَنْ بعده من الموحِّدين : ﴿ **وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزِّل به سلطاناً فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون** ﴾[2] .

فما كان من الله [العزيز الرحيم] أن يترك نبيه ورسوله نوحاً - ﷺ - أو أن يتخلَّى عنه ، وهو الذي دعا إلى توحيده ، وغار على ألوهية الله ، فلما طلب النجاة منهم قائلاً : ﴿ **فافتح بيني وبينهم فتحاً ونجني ومن معي من المؤمنين** ﴾[3] .

---

(١) الأنعام (٨٠) .
(٢) الأنعام (٨١) .
(٣) الشعراء (١١٨) .

جاءه نصر الله ، وتداركته رحمة العزيز الذي يملك الأمر كله ، فنجّاه وأغرق المشركين قال تعالى : ﴿ **فأنجيناه ومن معه في الفلك المشحون ثم أغرّقنا بعد الباقين** ﴾[(١)] .

ولّما استنصر العزيز الحكيم الذي يملك النصر ، والذي يملك رحمة المؤمنين ، وإهلاك الظالمين ، والانتقام من المشركين ، فقال نوح - ﷺ - كما أخبر عنه الله - عزّ وجلّ - ﴿ **فدعا ربه أني مغلوب فانتصر** ﴾[(٢)] .

فجاءه النصر من عند العزيز الحكيم فور دعائه ، وعند استنصار ربه ، فنجّاه الله بعزته وقدرته ورحمته، وأهلك وأغرق المشركين بعزته وقدرته وعدله، قال تعالى : ﴿ **ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر ، وفجرّنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر** ﴾[(٣)] .

وأثبت الله نجاة نبيه نوح ومن آمن معه من المؤمنين رحمة منه - سبحانه وتعالى - العزيز الرحيم فقال تعالى : ﴿ **وحملناه على ذات ألواح ودسر تجري بأعيننا جزاء لمن كان كفر** ﴾[(٤)] .

وقال تعالى : ﴿ **فأنجيناه ومن معه في الفلك المشحون ، ثم أغرقنا بعد الباقين** ﴾[(٥)].

---

(١) الشعراء (١١٩ : ١٢٠) .

(٢) القمر (١٠) .

(٣) القمر (١١ : ١٢) .

(٤) القمر (١٣ : ١٤) .

(٥) الشعراء[١١٩ : ١٢٠) .

ولذلك امتنَّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ في آخر قصة نبي الله ورسوله نوح ـ ﷺ ـ في سورة الشعراء بأن الذي أهلك هؤلاء الظالمين والمشركين هو العزيز صاحب العزة ، وأن الذي رحم نبيه نوحاً والذين آمنوا معه هو العزيز الرحيم الذي يرحم عباده المؤمنين وينجيهم بعزته وقوته من القوم الظالمين . فقال تعالى : ﴿ **إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين ، وإن ربك لهو العزيز الرحيم** ﴾[١] .

٥ - [العزيز يهلك عاداً ويرحم نبيه هوداً - ﷺ - والمؤمنين] :

قال تعالى : ﴿ **كذبت عاد المرسلين ، إذ قال لهم أخوهم هود ألا تتقون** ﴾[٢] إلى قوله تعالى : ﴿ **فكذبوه فأهلكناهم إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك لهو العزيز الرحيم** ﴾[٣] .

إن أنبياء الله ورسله ـ صلوات الله عليهم وسلامه ـ خير من تعبَّد لله ـ تعالى ـ بأسمائه الحسنى، وصفاته العليا ، وخير من تعبَّد للعزيز الرحيم بطلب إهلاك الكفار والمشركين ، والطغاة والمتكبِّرين ، والجبابرة والمتغطرسين ، وخير من تعبَّد لصاحب العزة أن يرحمهم بما يتصف به من عزة وقوة، يوصل بها رحمته لمن شاء من عباده، ولمن شاء بحكمته أن يرحمهم .

وها هو نبي الله هود ـ ﷺ ـ يتعبَّد [للعزيز الرحيم] بدعوة قومه لعبادة الله ـ تعالى ـ وترك الشرك ، وإفراد الله بالشكر والحمد والثناء ، الذي أنعم عليهم بالنِّعم الكثيرة والوفيرة ، فزادهم في الجسم بسطة ، وآتاهم قوة في البدن ، وأغدق عليهم

(١) الشعراء (١٢١ : ١٢٢) .
(٢) الشعراء (١٢٣ : ١٢٤) .
(٣) الشعراء (١٣٩ : ١٤٠) .

من الخـيـرات ، وأمـدهم بـالأنعـام على تعـددها وتنوعـهـا، وجـعل لـهم الجنَّات والبساتين، والعيون والأنهار، مما جعلهم في رغد من العيش، بل في نعيم وترف ، وزيادة عن ذلك رزقهم بالأبناء الكثيرة، وخاصة الذكـور التي يحبونها ويفضِّلونها، فجمع لهم بين نعيم الدنيا ،وخيراتـها ، وزخرفها ، وبين كثرة الذرية ، ومكَّنهم من بناء البيـوت الشامخة ، والمباني الفـارهة ، الضخمة ، التي تدهش النـاظرين ، وتحيِّر عـقول المتـأملين . ورغم ذلك لم يؤمنوا ، ولم يكشـروا ربهم ، ولم يعـترفـوا بنعمـة ربهم وخالقهم . وذكَّرهم بهذه النِّعم ومـا يجب لها من الشكر نبيهم هود - ﷺ - فقال لهم : ﴿ **واتقـوا الذي أمـدكـم بما تعلمـون ، أمـدكـم بأنعـام وبنين ، وجنات وعيون** ﴾[1].

ولكنهم لم يلتـفتـوا له ، ولم يعتنـوا بقوله ، ولم يعطوا أهمـية له ولما يقـوله ، ولم يتـذكَّروا حينما ذكَّـرهم ، ولم يشكروا الله حـينمـا حثَّـهم على الشكر ، ولم يوحِّـدوا ربهم بل ظلُّـوا على كـفـرهم وعـتـوهم ، وبطشـهم ، فـأخـذ يهـددهم ، ويخـوِّفهم من انتـقـام العزيز ، وبـطش صاحب العـزة والقـوة ، فقـال لهم : ﴿ **إني أخاف عليكـم عذاب يوم عظيـم** ﴾[2] .

ولكنهم سخروا منه ، واستهزؤا بما قاله لهم ، بل إنهم أظهروا إصرارهم على ما هم عليه من الكفر والطغيان ، والبطش كما أخبر الله عن شدة بطشهم وظلمهم للآخرين ، وقهرهم للرجال ، وزهقهم للأرواح فقال عنهم ﴿ **وإذا بطشـتم بطشـتم جبارين** ﴾[3] بطشوا بطش الجبابرة في القـتل والضرب وأخذ أمـوال الغير ، وغـير

---

(١) الشعراء (١٣٢ : ١٣٤) .
(٢) الشعراء (١٣٥) .
(٣) الشعراء (١٣٠) .

ذلك من مظاهر الإفساد في الأرض ، ولمَّا دعاهم نبيهم هود ـ ﷺ ـ ردُّوا عليه ردَّ المتكبِّرين، والمتغطرسين، والمُصرين على الكفر والعناد فقالوا له قولتهم الشنيعة : ﴿ قالوا سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين إن هذا إلاَّ خلق الأولين ﴾[1].

فأعلنوا إصرارهم ، وتصميمهم على الكفر والشرك ، والتكبُّر والإفساد في الأرض ، زاعمين أن ما بهم من نعمة ليس الفضل لأحد فيها ، وأن الله لم يرزقهم هذه النِّعم ، بل هي سنة الحياة وعوامل الدهر يغتنى البعض ، ويفتقر البعض الآخر.

وأخيراً أنكروا البعث ، واستبعدوا أن يُعذَّبوا ، فهم كما كانوا أغنياء وأقوياء ومترفين في الدنيا فسوف يكون هذا حالهم على فرض أن هناك بعث كما تزعم يا هود ، وقالوا : ﴿ وما نحن بمعذبين ﴾[2].

قال الشيخ السعدي ـ رحمه الله ـ :

((وهذا إنكار منهم للبعث ، أو تنزُّل مع نبيهم وتهكم به . إننا على فرض أننا نبعث فإننا كما أُدرَّت علينا النِّعم في الدنيا ، كذلك لا تزال مستمرة علينا إذا بُعِثْنا))[3] .

ولكن ما كانت لسنة الله تعالى أن تتخلف عن الكفار والمشركين ، ولا عن الفجار والمفسدين ، وما كان الله ليترك هؤلاء المتكبرين المتغطرسين ، فلمَّا كذَّبوًا ،

---

(١) الشعراء (١٣٦ : ١٣٧) .
(٢) الشعراء (١٣٨) .
(٣) تفسير السعدي لسورة الشعراء آية (١٣٨) ص (٥٤٤) .

وعاندوا ، وأصرُّوا على كفرهم أهلكم أجمعين ، وجعلهم آية لكل المعتبرين ، ولكل من يأتي من بعدهم إلى يوم الدين فقال الله عنهم مُخْبراً عن كفرهم وعدم إيمانهم ، ونزول العذاب بهم ﴿ **فكذبوه فأهلكناهم إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين** ﴾ (١) .

فأثبت الله كفرهم وجحودهم وعصيانهم لرسولهم ، بل لعنهم الله تعالى وألحق بهم اللعنة في الدنيا على ألسن كل من يذكرهم إلى يوم القيامة ، وحكم عليهم باللعنة والطرد من رحمته يوم القيامة فقال تعالى : ﴿ **وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله واتبعوا أمر كل جبار عنيد ، واتبعوا في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة ألا إن عاداً كفروا ربهم ألا بعداً لعاد قوم هود** ﴾ (٢) فأرسل الله عليهم ريحاً صرصراً عاتية فأهلكتهم عن بكرة أبيهم ، فاقتلعت رؤوسهم ، وتركتهم كأنهم أعجاز نخل خاوية ، ليكونوا آية وعبرة لمن بعدهم ممن تسوِّل له نفسه عصيان الرسل، والتكبُّر والإفساد في الأرض. قال تعالى: ﴿ **وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية ، سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية ، فهل ترى لهم من باقية** ﴾ (٣) .

وقال أيضا ـ سبحانه وتعالى ـ عن عذاب هؤلاء المتكبِّرين المفسدين : ﴿ **وفي عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم ما تذر من شيء أتت عليه إلاَّ جعلته كالرميم** ﴾ (٤) .

---

(١) الشعراء (١٣٩) .
(٢) هود (٥٩ : ٦٠) .
(٣) الحاقة (٦ : ٨) .
(٤) الذاريات (٤١ : ٤٢) .

ومع إهلاك عادٍ جاءت نجاة نبي الله هود - ﷺ - ومن آمن معه ، فنجّاهم الله وأظهرهم على عدوه ، فإن الله عزيز لا يُعْجزه شيء في الأرض ولا في السماء ، ينصر عباده المؤمنين بعزته ، ويرحمهم برحمته، بعدما يهلك أعداءهم ، ويُعْلي الله كلمته ، ويُذلُّ الكافرين والمشركين ، ويجعل كلمتهم السفلي ، فهو العزيز ، صاحب العزة التي لا تُرام ، فينصر بها ويرحم بها كلَّ من تعبَّد له باسمه [العزيز] وصفة [العزة] . وكل من طمع في رحمته التي وسعت كل شيء قال تعالى : ﴿ ولمّا جاء أمرنا نجينا هوداً والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ ﴾[(١)].

ثم يوضح الله - سبحانه وتعالى - الطريق لكل المتعبِّدين له بأسمائه الحسنى ، وصفاته العليا ، ولكل من تطلَّع لنصر العزيز ، ورحمة صاحب العزة والقدرة والقوة، بيَّن سبحانه وتعالى أنه أهلك هؤلاء الكفار ومن سار على دربهم ، ونجَّا نبيه هود - ﷺ - ومَنْ معه ، وكذلك يُنْجِّي كل من تعبَّد لصاحب العزَّة والحكمة وطلب منه الرحمة ، ولذلك ختم الله - تعالى - وهو أعلم بمراده - هذه القصة في سورة (الشعراء) بقوله تعالى : ﴿ وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴾[(٢)].

قال الشيخ السعدي - رحمه الله - :

((« وإن ربك لهو العزيز » الذي أهلك بقدرته قوم هود ، على قوتهم وبطشهم .

« الرحيم » بنبيه هود حيث نجاه ومن معه من المؤمنين))[(٣)] .

---

(١) هود (٥٨) .
(٢) الشعراء (١٤٠) .
(٣) تفسير السعدي لسورة الشعراء آية (١٤٠) ص (٥٤٥) .

٦ - [العزيز يهلك ثمود ويرحم نبيه صالحاً - ﷺ - والمؤمنين] :

قال تعالى : ﴿ **كذبت ثمود المرسلين ، إذ قال لهم أخوهم صالح ألا تتقون** ﴾[١] إلى قوله تعالى : ﴿ **وإن ربك لهو العزيز الرحيم** ﴾[٢].

[**وها هو أيضاً نبي الله صالح - ﷺ -**] يواصل مسيرة التعبُّد لله تعالى بأسمائه الحسنى ، وصفاته العليا ، ويطلب النصر من العزيز صاحب العزة على قومه ثمود الذين كذَّبوه ، وعصوه ، واتهموه بأنه مسحور ، ووصفوه بأنه كذَّاب أشِر ، وعصوا أمرربهم وعقروا الناقة التي أخرجها آية لهم ، ولكن الكفر أعمى أبصارهم، وأصمَّ آذانهم ، وطمس على قلوبهم ، فأصرُّوا على الكفر ، وتمسَّكوا بالباطل ، وساروا على درب آبائهم وكبرائهم من الضالين والمفسدين في الأرض ، فكانت عاقبتهم كعاقبة من قبلهم من الأمم الكافر ة، ومن الأمم المتكبِّرة والمفسدة في الأرض ، وما قوم عادٍ عنهم ببعيد ، فإن ملة الكفر واحدة ، وسبيل الغي واحد، ومنطق الكفر متشابه ، تشابهة قلوبهم ، وتوافقت أهواؤهم ، وتقاربت أساليب صدِّهم عن سبيل الله ، ومحاربة الداعين إلى توحيد [العزيز الحكيم] - جلَّ في علاه - .

قال تعالى : ﴿ **وإلى ثمود آخاهم صالحاً قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره** ﴾[٣] .

---

(١) الشعراء (١٤١ : ١٤٢) .

(٢) الشعراء (١٥٩) .

(٣) هود (٦١) .

يقول عنهم الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله ـ :

((وهذا إخبار من الله ـ عزَّ وجلَّ ـ عن عبده ورسوله صالح ـ ﷺ ـ أنه بعثه إلى قومه ثمود وكانوا عرباً يسكنون مدينة الحجر التي بين وادي القرى وبلاد الشام، ومساكنهم معروفة مشهورة ، وكانوا بعد عاد ، وقبل الخليل ـ ﷺ ـ فدعاهم نبيهم صالح إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أن يعبدوه وحده لا شريك له ، وأن يطيعوه فيما بلَّغهم من الرسالة ، فأبوا عليه وكذَّبوه وخالفوه ، وأخبرهم أنه لا يبتغي بدعوتهم أجراً منهم وإنما يطلب ثواب ذلك من الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ثم ذكَّرهم آلاء الله عليهم فقال : ﴿ **أتتركون في ما هاهنا آمنين ، في جنات وعيون ، وزروع ونخل طلعها هضيم ، وتنحتون من الجبال بيوتاً فارهين ، فاتقوا الله وأطيعون** ﴾[1] .

يقول لهم واعظاً لهم ومحذِّرهم نقم الله أن تحل بهم ، ومذكِّراً بأنعم الله عليهم فيما رزقهم من الأرزاق الدَّارة ، وجعلهم في أمن من المحذورات .

وأنبت لهم من الجنات ، وفجَّر لهم من العيون الجاريات وأخرج لهم من الزروع والثمرات))[2] .

ورغم دعوة نبيهم صالح ـ ﷺ ـ لهم ، ومحاولته لإخراجهم ممَّا هم فيه من الكفر، وتطهيرهم من الشرك ، والأخذ بأيديهم إلى برِّ التوحيد ، وشاطئ الإيمان ، واتخاذه في سبيل ذلك كل سُبُل الوعظ والإرشاد ، وطَرَقَ كل أبواب الهداية ،

---

(١) الشعراء (١٤٦ : ١٥٠) .

(٢) تفسير ابن كثير لسورة الشعراء آية (١٤١ : ١٤٥) [٣ / ٣٢٦] .

وأيضاً رغم تذكيره لهم بنعم الله عليهم التي تشهد عليهم بمدى فضل الله عليهم وتنعيمه إياهم ، وأغداقهم بأرزاقه ، وإحسانه ، ولكن رغم ذلك كله أَبَوهُ إلاَّ الكفر والفسق والعصيان والتمرُّد ، بل سخروا من هذا النبي - ﷺ - ووصفوه بالسحر والكذب ، والافتراء على الله ، حتى إنهم من سخريتهم ، وعنادهم ، وتكبرُّهم ، طلبوا منه تعجيزاً له أن يُخْرِجَ لهم ناقة عشراء ، من صخرة صماء ، في تبجح واستهزاء ، ومع ذلك ، ورجاء إيمانهم فقد دعا الله أن يخرجها لهم ، فاستجاب ربه، فأخرج لهم ناقة عشراء، من صخرة صماء ، حددوها هم وأشاروا إليها، وذلك بعزة العزيز، وحكمة الحكيم، ورحمة من الرحيم ، لكي يؤمنوا برسولهم، ولكي ينجوا من النار ويدخلوا الجنة، وحتى لاتكون لهم حجة على الله بعد الرسل وحتى إذا أخذهم أخذهم أخذ عزيز مقتدر، فسبحانه إذا أخذ الكافر والظالم أخذه ولم يُفْلته،فإن أخذه شديد، وعذابه أليم، وبشطه بأعدائه بطش عزيز.

ثم أوصى نبي الله صالح - ﷺ - هؤلاء القوم خيرا بناقة الله ، وألاَّ يمسوها بسوء ، وأن يحمدوا الله عليها، ويشربوا من لبنها، فهي لهم آية من آيات [العزيز الحكيم] فقال لهم : ﴿ **هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم** ﴾[1] .

ولكن ما كان من هؤلاء القوم إلاَّ أنهم أصرُّوا على كفرهم وتمسَّكوا بشركهم ، وصدوا عن سبيل الله ، وسخروا من رسولهم ، وعصوا أمر ربهم ، وذبحوا ناقة الله التي وصَّاهم نبيهم بها خيراً ، وحذَّرهم من مغبة إيذائها ، ولكنهم

---

(١) الشعراء (١٥٥ : ١٥٦) .

تجرؤا على معصية الله ، وتمردوا على خالقهم ، فأتاهم العذاب الأليم ، ونكَّل الله بهم جزاءً لكفرهم ، وآية لكل من بعدهم ممن يُعْرض عن أمرربه ، ويعصي خالقه ، ويتمرّد على العزيز صاحب العزة والقوة والقدرة الذي لا يغالبه أحد ، ولا يخرج عن إرادته مخلوق ، ولا يتعدَّى حكمته أي شيء قال تعالى : ﴿ **فعقروها فأصبحوا نادمين ، فأخذهم العذاب إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين** ﴾[1] .

وقال تعالى أيضاً مصوِّراً لكل المعتبرين ما فعله بهؤلاء الكافرين المعرضين عن أمره ، العاصين لرسوله : ﴿ **فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها ، ولا يخاف ، عقباها** ﴾[2] .

وقال تعالى : موضحاً كيفية عذابهم بالصيحة التي أهلكتهم جميعاً عن بَكْرة أبيهم فقال - جلَّ شأنه - ﴿ **وفي ثمود إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين ، فعتوا عن أمر ربهم فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون ، فما استطاعوا من قيام وما كانوا منتصرين** ﴾[3] .

ومع إهلاك العزيز لهؤلاء الكافرين المتمرِّدين ، جاء نصر الله ورحمته بنبيه صالح - ﷺ - ولمن معه من المؤمنين ، فهو أرحم الراحمين ، وهو الذي يدافع عن عباده المؤمنين ، وينصر بعزته وقوته من ينصر الدين ، ويرحم برحمته عباده المتقين ،

---

(١) الشعراء (١٥٧ : ١٥٨) .

(٢) الشمس (١٤ ، ١٥) .

(٣) الذاريات (٤٣ : ٤٥) .

كما قال تعالى : ﴿ فلمَّا جاء أمرنا نجينا صالحاً والذين آمنوا معه برحمة منا ومن خزى يومئذ إن ربك هوالقوي العزيز ﴾(١) .

ويختم الله قصة نبيه صالح - ﷺ - مع قومه ثمود بإثبات العزة له في عليائه، ومؤكِّداً إهلاكه للكافرين والمتمرِّدين على خالقهم صاحب العزة والحكمة، ومؤكِّداً وعده برحمة عباده المؤمنين الذابين عن الدين والعقيدة ، والمتعبدين له بأسمائه الحسنى ، وصفاته العليا ، المستنصرين بصاحب العزة والحكمة . فقال تعالى : ﴿ وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴾(٢) .

٧ - [العزيز يهلك قوم لوط ويرحم نبيه لوطاً - ﷺ - وأهله] :

قال تعالى : ﴿ كذبت قوم لوط المرسلين ، إذ قال لهم أخوهم لوط ألا تتقون ﴾(٣) إلى قوله تعالى : ﴿ وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴾(٤) .

[وها هو أيضا نبي الله لوط - ﷺ -] يدعو قومه إلى عبادة الله وحده ، وترك الشرك ، يدعوهم لإفراد الله تعالى بجميع أنواع العبادات ، وعدم صرفها لغيره من الشركاء ، والآلهة المزعومة الباطلة ، وأن يتعظوا بمن سبقهم من الأمم السالفة ، وأن يعتبروا بما حدث لهم ، وحتى لا تكون نهايتهم العذاب والهلاك ، فضلاً عن أنهم عصوا الله تعالى مع شركهم به بمعصية لم يسبقهم بها أحد من العالمين ، ألا إنها إتيان الذكران شهوة من دون النساء ، فكانوا يتركون نساءهم

---

(١) هود (٦٦) .
(٢) الشعراء (١٥٩) .
(٣) الشعراء (١٦٠ : ١٦١) .
(٤) الشعراء (١٧٥) .

اللاتي أحلهن الله لهم ويجامعون الرجال ، ويقضون شهوتهم معهم من دون النساء ، فلم يسبقهم أحد في هذه الفاحشة ، وفي هذا الفعل الخبيث ، الذي تشمئز منه النفوس وتستقبحه الفِطَر السليمة ، وتبغضه القلوب الطاهرة .

فأخذ نبي الله لوط - ﷺ - يدعوهم إلى توحيد الله وطاعته ، وترك الشرك وأسبابه ، والإقلاع عن هذ الفاحشة التي يمارسونها . فقال لهم : ﴿ **إني لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون** ﴾[1] .

ووبَّخهم على فاحشتهم ، ودعاهم للإقلاع عنها فقال - ﷺ - ﴿ **أتأتون الذكران من العالمين وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم بل أنتم قوم عادون** ﴾[2] . وقال لهم أيضاً : ﴿ **إنكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين** ﴾[3] .

ولكنهم على آثار سلفهم من الكفار والفجَّار والفُسَّاق سائرون ، ولدربهم سالكون ، وعلى الكفر والشرك والعصيان مصمِّمون ، ولأوامر الله ورسله عاصون، وقالوا مثلما قال الأولون ، من المتكبرين والمتغطرسين لرسولهم ولكل من دعاهم إلى التوحيد ، وإلى الطهر والعفاف ، وإلى سبيل الله المستقيم ، فما كان منهم إلاَّ أن هدَّدوا وتوعَّدوا لهذا النبي الكريم - ﷺ - ولمن آمن معه ، وأجمعوا على إخراجه من بينهم ومن معه من الأطهار الأخيار ، وماكان لهم من ذنب ، وما عابوا

---

(١) الشعراء (١٦٢ : ١٦٣) .

(٢) الشعراء (١٦٥ : ١٦٦) .

(٣) العنكبوت (٢٨) .

عليهم من خُلُق إلاَّ أنهم أطهار ، ويدعون للطهر والعفاف ، والكرامة وكريم الأخلاق ، فقالوا لهم متوعِّدين إياهم ﴿ **قالوا لئن لم تنته يا لوط لتكونن من المخرجين** ﴾[1].

وقال الله تعالى أيضاً مبيناً حجة هؤلاء القوم في إخراجهم لنبي الله لوط - ﷺ - ومن معه من المؤمنين ، وسبب تجريمهم ، وحيثيات إخراجهم . ﴿ **فما كان جواب قومه إلاَّ أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم إنهم أناس يتطهرون** ﴾[2].

- فالطُّهر جريمتهم، والعفاف أكبر حيثيات إدانتهم، والدعوة إلى توحيد الله مصيبتهم، وكراهيتهم للفاحشة أكبرخطيئاتهم، ومحاولة الإصلاح في الأرض أقبح ذنوبهم، واتباعهم للهُدَى سبب إخراجهم، واتباع الرسل جريمة توجب طردهم.

بل إنهم لَمَّا أتت رسل الله من الملائكة - عليهم السلام - لنبي الله لوط - ﷺ - في بيته في صورة رجال ، أراد قومه أن يفعلوا الفاحشة في هؤلاء الضيف ، وأخذ نبي الله ينصحهم ، ويردُّهم عمَّا عزموا عليه ، ويخوِّفهم بالله ، ولكنهم أصروا على أن يفعلوا فيهم الفاحشة ، فقال لهم : ﴿ **يا قوم هؤلاء بناتي هن أطهر لكم فاتقوا الله ولا تخزوني في ضيفي أليس منكم رجل رشيد** ﴾[3] .

فأرشدهم إلى الطريق الصحيح لقضاء الشهوة وهو النساء اللاتي أحلهن الله للرجال ، وليس الرجال محل شهوة ، فأجابوه في تبجح وفجور وإصرار على المعصية : ﴿ **قالوا لقد علمت ما لنا في بناتك من حق وإنك لتعلم ما نريد** ﴾[4].

---

(١) الشعراء (١٦٧) .
(٢) النمل (٥٦) .
(٣) هود (٧٨) .
(٤) هود (٧٩) .

فما كـان من العزيز ـ جلَّ في علاه ـ صاحب العزة والقـوة أن يمهلهم أكثر من ذلك بعـدما كـفروا وعصـوا وأعرضـوا ، وأصرُّوا على الكـفر والإفسـاد في الأرض فأخـبر سبحـانه وتعـالى عن قُرب مـهلكم قائلا ـ جلَّ في عـلاه ـ **للعبد الفقير** ﴿ **الصبح أليس الصبح بقريب** ﴾[1].

بلى وربي إن الصـبح قـريب، والعـزيز على إهلاك الكـفار والعـصـاه قـدير ، وبعباده المؤمنين رحـيم ، ومؤيد لكل عباده المتـعبِّدين له بأسمائه الحـسنى، وصفاته العليا . وما هو إلاَّ قليل حتى أتى عذاب الله للكافرين ، وتـدميره للعصاة المفسدين فجـعل هذه القرية التي كانت تعمل الخبائث جعل عـاليها سافلهـا ، وأمطر عليهم حجارة من سـجيل فدمرتهـم تدميراً ، فلم تُبْقى منهم أحـداً ، جزاءً من ربك عطاءً حسابا ، وما ربك بظلام للعبيد .

قال تعالى : ﴿ **وأمطرنا عليهم مطراً فانظر كيف كان عاقبة المجرمين** ﴾[2].

وقال تعـالى أيضاً موضِّحـاً ومعدِّداً أنواع العذاب الذي لحق بهـؤلاء المجرمين الضالين المفسدين : ﴿ **فلمـا جاء أمـرنا جعلنا عاليـهـا سافلها ، وأمطـرنا عليـهم حجارة من سجيل منضود ، مسومة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد** ﴾[3] .

وكذلك مع إهلاك هؤلاء القوم المجـرمين العصاة ، الفاسـقين كانت نجاة نبي الله لوط ـ ﷺ ـ ومن آمن معه مـن المؤمنين الأخيار الأطهار الذين أبو إلاَّ التـوحيد، واتصفوا بالطهر والعفاف، والبعد عن الفسق والفساد، المتعبِّدين [للعزيز الرحيم] ،

---

(١) هود (٨١) .
(٢) الأعراف (٨٤) .
(٣) هود (٨٢ : ٨٣) .

الذي أهلك عدوهم بعزته ، ورحمهم برحمته - سبحانه وتعالى - له الأسماء الحسنى ، والصفات العليا .

فبعد أن تعبَّد نبي الله لوط لله تعالى بالبراءة ةمن فعل الكافرين، وأعلنها فيهم، تعبَّد للعزيز بطلب النجاة من هؤلاء الفاسقين ومِنْ فِعْلهم ، ومما يمكرون ، فقال : ﴿ قال إني لعملكم من القالين ، رب نجني وأهلي مما يعملون ﴾[1] .

فسمع الله نداءه ، وبارك تعبُّده ، واستجاب لدعوته ، ونجَّاه وأهله من المؤمنين فقال تعالى : ﴿ فنجيناه وأهله أجمعين إلاَّ عجوزاً في الغابرين ثم دمرنا الآخرين وأمطرنا عليهم مطراً فساء مطر المنذرين ﴾[2] .

ويختم الله تعالى قصة نبيه لوط - ﷺ - في سورة الشعراء - أيضاً - بصفة العزة المقرونة بالرحمة، إشارة إلى عزة وقوة العزيز في انتقامه وبطشه بأعدائه أعداء الدين - ورحمته لعباده المؤمنين المتعبِّدين له بأسمائه الحسنى، وصفاته العليا فقال - جلَّ شأنه - ﴿ وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴾[3] .

٨ - [العزيز يهلك أصحاب مدين ويرحم نبيه شعيباً - ﷺ - والمؤمنين] :

قال تعالى : ﴿ كذب أصحاب الأيكة المرسلين ، إذ قال لهم شعيب ألا تتقون ﴾[4] إلى قوله تعالى : ﴿ وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴾[5] .

---

(١) الشعراء (١٦٨ : ١٦٩) .
(٢) الشعراء : (١٧٠ : ١٧٣) .
(٣) الشعراء (١٧٥) .
(٤) الشعراء (١٧٦ : ١٧٧) .
(٥) الشعراء (١٩١) .

لقد أرسل الله تعالى [العزيز الرحيم] نبيه شعيباً إلى أصحاب مدين ، وسمَّاهم الله أيضاً (أصحاب الأيكة) أي أصحاب البساتين الملتفة الأشجار وذلك لكي يدعوهم إلى التوحيد وينهاهم عن الشرك ، ولكي ينجوا من عذاب النار الذي هو مصير المشركين والكافرين ، ويدخلوا الجنة التي هي دار المؤمنين الموحِّدين المتعبِّدين لله ـ تعالى ـ بأسمائه الحسنى ، وصفاته العليا ، فأخذ نبي الله شعيب يدعوهم ليلاً ونهاراً، وفي كل وقت ، وفي كل مناسبة ، وكيف لا وهو الملقَّب (**بخطيب الأنبياء**) فلقد أوتي فصاحة في الخطاب ، وطلاقة في اللسان ، وبلاغة في الكلام ، وقدرة على البيان ،ولم يدَّخر وسعاً في دعوة هؤلاء القوم ليتركوا شركهم، ويتخلَّوا عن معاصيهم ، والتي من أبرزها بخس المكيال والميزان ، فلقد كانوا يأكلون أموال الآخرين بالباطل ، فوقف فيهم قائلاً : ﴿ **إني لكم رسول أمين ، فاتقوا الله وأطيعون** ﴾[1] .

فأمرهم بالتوحيد ، ونهاهم عن الشرك ، وحثهم على اتباعه وعدم عصيانه ، ونهاهم أيضا عمّا هم فيه من بخس المكيال والميزان فقال لهم : ﴿ **أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين ، وزنوا بالقسطاس المبين ، ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين** ﴾[2] .

ولكن لم يجد من هؤلاء القوم استجابة ، ولم يظفر منهم بطاعة ، ولم يجد سبيلاً لهدايتهم ، رغم ما هم فيه من نِعَم الله من الجنات والبساتين والأشجار ،

---

(١) الشعراء (١٧٨ : ١٧٩) .

(٢) الشعراء (١٨١ : ١٨٣) .

وسائر خيرات الله ، وما منَّ عليهم من الأرزاق التي لا تُعدُّ ولا تحصى بل إنهم اتَّهموه بما أُتُّهم به مَنْ قبله مِنْ إخوانه من الرسل ، فلقد قالوا ما قاله أسلافهم من الأمم السابقة لرسلهم ، فلقد اتهموه بأنه مسحور ، وأنه لا يعي ما يقول ، فكيف يأمرهم بمخالفة الآباء والأجداد ، كيف يحجر عليهم في أموالهم ، ويتحكَّم في تصرفاتهم فيما يملكون من الأموال ، حتى ولو كان فيما حرَّم الله ، ولو نقصوا الميكال والميزان ، حتى ولو أكلوا أموال الناس باطلاً ، وحتى لو بخسوا الناس أشياءهم . ﴿ **قالوا يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء** ﴾[(١)] .

ووصل بهم الأمر أن يسخروا من نبيهم شعيب - ﷺ - وتحدُّوه وطلبوا منه - تعجيزاً وسخرية - إن كان صادقاً أن يدعو الله أن ينزل عليهم عذاباً من السماء فيستأصلهم جميعاً فقالوا : ﴿ **قالوا إنما أنت من المسحرين ، وما أنت إلاَّ بشر مثلنا وإن نظنك لمن الكاذبين ، فأسقط علينا كسفاً من السماء إن كنت من الصادقين** ﴾[(٢)] .

فهكذا رموا هذا النبي الكريم شعيباً بأنه مسحور ، واتهموه بالكذب ، وسخروا منه وطلبوا منه أن ينزِّل عليهم عذاباً من السماء ، ولكن ما كان من خطيب الأنبياء شعيب - ﷺ - إلاَّ أن ازداد في نصحهم ، وأخلص في إرشادهم ، وحاول اصلاحهم ما استطاع مستعيناً بالله ، ومتوكلاً على العزيز الرحيم ، فقال لهم : ﴿ **قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي ورزقني منه رزقاً حسناً وما**

---

(١) هود (٨٧) .

(٢) الشعراء (١٨٥ : ١٨٧) .

أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلاَّ الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ﴾(١) .

وبعد كل هذا النصح ، وهذا الوعظ والإرشاد ، كانت النتيجة أنهم اتبعوا أسلافهم من الكفار والمشركين ، والمتغطرسين والمتكبِّرين ، والطغاة والظالمين (فهدَّدوه بالرجم) واستعلوا عليه بقوتهم وشدة بأسهم ، وعيّروا بأنه فيهم ضعيفاً ، وليس له أسباب القوة والغلبة فقالوا قولتهم الشهيرة ، واستعملوا سلاح الجبابرة والطغاة والمتكبِّرين ، ومنطق الكفر والعصيان فقالوا : ﴿ **قالوا يا شعيب ما نفقه كثيراً مما تقول وإنا لنراك فينا ضعيفاً ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزيز** ﴾(٢) .

فعزَّ على نبي الله شعيب ـ ﷺ ـ هذه المقولة ، وأثَّرت فيه هذه الكليمات ، فحزن حزناً شديداً ، وتألم لهذا التجرؤ ، وعدم الخوف من الله تعالى ، وعدم توقير الله ، والاستهانة بقوة وعزة الله ، فصرخ فيهم موبِّخا إياه : ﴿ **قال يقوم أرهطي أعزُّ عليكم من الله واتخذتموه وراءكم ظهرياً إن ربي بما تعملون محيط** ﴾(٣) .

فلمَّا شعر منهم الإصرار على الكفر ، والتمسُّك بالشرك ، واغترارهم بقوتهم وأنهم سائرون على درب أسلافهم من الأمم الكافرة حذَّرهم انتقام الله وبطشه ، وخوَّفهم من بطش الجبار ، وعذاب العزيز ، وغضب الجبار فقال لهم : ﴿ **ويا قوم**

---

(١) هود (٨٨) .
(٢) هود (٩١) .
(٣) هود (٩٢) .

اعملوا على مكانتكم إني عامل سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب وارتقبوا إني معكم رقيب ﴾(١) .

ولـمَّا عَلِمَ الله منهم الكفر ، واطّلع على قلوبهم الجاحدة ، وتبيّن إصرارهم على الكفر والعناد ، أنزل الله بهم بأسه ،وعذّبهم بذنوبهم ، فأخذتهم الصحية فأهلكتم جميعاً، فلا يُري لهم حركة ، ولا يسمع لهم صوتاً ، كما قال الله تعالى : **﴿ وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين كأن لم يغنوا فيها ألا بعداً لمدين كما بعدت ثمود ﴾**(٢).

وقال تعالى أيضا عن عذابهم بعد تكذيبهم رسولهم، وصدهم عن سبيل الله، وانتصاره لنبيه شعيب والذين آمنوا معه فقال تعالى : **﴿ فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم ﴾**(٣) .

ومع إهلاك هؤلاء الكافرين ، وأخذهم أخذ عزيز مقتدر ، جاء نصر الله لنبيه شعيب - ﷺ - ونجاته هو ومن آمن معه من المؤمنين المتعبِّدين للعزيز الرحيم الذي أهلك بعزته الكافرين ، والذي يُنجِّي برحمته عباده المؤمنين فقال تعالى : **﴿ ولمَّا جاء أمرنا نجينا شعيباً والذين آمنوا معه برحمة منا ﴾**(٤) ثم يؤكد الله تعالى في آخر هذه القصة في سورة الشعراء على عزته التي يهلك بها الكافرين ورحمته التي يرحم بها المؤمنين قائلاً - جلَّ في علاه - **﴿ وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴾**(٥).

---

(١) هود (٩٣) .
(٢) هود (٩٤ : ٩٥) .
(٣) الشعراء (١٨٩) .
(٤) هود (٩٤) .
(٥) الشعراء (١٩١) .

ثانياً : [التعبُّد للعزيز الرحيم بالتوكُّل عليه]

قال تعالى : ﴿ فإن عصوك فقل إني بريء مما تعملون وتوكل على العزيز الرحيم ﴾(١) .

إن الله سبحانه وتعالى له الأسماء الحسنى ، والصفات العليا ، ومن أراد الله توفيقه يعلِّمه من أسمائه الحسنى ، ويفتح عليه بما تتضمنه هذه الأسماء من الصفات الحميدة ، ويوفِّقه إلى التعبُّد لله بهذه الأسماء ، وتلك الصفات ، وبما تقتضيه من عبادات .

ومن هذه الأسماء الحسنى [العزيز] ، ومن الصفات الحميدة [العزة] ومن هذه العبادة التي يقتضيه التعبُّد للعزيز صاحب العزة ، عبادة [التوكُّل] . فإن العبد المؤمن المتعبِّد لصاحب العزة الكاملة المطلقة ، بهذا الاسم وتلك الصفة ليعلم مدى عزة ، وقدرة ، وقوة العزيز ، وأنه على كل شيء قدير ، وأنه لا يُعْجزه شيء في الأرض ولا في السماء ، وأن أمره بين الكاف والنون إذا أراد شيئًا فإنما يقول له - سبحانه وتعالى - كن فيكون بقدرة الله وعزته كما قال تعالى : ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون ﴾(٢) .

فهذا الاعتقاد الذي يعتقده ا لمؤمن المتعبِّد لله تعالى يجعله على يقين في مدى قدرة الله أن يفعل ما يشاء ، وأن ا الأمور كلها بيده - جلَّ في علاه - فيدفعه ذلك لأن يأمر بالمعروف ، وينهي عن المنكر وهو متوكِّل على العزيز لعلمه بمدى

---

(١) الشعراء (٢١٦ : ٢١٧) .
(٢) يس (٨٢) .

عزة وقوة العزيز ، الذي يحميه ويعصمه بقوته مِنْ شر مَنْ أمره بالمعروف ، ومَنْ نهاه عن المنكر إن أراد به سوءً ، وكذلك يعتقد أن العزيز يملك أن يرحم من شاء ويحفظه ويصونه من كل سوء ، رحمة من العزيز بعباده المؤمنين ، فيدفعه ذلك للتوكُّل على العزيز الرحيم الذي يرحم من شاء برحمته ، ويحفظ ويعصم من شاء بعزته ، وعزة العزيز ، ورحمة الرحيم ، وفق حكمة الحكيم ـ جلَّ في علاه ـ الذي يتوكَّل عليه المؤمنون ، ويعتصم به المتعبِّدون ، ولذلك قال الله ـ عزَّ وجلَّ ـ في الآية الأخرى ﴿ ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم ﴾[1] .

فعزة يملك بها الله أمر الخلق ، فيحفظ بها من شاء ، ويملك بها رحمتهم ، ولا يردُّ رحمة الله صاحب العزة أي مخلوق ، فعنده من العزة ما يوصل بها عصمته لمن شاء ، ورحمته لمن شاء ، فحكمته ـ جلَّ في علاه ـ يُصرِّف بها أمور العباد ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون .

وكذلك إذا تعبَّد العبد لله تعالى باسم [العزيز] وصفة [العزة] فهو يعلم أن العزيز صاحب قوة ، وذو رحمة ، فيتوكل عليه في كل شئون حياته من [الرزق ، ومن الأمن ، ومن طلب النصر علي الأعداء ، ومن الثبات على الحق ،ومن الدعوة إلى الله ، ومن طلب العلم ، ...] وغير ذلك مما يخصُّ أمور الدنيا والآخرة فعقيدة المسلم بأن الله هو العزيز صاحب العزة المطلقة التامة ، وأنه من عزته أنه ينصر عباده المؤمنين ويحفظهم ، وكذلك يرحمهم بعزته ، يجعله يتوكَّل على الله حق التوكُّل، ويسارع في عمل كل شيء يرضى الله ـ جلَّ في علاه ـ وهو متوكِّل على الله ، ولا

---

(١) الأنفال (٤٩) .

يخشى في الله لومة لائم ، وقلبه مطمئن أن ما سيصله ، وما سيصيبه هو بعلم وبقدرة وعزة العزيز ، وأن العزيز سيرحمه برحمته ، ويحفظه بحفظه ﴿ وتوكل على العزيز الرحيم ﴾[١] .

والقائل ـ جلَّ في علاه ـ ﴿ ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم ﴾[٢] .

قال الشيخ السعدي ـ رحمه الله ـ :

((أعظم مساعد للعبد على القيام بما أُمِرَ به ، الاعتماد على ربه والاستعانة بمولاه ، على توفيقه للقيام بالمأمور ، ولذلك أمر الله تعالى بالتوكل عليه فقال : ﴿ وتوكل على العزيز الرحيم ﴾[٣] .

والتوكل : هو اعتماد القلب على الله تعالى، في جلب المنافع، ودفع المضار، مع ثقته به ، وحسن ظنه بحصول مطلوبه ، فإنه عزيز رحيم ، (بعزته) يقدر على إيصال الخير ، ودفع الشرّ عن عبده ، (وبرحمته) به يفعل ذلك))[٤] .

فهذه دعوة من الله العزيز صاحب العزة المطلقة الكاملة ، الذي يملك زمام كل الأمور ، والذي بيده ملكوت السماوات والأرض ، دعوة للاحتماء بالله ـ تعالى ـ والاعتصام بعزته ، والتوكلُّ عليه كل التوكل في جميع شؤون المسلم ، فإن هذا الإله الذي سيتوكَّل عليه ، وسيُسْلِم له زمامه إله عزيز ، ذو قوة وقدرة ، يوفِّق

---

(١) الشعراء (٢١٧) .

(٢) الأنفال (٤٩) .

(٣) الشعراء (٢١٧) .

(٤) تفسير السعدي لسورة الشعراء آية (٢١٧) ص (٥٤٨ : ٥٤٩) .

من توكَّل عليه ، ويحمي مَنْ لاَذَ به ، وينصر مَنْ نَصَرَه ونصر دينه ، ويعصم مَنْ احتمى به ، ويؤوى من التجأ إليه ، ويحفظ مَنْ اعتمد عليه ، فهو صاحب القوة التي لا تُغْلب ، وصاحب العزة التي لا تُرام ، وصاحب السلطة والهيمنة التي لا يخرج معها عن قبضته أحد من خلقه ، فليستبشر العبد المتعبِّد للعزيز بأنه سيكفيه ، وسيحميه ، وسينصره ، إذا توكَّل عليه ، وإذاتعبَّد له حق التعبُّد بعبادة التوكل ، فإن العزيز سوف يحفظه ، ويُحقِّق له مطلبه ،وفق عزته ، وتتداركه رحمة ربه فهو إله رحيم ، يوصل رحمته لمن يشاء من عباده بعزته وقوته ، ولا يمنع رحمته عمن شاء أحد من خلقه ، فليتعبَّد العبد المؤمن لهذا الإله العزيز الرحيم بالتوكُّل عليه ، ويثق في عزة وقدرة ورحمة هذا الإله ، وأن رحمته يصيب بها من شاء من عباده المؤمنين المتوكلين عليه ، المتطلِّعين إلى توفيقه وحمايته ورحمته ، وسبحانه وتعالي يُطَمْئِن عباده المتوكِّلين عليه قائلاً في محكم التنزيل : ﴿ ومن يتوكل علي الله فإن الله عزيز حكيم ﴾[1] .

---

(١) الأنفال (٤٩) .

ثالثاً : [التعبُّد للعزيز الرحيم بطلب النصر للمؤمنين]

قال تعالى : ﴿ ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم ﴾(١) .

إن العبد المتعبِّد للعزيز صاحب العزة المطلقة التامة ، والذي يملك بعزته كل شيء ، والذي يقدر بقدرته نصر من شاء من عباده المؤمنين ، ويهلك الكفار والمشركين والمنافقين وكل أعداء الدين، وهو الذي يمنُّ على عباده المؤمنين ويرحمهم برحمته التي وسعت كل شيء بأن ينصرهم على عدوهم ويشف صدورهم ، أويردَّ عنهم كيد أعدائهم ، أو يَصْرِف عنهم كل من أراد بهم سوء ، أو يسلِّط جنداً من جنوده على أعدائهم فيهلكهم أو يُشتِّتهم ويصرفهم عن عباد الله المؤمنين رحمة بهم ، فالعزيز بعزته ينصر من شاء ، وهو القادر على رحمة من شاء من عباده المؤمنين ، فإن النصر والرحمة بيدي [العزيز الرحيم] فهو ينصر ويرحم وفق حكمة يعلمها ، وسبقت في علمه ، كما قال ـ جلَّ في علاه ـ ﴿ وما النصر إلاَّ من عند الله العزيز الحكيم ﴾(٢) .

فإن النصر من عند صاحب العزة والحكمة يمنُّ به برحمته وعزته وحكمته على من شاء من عباده ، فهو ينصر بجنوده كل من تعبَّد له بأسمائه الحسنى ، وصفاته العليا ، قال تعالى : ﴿ ولله جنود السماوات والأرض وكان الله عزيزاً حكيماً ﴾(٣) .

---

(١) الروم (٤ : ٥) .

(٢) آل عمران (١٢٦) .

(٣) الفتح (٧) .

فإن الذي يملك جنود السماوات والأرض على اختلافها ، وعلى تنوّعها ، فهو القادر على نصر من شاء من عباده ، ويرحم من شاء منهم ، وتتدارك حكمته من شاء منهم فيعزُّ مِنْ شاء ، ويُذِّل من شاء ، ويهب الملك لمن شاء من عباده ، وينزع الملك ممن شاء من عباده ، فهو على كل شيء قدير .

قال الشيخ السعدي ـ رحمه الله ـ :

((كرَّر الإخبار بأن له ملك السماوات والأرض وما فيهما من الجنود ، ليعلم العباد أنه تعالى هو المعزُّ المُذِّل ، وأنه سينصر جنوده المنسوبة إليه كما قال تعالى : ﴿ **وإن جندنا لهم الغالبون** ﴾[1] . ﴿ **وكان الله عزيزاً حكيماً** ﴾[2].

ـ أي : قوياً غالباً ، قاهراً لكل شيء .

ومع عزته وقوته ، حكيم في خلقه وتدبيره ، يجري على ما تقتضيه حكمته واتقانه))[3] .

فعلى كل متعبِّدٍ لله تعالى بأسمائه الحسنى ، وصفاته العليا ، وعلى كل مُوقِن بأن الله عزيز ، حكيم ، رحيم ، على الجميع التعبُّد لله تعالى بهذه الأسماء ، وتلك الصفات الحسنى ، وطلب النصر ممن يملكه وحده ـ جلَّ في علاه ـ إن كان العبد المسلم يريد النصر الحقيقي، والتمكين في الأرض ، وأمَّا إذا توجَّه بطلبه النصر من غير صاحب العزة والحكمة من أي مخلوق مهما كان ، ومهما كانت الأسباب

---

(١) الصافات (١٧٣) .

(٢) الفتح (٧) .

(٣) تفسير السعدي لسورة الفتح آية (٧) ص (٧٣٦) .

والمبـررات ، فإن النصـر لا يتأتـى ، ولن يتحـقق لأي مخلوق إلاَّ بـالتعـبُّد [للعـزيز الحكيم] بطلب النصر منه وحده ، وبعد التعبُّد [للرحيم] بأن يرحم عباده المؤمنين ويمنَّ عليـهم بالنصـر والتمكين ، فـطريق النصر هو التـعـبُّد لله تـعالى والتـذلل له ، والخـضـوع لجـلاله ، والانكـسـار بين يديه ، وإظهـار الفـقـر والـعَـوَز والاسـتـغـاثة والاستعانة والاستعاذة برب السماوات والأرض حتى يأتي النصر ويتحقق التمكين في الأرض، والله غالب على أمره، ولو كره الكافرون، ولو أعرض المعرضون.

وعلى الرغم من أن هذا النصر الذي نصَّت عليه الآية الـكريمة والذي سيفرح به المؤمنون في قـوله تعالى : ﴿ **ويومئذ يفـرح المؤمنون بنصـر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم** ﴾[1] .

فعلـى الرغم من أن المنتصـرين هنا هم الروم ، والمهزومين هم الـفرس ، ورغم أنهما جميـعاً كُفَّار ، وليسوا بمؤمنين ، إلاَّ أن العبـد المؤمن الموحِّد يفرح بنصر بعض الكفار على بعض ، وإهلاك الظـالمين بعضهم لبعض ، وتدمـيرهم بعضـهم لبعض ، واسـتئـصـال شأفـتـهم من على الأرض بأيدي أنفـسـهم ، مع نجـاة المؤمنين منهم ، وسـلامة دمـائهم من سيـوفهـم ، فسـبحـانه عزيز قـدير على أن [يهلك الكافـرين بالكافرين ويُخْرِج المؤمنين منهم سالمين] .

وكذلك فإن المؤمن يفرح بنصرمن هو أقرب إليه في معتـقداته الغيبية ، فيفرح المسلم بنصر أهل الكتاب على غيـرهم من الكفار الذين لا يؤمنون بالله ، ولا باليوم الآخـر ، مـثل هؤلاء الملحـدين الذين ينكرون وجـود الإله ، وكـذلك عُـبَّـاد النار ، وعُـبَّاد البـقر ، وغـيـرهم ، فإن بعض الشـر أهون من بعض ، وأن في هزيمة الكفـار

---

(١) الروم (٤ : ٥) .

الأقـوياء والأشـد كفـراً قـرب لنصـر المؤمنين ، والتـمكين لعبـاد الله الموحِّـدين في الأرض ، فـيتـعبَّـد المسلم لصـاحب العزة بفـرحه بنصـر بعض الكفـار على بعض ، واستئـصال أئمة الكفر ، وصناديد المشركين ، وهو في الحـقيقة يتعـبَّد للعزيز ـ جلَّ في علاه ـ بتعجيل نصـر المؤمنين ، ولذلك ذكر بعض المفسرين أن هذه الآية كانت فرحاً للمؤمنين بنصر أهل الكتاب من الروم على عبدة الأوثان من الفرس ، وكانت بشرى للمؤمنين بالنصر والفتح وذلـك يوم الحديبية ، وهذا الصلح الذي كان بداية للفتح ودخول الناس في دين الله أفواجاً .

قال الإمام القرطبي ـ رحمه الله ـ :

((وروى أن ذلك كان في يوم الحديبية ، وأن الخبر وصل يوم بيعة الرضوان، قاله عكرمة وقتادة .

قال ابن عـطية : وفي كـلا اليـومين كان نـصر من الله لـلمؤمنـين وقد ذكـر الناس أن سبب سرور المسلمين بغلبة الروم ، وهمُّهم أن تَغْلِب إنما هو أن الروم أهل كتاب كالمسلمين ، وفارس أهل الأوثان .

وقال النحاس : وقـول آخر وهو أولى : أن فرحهم إنما كـان لإنجاز وعد الله ـ تعـالى ـ إذ كان فيـه دليل على النبـوة لأنه أخبـر تبارك وتعـالى بما يكون في بضع سنين فكان فيه .

وقال ابن عـطية : ويشبه أن يعلِّل ذلك بما يقتضـيه النظر من محبة أن يغلب العدد الأصغر لأنه أيسـر مؤونة ، ومتى غَلَبَ الأكبر كَثـُرَ الخوف منه ، فتأصل هذا

المعنى مع ما كان رسول الله ـ ﷺ ـ ترجَّاه من ظهور دينه، وشرع الله الذي بعثه به وغلبته على الأمم، وإرادة كفار مكة أن يرميه الله بملك يستأصله ويريحهم منه .

وقيل : سرورهم انما كان بنصر رسول الله ـ ﷺ ـ على المشركين ، لأن جبريل ـ عليه السلام ـ أخبر بذلك النبي ـ ﷺ ـ يوم بدر ، حكاه القشيري .

وقلت : ويحتمل أن يكون سرورهم بالمجموع من ذلك ، فسُرُّوا بظهورهم على عدوهم ، وبظهور الروم أيضاً ، وبإنجاز وعد الله))[1] .

فعلى كل عبد متعبِّد للعزيز الحكيم ، على كل عبد يؤمن بعزة وحكمة صاحب العزة والحكمة ، وعلى كل من تتطلَّع نفسه إلى رحمة الرحيم ، أن يفرح بنصر المؤمنين ، ويسرُّه هزيمة الكفار والمشركين ، وأن يتعبَّد للعزيز الرحيم بأن ينصر المؤمنين بعزته وقوته ، وأن يرحمهم برحمته ويحفظهم من شرٍّ وكيد ، وبطش الكفار والمشركين ، وأن يُظْهر دينه ، وأن يعلي كلمته ، وأن يجعل المؤمنين هم الأعلون ، وأن يجعل الكفار والمشركين في أسفل سافلين بعزته وحكمته ورحمته.

(١) تفسير القرطبي لسورة الروم آية (٤ : ٥) (٤ / ٥ : ٦) .

رابعاً : [التعبُّد للعزيز الرحيم باتباع القرآن الحكيم]

قال تعالى : ﴿ يس ، والقرآن الحكيم ، إنك لمن المرسلين ، على صراط مستقيم ،تنزيل العزيز الرحيم ﴾(١) .

إن العبد المؤمن المتعبِّد لله ـ تعالى ـ بأسمائه الحسنى ، وصفاته العليا ، ليعلم تمام العلم أن الله عزيز ، تسمَّى بالعزيز ، ووصف نفسه بالعزة ، وهو صاحب العزة المطلقة الكاملة ، وعزته وفق حكمة يريدها ، ويُصرِّف بها شؤون خلقه ، ومع تلك العزة التي كلها قوة وقدرة فهو رحيم بعباده ، يريد منهم الإيمان ويرضاه لهم ، ولا يريد لهم الكفر ولا يرضاه لهم ، خلقهم بعزته وقدرته ، ولحكمة أرادها ، وبرحمته لم يتركهم هملاً ، ولم يجعل مآلهم إلى الفناء ، فأرسل لهم الرسل ، وأنزل إليهم الكُتُب ، ووضَّح لهم طريق الإيمان وأمرهم أن يسلكوه ، وبيَّن لهم طريق الضلال وحذَّرهم من الانزلاق فيه ، أراد لهم الخير ، وكَرِهَ لهم الشر ، وحثَّهم على الهدى والاستقامة ، وخوَّفهم من عاقبة الضلال والغواية ، وكل ذلك رحمة بهم ، فهو القادر على إهلاكهم جميعاً في صعيد واحد ، وهو القادر علي تعذيبهم في وقت واحد ، وهو القادر على ذلك كله ، ولو عذَّبهم جميعاً فما كان لهم ظالم ، فالخلق خلقه ، والملك ملكه ، والسلطان سلطانه ، قال تعالى : ﴿ من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد ﴾(٢) .

---

(١) يس (١ : ٥) .

(٢) فصلت (٤٦) .

وكما أخبر عن نفسه في الحديث القدسي نافيـاً عن نفسه الظلـم قائـلاً : ـ جلَّ في عـلاه ـ « **يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي ، وجعلته بينكم محرَّماً فلا تظالموا** »[1] .

فمن رحمة العزيز بعباده كما أسلفنا إرسـال الرسل ليهدوا الناس إلى الحق ، إلى الطريق المستقيم ، طريق العـزيز الرحيم ، وليكونـوا حجة عليـهم يوم القيـامة ، ولئلا يكون للناس على الله حـجة يُدلُوا بها يوم القـيامة كما قـال تعالى : ﴿ **رسلاً مبشـرين ومنذرين لئـلا يكون للناس على الله حـجة بعد الرسل وكان الله عـزيزاً حكيـماً** ﴾[2].

ومن عـزته أيضا وحكمـتـه ورحمـته بعـباده أنه لا يُعـذِّبهم حـتى يرسل لهم هؤلاء الرسل ليقـيموا عليهم الحـجة ، وذلك رغم العهـد الذي أخذه الله على أبناء آدم ـ عليه السلام ـ وهم في ظهور آبائهم قال تعالى : ﴿ **وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذرياتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين** ﴾[3] .

وعلى رغم هذا العـهـد الذي أخـذه الله علـى بني آدم ، وهو القـادر على أن يعذِّبهم بعزته بموجب هذا العهد ، إلاَّ أنه عزيز رحيم، فلقد أرسل لهم الرسل أيضاً، وأنزل عليهم الكتب السماوية ، ووعدهم ألاَّ يعـذبهم حتى يبعث لهم الرسل فقال ـ جلَّ شأنه ـ : ﴿ **وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً** ﴾[4].

(١) رواه مسلم كتاب (البرِّ والصلة والآداب) باب (تحريم الظلم) .
(٢) النساء (١٦٥) .
(٣) الأعراف (١٧٢) .
(٤) الإسراء (١٥) .

ومن أعظم هؤلاء الرسل ، بل وأفضلهم على الإطلاق هو نبي الله ورسوله محمد بن عبد الله - ﷺ - فهو خير من بلَّغ عن ربه ، وهو خير من دعا إلى التوحيد، وأفضل من دعا إلى عبادة الله وحده ، ونبذ الشرك وأسبابه ، وبغض أهله وأتباعه ، وأنزل الله عليه خير الكتب وأشرفها ، وأشملها وأكملها ، القرآن الحكيم، الذي يشتمل على كل حكمة ، وفيه خيري الدنيا والآخرة ، وجعل فيه الصلاح والهداية إلى طريق الله المستقيم ، وجعله هداية ونجاة ، وشرعة ومنهاجاً لعباد الله الموحِّدين المتعبِّدين لله بأسمائه الحسنى ، وصفاته العليا .

فعلى كل متعبِّد للعزيز الحكيم ، العزيز الرحيم أن يتَّبع هذا الرسول العظيم - ﷺ - وأن يتَّخذ هذا الكتاب وهذا القرآن الذي أنزله الله على هذا النبي الأمين - ﷺ - أن يتَّخذه شِرْعة ومِنْهاجاً ، وأن يجعله له إماماً وهادياً إلى صراط الله العزيز الرحيم ، وأن يُحكِّمه في كل شؤونه ، وفي كل حياته ، ولا يتحاكم إلاَّ إليه ، تعبُّدا للعزيز الرحيم ، الذي أنزل هذا القرآن بعزته ، وجعله هداية وشِرْعة ومنهاجاً لعباده رحمة بهم ، ليكون لهم هداية ونجاة ، ويكون سبباً لسعادة الدنيا والآخرة ، فسبحان الله القائل في محكم التنزيل : ﴿ **تنزيل العزيز الرحيم** ﴾[1] .

قال الشيخ السعدي - رحمه الله - :

((وهذا الصراط المستقيم « **تنزيل العزيز الرحيم** »[2] فهو الذي أنزل به كتابه، وأنزله طريقاً لعباده ، موصلاً لهم إليه . فحماه بعزته عن التغيير والتبديل ، ورحم به عباده ، رحمة اتصلت بهم حتى أوصلتهم إلى دار رحمته .

ولهذا ختم الآية بهذين الاسمين الكريمين [العزيز الرحيم]))[3] .

---

(١) يس (٥) .

(٢) يس (٥) .

(٣) تفسير السعدي لسورة يس آية (٥) ص (٦٣٩) .

خامساً : [التعبُّد للعزيز الرحيم بطلب الرحمة يوم القيامة]

قال تعالى : ﴿إن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين ، يوم لا يغني مولى عن مولى شيئاً ولا هم ينصرون ، إلاَّ من رحم الله إنه هو العزيز الرحيم﴾(١) .

إن العبد المؤمن المتعبِّد لله ـ تعالى ـ بأسمائه الحسنى ، وصفاته العليا ، يَعْبُد ربه ، ويتقرِّب إلى مولاه راجياً رحمته ، وخوفاً من عقابه وعذابه ، يطلب من خالقه ومولاه أن يرحمه برحمته التي وسعت كل شيء ، وأن ينجيه من عذابه الذي لا يمنعه أحد ، ولا يردَّه أي مخلوق ، لأن الله عزيز ، صاحب عزة وقوة مطلقة كاملة يعذِّب بها من شاء من عباده ولا يمتنع عمَّا أراده أحد ،ويرحم برحمته من شاء من عباده وهو العزيز الذي يوصل رحمته لمن أراد من خلقه ، وفق حكمة يريدها ـ جلَّ في عليائه ـ .

وخاصة يوم القيامة ، ذلك اليوم العصيب الذي تشيب فيه الرؤوس ، من هول ذلك اليوم الذي تنخلع فيه القلوب ، وترتجف فيه الأبدان ، حتى هؤلاء الأطفال الذين لم يجر عليهم القلم كما أخبر بذلك رب العزة قائلاً في محكم التنزيل : ﴿فكيف تتقون إن كفرتم يوماً يجعل الولدان شيبا﴾(٢) .

ومن هول ذلك اليوم تذهل كل مرضعة عن رضيعها ، ومن الخوف تضع كل حامل حملها بدون أن تشعر ، فإن الذي أمامها ، والذي تراه ، والذي أهمَّها أكبر مما في بطنها ، ولقد صوَّر لنا الله ـ سبحانه وتعالى ـ هذا المشهد العجيب أيَّما تصوير في كتابه العزيز قائلاً ـ جلَّ في علاه ـ : ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم إن

(١) الدخان (٤٠ : ٤٢) .

(٢) المزمل (١٧) .

زلزلة الساعة شيء عظيم ، يوم ترونها تذهل كل مرضعة عمَّا أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ﴾[1] .

ففي هذا اليوم العصيب يحتاج فيه المرء أشد الإحتياج لرحمة الرحيم ، والنجاة من عذاب وبطش العزيز صاحب القوة والقدرة ، مالك يوم الدين ، ذلك الموقف الذي لا ينفع فيه أحد أحداً ، حتى الأم لا تلتفت إلى ابنها ، والأب لا يسأل عن ابنه ، والزوج يتبرأ من زوجته ، والأخ يحاول أن يفتدى من عذاب يومئذ بأخيه ، أو حتى زوجته وأمه وأبيه ، بل يُضحِّي المجرم في هذا اليوم بعشيرته ، بل بكل أحبابه وأصدقائه ، حتى يصل الأمر أن يتمنى هذا المجرم من هول ما يرى ، ومن خوفه وهلعه أن يفتدى من هذاالعذاب ،ومن ضيق هذااليوم وشدته بمن في الأرض جميعاً ثم يكون هو من الناجين . كما أخبر بذلك رب العزة في كتابه الحكيم قائلا : ﴿ **يبصرونهم يود المجرم لو يفتدي من عذاب يومئذ ببنيه ، وصاحبته وأخيه ، وفصيلته التي تؤيه ، ومن في الأرض جميعا ثم ينجيه** ﴾[2] .

ولكن يأتي الجواب الشافي الكافي من رب العزة ـ جلَّ في علاه ـ ليقطع أماني هؤلاء المجرمين الذين أعرضوا عن الله، وعن عبادة الله، وأبوا أن يتعبَّدوا لصاحب العزة والحكمة، وأبوا إلاَّ الكفر والفسوق والعصيان، وأصرُّوا على الظلم والبطش والإفساد في الأرض، وكانوا من المجرمين. فقال تعالى مبينا جزاءهم

---

(١) الحج (١ : ٢) .

(٢) المعارج (١١ : ١٤) .

وعقابهم ﴿ كلا إنها لظى نزاعة للشوى تدعوا من أدبر وتولى، وجمع فأوعى ﴾[1].

فما أحوج هذا الإنسان الضعيف في ذلك اليوم العظيم - يوم القيامة - إلى رحمة ربه ومولاه ، وما أحوجه إلى عفو ربه وخالقه، وما أحوجه في هذا اليوم إلى نجاته من عذاب العزيز صاحب العزة والقوة في ذلك اليوم الذي لا يملك فيه أحد لأحد شيئاً ، والأمر كله فيه لصاحب العزة والحكمة للعزيز الذي يملك تعذيب من شاء من عباده وخلقه ، وإلى الحكيم الذي يتصرَّف في ذلك اليوم بحكمته وحُكْمه وإحكامه ، وإلى الرحيم الذي يرحم من شاء من خلقه ، في ذلك اليوم برحمته التي وسعت كل شيء .

فعلي كل متعبِّد للعزيز الحكيم ، الذي يملك يوم الدين ، والذي يُعذِّب من شاء في هذا اليوم العظيم بعزته وحكمته ، والذي يرحم من شاء عن عزة وقوة ووفق حكمة يريدها ويعلمها - جلَّ في علاه - ، فعلى كل متعبِّد لهذا الإله الذي هذه أسماؤه ، وتلك صفاته أن يتعبَّد له بأن يرحمه برحمته ووفق عزته وحكمته ، وأن ينجيه من عذاب هذا اليوم العظيم الذي يبطش فيه بعزته بكل من تمرَّد عليه ، وأشرك معه غيره ، ولم يُفْرده بالعبادة ، وهذا التعبُّد من هذا العبد لذلك الإله العظيم العزيز الحكيم الرحيم بطلب الرحمة يوم القيامة ، ليجعله يعمل الأعمال الصالحة التي تُقرِّبه إلى الله تعالى ويستدرُّ بها رحمة الله في الدنيا وفي الآخرة ، وكذلك ستكون خير معين - بعد مشيئة الله تعالى - على ترك المعاصي ، والحذر ممَّا حرَّم الله ، وتعظيم حرمات الله ، وخشية الله في السرِّ والعلن ، وصدق الله العظيم

---

(١) المعارج (١٥ : ١٨) .

الجليل الرحيم ، ذو الجلال والإكرام ، العزيز الرحيم القائل : ﴿ يوم لا يغنى مولى عن مولى شيئاً وهم لا ينصرون إلاَّ من رحم الله إنه هو العزيز الرحيم ﴾[١] .

قال الشيخ السعدي ـ رحمه الله ـ :

((« يوم لا ينفع مولى عن مولى شيئاً » لا قريب عن قريبه ، ولا صديق عن صديقه .

« ولا هم ينصرون » أي : يمنعون عذاب الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لأن أحدًا من الخلق لا يملك من الأمر شيئاً .

« إلا من رحم إنه هو العزيز الرحيم » فإنه هو الذي ينتفع ويرتفع برحمة الله ـ تعالى ـ التي تسبب إليها ، وسعى لها سعيها في الدنيا))[٢]

---

(١) الدخان (٤٠ : ٤٢) .

(٢) تفسير السعدي لسورة الدخان آية (٤٠ : ٤٢) ص (٧١٩) .

[المبحث الثالث]

[طلب المغفرة من العزيز الحكيم]

المطلب الأول : [المؤمنون يتعبَّدون للعزيز الحكيم بطلب المغفرة]

المطلب الثاني :[الملائكة يتعبَّدون للعزيز الحكيم بطلب المغفرة للمؤمنين] .

المطلب الثالث : [اقتران المغفرة بصفة العزة في القرآن الكريم]



[المطلب الأول]

[المؤمنون يتعبَّدون للعزيز الحكيم بطلب المغفرة]

قال تعالى على لسان عيسى - ﷺ - :﴿ **إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم** ﴾(١) .

وقال تعالى على لسان المؤمنين : ﴿ **ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا واغفر لنا ربنا إنك أنت العزيز الحكيم** ﴾(٢).

إن التعبُّد لله تعالى بأسمائه الحسنى، وصفاته العليا ، له صور عدة ، ويتجسَّد في أمور شتى ، ويُتَرْجم إلى أفعال وسلوكيات تُرى وتحسُّ ، والمسلم الحق هو الذي يستشعر دائماً عبوديته لله تعالى، ويعبده وهو مستحضر اطلاع خالقه ومولاه على كل أقواله وأعماله، فيتقرَّب إليه بالتعبُّد والتذلُّل والخضوع ، والتفويض ، والتسليم، مستعيناً في ذلك بمعرفة أسماء الله الحسنى ، وصفاته العليا ، فتكون هي زاده في هذا التعبُّد لهذا الإله ، وتكون هي وسيلته لنيل رضا مولاه ، وتكون هي عونه على تحقيق العبودية الحقة لخالق الأرض والسماوات ـ جلَّ في علاه ـ .

ومن هذه الأسماء الحسنى اسمي [العزيز الحكيم] ، وصفتي [العزة والحكمة] فيتعبَّد العبد المسلم بهذين الاسمين ، وهاتين الصفتين ، بما يقتضيان من العبودية لله ـ تعالى ـ ، ومما يقتضيان من العبودية هذه العبادة الجليلة العظيمة التي يظهر فيها تذلُّل العبد لخالقه ، وتظهر فيها معاني العبودية لله تعالى ، وتتجلَّى فيها

---

(١) المائدة (١١٨) .

(٢) الممتحنة (٥) .

خصائص الألوهية ، ويتضح فيها الفرق بين الخالق والمخلوق ، وبين الإله والعبد ، وبين العزيز الحكيم ، وبين العبد الفقير الذليل ، وتُتَرْجم فيها معالم العبودية للخالق صاحب العزة والحكمة ـ جلَّ في علاه ـ ، ألا إنها عبادة [**طلب المغفرة من العزيز الحكيم**] صاحب العزة المطلقة الكاملة ، وصاحب الحكمة التامة البالغة ، الذي يملك تلك المغفرة ، ويتحكَّم في التوبة على من شاء من عباده ، فيتوب على من أراد وفق عزة لا تُردُّ معها إرادته ، ويغفر لمن شاء من عباده بعزته فلا يسائله أحد ، ويقضي رحمة من شاء بحكمته فلا يمانعه أحد ، فله الأمر من قبل ومن بعد ، لا إله إلاَّ هو ـ جلَّ في علاه ـ وهو كما أخبرعن نفسه : ﴿ **لا يسأل عمَّا يفعل وهم يسألون** ﴾[1] .

وقال ـ جلَّ في شأنه ـ مؤكداً على أن الأمر كله له وبيده وأنه هو المتصرف : ﴿ **وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلاَّ هو وإن يمسسك بخير فهو على كل شيء قدير** ﴾[2].

وقال أيضا ـ عزَّ مِنْ قائل ـ :

﴿ **وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلاَّ هو وإن يردك بخير فلا رادَّ لفضله يصيب به من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم** ﴾[3].

فيتعبد العبد المؤمن لصاحب العزة والحكمة ـ جلَّ في علاه ـ الذي يملك أمر العباد بأن [يطلب منه المغفرة] لجميع الذنوب والسيئات ، وأن يتوب عليه ، وأن

---

(١) الأنبياء (٢٣) .
(٢) الأنعام (١٧) .
(٣) يونس (١٠٧) .

يتـجاوز عـمّا صـدر منه ، وأن يعفـو عن الآثام والزّلات ، ويطلب أيضـا المغفـرة له ولوالديه ، ولإخـوانه المسلمين ولآخـواته المسلمات ، ولمن مـات على التـوحيـد من المؤمنين والمؤمنات ، فـإنها من أعظم القـربات ، ومن أسمى العـبادات لرب الأرض والسماوات العزيز الحكيم - جلّ في علاه - .

فما أعظم حاجة العبـد المسلم إلى هذه العبادة ، وإلى طلب تلك المغفرة التي إن لم تتـداركه برحـمـة من ربه لكان من الخاسـرين كـما قـال قوم مـوسى - ﷺ - ﴿ **لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين** ﴾[1].

وها هو رسول الله نوح - ﷺ - يقرّ بهذه العزة والقدرة والحكمة ويطلب من العزيز الحكيم المغفرة والرحمة ، ويخشى على نفسه الخسران إن لم يتكرّم صاحب العـزة والحكمة بالمغـفـرة والرحمـة فقـال : ﴿ **وإلاّ تغـفـر لي وترحـمني أكن من الخاسرين** ﴾[2].

ثم بعـد ذلك يدعو هذا الرسـول الكريم - نوح ﷺ - لنفسه بالمغفرة ولوالديه ولمن دخل بيته مؤمنا، بل يستشعر أخوة الدين فيدعو لكل المؤمنين والمؤمنات فقال: ﴿ **رب اغـفـر لي ولـوالدي ولمن دخل بيـتي مـؤمناً وللمـؤمنين والمؤمنات ولا تزد الظالمين إلاّ تباراً** ﴾[3].

---

(١) الأعراف (١٤٩) .

(٢) هود (٤٧) .

(٣) نوح (٢٨) .

رسول الله عيسى - ﷺ - يتعبَّد للعزيز الحكيم بطلب المغفرة للمؤمنين :

قال تعالى عن لسان رسوله عيسى - ﷺ - ﴿ **إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم** ﴾[1].

وها هو أيضاً نبي الله ورسوله عيسى - ﷺ - يتعبَّد لله تعالى بأسمائه الحسنى، وصفاته العليا ، ويطلب من العزيز الحكيم صاحب العزة المطلقة الكاملة ، وصاحب الحكمة التامة البالغة أن يغفر لمن تاب من المؤمنين ، فهو سبحانه الذي يغفر الذنوب جميعاً كما أخبر عن نفسه في محكم التنزيل مُخْبراً عن سعة رحمته وأنه يغفر الذنوب جميعاً : ﴿ **قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم** ﴾[2].

فهو سبحانه وتعالى الذي يملك بعزته غفران الذنوب ، وتكفير السيئات ، والعفو عن الزَّلات ، لأنه العزيز الذي لا يمتنع عليه شيء ، ولا يَردُّ ما أراده أحد ، ولا يخرج عن عزته وقدرته مخلوق في السماء ولا في الأرض فله الأمر من قبل ومن بعد ، يعذِّب من شاء بعزته وحكمته ، ويغفر لمن شاء وفق عزته وحكمته، والخلق كله تحت عزته وحكمته ومشيئته كما قال - جلَّ في علاه - : ﴿ **ألم تعلم أن الله له ملك السماوات والأرض يعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء والله على كل شيء قدير** ﴾[3].

---

(١) المائدة (١١٨) .

(٢) الزمر (٥٣) .

(٣) المائدة (٤٠) .

ويُلقِّنا رسول الله عيسى - ﷺ - درساً في التعبُّد للعزيز الحكيم بطلب المغفرة، فيطلب من صاحب العزة والحكمة أن يغفر لمن تاب من المؤمنين بعزته وحكمته فقال : ﴿ وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ﴾[1]. إنه يستدرُّ عطف صاحب العزة ، ويطمع في غفران صاحب الحكمة ، فيدعوه في أدب جم - ﷺ - بأن فوض الأمر لصاحب العزة ، وكأنه يقول له يا رب أنت [العزيز] صاحب العزة والقوة والقدرة والقادر على غفران ذنوب هؤلاء المؤمنين الذين تابوا وأنابوا إليك ، وأنت العزيز إن لم تشأ المغفرة لهم أهلكتهم بقدرتك عليهم ، وأنت [الحكيم] الذي يغفر لمن شاء له المغفرة عن حكمة تعلمها ، وتمنع مغفرتك عمن شئت لعلمك بعدم أهليته لمغفرتك ، فأنت تتصرَّف في عبادك وفق عزة وحكمة لا يصل إليها ولا يعلم حقيقتها إلاَّ أنت ، إلاَّ أننا نطمع في كرمك وجودك ورحمتك بأن تغفر لعبادك المؤمنين الذين تابوا وأنابوا ، ورجعوا ، وبالإجابة جدير ، وأنت الغفار لعبادك المؤمنين ، والسعيد من فاز برحمتك ومغفرتك فأنت القائل في محكم التنزيل : ﴿ لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون ﴾[2].

فرفع رسول الله عيسى - ﷺ - أكُفَّ الضراعة إلى صاحب العزة والحكمة طالباً المغفرة للمؤمنين التائبين قائلاً : ﴿ وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ﴾[3].

---

(١) المائدة (١١٨) .
(٢) آل عمران (١٥٧) .
(٣) المائدة (١١٨) .

قال الإمام الطبري ـ رحمه الله ـ :

((« **وإن تغفر لهم** » بهدايتك إياهم إلى التوبة منها ، فتستر عليهم .

« **فإنك أنت العزيز** » في انتقامه ممن أراد الانتقام منه ، لا يقدر أحد يدفعه عنه .

« **الحكيم** » في هدايته مَنْ هَدَى مِنْ خلقه إلى التوبة ، وتوفيقه مَنْ وفَّق منهم لسبيل النجاة من العقاب))[1].

وقال الإمام القرطبي ـ رحمه الله ـ :

((روى النسائي عن أبي ذر ـ رضي الله عنه ـ قال : قام النبي ـ ﷺ ـ بآية ليلة حتى أصبح ، والآية ﴿ **إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم** ﴾[2].

واختُلِف في تأويله فقيل : قاله على وجه الاستعطاف لهم ، والرأفة بهم ، كما يُسْتعطف السيد لعبده ، ولذلك لم يقل إنهم عصوك .

وقيل : قاله على وجه التسليم لأمره ، والاستجارة من عذابه وهو يعلم أنه لا يغفر لكافر .

وقيل : الهاء والميم في « **إن تعذبهم** » لمن مات منهم على الكفر . والهاء والميم في « **وإن تغفر لهم** » لمن تاب منهم قبل الموت ، وهذا حسن .

---

(١) تفسير الطبري لسورة المائدة آية (١٨٨) [٣ / ٢١٠] .

(٢) المائدة (١١٨) .

وقيل: كان عند عيسى - ﷺ - أنهم أحدثوا معاصي، وعملوا بعده بما لم يأمرهم به، إلاَّ أنهم على عمود دينه، فقال: وإن تغفر لهم ماأحدثوا بعدي من المعاصي .

وقال : « فإنك أنت العزيز الحكيم » ولم يقل : فإنك أنت الغفور الرحيم على ما تقتضيه القصة من التسليم لأمره ، والتفويض لحكمه ، فلو قال : فإنك أنت الغفور الرحيم لأوهم الدعاء بالمغفرة لمن مات على شركه وذلك مستحيل .

فالتقدير : إن تبقهم على كفرهم حتى يموتوا وتعذبهم فإنهم عبادك .

وان تهدهم إلى توحيدك وطاعتك فتغفر لهم فإنك أنت (العزيز) الذي لا يمتنع عليك ماتريده ، (الحكيم) فيما تفعله ، تضل من تشاء ، وتهدي من تشاء ..

- **إذ تلخيصه** : إن تعذبهم فإنك أنت عزيز حكيم ، وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم في الأمرين كليهما من التعذيب والغفران ، فكان العزيز الحكيم أليق بهذا المكان لعمومه ، فإنه يجمع الشرطين))[1] .

روى الإمام مسلم - رحمه الله - في صحيحه :

عن عمرو بن العاص - رضي الله عنه - أن النبي - ﷺ - تلا قوله - عزَّ وجلَّ - في إبراهيم ﴿ **رب إنهن أضللن كثيراً من الناس فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم** ﴾[2].

وقال عيسى - عليه السلام - ﴿ **إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم** ﴾[3].

(١) تفسير القرطبي لسورة المائدة آية (١١٨) [٦ / ٢٤٣ / ٢٤٤] .
(٢) إبراهيم (٣٦) .
(٣) المائدة (١١٨) .

فرفع يديه وقال : « اللهم أمتي » وبكى ، فقال الله ـ عزَّ وجل ـ : « يا جبريل اذهب إلى محمد ـ وربك أعلم ـ فسله ما يبكيك » فأتاه جبريل عليه السلام فسأله فأخبره رسول الله ـ ﷺ ـ بما قال ـ وهو أعلم ـ فقال الله : « يا جبريل اذهب إلى محمد فقل له إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوءك »[١] .

وروي الإمام البخاري ـ رحمه الله ـ في صحيحه :

((عن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ـ ﷺ ـ قال: « إنكم محشرون، وإن ناسا يؤخذ بهم ذات الشمال ، فأقول كما قال العبد الصالح ﴿ **وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم فلمَّا توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم** ، **وأنت على كل شيء شهيد ، إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم** ﴾[٢]))[٣] .

قال الشيخ السعدي ـ رحمه الله ـ :

((« **وإن تعذبهم فإنهم عبادك** » وأنت أرحم بهم من أنفسهم، وأعلم بأحوالهم ، فلولا أنهم عباد متمردون لم تعذبهم » .

« **وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم** » أي : فمغفرتك صادرة عن تمام عزة وقدرة ، لا كمن يغفر ويعفو عن عجز وعدم قدرة))[٤] .

---

(١) رواه مسلم كتاب (الإيمان) باب (دعاء النبي ـ ﷺ ـ لأمته وبكائه شفقة عليهم) .

(٢) المائدة (١١٧ : ١١٨) .

(٣) رواه البخاري كتاب [التفسير لسورة المائدة) باب (إن تعذبهم فإنهم عبادك) .

(٤) تفسير السعدي لسورة المائدة آية (١١٨) .

[البراء من الكفار والمشركين من أسباب مغفرة العزيز الحكيم]

قال تعالى : ﴿ قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برآؤا منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده إلاَّ قول إبراهيم لأبيه لاستغفرن لك وما أملك لك من الله من شيء ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا واغفر لنا ربنا إنك أنت العزيز الحكيم ﴾[١].

إن العبد المؤمن يتعبَّد لله تعالى بأسمائه الحسنى، وصفاته العليا ، ومن ذلك التعبُّد له باسمي [العزيز الحكيم] ، وصفتي [العزة والحكمة] ، ومن هذا التعبُّد لصاحب العزة والحكمة أن يطلب العبد المؤمن من هذا الإله الذي يملك الأمر كله ، والذي بيده ملكوت السماوات والأرض ، أن يغفر له ذنوبه ، ويُكفِّر عنه سيئاته ، ويتلمَّس لذلك الأسباب الموجبة لهذا الغفران ، ويسلك كل طريق يوصله إلى مغفرة العزيز الحكيم ، ويتذلَّل بين يدي صاحب العزة والحكمة لكي يرحمه ويغفر له ذنوبه ، ويشمله برحمته التي وسعت كل شيء ، وإن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ يحث عباده المؤمنين المتعبِّدين له والمتطلِّعين لمغفرته على المسابقة في طلب المغفرة ، فقال ـ عزَّ مِنْ قائل ـ : ﴿ سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾[٢].

---

(١) الممتحنة (٤ : ٥) .
(٢) الحديد (٢١) .

وفي الآية الأخرى يحث الله تعالى على المسارعة إلى هذه المغفرة ، وإلى غفران العزيز الحكيم فقال ـ جلّ شأنه ـ : ﴿ **وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين** ﴾[1].

وإن هذه المسابقة إلى مغفرة الله ، وتلك المسارعة إلى غفران العزيز الحكيم أسباب ، ولتحقيقها مقومات ، فمن هذه الأسباب ، وتلك المقومات [البراء من الكفار والمشركين] كما أشار الله تعالى في سورة الممتحنة ـ والله أعلم بمراده ـ حينما أمر كل مؤمن ومؤمنة أن يتخذ الأسوة الحسنة ، والقدوة الصالحة من نبيه ورسوله إبراهيم ـ ﷺ ـ والذين آمنوا معه، وكيف أنهم تبرأوا من الكفار وكفرهم ، ومن المشركين وشركهم ، وأعلنوا براءتهم من كل معبود يُعْبد من دون الله تعالى ، ومِنْ عبده ، وأشركه مع الله في عبادته ، فأرشد الله تعالى عباده المؤمنين ، ووجَّه عباده المخلصين ، وحضَّ كل المتعبِّدين لرب السماوات والآراضين أن يتخذوا الأسوة الحسنة ، والقدوة الصالحة من هذا النبي ـ ﷺ ـ ومن آمن معه ، ثم يطلبوا بعد هذه العبادة ، وبعد تحقيق هذه القربة المغفرة من صاحب العزة والحكمة فهم حينئذ يكونوا قد أبدوا تذلُّلهم ، وكمال عبوديتهم لله تعالى طلباً وطمعاً في نيل مغفرته ورضوانه **وهذه الأسباب وتلك المقومات كما وردت في الآية الكريمة السابقة هي :**

١ ـ البراءة من الكفار والمشركين .

٢ ـ البراءة من كل الألهة المزعومة الباطلة من دون الله .

---

(١) آل عمران (١٣٣) .

٣ ـ الكفر بالكفار والمشركين وبمعبوداتهم .

٤ ـ معاداة الكفار والمشركين .

٥ ـ بغض الكفار والمشركين .

٦ ـ استمرار هذه المعاداة وذلك البغض حتى يؤمنون بالله وحده .

٧ ـ التوكل على الله تعالى .

٨ ـ التفويض والتسليم لله تعالى .

٩ ـ الاستعاذة بالله من فتنة الذين كفروا .

وأخيراً بعد تحقيق هذه الأسباب ، والقيام بهذه المقومات يقوم العبد المؤمن بالتعبُّد للعزيز الحكيم بطلب المغفرة ، فسبحانه واسع المغفرة ، كما أخبر عن نفسه ـ جلَّ في علاه ـ قائلاً : ﴿إن ربك واسع المغفرة ﴾[1].

قال الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله ـ :

((يقول تعالى لعباده المؤمنين الذين أمرهم بمصارمة الكافرين ، وعداوتهم ، ومجانبتهم ، والتبري منهم .

« **قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه** » . أي : وأتباعه الذين آمنوا معه .

« **إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم** » أي : أي تبرأنا منكم .

« **ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم** » أي بدينكم وطريقكم .

---

(١) النجم (٣٢) .

« وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدًا » يعني : وقد شُرِعت العداوة والبغضاء من الآن بيننا وبينكم ما دمتم على كفركم فنحن أبدًا نتبرأ منكم ونبغضكم .

« حتى تؤمنوا بالله وحده » أي : إلى أن تُوحِّدوا الله فتعبدوه وحده لا شريك له ، وتخلعوا ما تعبدون معه من الأوثان والأنداد ..

ثم قال تعالى مخبراً عن قول إبراهيم والذين معه حين فارقوا قومهم ، وتبرؤوا منهم فلجأوا إلى الله وتضرَّعوا إليه فقالوا :

﴿ ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير ﴾ أي توكلنا عليك في جميع الأمور ، وسلَّمنا أمورنا إليك ، وفوضناها إليك ، وإليك المصير : أي المعاد في الدار الآخرة .

« ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا » قال مجاهد : لا تعذبنا بأيديهم ، ولا بعذاب من عندك ، فيقولوا لو كان هؤلاء على حق ما أصابهم هذا ، وكذا قال الضحاك ، وقال قتادة : لا تُظْهرهم علينا فيفتنونا ، بذلك يرون أنهم إنما ظهروا علينا لحق هم عليه ، واختاره بن جرير ، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : لا تسلطهم علينا فيفتنونا .

وقوله تعالى : ﴿ واغفر لناربنا إنك أنت العزيز الحكيم ﴾. أي واستر ذنوبنا عن غيرك ، واعف عنها فيما بيننا وبينك .

« إنك أنت العزيز » أي الذي لا يضام من لاذ بجانبك .

« الحكيم » في أقوالك ، وأفعالك ، وشرعك ، وقدرك))[1].

---

(١) تفسيرابن كثير لسورة الممتحنة آية (٤ : ٥) [٤ / ٣٣٦] .

[المطلب الثاني]

[الملائكة يتعبَّدون للعزيز الحكيم بطلب المغفرة للمؤمنين]

قال تعالى : ﴿ الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم ، ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم ﴾[1].

إن التعبُّد لله تعالى بأسمائه الحسنى، وصفاته العليا، سمة المتقين، وشيمة الصالحين ، ودأب الأوابين ، الذين يؤمنون بيوم الدين ، والذين هم من عذاب ربهم مشفقون، والذين هم بشرع الله قائمون، والذين هم لحدود الله حافظون ، والذين هم عن الحرمات منتهون، وعن الشبهات مترفِّعون، والذين هم لكل موحِّد محبون ، ولإخوانهم في الله مستغفرون ، وبغفران ذنوب المؤمنين والمؤمنات يدعون، كما أخبر عنهم المولى في كتابه العزيز : ﴿ والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم ﴾[2].

---

(١) غافر (٧ : ٨) .

(٢) الحشر (١٠) .

[الملائكة يستغفرون للمؤمنين] :

ولم يقتصر هذاالاستغفار على المؤمنين والمؤمنات من الإنس ، ولكن أيضاً الملائكة ـ عليهم السلام ـ الذين هم عباد الله المكرمون ، هم أيضا في قافلة التوحيد، وضمن ركب الإيمان ، وهم أيضا يُحبون إخوانهم في الله من الإنس والجن ، ويستغفرون الله لهم ،ويدعون لهم بمغفرة الذنوب ، وتكفير السيئات ، والعفو عن الزَّلات ، ويتقرَّبون إلى الله تعالى بطلب المغفرة لكل المؤمنين والمؤمنات، الأحياء منهم والأموات ، موالاة منهم للمؤمنين ، وحباً منهم لكل الموحِّدين ، وتعبُّداً منهم للعزيز الحكيم ، الرؤوف الرحيم بعباده المؤمنين ، فهو أرحم بهم من أنفسهم ، ومن والديهم ، ومن كل الخلق أجمعين .

ولقد أثبت الله لنا دعاء هؤلاء الملائكة الكرام لإخوانهم في الدين ، من المؤمنين والمؤمنات ، بل وطلب الرحمة لهم ، بل وحرصهم على ألاَّ تمسَّهم النار ، وألاَّ يكونوا من أصحاب الجحيم ، كما أخبر الله عنهم في كتابه العزيز قائلا ـ عزّ مِنْ قائل ـ ﴿ **ويستغفرون للذين آمنوا ربناوسعت كل شيء رحمة وعلماً فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك ، وقهم عذاب الجحيم** ﴾[1].

ولم يقتصر دعاء الملائكة لإخوانهم في الدين والعقيدة على غفران الذنوب ، وتكفير السيئات ، والنجاة من عذاب الجحيم ، بل تمتد المولاة ويَعْظُم الحبُّ ، وتتجلَّى روح الأخوة وتبرُز معالم التوحيد ، وتفيض مشاعر الألفة ، وتسمو العقيدة

(١) غافر (٧) .

في أعلى مقاماتها ، وتتجسَّد العواطف الإيمانية ، والأحاسيس الروحانية عند هؤلاء الصفوة من خلق الله ، هؤلاء الملائكة الكرام ، الذين لم يهدأ لهم بال ، ولم يتوقَّف لهم دعاء ، ولم يفتروا عن عبادة ، حتى يروا إخوانهم في الله قد سكنوا الجنات ، وتمتعوا بالبساتين والأنهار ، وطاف عليهم الولدان المخلدون بأكواب وأباريق ، وكأس من معين ، وتمتعوا بحور العين ، وتقلَّبوا في جنات النعيم ، وأقرَّ الله أعينهم باجتماع الأهل والأولاد، والذرية ، والأحباب، في جنات ونهر عند مليك مقتدر . كما أخبر الله تعالى عن دعائهم لإخوانهم في الدين والعقيدة قائلين: ﴿ **ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم** ﴾[١] .

[الملائكة يتعبَّدون للعزيز الحكيم] :

ثم بعد ذلك يأتي تعبُّدهم لله تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العليا ، فهم يتعبَّدون [للعزيز الحكيم] بهذين الاسمين ، وهاتين الصفتين ، يستدِّرون بهما رحمة صاحب العزة والحكمة ، بأن يرحم هؤلاء العباد برحمته ، وأن يغفر لهم بقدرته وعزته ، وأن تتداركهم حكمة صاحب الحكمة فيكونوا ممَّن غُفِرَ لهم ، ووجبت لهم الجنات بعزة العزيز ، وحكمة الحكيم فقالوا : ﴿ **إنك أنت العزيز الحكيم** ﴾[٢].

---

(١) غافر (٨) .
(٢) غافر (٨) .

قال الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله ـ :

((يخبر تعالى عن الملائكة المقربين من حملة العرش الأربعة ومن حوله من الملائكة الكروبيين بأنهم يسبِّحون بحمد ربهم، أي يقرنون بين التسبيح الدال على نفي النقائص ، والتحميد المقتضي لإثبات المدح .

« يؤمنون به » أي : خاشعون له أذلاء بين يديه وأنهم :

« يستغفرون للذين آمنوا » أي : من أهل الأرض ممن آمن بالغيب ، فقيض الله ـ تعالى ـ ملائكته المقربين أن يدعوا للمؤمنين بظهر الغيب ، ولـمَّا كان هذا من سجايا الملائكة ـ عليهم الصلاة والسلام ـ كانوا يؤمِّنون على دعاء المؤمن لأخيه بظهر الغيب كما ثبت في (صحيح مسلم) : « إذا دعا المسلم لأخيه بظهر الغيب قال الملك : آمين ، ولك بمثله »[١] .

.... وهذا يقتضي أن حملة العرش ثمانية كما قال شهر بن حوشب ـ رضي الله عنه ـ حملة العرش ثمانية أربعة منهم يقولون سبحانك اللهم وبحمدك لك الحمد على حلمك بعد علمك ، وأربعة يقولون سبحانك اللهم وبحمدك على عفوك بعد قدرتك ولهذا يقولون ﴿ ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما ﴾[٢] . أي رحمتك تسع ذنوبهم وخطاياهم وعلمك محيط بجميع أعمالهم وأقوالهم وحركاتهم وسكناتهم .

﴿ فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك ﴾[٣] .

---

(١) رواه مسلم كتاب (الذكر والدعاء) باب (فضل الدعاء للمسلمين بظهر الغيب) بلفظ « من دعا لأخيه بظهر الغيب ....

(٢) غافر (٧) .

(٣) غافر (٧) .

أي فاصفح عن المسيئين إذا تابوا وأنابوا وأقلعوا عما كانوا فيه واتبعوا ما أمرتهم من فعل الخيرات وترك المنكرات .

﴿ **وقهم عذاب الجحيم** ﴾[١] أي وزحزحهم عن عذاب الجحيم وهو العذاب الموجع الأليم .

﴿ **ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم** ﴾[٢] . أي أجمع بينهم وبينهم لتقر بذلك أعينهم بالاجتماع في منازل متجاورة كما قال تبارك وتعالى .

﴿ **والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء** ﴾[٣] .

أي ساوينا بين الكل في المنزلة لتقرَّ أعينهم وما نقصنا العالي حتى يساوي الداني بل رفعنا ناقص العمل فساويناه بكثير العمل تفضُّلاً منا ومنَّه .

وقال **سعيد بن جبير** ـ رضي الله عنه ـ إن المؤمن إذا أُدْخل الجنة سأل عن أبيه وابنه وأخيه أين هم؟ فيقال إنهم لم يبلغوا طبقتك في العمل فيقول إني إنما عملت لي ولهم فيلحقون به في الدرجة ثم تلا سعيد بن جبير هذه الآية .

﴿ **ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم** ﴾[٤] .

---

(١) غافر (٧) .
(٢) غافر (٨) .
(٣) الطور (٢١) .
(٤) غافر (٨) .

قال مطرف بن عبد الله بن الشخير أنصح عباد الله للمؤمنين الملائكة ثم تلا هذه الآية ﴿ **ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم** ﴾(١) الاية .

وأغشُّ عباده للمؤمنين الشياطين .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ **إنك أنت العزيز الحكيم** ﴾(٢) أي : الذي لا يمانع ولا يغالب وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، الحكيم في أقوالك وأفعالك من شرعك وقدرك »))(٣) .

وقال الشيخ السعدي ـ رحمه الله ـ :

((يخبر تعالى عن كمال لطفه بعباده المؤمنين ، وما قيض لأسباب سعادتهم، من الأسباب الخارجة عن قدرهم ، من استغفار الملائكة المقربين لهم ، ودعائهم لهم ، بما فيه صلاح دينهم وآخرتهم . وفي ضمن ذلك ، الإخبار عن شرف حملة العرش ومن حوله ، وقربهم من ربهم ، وكثرة عبادتهم ونصحهم لعباد الله ، لعلمهم أن الله يحب ذلك منهم فقال : ﴿ **والذين يحملون العرش** ﴾(٤) .

أي عرش الرحمن الذي هو سقف المخلوقات ، وأعظمها ، وأوسعها ، وأحسنها وأقربها من الله تعالى ، الذي وسع الأرض والسموات ، والكرسي . وهؤلاء الملائكة ، قد وكَّلهم الله تعالى بحمل عرشه العظيم، فلا شك أنهم من أكبر الملائكة ، وأعظمهم ، وأقواهم .

---

(١) غافر (٨) .

(٢) غافر (٨) .

(٣) تفسير ابن كثير لسورة غافر آية (٧ : ٨) [٤ / ٧٠] .

(٤) غافر (٧) .

واختيار الله إياهم ، لحمل عرشه، وتقديمهم في الذِّكر، وقربهم منه، يدل على أنهم أفضل أجناس الملائكة عليهم السلام ، قال تعالى :

﴿ ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية ﴾[(١)] .

﴿ ومن حوله ﴾[(٢)]: من الملائكة المقربين في المنزلة والفضيلة .

﴿ يسبحون بحمد ربهم ﴾[(٣)]: هذا مدح لهم، بكثرة عبادتهم لله تعالى ، وخصوصا ، التسبيح والتحميد، وسائر العبادات، تدخل في تسبيح الله وتحميده ، لأنها تنزيه له ، عن كون العبد يصرفها لغيره ،وحمد له تعالى ، بل الحمد هو العبادة لله تعالى . وأما قول العبد : « سبحانه الله وبحمده » فهو داخل في ذلك وهو من جملة العبادات .

﴿ ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ﴾[(٤)] وهذا من جملة فوائد الإيمان وفضائله الكثيرة جداً ، أن الملائكة الذين يؤمنون بالله ، ولا ذنوب عليهم ، يستغفرون لأهل الإيمان ، فالمؤمن بإيمانه تسبب لهذا الفضل العظيم ولما كانت المغفرة ، لها لوازم ، لا تتم إلا بها غير ما يتبادر إلى كثير من الأذهان ، أن سؤالها وطلبها ، غايته مجرد مغفرة الذنوب ذكر تعالى صفة دعائهم لهم بالمغفرة بذكر ما لا تتم إلا به فقال :

---

(١) الحاقة (١٨) .

(٢) غافر (٧) .

(٣) غافر (٧) .

(٤) غافر (٧) .

﴿ ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما ﴾[١] فعلمك قد أحاط بكل شيء لا يخفى عليك منه خافية ، ولا يعزب عن علمك مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ، ولا أكبر ، ورحمتك وسعت كل شيء فالكون علويه وسفليه قد امتلأ برحمة الله تعالى ، ووسعتهم ، ووصل إلى ما وصل إليه خلقه ﴿ فاغفر للذين تابوا ﴾[٢]: من الشرك والمعاصي .

﴿ واتبعوا سبيلك ﴾[٣] باتباع رسلك بتوحيدك وطاعتك .

﴿ وقهم عذاب الجحيم ﴾[٤] أي : قهم العذاب نفسه وقهم أسباب العذاب .

﴿ ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ﴾[٥] : أي على ألسنة رسلك .

﴿ ومن صلح ﴾[٦] أي : صلح بالإيمان ، والعمل الصالح .

﴿ من آبائهم وأزواجهم ﴾[٧] زوجاتهم وأزواجهن وأصحابهم ، ورفقائهم وذرياتهم .

---

(١) غافر (٧) .
(٢) غافر (٧) .
(٣) غافر (٧) .
(٤) غافر (٧) .
(٥) غافر (٨) .
(٦) غافر (٨) .
(٧) غافر (٨) .

﴿ إنك أنت العزيز ﴾[١] : القاهر لكل شيء ، فبعزتك تغفر ذنوبهم ، وتكشف عنهم المحذور ، وتوصلهم بها إلى كل خير .

﴿ الحكيم ﴾[٢]: الذي يضع الأشياء مواضعها ، فلا نسألك ، يا ربنا ، أمراً تقتضي حكمتك خلافه بل من حكمتك ، التي أخبرت بها على ألسنة رسلك ، واقتضاها فضلك المغفرة للمؤمنين))[٣].

وهكذا كان تَعبُّد الملائكة الكرام [للعزيز الحكيم] بطلب المغفرة من صاحب العزة والحكمة للمؤمنين والمؤمنات، ولكل من تاب وأناب واتبع سبيل الله، وسلك الصراط المستقيم ، وكيف أنهم بدعائهم للمؤمنين بالمغفرة قد حقّقوا ولاءهم لإخوانهم في الدين والعقيدة ، وحقَّقوا عبوديتهم لله تعالى ، واعترفوا وأقروا بعزة وحكمة العزيز الحكيم ، وكيف لا وهم عباد الله المكرمون ، ومِنْ خير خلق الله معرفة لله تعالى بأسمائه الحسنى ، وصفاته العليا ، فعلى كل مسلم ومؤمن ومتعبِّد للعزيز الحكيم أن يقتدى بهم ، ويتعبَّد لصاحب العزة ، والحكمة بطلب المغفرة له ولإخوانه المؤمنين وللمؤمنات ، الأحياء منهم والأموات ، كما أخبر الله عن صفات المؤمنين السائرين على درب الإيمان ، والمتعبِّدين لرب الأرض والسماء قائلا : ﴿ **والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان** ﴾[٤] .

---

(١) غافر (٨) .
(٢) غافر (٨) .
(٣) تفسير السعدي لسورة غافر آية (٧ : ٨) ص (٦٧٨) .
(٤) الحشر (١٠) .

فشرف لكل عبد مؤمن ، يؤمن بالله ـ تعالى ـ رباً ، ويعلن عن عبوديته لله صاحب العزة والحكمة ، فيطلب منه الرحمة والمغفرة ، اعترافاً منه بالخطأ والنقص والتقصير ، وإذعاناً للعزيز الحكيم ، وتذلّلاً لمن بيده مغفرة الذنوب، والعفو عن المخطئين ، وخوفاً من بطش وانتقام العزيز الذي يقول للشيء كن فيكون ، فإنها أعلى مقامات العبودية للعزيز الحكيم ـ جلَّ في علاه ـ حيث يكون العبد بين رجاء مغفرة ذنوبه ، وخوفه من عذاب مولاه ، وفي الوقت نفسه يتذكَّر هذا العبد إخواناً له في الدين والعقيدة فيدعو ربه ومولاه، ويتعبَّد لصاحب العزَّة بطلب المغفرة لهم . راجياً من الله أن يجمعه بهم في دار الكرامة ، وفي مستقر رحمته .

[المطلب الثالث]

[اقتران المغفرة بصفة العزة في القرآن الكريم]

((قال تعالى: ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور ﴾(١).

- وقال تعالى : ﴿ ويا قوم ما لي أدعوكم إلى النجاة وتدعونني إلى النار ، تدعونني لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لي به علم وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار ﴾(٢).

- وقال تعالى : ﴿ قل إنما أنا منذر وما من إله إلاَّ الله الواحد القهار ، رب السماوات والأرض وما بينهما العزيز الغفار ﴾(٣) .

- وقال تعالى : ﴿ الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً وهو العزيز الغفور ﴾(٤) .

- وقال تعالى : ﴿ خلق السماوات والأرض بالحق يكور الليل على النهار ، ويكور النهار على الليل وسخَّر الشمس والقمر كلٌّ يجري لأجل مسمى ألا هو العزيز الغفار ﴾(٥) .

إن المتعبِّد لله تعالى بأسمائه الحسنى ، وصفاته العليا ، حينما يتتبع آيات القرآن الكريم ، وحينما ينظر في الآيات التي ذُكِرت فيها [المغفرة] يجد هناك في

---

(١) فاطر (٢٨) .
(٢) غافر (٤١ : ٤٢) .
(٣) ص (٦٥ : ٦٦).
(٤) الملك (٢) .
(٥) الزمر (٥) .

كثير من الآيات إرتباطاً بين مغفرة الله لعباده المؤمنين وصفة [العزة] ، وأن هذا الارتباط تعدَّد في مواطن كثيرة ، وفي مناسبات مختلفة ، مما يوحي للعبد المسلم بأهمية الربط بين غفران الله تعالى لعباده ، وبين التعبُّد له باسم [العزيز] ، وصفة [العزة] ، وهذا من فقه التعبُّد له ـ جلَّ في علاه ـ بأسمائه الحسنى ، وصفاته العليا ، فلكل اسم ، ولكل صفة من العبادات التي تناسب كل اسم، والتي تليق بكل صفة، وهذا هو فقه التعبُّد لله ـ تعالى ـ بأسمائه وصفاته ، وتؤخذ هذه العبادات التي تناسب كل اسم وصفة من كتاب الله تعالى ، وذلك من خلال التدبُّر في الآيات القرآنية ، ومن خلال التعرُّف على أسماء الله وصفاته في ثنايا الآيات ، ومواضع ذكر كل اسم وصفة ، ومناسبات ذكر كل اسم في مكانه ، وذكر كل صفة في موضعها، وعلاقة ختم الآيات القرآنية بذكر بعض الأسماء والصفات ، ومدى ارتباط بعض الأسماء والصفات بالذكر في كثير من المواضع ، ومن هنا يأتي فهم معاني الأسماء والصفات ، ومقتضى كل اسم وصفة ، وما يتضمنَّه كل اسم وكل صفة من عبوديات خاصة تناسب الاسم المذكور أو الصفة المشار إليه ، وهذا مانسميه [فقه التعبُّد لله تعالى بأسمائه الحسنى، وصفاته العليا] ، وذلك مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها ﴾[1] . أي فاعبدوه بهذه الأسماء ، وتلك الصفات ، وما الدعاء إلاَّ نوع من أنواع العبادة ، بل هو العبادة في أعلى مقاماتها ، وأسمى صورها ، وأشرف حالاتها ، وأرقى معانيها . وهوعنوان تذلُّل العبد لخالقه ، وهو برهان العبودية الحقة التي تتجلَّى فيها ألوهية وعظمة الخالق ، وافتقار العبد لخالقه ومولاه .

---

(١) الأعراف (١٨٠) .

ـ ونجد هنا في هذه الآيات التي بين أيدينا مدى ارتباط ذكر مغفرة الله ـ تعالى لعباده المؤمنين [بصفة العزة] التي هي من صفات الله ـ تعالى ـ فله العزة المطلقة الكاملة ، التي بها يفعل ما يشاء ، ويقضي ما يشاء ، ويرحم من يشاء ، ويغفر لمن يشاء ، فهو على كل شيء قدير ، ويفعل ما يريد ، ولا غالب له ، ولا رادَّ لقضائه ، ولا معقِّب لحكمه ، ولا مُكْرِه له ، فغفرانه يُسْعد به من شاء من عباده ، ويتفضل به بعزته وقدرته على من اختار من عباده ، فسبحانه هو العزيز الغفور .

ـ ولغفران الذنوب أسباب ينبغي على العبد المسلم التعرُّض لها لكي يفوز بهذه المغفرة ، ولكي يستدُّر بها غفران صاحب العزَّة والحكمة، العزيز الحكيم غفَّار الذنوب وستَّار العيوب ، ومن هذه الأسباب ما يلي :

١ ـ طلب العلم .

٢ ـ توحيد الله ـ تعالى ـ .

٣ ـ الدعوة إلى التوحيد .

٤ ـ العمل الحسن .

٥ ـ التوبة والإنابة .

ونلقي الضوء على هذه الأسباب التي يُطْلب بها مغفرة [العزيز الغفَّار] عسى الله أن ينفع بها ، وتكون مصباحاً يضئ الطريق لكل من أراد مغفرة ذنوبه ، وطمع في غفران العزيز الغفار والله المستعان :

أولاً : [طلب العلم من أسباب مغفرة العزيز الغفور] :

ـ قال تعالى: ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور﴾(١) .

إن العبد المؤمن المتعبِّد لله تعالى بأسمائه الحسنى ، وصفاته العليا ، والتي منها اسم [العزيز] وصفة [العزة] يعلم علم اليقين بأن إلاهه صاحب عزة كاملة مطلقة ، ويفعل ما يشاء عن عزة وقوة ، ويقول للشيء كن فيكون ، ولا يمتنع أحد عن شيء أراده ـ جلَّ في علاه ـ ، ولا يَردُّ أحد أمراً هو آمره ، ولا يخرج عن عزته وقوته وإرادته أحد من خلقه ، فيرحم من شاء ، ويغفر لمن شاء ، ويعذِّب من شاء ، ويعزُّ من شاء ، ويذلُّ من شاء ، ويهب الملك لمن شاء ، وينزع الملك ممن شاء ، بيده ملكوت السموات والأرض ، وكل ذلك عن عزة ، وقوة ، وقدرة ، وهيمنة ، لصاحب العزة ـ جلَّ في عليائه ـ يصرِّف بها شؤون خلقه .

ـ ومن خصائص هذا الإله [العزيز] أنه هو وحده الذي يملك مغفرة ذنوب عباده ، وهو وحده الذي يملك العفو عن زلاَّتهم ، والتكفير عن سيئاتهم ، وذلك عن عزة وليس عن عجز ـ حاشا لله تعالى ـ فإنه يغفر ذنوب عباده رحمة منه بهم ، ولم تزده عزته وقدرته على تعذيب من شاء من عباده إلاَّ رحمة بهم ، فيغفر لهم ذنوبهم ، وهو القادر بعزته أن يُعاجل المذنبين منهم بعقوبته ، وبطشه بمن تجرأ على معصيته ،وتنكيله بمن خرج عن طاعته ، ولكنه يمهل عباده ليتوبوا ، ويمنحهم الفرصة ليرجعوا إليه ، ويفتح لهم أبواب الرحمة لينيبوا إليه ، ويُهيء لهم أسباب

---

(١) فاطر (٢٨) .

المغفرة ليغفر لهم ، وذلك رغم عزته وقدرته على أخذهم أخذ عزيز مقتدر فور عصيانهم ، ووقت تمرُّدهم ، وحين خروجهم عن أمره ، وأثناء ممارستهم الخطيئة ، ورغم ذلك كله يَحلُم عليهم ، ويمهل لهم، ويؤخّرهم لأجل مسمى، ويُهيء لهم أسباب الرجوع إليه ، ويفرح بتوبتهم ، ويتفضَّل عليهم بمغفرة ذنوبهم، والعفو عن زلاتهم ، وتكفير سيئاتهم ، ويباهي بهم ملائكته، حُبّاً منه لطاعتهم له ، ورضاً منه لإيمانهم به ، ورجوعهم إليه ، فيتفضَّل عليهم بالمغفرة، وهو الغني عنهم وعن طاعتهم ، وهم أحوج ما يكونوا لمغفرته وعفوه وتوفيقه لهم للتوبة، والعودة إلى طاعته ، والإنابة إليه .

ـ فعلى العبد المؤمن المتعبِّد لربه ومولاه [العزيز] أن يطلب منه [المغفرة] وأن يسأله غفران الذنوب ، ويتوسَّل إليه بطلب العفو عن خطاياه، وتكفير سيئاته ، فهو سبحانه وتعالى الذي يملك العفو والمغفرة بعزته وقدرته، وهو القادر على أن يوفِّق عبده إلى أسباب المغفرة ليفوز بمغفرة العزيز ، الذي يغفر ويرحم رغم عزته ، والذي يعدل عن تعذيب بعض عباده رغم عزته وقدرته على تعذيبهم وإهلاكهم .

قال تعالى : ﴿ **قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض انظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون** ﴾[1] .

ـ فمن هنا وجب على العبد المتعبِّد [للعزيز] أن يتلمَّس أسباب المغفرة ، وأن يتعرَّض لموجبات غفران الذنوب ، وأن يُري صاحب العزة منه تذللاً ، وأن يُظْهر

(١) الأنعام (٦٥) .

فقره وعَوَزَه لمغفرة العزيز الغفار ، حتى يتفضَّل العزيز عليه بالمغفرة ، ويُحلَّ عليه رضوانه ، وينجيه من عذابه، ومن أهم هذه الأسباب التي توصل إلى مغفرة العزيز ، وتجلب ـ بمشيئة الله ـ غفران الذنوب ، وعفو العزيز الغفار [طلب العلم] .

فإن العبد المسلم كلَّمَا كان على علم بالله، وكلَّما ازداد تعرُّفاً على خالقه ومولاه ، وكلَّما تعرَّف على الله بأسمائه الحسنى، وصفاته العليا ، كان من أعبد عباد الله لله ، وكان من أتقى خلق الله، وكان من أخشى العباد لله ـ جلَّ في علاه ـ فإن أخشى العباد لله وأتقاهم له هو أعلمهم بالله ، وأعلمهم بأسمائه وصفاته ، وأفقهم بكيفية التعبُّد لله تعالى بهذه الأسماء الحسنى ، وتلك الصفات العليا ، ولذلك قال تعالى ـ وهو أعلم بمراده ـ مادحاً العلماء في كتابه العزيز قائلاً : ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾[1].

ثم ختم الله تعالى الآية بقوله ـ عزَّ من قائل ـ ﴿ إن الله عزيز غفور ﴾[2] وكأن في ذلك إشارة من الله تعالى إلى أن الذين يخشونه عن طريق طلب العلم ، والتعرُّف على الله تعالى بأسمائه الحسنى ، وصفاته العليا ، هؤلاء هم الذين يتعبَّدون للعزيز ، ويطلبون مغفرة الغفور ، الذي يملك بعزته أن يغفر لمن شاء ولايمنع مغفرته عن عباده أحد، وهو الذي يملك بما اتصف به من صفة (المغفرة) أن يغفر لمن شاء من خلقه ، وفق عزةٍ وحكمةٍ من العزيز الغفور ـ جلَّ في علا ـ ، وهنا نرى الترابط بين حصول الخشية وطلب العلم ، والفوز بالمغفرة ، فكلَّما ازداد العبد في

(١) فاطر (٢٨) .

(٢) فاطر (٢٨) .

طلب العلم وزاد علمه زادت خشيته لله تعالى ، وكان على أبواب مغفرة العزيز الغفور .

- ونلمح هذا الترابط أيضا في قول الرسول - ﷺ - في الحديث الصحيح :

روى الإمام البخاري - رحمه الله - في صحيحيه :

((قالت عائشة - رضي الله عنها - صنع النبي - ﷺ - شيئاً فرخَّص فيه ،فتنزَّه عنه قوم ، فبلغ ذلك النبي - ﷺ - فخطب فحمد الله ثم قال : « **ما بال أقوام يتنزَّهون عن الشيء أصنعه ، فوالله إني لأعلمهم بالله ،وأشدُّهم له خشية**))[١] .

قال الحافظ ابن حجر - رحمه الله - :

((جمع بين القوة العلمية والقوة العملية، أي أنهم توهَّموا أن رغبتهم عمَّا أفعل أقرب لهم عند الله وليس كذلك، إذ هو أعلمهم بالقرُبة، وأولاهم بالعمل بها))[٢] .

وفي رواية الإمام مسلم - رحمه الله - :

((.............. **مابال رجال بلغهم عن أمر ترخصت فيه ، فكرهوه وتنزَّهوا عنه ، فو الله لأنا أعلمهم بالله ، وأشدهم له خشية**))[٣] .

---

(١) رواه البخاري كتاب (الأدب) باب (من لم يواجه الناس بالعتاب) .

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني [١٠ / ٥٣٠] .

(٣) رواه مسلم كتاب (الفضائل) باب (علمه - ﷺ - بالله وشدة خشيته) .

قال الإمام النووي ـ رحمه الله ـ :

((وفيه : أن القرُب إلى الله تعالى سبب لزيادة العلم به وشدة خشيته .... وليس كما توهَّموا ، بل أنا أعلمهم بالله ، وأشدهم له خشية ، وإنما يكون القرب إليه ـ سبحانه وتعالى ـ والخشية له على حسب ما أمر ، لا بمخيلات النفوس ، وتكلف أعمال لم يأمر بها والله أعلم))(١) .

قال العلامة ابن القيم ـ رحمه الله ـ :

((وقد قال تعالى : ﴿ **إنما يخشى الله من عباده العلماء** ﴾(٢) .

فكلَّما كان العبد بالله أعلم كان له أخوف . قال ابن مسعود : وكفى بخشية الله علماً .

ـ ونقصان الخوف من الله إنما هو لنقصان معرفة العبد به ، فأعْرَفُ الناس أخشاهم لله ، ومن عرف الله اشتدَّ حياؤه منه وخوفه له وحبه له ، وكلَّما ازداد معرفة ازداد حياءً وخوفاً وحُبّاً ، فالخوف من أجلِّ منازل الطريق ، وخوف الخاصة أعظم من خوف العامة ، وهم إليه أحوج ، وهو بهم أليق، ولهم ألزم »(٣) .

وهكذا فإن العبد المؤمن المتعبِّد لله تعالى بأسمائه الحسنى ، وصفاته العليا ، كلَّما ازداد علمه بالله زادت خشيته له ، وعلم مدى قدرة وعزة الله في الانتقام من

---

(١) شرح صحيح مسلم لإمام النووي [١٥ / ١٠٦] .

(٢) فاطر (٢٨) .

(٣) (طريق الهجرتين وباب السعادتين) للعلامة ابن القيم الجوزية ص (٥١١) .

العصاة ، ومدى بطشه بمن خرج عن طاعته ، وتمرَّد على أوامره ، ووقع فيما نهى عنه ، فيؤدي ذلك العلم، وتلك الخشية بالعبد إلى الحذر من الوقوع في معصية العزيز ، والحرص على التوبة حتى ينجوا من عقاب وبطش صاحب العزة ، وطلباً للمغفرة من العزيز الغفور الذي يملك أن يعذب من شاء بعزته وحكمته ، ويملك أن يغفر أيضا لمن شاء أن يغفر له عن عزة ، لا عن استحقاق للعبد ، ولا مُكْره لله على تلك المغفرة ، فعلم العبد بحقيقة أسماء الله وصفاته ، تجعله أكثرخشية وتعبُّداً لله ، وأحرص على التوبة ، ومتطلِّعا إلى المغفرة .

وبناءً على هذا يكون طالب العلم الذي يطلب العلم الشرعي ـ والذي في مقدمته العلم بالله تعالى وبأسمائه وصفاته ـ حتى يكون عالماً بالله حق العلم ، هو في الحقيقة متعبِّد لله تعالى بأسمائه وصفاته ، وهو ساعٍ لتحصيل الخشية ، وطالب للمغفرة ، وطامع في الجنة ، وفارٌ من النار . وهكذا يكون التعبُّد للعزيز بالخوف من عقوبته وبطشه بفعل الطاعات ، وترك المعاصي ، وكذلك بطلب المغفرة منه فهو عزيز ذو عزة ، وهو أيضا غفور ذو مغفرة ويجب أن يتعبَّده خلقه بهذه الأسماء ، وتلك الصفات ، لينالوا كرم وعطاء ورحمة وغفران ذلك الإله العظيم صاحب العزة والمغفرة .

قال العلامة ابن القيم ـ رحمه الله ـ :

((ومنها أنه سبحانه له الأسماء الحسنى ، ولكل اسم من أسمائه أثر من الآثار في الخلق والأمر لا بد من ترتبه عليه كترتب المرزوق على الرازق ، وترتب المرحوم وأسباب الرحمة على الراحم ، وترتب المرئيات والمسموعات على السميع البصير ، ونظائر ذلك في جميع الأسماء .

فلو لم يكن في عباده من يخطىء ويذنب ليتوب عليه ويغفر له، ويعفو عنه ، لم يظهر أثر أسماء الغفور والعفو والحليم والتوَّاب ...

ـ فتأمل ظهور هذين الاسمين : اسم الرازق واسم الغفار في الخليقة ، ترى ما يعجب العقول ، وتأمل آثارها حق التأمل في أعظم مجامع الخليقة ، وانظر كيف وسعهم رزقه ومغفرته ، ولولا ذلك لما كان له من قيام أصلاً ، فلكل منهم نصيب من الرزق والمغفرة ، فإما متصلاً بنشأته الثانية ، وإما مختصاً بهذه النشأة))(١) .

وسبحان الله العظيم القائل في محكم التنزيل ﴿ **إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز حكيم** ﴾(٢) .

ليبين الطريق لكل المتعبِّدين لجلاله بأسمائه الحسنى ، وصفاته العليا بطلب المغفرة مستعينين على ذلك ـ بعد مشيئة الله ـ بطلب العلم ، الذي يعينهم على هذا التعبُّد للعزيز الغفور صاحب العزة والمغفرة ـ جلَّ في علاه ـ .

قال الإمام القرطبي ـ رحمه الله ـ :

((يعني بالعلماء الذين يخافون قدرته، فمن علم أنه ـ عزَّ وجل ـ قدير أيقن بمعاقبته على المعصية ، كما روى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : ﴿ **إنما يخشى الله من عباده العلماء** ﴾(٣) قال : الذين علموا أن الله على كل شيء قدير.

(١) (مفتاح دار السعادة) للعلامة ابن القيم الجوزية [١ / ٣٢٥] .
(٢) فاطر (٢٨) .
(٣) فاطر (٢٨) .

- **وقال الربيع بن أنس** : من لم يخشى الله تعالى فليس بعالم .

- **وقال مجاهد** : إنما العالم من خشى الله - عزَّ وجلَّ - .

- **وعن ابن مسعود** : كفى بخشية الله تعالى علماً وبالاغترار جهلاً .

- **وقيل لسعد بن إبراهيم** : من أفقه أهل المدينة ؟ قال أتقاهم لربه - عزَّ وجلَّ - .

- **وعن مجاهد قال** : إنما الفقيه من يخاف الله - عزَّ وجلَّ - .

- **وعن علي - رضي الله عنه قال** : إن الفقيه حق الفقيه من لم يُقنِّط الناس من رحمة الله ولم يُرخِّص لهم في معاصي الله تعالى ، ولم يؤمِّنهم من عذاب الله، ولم يدع القرآن رغبة عنه إلى غيره ، إنه لا خير في عبادة لا علم فيها ، ولا علم لا فقه فيه ولا قراءة لا تدبر فيها .

- **وأسْنَد الدارميُّ** أبو محمد عن مكحول قال : قال رسول الله - ﷺ - :

« إن فضل العالم على العابد كفضلى على أدناكم - ثم تلا هذه الآية ﴿ **إنما يخشى الله من عباده العلماء** ﴾[1] .

إن الله وملائكته وأهل سمواته وأهل أرضيه والنون[2] في البحر يُصلُّون على الذين يُعلِّمون الناس الخير)) [الخبر مرسل] .

---

(١) فاطر (٢٨) .

(٢) النون : المقصود به الحوت .

- وعن كعب قال : ((إني لأجد نعت قوم يتعلَّمون لغير العمل ويتفقَّهون لغيرالعبادة، ويطلبون الدنيا بعمل الآخرة ، ويلبسون جلود الضأن ، قلوبهم أمرُّ من الصبر ، فبي يغترون ، وإياي يخادعون ، فبي حلفْتُ لأتيحنَّ لهم فتنة تذر الحليم فيهم حيران[1] .

﴿ إن الله عزيز غفور ﴾[2].

تعليل لوجوب الخشية لدلالته على عقوبة العصاة وقهرهم ، وإثابة أهل الطاعة والعفو عنهم ، والمُعاقِب والمثيب حقه أن يُخْشَى »[3]

---

(١) قال الإمام القرطبي أخرجه الترمذي مرفوعاً من حديث أبي الدرداء . وقد كتبناه في مقدمة الكتاب [١٤/٢٢٠] .

(٢) فاطر (٢٨) .

(٣) تفسير القرطبي لسورة فاطر آية (٢٨) [١٤ / ٢١٩ : ٢٢٠] .

ثانياً : [توحيد الله من أسباب مغفرة العزيز الغفار] :

- قال تعالى على لسان مؤمن آل فرعون : ﴿ **يا قومي مالي أدعوكم إلى النجاة وتدعونني إلى النار تدعونني لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لي به علم وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار** ﴾[1] .

إن التعبُّد لله - تعالى - بأسمائه الحسنى، وصفاته العليا ، وخاصة اسم [العزيز] وصفة [العزة] يجعل العبد على ثقة في مدى عزة وقدرة الله تعالى في فعل كل ما يشاء ، ويجعله دائماً يضع نصب عينيه أن هذا الإله العزيز صاحب العزة الكاملة المطلقة إذا أراد شيئاً فإنما يقول له كن فيكون ، مما يجعل العبد المؤمن يطمع في رحمة ربه ، ومغفرة ذنوبه ، فيتعبَّد لهذا الإله العزيز صاحب العزة التي لا تُرام [بأن يطلب منه مغفرة ذنوبه] ، ويتخذ لتحقيق هذا المطلب من العبادات التي تكون له شفيعاً عند ربه ، وتكون سبباً في مغفرة العزيز الغفور الذي يغفر لعباده المتعبِّدين له عن عزة وقوة ، فيصيب من شاء من عباده برحمته ومغفرته ، وذلك بعزته وكرمه وفضله ، ويَحْرِم من شاء منهم من رحمته ومغفرته بعزته وعدله وحكمته ، فلا معقِّب لحكمه ولا رادَّ لقضائه .

قال تعالى : ﴿ **ولله ملك السماوات والأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء وكان الله غفوراً رحيماً** ﴾[2] .

- ومن العبادات التي يُقدِّمها العبد المتعبِّد للعزيز الغفار بين يديه وهو يطلب مغفرة صاحب العزة [توحيد الله] ، فإن توحيد الله تعالى أكبر سبب لمغفرة

---

(١) غافر (٤١ : ٤٢) .

(٢) الفتح (١٤) .

صاحب العزة لعباده الذين أقروا له بالوحدانية ، وأفردوه بالعبادة ، وكفروا بالآلهة المزعومة ، وتبرؤوا من كل شريك يُدْعي مع الله تعالى، وتمسَّكوا بالتوحيد ، وعضُّوا على عقيدتهم الصحيحة الصافية بالنواجذ ، وحفظوها من كل ما يُكدِّر نقاءها ، أو يُعكِّر صفوها ، فإن أحب الأعمال إلى الله ما كانت على التوحيد ، وأقرب القربات من العبد لربه أن يوحِّده ، ويفرده بالعبادة ، التي هي الغاية التي من أجلها خلق الله الجن والإنس كما قال تعالى في محكم التنزيل ﴿ **وما خلقت الجن والإنس إلاَّ ليعبدون** ﴾[1] أي ليوحِّدوا الله ويفردوه بالعبادة .

فأفضل عبادة يتقرَّب بها العبد المتعبِّد لصاحب العزة العزيز الغفور ، ويطلب بها مغفرة الذنوب ، ويطمع بها في غفران من بيده مغفرة ذنوب عباده عن عزة وقدرة وحكمة ، ألا إنها عبادة [**توحيد الله تعالى**] بأنواع التوحيد، من :

١ - **توحيد الربوبية** : بإفراده سبحانه وتعالى بجميع أفعاله من [الخلق - الرزق - الأحياء - الإماتة - البعث - النشور ....] .

٢ - **توحيد الإلوهية** : وذلك بإفراد الله تعالى بجميع أنواع العبادات من [الصلاة - الخشية - الإنابة - السجود - الدعاء - الخشوع - الخشية - الإنابة - التوكل - الاستعاذة - الاستغاثة .....] .

٣ - **توحيد الأسماء والصفات** : وذلك بإفراده - سبحانه وتعالى - بأسمائه الحسنى ، وصفاته العليا ، وألاَّ يُسمَّى الله ولا يوصف إلاَّ بما سمَّى ووصف

---

(١) الذاريات (٥٦) .

به نفسه في كتابه العزيز ، أو بما سمّاه ووصفه به رسوله ـ ﷺ ـ فهو المتصف بكل صفات الكمال، والجمال ، والعظمة، والإجلال ، والإكبار ، وهو المُنزَّه عن كل صفات النقص والعيب والقصور ـ جلَّ في علاه ـ.

ـ فهذا هو التوحيد أعظم عبادة يتقرَّب بها العبد المسلم المتعبِّد لخالقه ومولاه، ويطمع بها في مغفرة ذنوبه ، وعفو ربه ، ورحمة وغفران العزيز الغفور الذي يمنُّ بفضله وإحسانه على عباده الموحدين بغفران ذنوبهم بعزته ومغفرته وحكمته ومشيئته .

ثالثاً: [مؤمن آل فرعون يدعو إلى توحيد العزيز الغفار]:

قال تعالى على لسان مؤمن آل فرعون: ﴿ ويا قومي ما لي أدعوكم إلى النجاة وتدعونني إلى النار، تدعونني لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لي به علم وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار ﴾(1).

وها هو مؤمن آل فرعون يدعو قومه إلى توحيد الله تعالى حيث النجاة، وحيث الأمان، وحيث الجنة، وحيث الفرار من النار، وذلك رغم عنادهم ودعوتهم له إلى أن يكفر بالله ـ تعالى ـ ويشرك به ما ليس له به علم، يدعونه إلى النار ـ والعياذ بالله ـ، ويريدون حرمانه من الجنة، ولكن مع حرصهم على إضلاله وإخراجه من دينه، وثنيه عن التوحيد، وإفساد عقيدته، مع هذا كله كان هو أحرص منهم علي دينه، وأحب منهم لعقيدته، وأخلص منهم لدعوته، فأخذ يدعوهم إلى توحيد الله ونبذ الشرك، والإقلاع عن الكفر، وذلك لكي يغفر لهم ما سلف من ذنوبهم، ويكفِّر عنهم سيئاتهم، وينجوا من النار، ويفوزوا بالجنان، وذلك بعزة ذلك الإله العزيز صاحب العزة المطلقة الكاملة، الذي يفعل ما يشاء، ويغفر لمن يشاء، ويُنجِّي من يشاء، ويُهْلك من يشاء، فهوصاحب عزة لا تُرام، وصاحب مغفرة لا تُردُّ عمن شاء غفران ذنوبه، فسبحانه لا يسأل مع عزته عن شيء، وسائر خلقه جميعاً يُسألون.

ولذلك أشار هذا الرجل المؤمن [مؤمن آل فرعون] إلى هذه الحقيقة، وإلى هذا المعتقد، وإلى هذه السُّنة الإلهية، وهي أن من تعبَّد لله تعالى بتوحيده، ونبذ الشرك، وترك الكفر، فإن العزيز الغفور يغفر له ذنوبه بعزته ومغفرته، فقد تكفَّل

---

(1) غافر (٤١ : ٤٢).

صاحب العزة الغفور الرحيم بغفران الذنوب ، وتكفيرها لأصحاب التوحيد ، ولذلك لما تبرأ مؤمن آل فرعون مما يدعو إليه قومه من الكفر والشرك ، وأمرهم ودعاهم إلى توحيد الله تعالى ، وأرشدهم أن هذا الإله من صفاته أنه عزيز ، ووعد بعزته وقدرته بمغفرة ذنوب من وحَّده ، ولم يشرك به شيئاً فقال كما أثبت ذلك الله في كتابه العزيز على لسان ذلك الرجل المؤمن : ﴿ **وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار** ﴾[1].

قال الإمام الطبري - رحمه الله - :

((يقول تعالى ذكره مخبراً عن قيل هذا المؤمن لقومه من الكفرة :

- « **ما لي أدعوكم إلى النجاة** » من عذاب الله وعقوبته بالإيمان به ، واتباع رسوله موسى - ﷺ - وتصديقه فيما جاءكم به من عند ربه .

- « **وتدعونني إلى النار** » يقول : وتدعونني إلى عمل أهل النار .

- وقوله « **تدعونني لأكفر بالله وأُشرك به ما ليس لي به علم** » يقول : وأُشرك بالله في عبادة الله ، لأن الله لم يأذن لي في ذلك بخبر ولا عقل .

- وقوله : « **وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار** » يقول : وأنا أدعوكم إلى عبادة (**العزيز**) في انتقامه ممن كفر به ، الذي لا يمنعه إذا انتقم من عدو له شيء ، (**الغفار**) لمن تاب إليه بعد معصيته إياه ، لعفوه عنه ، فلا يضرُّه شيء مع عفوه عنه . يقول : فهذا الذي هذه الصفة صفته فاعبدوا ، لا مالا ضُرَّ عنده ولا نفع))[2] .

---

(١) غافر (٤٢) .

(٢) تفسير الطبري لسورة غافر آية (٤١ : ٤٢) [٦ / ٤٣٠] .

وقال الشيخ السعدي ـ رحمه الله ـ :

((« وأنا أدعوكم إلى العزيز »[١] ، الذي له القوة كلها ،وغيره ليس بيده من الأمر شيء .

« الغفار »[٢] الذي يسرف العباد على أنفسهم ويتجرؤون على مساخطه . ثم إذا تابوا وأنابوا إليه ، كفَّر عنهم السيئات ، والذنوب ، ودفع موجباتها من العقوبات الدنيوية والأخروية »[٣] .

---

(١) غافر (٤٢) .

(٢) غافر (٤٢) .

(٣) تفسير السعدي لسورة غافر آية (٤٢) ص (٦٨٤ : ٦٨٥) .

رابعاً : [النبي - ﷺ - يدعو إلى توحيد العزيز الغفار] :

قال تعالى في محكم التنزيل مخاطباً نبيه محمداً - ﷺ - : ﴿ **قل إنما أنا منذر وما من إله إلاَّ الله الواحد القهار، رب السماوات والأرض وما بينهما العزيز الغفار** ﴾[(١)].

فها هو نبي الرحمة ، ورسول الهدى ، محمد بن عبد الله - ﷺ - يدعو إلى توحيد العزيز الغفَّار ، ويُعلِّم الخلق كيفية التعبُّد لصاحب العزة والحكمة والمغفرة كما أمره ربه - جلَّ في علاه - وذلك بإخلاص التوحيد لله - تعالى - بأنواعه الثلاثة من [الاعتراف بربوبيته وإفراده بأفعاله - سبحانه وتعالى - ومن إفراده بالعبودية وحده لا شريك له - ومن إفراده بأسمائه الحسنى وصفاته العليا والتعبُّد بهما على ما يليق بجلاله وعظيم سلطانه] .

- ومن ذلك التعبُّد لله تعالى من خلال هذه الآية العظيمة التي يأمر فيها ربُّ العزة - جلَّ في علاه - نبيه وحبيبه وصفيَّه محمد بن عبد الله - ﷺ - أن يتعبَّد له بتوحيده ،ويعلِّم أمته كيفية تحقيق العبودية الحقه لصاحب العزة والحكمة والمغفرة ، العزيز الغفّار . فلقد تحقَّق في هذه الآية الكريمة التوحيد بأنواعه ، والتعبُّد لله تعالى ببعض أسمائه وصفاته وذلك على النحو التالي :

١ - توحيد الألوهية :

قد تحقق توحيد الألوهية في هذه الآية في قوله تعالى : ﴿ **وما من إله إلاَّ الله الواحد القهار** ﴾[(٢)] .

---

(١) ص (٦٥ : ٦٦) .

(٢) ص (٦٥) .

فلقد أثبت الله في هذا الجزء من الآية الألوهية الحقة له وحده ـ جلَّ في علاه ـ ونفاها عمَّا سواه ، فهو الإله الأوحد ، وهو الله الواحد القهَّار ، فلا إله غيره ، ولامعبود سواه ، ولا قاهر لجميع المخلوقات إلاَّ هو ، فمن توحيد الألوهية والربوبية ، ومن التعبُّد لهذا الإله بأسمائه الحسنى [الله ، والواحد ، والقهَّار] أن يُفْرد وحده بالألوهية ، وأن يتوجَّهُ إليه وحده بالعبادة ، ولا يُشْرك معه في عبادته أحد .

٢ ـ توحيد الربوبية :

لقد تحقق أيضاً في هذه الآية الكريمة توحيد الربوبية ، والتعبُّد لله تعالى ببعض أسمائه الحسنى وصفاته العليا ، في قوله تعالى : ﴿ **رب السماوات والأرض وما بينهما** ﴾[1] .

فلقد أثبت الله تعالى لنفسه في هذا الجزء تفرُّده بالربوبية وحده دون سواه، فهو [الرب] والمتصف [**بالربوبية**] ـ جلَّ في علاه ـ ويتعبَّد ه جميع خلقه بهذا الاسم ، وبهذه الصفة ، فيُفْرِدُه بجميع أفعاله من [الخلق ـ والرزق ـ والإحياء ـ والإماتة ، والرزق ـ والشفاء ـ وإنزال الماء من السماء ـ وإنبات الزرع من الأرض....] ويشكرونه على نعمه وآلائه ، ويذعنون له بالذلِّ والطاعة .

٣ ـ توحيد الأسماء الصفات :

وتُختم هذه الآية الكريمة باسمين من أسماء الله تعالى الحسنى ﴿ **العزيز الغفار** ﴾[2] وبصفتين من صفات الله الحميدة [**العزة والمغفرة**] ، وفي ذلك

---

(١) ص (٦٦) .

(٢) ص (٦٦) .

توجيه إلهي للنبي - ﷺ - ولأمته من خلفه ، ولكل الخلق أن هذا [الإله] ، وهذا [الرب] يتَّصف بالعزة ، وما استحق أن يكون إلاهاً ، وأن يكون ربا يخلق الخلق ، ويُعْبد وحده إلاَّ لأنه إله عزيز، صاحب عزة لا تُرام، وصاحب عزة لا يُغْلب معها على قضائه .

فينُعِّم من شاء من عباده بفضله وإحسانه ، ويُعذِّب من شاء من خلقه بعدله وعزته ، ولذلك فإن من أسمائه الحسنى [الغفَّار] ، ومن صفاته [المغفرة] فهو بعزته يغفر لمن شاء من عباده بفضله وكرمه ولا يبالي ، ويتوب علي من شاء من عباده ولا يُسأل عمَّا يفعل .

ففي الآية الكريمة : إشارة لمن أراد أن يتعبَّد للعزيز الغفار بطلب مغفرة الذنوب فعليه بتحقيق ا لتوحيد بأنواعه والتعبُّد للعزيز الغفار بأن يغفر ذنوبه ، ويتوب عليه بعزته وقدرته على الخلق ، وبمغفرته التي تنال من شاء الله أن تناله من خلقه .

قال الإمام الطبري - رحمه الله - :

((يقول تعالى ذكره لنبيه محمد - ﷺ - :

« **قل** » يا محمد لمشركي قومك :

« **إنما أنا منذر** » لكم يا معشر قريش بين يدي عذاب شديد أنذركم عذاب الله وسخطه أن يحلَّ بكم على كفركم به ، فاحذروه وبادروا حلوله بكم بالتوبة .

« **وما من إله إلاَّ الله الواحد القهار** » يقول : وما من معبود تصلح له العبادة،

وتنبغي له الربوبية ، إلاَّ الله الذي له كل شيء، ويعبده كل الخلق، الواحد الذي لا ينبغي أن يكون له في ملكه شريك ، ولا ينبغي أن تكون له صاحبة ، القهار لكل ما دونه بقدرته .

« **رب السماوات والأرض** » يقول : مالك السموات والأرض .

« **وما بينهما** » من الخلق ، يقول : فهذا الذي هذه صفته هو الإله الذي لا إله سواه ، لا الذي لا يملك شيئاً ولا يضرُّ ولا ينفع .

وقوله « العزيز القهار » يقول : العزيز في نقمته من أهل الكفر به ، المدَّعين معه إلاهاً غيره ،الغفَّار لذنوب من تاب منهم ومِنْ غيرهم من كُفْره ومعاصيه ، فأناب إلى الإيمان به ، والطاعة له بالانتهاء إلى أمره ونهيه »(١).

---

(١) تفسير الطبري لسورة ص آية (٦٥ : ٦٦) [٦ / ٣٥٨] .

خامساً : [الجن يدعون قومهم إلى توحيد العزيز الغفار] :

قال تعالى على لسان مؤمني الجن : ﴿ **يا قومنا أجيبوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم** ﴾(١) .

إن الله سبحانه وتعالى هو الذي خلق جميع الخلق بعزته، وأوجدهم لعبادته، ويحبُّ منهم أن يوحِّدوه بأسمائه وصفاته، ويتعبَّدوا له بهذه الأسماء ، وتلك الصفات على ما يليق بجلاله وعظيم سلطانه ، فيحققون له التوحيد الخالص الذي هو حقه - جلَّ في علاه - على خلقه، ويطلبون بهذا التوحيد مغفرة الذنوب ، وتكفير السيئات ، والنجاة من النار ، والخلود في الجنة .

قال تعالى:﴿ **وما خلقت الجن والانس إلاَّ ليعبدون** ﴾(٢) . [أي ليوحِّدون].

- وها هم الجن الذين هم خَلْق من خَلْق ا لله ، وعبيد من عبيد العزيز الغفار، لَمَّا سمعوا الذِّكْر، ولَمَّا جاءهم صوت الحق ، وحينما علموا بنبي الهُدى ، ورسول الرحمة - ﷺ - ، سارعوا إلى داعي الله ، وأجابوا منادي الحق ، ودخلوا في دين الله ، وحققوا التوحيد ونبذوا الشرك ، وانقلبوا إلى أهليهم ، ورجعوا إلى قومهم دعاة إلى الله ، ومنارات هدى ، ومشعل هداية ، ومصابيح إنارة لطريق التوحيد ، إرشاد للحيارى والضالين ، وأئمة هدى للمتعبِّدين لله تعالى ، بتوحيده ، وطلب مغفرته ورضوانه ، فما إن سمعوا نداء الحق حتى لبوا النداء ، وأعلنوا الإيمان بالله ،

---

(١) الأحقاف (٣١) .

(٢) الذاريات (٥٦) .

وانقلبوا دعاة للتوحيد، وطلبوا مغفرة الذنوب، وطمعوا في جنات علاَّم الغيوب ، وغفَّار الذنوب ، العزيز الغفار ـ جلَّ في علاه ـ .

قال تعالى عنهم في محكم التنزيل مثبتاً إيمانهم بالله تعالى : ﴿ **قل أوحي إليَّ أنه استمع نفرمن الجن فقالوا إنا سمعنا قرآناً عجباً يهدي إلى الرشد فآمنا به** ﴾[1] .

ويثبت أيضاً القرآن الكريم لهؤلاء المؤمنين من الجن براءتهم من الشرك ، ومما يقول ويعتقد المشركون فقالوا كما جاء في الكتاب العزيز ﴿ **ولن نشرك بربنا أحداً وأنه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولداً** ﴾[2].

وما اكتفى هؤلاء المؤمنون بالإيمان بالله، وإعلانهم التوحيد، وبراءتهم من الشرك وأهله، بل انقلبوا دعاة إلى الله تعالى ، يدعون قومهم للتوحيد ونبذ الشرك ، يدعونهم لإفراد الله تعالى بالعبادة ،وللتعبُّد للعزيز الغفار بتحقيق التوحيد ، وطلب المغفرة عمَّا قد سلف من الشرك وهجران التوحيد ، حتى ينالوا جنات النعيم ، وحتى ينجوا من العذاب الأليم كما أخبر الله تعالى عنهم في القرآن العظيم : ﴿ **وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن فلمَّا حضروه قالوا أنصتوا ، فلمَّا قضى ولَّوا إلى قومهم منذرين * قالوا ياقومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصدقاً لَّما بين يديه يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم** ﴾[3] .

---

(٣) الجن (١ : ٢) .

(١) الجن (٢ : ٣) .

(٣) الأحقاف (٢٩ : ٣٠) .

وبعد تقرير منهج القرآن القويم ، ووصف هذا الدين بكل محمود ، ومدح هذه الشريعة الغرَّاء ، يأتي دور الدعوة لهذا الدين ، وإلى إجابة داعي التوحيد ، وبيان مافي ذلك التوحيد من خيري الدنيا والآخرة فقالوا : ﴿ **يا قومنا أجيبوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم** ﴾[1] .

فوضَّح هؤلاء المؤمنون من الجن في دعوتهم لقومهم لتوحيد العزيز الغفار ثمار هذا التوحيد، ونتيجة هذه العبودية الحقة لفاطر السموات والأرض ، ونتيجة اتباع داعي التوحيد ما يلي :

أولاً : « **يغفر لكم من ذنوبكم** » غفران الذنوب .

ثانياً : « **ويجركم من عذاب أليم** » النجاة من النار ـ والعياذ بالله ـ .

وهكذا تعبَّد الجن لله العزيز الغفار بتوحيدهم لله تعالى، وبنبذهم للشرك ، ودعوتهم لقومهم لتحقيق التوحيد للعزيز الذي يملك زمام الأمور ، وتصريف الكون ، وتدبير أمور الخلق ، وبطلب المغفرة من الغفور الذي يغفر لعباده المؤمنين بعزته ، ويتوب علي عباده الموحِّدين مع قدرته عليهم ، فبشرى لكل عباد الله الموحِّدين من الجن والإنس، ولكل متعبِّد للعزيز الغفار، ولكل من تاب لربه وأناب. فنعم أجر المتعبِّدين لرب السماوات والآراضين .

قال الإمام الطبري ـ رحمه الله ـ :

في قوله تعالى : ﴿ **يا قومنا أجيبوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم** ﴾[2] .

---

(١) الأحقاف (٣١)

(٢) الأحقاف (٣١) .

((يقول تعالى ذكره عن قول هؤلاء النفر من الجن

« يا قومنا » من الجن .

« أجيبوا داعي الله » قالوا : أجيبوا رسول الله محمداً - ﷺ - إلى ما يدعوكم إليه من طاعة الله .

« وآمنوا به » يقول : وصدِّقوه فيما جاءكم به وقومه من أمر الله ونهيه ، وغير ذلك مما دعاكم إلى التصديق به .

« يغفر لكم » يقول يتغمَّد لكم ربكم من ذنوبكم فيسترها لكم ولا يفضحكم بها في الآخرة بعقوبته إياكم عليها .

« ويجركم من عذاب أليم » يقول : وينقذكم من عذاب موجع إذا أنتم تبتم من ذنوبكم ، وأنتم من كفركم إلى الإيمان بالله وبداعيه))[١] .

سادساً : [العمل الحسن من أسباب مغفرة العزيز الغفور] :

قال تعالى : ﴿ **الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً وهو العزيز الغفور** ﴾[٢].

إن تحقيق العبودية من المسلم لله تعالى هي الغاية التي من أجلها خلق الله تعالى هذا الخلق بعزته وحكمته ، وأوجد من أجلها الإنس والجن ، كما أخبر بذلك ربُّ العزة في كتابه العزيز قائلاً ﴿ **وما خلقت الجن والإنس إلاَّ ليعبدون** ﴾[٣].

فمن أجل تحقيق هذه العبودية خلق الله الموت وخلق الحياة ، وأوجد بمشيئته سُبُل الخير وسُبُل الشَّر ، كما قال تعالى : ﴿ **وهديناه النجدين** ﴾[٤] .

---

(١) تفسير الطبري لسورة الأحاف آية (٣١) [٧ / ٢٦] .
(٢) الملك (٢) .
(٣) الذاريات (٥٦) .
(٤) البلد (١٠) .

وقال تعالى ﴿ **ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها** ﴾[١] .

وأمر الإنسان بفعل الخيرات إيماناً بالله ،وطمعاً في ثواب الله ، وتزكية لهذه النفس ومدحه الله ـ عزَّ وجلَّ ـ قائلاً : ﴿ **قد أفلح من زكاها** ﴾[٢] .

وذمَّ من دنَّس هذه النفس ، وعصى ربه ومولاه ، وسلك سبيل الهلاك فقال تعالى : ﴿ **وقد خاب من دساها** ﴾[٣].

بل ورضى من عباده الإيمان والاستقامة ، والشكر ، ويكره ويبغض الكفر ولا يرضاه من عباده كما قال ـ جلَّ في علاه ـ : ﴿ **إن تكفروا فإن الله غني عنكم ولا يرضى لعباده الكفر وان تشكروا يرضه لكم** ﴾[٤].

ـ ولقد أعطى الله الإنسان القدرة على الإيمان والقدرة على الكفر فقال تعالى: ﴿ **فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر** ﴾[٥].

وتوعَّد سبحانه وتعالى بالعذاب الشديد ، والعقاب الأليم لمن كفر وأعرض عن طريق الإيمان . فقال تعالى : ﴿ **إنا أعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقاً** ﴾[٦] .

---

(١) الشمس (٧ ـ ٨) .
(٢) الشمس (٩) .
(٣) الشمس (١٠) .
(٤) الزمر (٧) .
(٥) الكهف (٢٩) .
(٦) الكهف (٢٩) .

ـ ومن هنا يتعبَّد المؤمن لله تعالى بصفة العزة التي خلق بها الموت والحياة ، وأوجد بها الإنس والجن ، وفطر بها جميع المخلوقات ، فيوقن العبد المؤمن بأن صاحب العزة يجب أن يطاع في ملكه ، وأحق مَنْ يُعْبد من خلقه ، ويتعيَّن أن يوحَّد في سلطانه ، فيتعبَّد لصاحب العزة بأن يؤمن به حق الإيمان ، وأن يُحْسن الأعمال ، بأن تكون صالحة وذلك بأن يتحقق فيها شرطان :

١ ـ **الإخلاص**: بأن تكون خالصة لوجه الله، وإبتغاء مرضاة الله ـ جلَّ في علاه ـ.

٢ ـ **المتابعة** : بأن تكون موافقة للشرع وعلى منهج رسول الله ـ ﷺ ـ .

فكُلَّما أحسن العبد عمله ، وكان صالحاً ، كان أكمل في عبادته لله ـ تعالى وحقَّق عبوديته لصاحب العزة ، وتعبَّد له باسمه [العزيز] ، وصفة [العزة] ، لأنه يعلم مدى عزة الله ، وقدرته على تنعيم من آمن به وأطاعه وتعبَّد له بأسمائه الحسنى، وصفاته العليا .

وكذلك يعلم هذا العبد المؤمن بقدرة العزيز صاحب العزة على تعذيب وإهلاك كل من كفر به وعصاه .

ـ ومن التعبُّد أيضاً للعزيز صاحب العزة أن يوقن العبد المؤمن المتعبِّد له بهذه الصفة بأن مِنْ عزة الله وقدرته أن يغفر لمن تاب ورجع وأناب لربه ومولاه ، فهو يملك بعزته الأمر كله ، فيغفر لعباده المؤمنين المتعبِّدين له بالأعمال الحسنة الصالحة ، والتائبين من ذنوبهم ، والعائدين إلى العزيز خائفين من بطشه وانتقامه ، طامعين في عفوه وغفرانه ، فهم يؤمنون بأنه العزيز الغفور ، الذي يغفر لعباده المذنبين حينما

ينيبون إليه ، وهو القادر على عذابهم وإهلاكهم ، ولكن يغفر لهم بعزته ، ويتوب عليهم رغم قوته وقدرته فحقاً إنه العزيز الغفور ـ جلَّ في علاه ـ القائل في محكم التنزيل : ﴿ الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً وهو العزيز الغفور ﴾[1] .

فمن أراد مغفرة الذنوب ، ومن طمع في غفران الغفور ، فعليه أن يتعبَّد لصاحب العزة العزيز الغفور ، بأن يُحْسن الأعمال ، ويصلح النيات ، ويطيع رب الأرض والسماوات ، ليفوز بالغفران ، وبرحمة وكرم العزيز الغفار ، الذي ما أراد شيئاً إلاَّ كان ، وما خذل عبداً توجَّه إليه ورجاه ، وما عذَّب مؤمناً تاب إليه وأناب ، وما حرم من مغفرته عبداً أواب ، فسبحان العزيز الغفار .

قال الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله ـ :

((« **وهو العزيز الغفور** » : أي هو العزيز العظيم ، المنيع الجناب ، وهو مع ذلك غفور لمن تاب إليه وأناب بعدما عصاه وخالف أمره ، وإن كان تعالى عزيزاً هو مع ذلك يغفر ويرحم ، ويصفح ، ويتجاوز))[2] .

وقال الشيخ السعدي ـ رحمه الله ـ :

((« **ليبلوكم أيكم أحسن عملاً** » : أي أخلصه وأصوبه[3]، وذلك أن الله خلق عباده ، وأخرجهم لهذا الدار ، وأخبرهم أنهم سينتقلون منها ، وأمرهم ونهاهم ، وابتلاهم بالشهوات المعارضة لأمره، فمن أنقاد لأمر الله، أحسن الله له الجزاء في الدارين ، ومن مال مع شهوات النفس ، ونبذ أمر الله ، فله شر الجزاء .

---

(١) الملك (٢) .

(٢) تفسير ابن كثير لسورة الملك آية (٢) [٤ / ٣٨٢] .

(٣) أخلصه بأن يكون خالصاً لوجه الله ، وأصوبه: بأن يكون موافقاً لما جاء به النبي ـ ﷺ ـ .

« وهو العزيز » : الذي له العزة كلها ، التي قهر بها جميع الأشياء ، وانقادت له المخلوقات .

« الغفور » : عن المسيئين ، والمقصرين، والمذنبين، خصوصاً إذا تابوا وأنابوا فإنه يغفر ذنوبهم ، ولو بلغت عنان السماء ، ويستر عيوبهم ، ولو كانت ملء الدنيا))[1].

(١) تفسير السعدي لسورة الملك (ص ٨١٠) .

سابعاً : [العزيز الخلاَّق يغفر لمن تاب وأناب] :

قال تعالى : ﴿ خلق السماوات والأرض بالحق يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى ألا هو العزيز الغفار ﴾(١).

إن التعبُّد لله تعالى العزيز الغفار يحتاج من العبد المؤمن النظر والتأمل في كتاب الله تعالى الذي يرشد عباد الله المؤمنين إلى كيفية التعبُّد لله تعالى بأسمائه الحسنى ، وصفاته العليا ، وخاصة هذه الآيات الكريمات التي تخُتم بأسماء الله الحسنى ، وصفاته العليا ، والتي توضِّح لنا الطريق ، وترشدنا إلى السبيل القويم ، وتهدينا إلى كيفية التعبُّد لله العزيز الحكيم الذي خلق وأوجد هذا العبد ،بل الجن والإنس لتحقيق هذه العبودية لصاحب العزة والحكمة ـ جلَّ في علاه ـ كما أخبر بذلك ربُّ العزة في علاه حيث قال : ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلاَّ ليعبدون ﴾(٢) .

وهذه الآية الكريمة التي معنا من سورة الزمر ترشدنا إلى كيفية التعبُّد لصاحب العزة العزيز، الذي يتَّصف بالعزة والقوة والقدرة والغلبة ، وهو أيضا مع هذه العزة والقدرة على خلقه يتصف بالمغفرة ، فيمهل من عصاه ، ويؤخِّر العذاب عمن أراد ،ويتدارك برحمته من شاء ، ويتوب على من ندم وتاب ، ويغفرلمن رجع إليه وأناب ، فسبحانه هو العزيز الغفار .

---

(١) الزمر (٥) .

(٢) الذاريات (٥٦) .

فمن أراد التعبُّد للعزيز، ومن أراد مغفرة الغفار، فعليه أن يتفكَّر في خلق الله ، ويتمعَّن في مخلوقات العزيز ، ويُدْرِك مدى قدرة وقوة وعزة صاحب العزة ، ويتأمل في هذه السماوات التي رفعها الله بعزته وقدرته بدون عمد ، وجعلها سبع سماوات ، وجعل فيها ساكنيها من الملائكة وغيرهم مما يعلم وحده سبحانه وتعالى، ممن يعبده وحده ويركع ويسجد ويسبِّح ويُعظِّم له وحده ـ جلَّ في علاه ـ

وهذه الأرض وما فيها من مخلوقات عظام وعلى رأسهم هذا الإنسان المخلوق العجيب الذي جعله الله تعالى آية على قدرة وعزة العزيز الخلاَّق ـ جلَّ في عليائه ـ ولفت الله نظر الإنسان لهذه الآية العظيمة التي هي خلقه نفسه قائلاً : ﴿ وفي الأرض آيات للموقنين وفي أنفسكم أفلا تبصرون ﴾[1] . وهذه الجبال الشامخات الراسيات ، وهذه البحار والأنهار والمحيطات الجاريات بإذن ربها ، وتلك الأنعام التي خلقها الله وجعل فيها عبرة لجميع خلقه ودليل على مدى قدرة وعزة الخالق كما قال تعالى : ﴿ **وإن لكم في الأنعام لعبرة نسقيكم مما في بطونه من بين فرث ودم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين** ﴾[2] .

وهذه النباتات وتلك الأشجار، وهذه العوالم الكثيرة المتعددة كلها تدل على عظم قدرة العزيز الخلاَّق ولذلك يدعو الله هذا الإنسان لتدبُّر هذه المخلوقات لتكون سبيلاً لزيادة إيمانه ، وعوناً على الثبات على عقيدته ، ولينشط في عبادته ، فقال

---

(١) الذاريات (٢٠ : ٢١) .

(٢) النحل (٦٦) .

تعالى : ﴿ **أفلاً ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ، وإلى السماء كيف رفعت ، وإلى الجبال كيف نصبت ، وإلى الأرض كيف سطحت** ﴾[1] .

فمن الواجب لهذا الإله العظيم صاحب العزة العزيز بعد تدبُّر هذه المخلوقات من السموات والأرض ، والليل والنهار ، والشمس والقمر ، يجب على العبد أن يعبد هذا لاإله العظيم الذي خلق كل هذه المخلوقات بعزته ، لأن الذي خلق هذه المخلوقات قادر على تنعيم من عبده وأطاعه وتعبّد إليه بأسمائه الحسنى وصفاته العليا ، وهو القادر أيضاً بعزته وقدرته على تعذيب هذا المخلوق الذي أبى أن يعبده، وأشرك به ولم يوحِّده ، فإنه العزيز الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء .

وأيضاً من تمام التعبُّد لهذا الإله العزيز أن يستشعر هذا العبد مدى قدرة وعزة هذا العزيز على البطش به عند معصيته ، وأثناء خروجه عن طاعة ربه ، فيمتنع عن معصية هذا الإله العزيز القوي الجبار .

وإذا وقع في معصية ، وإذا غلبته شهوته ، وأمرته نفسه الأمَّارة بالسوء ، وإذا استذلَّه الشيطان بمعصية ، ووقع فيما يغضب ربه وخالقه ، فعليه أن يتذكَّر عزة وقدرة العزيز على إهلاكه وتعذيبه ، وعليه أن يتذكَّر أن هذا الإله العزيز رغم هذه العزة ورغم تلك القدرة يمهل عباده ليتوبوا ، ويفرح بتوبتهم ، ، فيغفر لمن تاب إليه وأناب ، ويشمل بمغفرته كل عبد أواب ، ويرحم كل من استغفر وتاب ، ولا يحرْم من غفرانه من رجع إلى حظيرة الإيمان ، وسار علي درب الهدى واستقام .

---

(١) الغاشية (١٧ : ٢٠) .

وكيف لا وقد علم هذاالعبد أن ربه وخالقه وإلاهه عزيز غفار . يغفر لعباده ويتوب عليهم ويرحمهم وهو القادرعلى إهلاكه ، ولكنه أرحم بهم من أنفسهم ومن والديهم عليهم ، وسمَّى نفسه الغفار ، ووصف نفسه بالمغفرة ، فسبحان العزيز الغفار رب الأرض والسموات ، وراحم كل المخلوقات ، ولا يُعذِّب إلاَّ من أبى أن يتعبَّد للعزيز الغفار القائل في محكم الآيات : ﴿ **خلق السموات والأرض بالحق يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى ألا هو العزيز الغفار** ﴾[١] .

قال الإمام الطبري ـ رحمه الله ـ :

((يقول تعالى ذِكْره : ألا إن الله الذي فعل هذه الأفعال وأنعم على خلقه هذه النعم هو العزيز في انتقامه ممن عاداه ، الغفَّار لذنوب عباده التائبين إليه منها بعفوه لهم عنها))[٢] .

وقال الإمام القرطبي ـ رحمه الله ـ :

((قوله تعالى ﴿ **خلق السماوات والأرض بالحق** ﴾[٣] .

أي هو القادر على الكمال المستغنى عن الصاحبة والولد ، ومَنْ كان هكذا فحقه أن يُفْرد بالعبادة لا أنه يشرك به . ونبَّه بهذا على أن له أن يتعبَّد العباد بما شاء

---

(١) الزمر (٥) .

(٢) تفسير الطبري لسورة الزمر آية (٥) [٦ / ٣٦٧] .

(٣) الزمر (٥) .

وقد فعل)) [١].

قال الشيخ السعدي ـ رحمه الله ـ :

((﴿ ألا هو العزيز الغفار ﴾[٢] الذي لا يُغالَب ، القاهر لكل شيء ، الذي من عزته أوجد هذه المخلوقات العظيمة ، وسخَّرها تجري بأمره .

﴿ الغفار ﴾[٣] لذنوب عباده المؤمنين التَّوابين المؤمنين ، الغفار لمن أشرك به ، بعدما رأى من آياته العظيمة ، ثم تاب وأناب))[٤] .

---

(١) تفسير القرطبي لسورة الزمر آية (٥) [١٥ / ١٥٣] .

(٢) الزمر (٥) .

(٣) الزمر (٥) .

(٤) تفسير السعدي لسورة الزمر آية (٥) ص (٦٦٥) .

الخاتمة

الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، والعاقبة للمتقين ، والفلاح والرباح للموحِّدين ، والخسران والهلاك للمشركين ، والصلاة والسلام على خير البرية محمد بن عبد الله - ﷺ - خير من تعبَّد للعزيز الحكيم ، وخير من حقق التوحيد ، وأفضل من أخلص العبودية لصاحب العزة والحكمة ، ومن تبع سُنَّته ، وأقتفى أثره، وسار على دربه ، وأخلص العبودية لخالقه ومولاه ، إلى يوم الدين .. أما بعد :

فبعدما عشنا هذه السطور المعدودة في كيفية التعبُّد لله تعالى بأسمائه الحسنى، وصفاته العليا ، وخاصة اسميه الحسنيين [العزيز الحكيم] ، وصفتيه الحميدتين [العزة والحكمة] ، وبينَّا كيفية [إخلاص العبودية للعزيز الحكيم] عن طريق هذا التعبُّد ، وبواسطة هذه المراقبة للعزيز الحكيم - جلَّ في علاه - أردت أن أوضح في هذه الخاتمة أمرين .

أولاً : [ما توصلت إليه من خلال البحث] :

لقد توصلت - بحمد الله تعالى - من خلال هذا البحث إلى نتائج وحقائق وثمرات كثيرة أُلخِّصها وأوصى بها في هذه العجالة .

١ - أهمية ووجوب التعرُّف من العبد على إلاهه وخالقه ومعرفة قدره ، وعظمته، لكي يَعبُد هذا الإله على علم حتى يكون أكثر له خشية ومراقبة .

قال تعالى : ﴿ **إنما يخشى الله من عباده العلماء** ﴾[١] .

---

(١) فاطر (٢٨) .

وأعلم العلماء الذين يعرفون قدر الله تعالى ، فهم أكثر الناس له توقيراً ، وأكملهم عبودية له ، فأكثر الناس معرفة بالله أكملهم عبودية له - جلَّ في علاه - .

٢ - وجوب إخلاص العبودية لله تعالى ، فإن الله لا ينظر إلى كثرة العمل إن لم يكن خالصاً لوجهه الكريم ، ويبارك في القليل من العمل إذا كان على إخلاص وخشية ومراقبة من العبد لربه . قال تعالى : ﴿ **الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً** ﴾[1] . والعمل الحسن الخالص لوجه الله تعالى ، والمطابق لسُنَّة النبي - ﷺ - . وقال تعالى : ﴿ **فمن كان يرجوا لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً** ﴾[2] .

٣ - الاهتمام بتوحيد [الأسماء والصفات] لأنه لا يتم توحيد العبد ، ولا يكون موحِّدا حتى يحقق هذا التوحيد ، ولما لهذا النوع من التوحيد من المكانة والقدر لأنه يتعلَّق بالذات الإلهية ، وما تتسمىَّ به من الأسماء الحسنى ، وما تتصف به من صفات الكمال، والجمال، والعظمة ، والإجلال ، والإكبار .

فإنه أشرف العلوم لأنه يتعلَّق بأشرف ذات ، ويوفِّق الله إليه من أحبَّ من عباده ، ومَنْ خصَّه بفضله وكرمه ، ومنَّ عليه بإحسانه ، وأفاض عليه من الفتح الإلهي ، وشرح الصدر ، وإنارة البصيرة ، فحريٌّ بكل مسلم أن يتعلَّم هذا العلم ، ويتعرَّف على خالقه ومولاه بأسمائه الحسنى ، وصفاته العليا .

---

(١) الملك (٢) .

(٢) الكهف (١١٠) .

٤ ـ أن يتعبَّد المسلم لربه وخالقه بأسمـائه الحسنى ، وصفاته العليا ، فإن لكل اسم ولكل صفة من أسماء الله تعالى، وصفاته ، عبودية خاصة تليق بهذا الاسم ، وتلك الصفة ، وهي مـن مقتضيـات هذه الأسماء وتلك الصفات كـما قال العلامة ابن القيم ـ رحمه الله ـ :

((والأسماء الحسنى والصـفات العلا مقتضية لآثارها من العـبودية اقتضاءها لآثارها من الخلق والتكوين ، [**فلكل صفة عبودية خاصة**] هي من موجباتها ومقتضيـاتها ـ أعني من موجبات العلم بها ، والتحقق بمـعرفتها ـ وهذا مطرد في جميع أنواع العبودية التي على القلب والجوارح))[١] .

٥ ـ إذا أرادت الأمة الإسـلامية أن يُغـيِّر الله حالـها إلى أحسن حـال ، وأن يُحوِّل هزيمتها نصـراً ، وأن يُغيِّر ذُلَّها عزاً ، وفقرها غنـىً ، وأن تتصدَّر الأمم ، وتحتل مكانتها التي تليق بها فعليها بالتعبُّد لله تعالى بأسمائه الحسنى ، وصفاته العليا حق التعبُّد ، حتى تصل إلى مرحلة الإحسان ، فتعبد الله كأنها تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراها ، وذلك لن يتأتى لهذه الأمة حتى تتعبَّد لله تعالى بأسمائه الحسنى ، وصفاته العليا .

ثانياً : [توصياتي من خلال البحث] :

فبعد هذه المسيرة العطرة ، مـسيرة التعبُّد لله تعالى بأسمائه الحسنى، وصفاته العليا ، وبعد التعرُّض لكيفية التعبُّد لله ـ تعالى ـ باسميـه الحسنيين [العزيز الحكيم]

---

(١) (مفتاح دار السعادة) لابن القيم [٢ / ٤٤٢ : ٤٤٣] .

وبصفتيه الحميدتين [العزة والحكمة] يطيب لي أن أهدى هذه التوصيات من خلال هذا البحث المختصر ، وألخِّص أهمها فيما يلي :

١ - وجوب إخلاص العبودية لله تعالى ، وذلك على مستوى الأمة الإسلامية ، جماعات وأفراد ، حتى لا يكون لأحدٍ في أعمالهم شيئاً ، وتكون كل أعمالهم خالية من الشرك ، خالصة وصافية لله - تعالى - حتى نؤتي ثمارها . قال تعالى : ﴿ **قل إني أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين** ﴾[1] .

٢ - أن يتعبَّد المسلم لله تعالى بأسمائه الحسنى ، وصفاته العليا ، ومن ذلك اسمي [العزيز الحكيم] ، وصفتيه الحميدتين [العزة والحكمة] . فإن الله له العزة الكاملة المطلقة ، والحكمة التامة البالغة .

٣ - أن يحكم المسلم المتعبِّد [للعزيز الحكيم] بصفتي العزَّة والحكمة بما أنزل الله تعالى على رسوله الكريم - ﷺ - في كتابه الحكيم إذاكان قد آمن بعزة الله العزيز ، وأيقن بحكمة وحُكْم وإحكام الحكيم ، استجابة لقوله تعالى : ﴿ **فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق** ﴾[2] . ولتحذير الله لكل من حكم بغير ما أنزل على رسوله - ﷺ - فقال - جلَّ شأنه - ﴿ **ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون** ﴾[3] .

---

(١) الزمر (١١) .

(٢) المائدة (٤٨) .

(٣) المائدة (٤٤) .

٤ ـ أن يتحاكم المسلم إلى العزيز الحكيم وحده ـ جلَّ في علاه ـ إذا كان آمن بعزة العزيز ، وحُكْم وإحكام وحكمة الحكيم ، فلا يكفي مجرد حكم العبد الموحِّد بما أنزل الله فقط ، ولكن يجب عليه أيضاً عند التحاكم ألاَّ يتحاكم إلاَّ إلى كتاب الله تعالى ، وسنَّة نبيه ـ ﷺ ـ فلا حُكْم إلاَّ للعزيز الحكيم ، ولا تحاكم إلاَّ إلى العزيز الحكيم صاحب العزة والحكمة . فإن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ هو القائل : ﴿ **إن الحكم إلاَّ لله** ﴾[1] .

وهو القائل أيضاً ـ جلَّ في علاه ـ ﴿ **فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً** ﴾[2] .

فلله العزيز الحكيم الحُكْم ، وإليه التحاكم ، والكون كونه ، والملك ملكه ، وهو الآمر والناهي في ملكه وسلطانه ، فمن نازعه الحكم في ملكه عذبه ولا يبالي .

٥ ـ أن يَحْذر كل مسلم متعبِّد [للعزيز الحكيم] من أن يعصيه ، ويخرج عن طاعته فيُعرِّض نفسه لغضب صاحب العزة والقدرة ، ومن بيديه الحكم . فيبطش به ، وينتقم منه ، ويعذِّبه أشدَّ العذاب ، فسبحانه يُعذِّب عن قدرة ، ويُهْلك عن حكمة وإحكام . فليحذر كل مسلم من بطش وانتقام العزيز

---

(١) يوسف (٦٧) .

(٢) النساء (٦٥) .

الحكيم . قال تعالى : ﴿ **كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب إن الله كان عزيزاً حكيماً** ﴾(١) .

٦ - أن يتدبَّر كل عبد متعبِّد للعزيز الحكيم حكمة الله تعالى في خلق الخلق ، ويعلم أن الله ما خلق هذا الخلق بعزته ، وما أوجد هذا الكون بحكمته ، إلاَّ لغاية سامية أرادها الله من هذا الخلق ، وهي عبادته سبحانه وتعالى ، والسَّير على شرعه ، والتزام منهجه وإفراده سبحانه وتعالى بجميع العبادات . مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ **وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون** ﴾(٢) .

٧ - أن يستعدَّ العبد المتعبد للعزيز الحكيم [ليوم البعث] ، وذلك من منطلق تعبدِّه لصاحب العزة والحكمة ، ولعلمه مدى قدرة العزيز على بعثه مرة أخرى بعد موته ، ولإيقانه بحكمة الحكيم في بعث مَنْ في القبور ، وتعذيب الكافر والمشرك والمنافق ، وتنعيم المؤمن الموحِّد المتعبد لخالقه ومولاه . قال تعالى : ﴿ **وهو الذي يبدؤوا الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم** ﴾(٣).

فهذا الإيمان ، وهذا الاعتقاد في بعث مَنْ في القبور ليوم الحساب يؤثر في سلوك العبد المؤمن مع ربه وكل من حوله ، فهو يخاف هذا اليوم ، ويعمل لهذا الموقف فيكون صالحاً في نفسه ، مصلحاً لغيره ، ويَعُمُّ الصلاح

---

(١) النساء (٥٦) .
(٢) الذاريات (٥٦) .
(٣) الروم (٢٧) .

والإصلاح في الأرض على مستوى الأفراد والجماعات ، بل على مستوى الأمة كلها ، فالكل يخشى عذاب وعقاب [العزيز الحكيم يوم يبعث من في القبور] ، والكل في شوق وتلهُّف لجنات عرضها كعرض السماء والأرض ، وذلك بعد بعث مَنْ في القبور ، ومحاسبة العزيز الحكيم لجميع خلقه .

٨ ـ أن يتعبَّد العبد المسلم [للعزيز الحكيم] وذلك [بطلب الهداية] منه ـ سبحانه وتعالى ـ ولا يطلبها من غيره ، فلا يملكها إلاَّ صاحب العز ة المطلقة الكاملة ، وصاحب الحكمة التامة البالغة . قال تعالى : ﴿ **فيضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وهو العزيز الحكيم** ﴾(١) .

٩ ـ أن يتعبَّد العبد المسلم للعزيز الحكيم [بطلب الرحمة] منه ـ سبحانه وتعالى ـ فإنه هو الرحيم الذي يرحم عباده ، على ما يتصف به من القوة والقدرة المطلقة والكاملة ، ولكن هذه القوة ، وتلك المقدرة ، وقدرته على الخلق ما تزيده إلاَّ رحمة بعباده ، فإن رحمته ـ جلَّ في علاه ـ سبقت عقابه وانتقامه، ورحمته قريبة من عباده المؤمنين الموحِّدين المتعبِّدين له ـ جلَّ في عليائه ـ قال تعالى : ﴿ **أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم** ﴾(٢) .

١٠ ـ أن يتعبَّد العبد المسلم للعزيز الحكيم وذلك [بطلب المغفرة] من صاحب العزة والحكمة ، الذي يملك بعزته تعذيب من شاء من عباده ، والذي يملك وفقاً لحكمته أن يغفر لمن شاء من عباده ، فالخلق خلقه ، والأمر أمره، والكل

---

(١) إبراهيم (٤) .

(٢) التوبة (٧١) .

وفق عزته وحكمته ، ولمَّا عَلِمَ ذلك عباده الموحِّدين تعبَّدوا له ، وطلبوا منه بعزته وحكمته أن يغفر لهم ذنوبهم ، ويجريهم من عذابه ، وينعِّمهم في جناته .

قال تعالى عن عدائهم له : ﴿ واغفر لنا ربنا إنك أنت العزيز الحكيم ﴾[1].

وقال تعالى على لسان نبيه ورسوله عيسى - ﷺ - : ﴿ إن تعذبهم فإنهم عبادك ، وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ﴾[2].

١١ - وأخيراً فإنه ينبغي علي العبد المسلم المتعبِّد [للعزيز الحكيم] بهذين الاسمين الحسنيين ، وهاتين الصفتين الحميدتين أن يُحقِّق كمال العبودية لله تعالى ، وأن يُخْلص له تلك العبودية في الظاهر والباطن ، ولن يتأتى ذلك للعبد إلاَّ إذا تعبَّد لله تعالى بأسمائه الحسنى ، وصفاته العليا .

قال العلامة ابن القيم - رحمه الله - :

((وجماع الأمر في ذلك إنما هو بتكميل عبودية الله - عزَّ وجلَّ - في الظاهر والباطن ، فتكون حركات نفسه وجسمه كُلُّها في محبوبات الله ، وكمال عبودية العبد وموافقته لربه في محبَّته ما أحبه ، وبذل الجهد في فعله وموافقته في كراهة ما كرهه ، وبذل الجهد في تركه . وهذا إنما يكون للنفس المطمئنة ، لا للأمارة ولا للوَّامة ، فهذا كمال من جهة الإرادة والعمل .

---

(١) الممتحنة (٥) .

(٢) المائدة (١١٨) .

أما من جهة العلم والمعرفة فأن تكون بصيرته منفتحة في معرفة الأسماء والصفات ، والأفعال ، له شهود خاص فيها مطابق لما جاء به الرسول - ﷺ - لا مخالف له، فإن بحسب مخالفته له في ذلك يقع الانحراف ويكون ذلك قائماً بأحكام العبودية الخاصة التي تقتضيها كل صفة بخصوصها ، وهذا سلوك الأكياس الذين هم خلاصة العالم ، والسالكون على هذا الدرب أفراد من العالم .

طريق سهل قريب موصل ، طريق آمن ، أكثر السالكين في غفلة عنه ، ولكن يستدعي رسوخاً في العلم ، ومعرفة تامة به .....))(١) .

هذا ما أردت التنبيه عليه ، سائلاً المولى - عزَّ وجلَّ - أن يتقبل صالح أعمالنا ، وأن يتجاوز عن الزلَّل والخطأ ، إنه ولي ذلك والقادر عليه ، كما أسأله سبحانه وتعالى أن يرزقنا كمال العبودية له ، وحسن التعبُّد له بأسمائه الحسنى وصفاته العليا ، وأن يجعل عملنا كله صالحاً ، ولوجهه خالصاً ، ولا يجعل لأحد فيه شيئاً ، وأن يرزقنا الإخلاص في الظاهر والباطن ، كما أسأله - سبحانه وتعالى - أن يجعل هذا الكتاب في موازين حسناتي يوم ألقاه، وأن يجعله لي ستراً من النار، وأن ينفع به المسلمين والمسلمات، وأن يكون لبنة صالحة ونافعة في صرح التعبُّد لله تعالى بأسمائه الحسنى، وصفاته العليا، والله خير مسؤول، وهو مولانا وحسبنا ، ونعم المولى ونعم النصير، وصلِّ اللهم على سيدنا محمد - ﷺ - وعلى آله وصحبه ومن تبعه إلى يوم الدين .

[وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين]

---

(١) (طريق الهجرتين وباب السعادتين (لابن القيم ص (٣٩٣) .

الفهرس

كتب للمؤلف

١ - البيان في صفات عباد الرحمن

٢ - العقيدة الصافية للفرقة الناجية .

٣ - حقيقة الولاء والبراء في معتقد أهل السنة والجماعة (رسالة ماجستير)

٤ - قبس من هدي النبي ﷺ

سلسلة الولاء والبراء

١ - الولاء الحميم للقرآن الكريم .

٢ - الولاء لدين الله .

٣ - معالم في طريق الإصلاح وإعداد النشء .

٤ - الولاء للمؤمنين أصل من أصول الدين .

٥ - البراء من العصاة والمنافقين .

٦ - البراء من الكفار والمشركين .

٧ - تحذير المسلمين من موالاة المنافقين .

٨ - الولاء المشؤوم لليهود والنصارى .

سلسلة التعبُّد لله بأسمائه وصفاته

١ - لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى .

٢ - وما النصر إلاَّ من عند الله العزيز الحكيم .

٣ - إخلاص العبودية للعزيز الحكيم

٤ - النَّصر والتمكين هبة العزيز الحكيم

« يصدر قريباً إن شاء الله - تعالى - »

[السنن الشرعية وأثرها في تغيير الأنفس والمجتمعات] (رسالة دكتوراة)